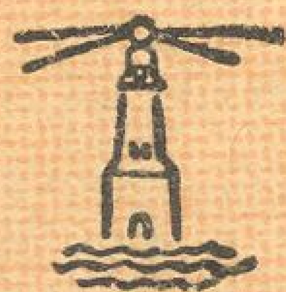
المكتبة التاريخية

العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى

دكتور
جوزيف نسيم يوسف
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

١٩٦٧



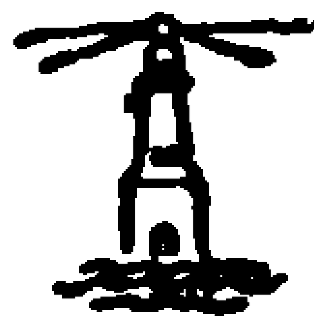
دار المعارف

العرب والروم واللاتين

في

الحرب الصليبية الأولى

دكتور
جوزيف نسيم يوسف
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



دار المعارف

طبعات الـكتاب

الطبعة الأولى ١٩٦٣

الطبعة الثانية ١٩٦٧

مقدمة الطبعة الثانية

حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (يونيو ١٩٦٢) ، كنا نهدف إلى غرضين ، أولهما أن نشارك - جهد الطاقة - فى دراسة جوانب من العدوان الصليبي لم تكن قد أخذت حقها من البحث ، وثانيهما أن نقدم دراسة مركزة واضحة للحملة الصليبية الأولى وما شابها من علاقات بين العرب والروم واللاتين .

واليوم ، وبعد ما يقرب من أربع سنوات ونصف ، نقدم للقارىء العربى الطبعة الثانية من هذا الكتاب . وغنى عن البيان أنه يعرض لموضوع قديم جديد . فهو قديم لأنه يعود بنا إلى عصر التوسع الصليبي الذى تعرض له العالم العربى من محيطه إلى خليجه منذ عدة قرون .. وهو موضوع جديد لأن الوقت الآن أكثر تطلبا لمثل هذا الدرس ، ذلك أن المأساة البشرية التى مارسها الاستعمار فى فلسطين بإقامة إسرائيل هناك فى هذا القرن العشرين ، إنما تمثل امتداداً طبيعيا للعدوان الصليبى ، ولعله لا يختلف عنه إلا فى الأسلوب الذى يتفق والأوضاع العالمية الجديدة والتيارات المتصارعة فيها . ولقد أثبت الواقع والتاريخ ، كما أثبتت الأحداث التى كان مسرحها العالم العربى منذ القدم حتى يومنا هذا أن كلا من الحركتين : الحركة الصليبية والحركة الصهيونية فى فلسطين ، إنما تمثل حلقة من حلقات الاستعمار الذى تعرضت له المنطقة العربية على مر العصور . وكانت التجربة الأولى هى التجربة الصليبية موضوع هذا البحث ، والتجربة الثانية هى التجربة الصهيونية . وهذه حقيقة كشفت عنها أحدث البحوث التاريخية المحايدة المنزهة عن الميول والأهواء .

وتأتى هذه الطبعة الجديدة مزيدة منقحة .. منقحة بما تلافيناه من هنات

مطبعية تكشفت بعد الطبعة الأولى ... ومزيدة بما أضفناه إليها من مصادر ومراجع أخرى عديدة أفدنا منها ويبدو أثرها واضحا فى مختلف فصول البحث الذى زودناه أيضا بملاحق تتضمن مجموعة من الوثائق والنصوص التاريخية الأصلية التى قمنا بنقلها إلى العربية مع تذييلها ببعض الهوامش الإيضاحية . وهى تسلط الأضواء على الفكرة الصليبية بما تنطوى عليه من اتجاهات توسعية استعمارية فى كل من العالم العربى ودولة الروم ، ومعارضة الرأى العام الغربى لها . كما تكشف عن طبيعة العلاقات التى قامت بين العرب والبيزنطيين وأهل الغرب اللاتينى خلال الحملة الأولى ، والآثار التى ترتبت عليها فى الحقب التالية .

وإنى إذ أتقدم بهذا الجهد ، إنما أشارك زملاء أفاضل لى يعملون فى هذا الميدان الهام ، ويثرون المكتبة العربية بما يزودونها به من نتاج بحوثهم ودراساتهم الجادة الهادفة .

والله الموفق للصواب ؟

جوزيف نسيم يوسف

الاسكندرية فى نوفمبر ١٩٦٧

مقدمة الطبعة الأولى

تعتبر الحركة الصليبية من الحركات العالمية الخطيرة التي عني بها الكتاب والمؤرخون في الشرق والغرب عناية لم تنلها حركة أخرى حتى وقتنا هذا . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ما لها من طابع خاص وأهمية بالغة في تطور سير الأحداث ، وفي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، فضلا عن ارتباطها الوثيق بحركة التوسع والاستعمار في العصر الحديث .

لقد تناول هذه الحركة بالبحث والتحليل كثير من الكتاب المحدثين الذين استهدفوا تتبع حملاتها ، وسرد وقائعها وأحداثها ، ودراسة أسبابها ومسبباتها ، والتعرف على آثارها ونتائجها عبر القرون الطويلة . ولا تزال دور المطابع تدفع الينا العديد من الكتب في هذا الموضوع تحمل وجهات نظر متباينة . ومن هذه المؤلفات ما يحوى بين دفتيه أحداث قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان ، وهي الفترة التي شغلتها تلك الحركة ، ومنها ما تناول فصلا من فصولها أو حملة من حملاتها . وقد آثر بعض الكتاب الايجاز دون اخلال ، فاستعرضوا تاريخ الحركة من بدايتها إلى نهايتها في كتب صغيرة . ومن هؤلاء ن. يورجا، وارنست باركر ، ولويس برييه . ومنهم من أفرد لها مجلدات ضخمة امثال ويلكن ، وميشو ، ورينيه جروسيه ، وستيفن رانسيمان ، والمجموعة التي تشرف عليها جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية وهي تقع في خمسة اجزاء ظهر منها حتى الآن الجزءان الأول والثاني .

ولكن مما يؤسف له أن معظم من كتب عن الحروب الصليبية من أهل الغرب ، انما يعبرون عن وجهة نظر غربية . وعلى هذا جاءت كثير من آرائهم

بعيدة عن الحقيقة ، ويبدو فيها تحيزهم الصريح لبنى جنسهم الذى يبلغ أحيانا حد التعصب والشطط . ويظهر هـذا بوضوح فى كتابات مؤرخين امثال رينيه جروسيه ودانيال روبس ورهرشت . وعلى هـذا أصبح من واجب الباحث المنصف المدقق ، تناول مختلف الروايات بالحيطة والحـذر ، وتحرى الحقيقة البحتة ، ومحاولة الـكشف عنها . ومن حسن الحظ أن الـكتاب العرب بدأوا منذ سنوات قلائل يدلون بدلوهم فى هذا الميدان الخصيب . فظهرت عشرات الـكتب العربية والمعربة التى تناولت الحركة الصليبية كلها أو أحد أبوابها ، فيها عمق ونقد ودراسة وتحليل . ومن حسن الحظ أيضا أن ثورتنا العربية المباركة تبسط يدها للعلماء والمتعلمين فى أرض العروبة ، مما كان له أكبر الأثر فى خروج هذه المؤلفات القيمة التى نحن أحوج ما نـكون إلى أمثالها ، إلى حيز الواقع .

وجدير بالذكر أن الحملة الصليبية الأولى كانت أوفر حظا من غيرها ، إذ تناولها الـكتاب بالبحث بمختلف اللغات . فقد تبلورت فيها الفـكرة الصليبية نفسها ، كما حققت من النتائج ما لم تحققه أى حملة أخرى ، وترتبت عليها من الآثار الخطيرة ما لا تزال حقيقة ماثلة حتى عصرنا هذا .

ومع ذلك لا نجافى الحقيقة إذا قلنا ان هذه الحملة لا زالت تحتمل الـكثير من البحوث والدراسات الجادة الصادقة البعيدة عن الميل والهوى . والمجال لا يزال متسعا للمتخصصين فى هذا الميدان الفسيح ، بتسليط الأضواء عليها واستجلاء بعض غوامضها . فقد اختلفت فيها الروايات التاريخية اختلافا بينا . وهناك من هذه الروايات ما تبدو وكأنها حقيقة لا يرقى اليها الشك ، لا سيما المصادر اللاتينية التى كتبها المعاصرون لتلك الفترة . ونجد كثيراً من المؤرخين الغربيين المحدثين يروجون لها وينشرونها تحقيقا لأغراض معينة ، مما يبعد بها وبهم عن الأمانة التاريخية . وهكذا يتناقلها الزمن جيلا بعد جيل دون تروٍ أو تمحيص .

وان مثل هذه الروايات فى حاجة ملحة إلى مناقشة ونقد وتعليق ، للكشف عما فيها من زيف أو افتعال ، مقصود أو غير مقصود .

إذن ، فليس الهدف من هذه الدراسة تكرار أو استعراض ما سبق ذكره فى مؤلفات الآخرين ، أو الدخول فى تفصيلات المعارك والوقائع التى أفاض المؤرخون فى ذكرها . فهى ـ وان كان الوضع هكذا ـ لا تعدو أن تكون ترديدا لكلام معاد . انما أصبحت مهمتنا الوقوف أمام الأحداث والقضايا والمشاكل الهامة التى تتعلق بالحملة الصليبية الأولى ، وبالفكرة الصليبية نفسها ، وصلتها بتاريخنا القومى ، وهى التى تناولها كتاب الغرب من زاوية غربية حسبما أسلفنا ، ثم العمل على تحليلها ونقدها واستنباط الحقيقة التاريخية منها ، تلك الحقيقة التى هى فوق كل اعتبار وأسمى من كل شىء .

وقضايا الحملة الصليبية الأولى متعددة متشابكة متداخلة فى بعضها ، نذكر منها على سبيل التمثيل الدافع الشخصى فى قيامها ، وأثر العامل الدينى فى تهيئة الجو والأذهان لها ، ثم اتجاهاتها التوسعية الاستعمارية فى العالم العربى . وموقف اللاتين الكاثوليك وهم أهل الغرب الأوروبى من الاغريق البيزنطيين وهم المسيحيين الارثوذكس ، قبل الحملة الأولى وفى اثنائها ، مع تتبع الآثار المترتبة على العلاقات التى قامت بينهما . وكذلك العلاقات العربية البيزنطية الصليبية وتفاعلها فيما بينها ، ودراسة فكرة الوحدة العربية وحركات البعث واليقظة بين العرب ابان العدوان الصليبى . وغير هذه وتلك من المسائل التى حاولنا جهدنا معالجتها من واقع المصادر والأصول المعاصرة لتلك الفترة ، بغية الوصول إلى أسلم النتائج وأصوبها .

والله ولى التوفيق ؟

الاسكندرية فى أول يونيو ١٩٦٣ — المؤلف

الفصل الأول

مصادر الحملة ومنابعها

دراسة تحليلية مقارنة

للحملة الصليبية الأولى أهمية كبيرة . فهى تلقى ضوءا على تاريخ العلاقات القائمة بين اللاتين والعرب من ناحية ، وبين اللاتين والروم البيزنطيين من ناحية أخرى . وتعتبر هذه الحملة بالذات فصلا من الفصول الهامة فى تاريخ الحركة الصليبية، كتب فيها الكتاب والمؤرخون فى الشرق والغرب فى مختلف العصور. ورغم ما كتب فى هذا الموضوع ، نستطيع أن نقرر أنه لم يدرس بعد دراسة وافية من كل جوانبه وزواياه ، ولا زال يحتمل بحوثا واسعة تجمع بين العلم بأصوله ومنابعه ، الشرقية والغربية ، العربية والبيزنطية واللاتينية ، على قدم المساواة ، سعيا خالصا وراء الحقيقة التاريخية المطلقة .

ولا شك أن ما اعترى الكتابات التاريخية فى هذا الحقل الفسيح من قصور ولبس فى بعض النواحى ، إنما يرجع إلى أن الكتاب الغربيين المحدثين جنحوا إلى الاعتماد على شق واحد من أصول البحث أكثر من اعتمادهم على الشق الآخر إما لجهلهم به أو لتعمدهم ذلك ؛ فانطبع استعراضهم السريع المبتور لبعض مشاكل البحث بطابع التحيز وأنصاف الحلول . وعلى ذلك أصبح واجبنا عند سرد تاريخ العلاقات بين العرب والروم واللاتين خلال الحملة الصليبية الأولى، ينحصر فى معالجة أحداث هذه الفترة وظروفها ومشاكلها من كلتا الناحيتين الشرقية والغربية لسد هذا الفراغ. فعمدنا فى دراساتنا إلى الموازنات التاريخية التى استقيناها من تآليف المعاصرين لهذه الفترة من حوليات ومراسلات ووثائق رسمية بعضها

لايزال مخطوطا لم ينشر بعد ، والبعض الآخر لايزال بلهجته الأصلية التى دون بها .

والواقع أن المصادر الأصلية المعاصرة التى رجعنا اليها ضربان : لاتينية وبيزنطية . هذا بالإضافة إلى المنابع العربية المتأخرة نسبيا عن هذه الحقبة ، والتى لم تمدنا لسوء الحظ بما يشفى الغلة فى هذه الناحية .

وعلى أى حال ، نخص بالذكر من النوع الأول بعض الذين اشتركوا فى الحملة من اللاتين وكانوا شهود عيان لأحداثها مثل المؤرخ المجهول ، وريمون داجيل ، وفوشيه ده شارتر ، وراتين ده بلوا ؛ وغيرهم ممن لم يشتركوا فيها ، ولكنهم حفظوا لنا أخبارها التى كانت ترد إليهم عن طريق الرواة والحجاج وشهود العيان فى كتب لازالت باقية إلى اليوم .

ويعتبر المؤرخ المجهول (١) من المصادر الأساسية التى لاغنى عنها فى تاريخ

---

(١) هو مؤرخ حملة بوهيمند النورماندى ، وقد ألف كتابه باللاتينية تحت اسم Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum أى «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» ، وظهرت له طبعات عديدة أهمها :

a) Bongars, Gesta Dei per Francos, 1, 1-29.

b) Hagenmeyer, H., Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum, 2 Vols. Heidelberg, 1889-1890.

c) Bréhier, L., Histoire Anonyme de la Première Croisade. Paris, 1924.

وقد اعتمدنا فى هذا البحث على طبعة هاجنماير . وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين كانوا حتى وقت قريب يعتقدون أن المؤرخ المجهول نقل عن شخص آخر يدعى تيد بوده ، أواختصر كتابه . أنظر من ذلك Michaud, Bib. des Crois., I, 24-5. كما وقعت مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية فى هذا الخطأ ؛ إذ اعتبرت تيد بوده هو المصدر الأساسى الذى استقى منه المجهول معلوماته . انظر الجزء الثالث من المجموعة المذكورة تحت اسم : =

الحملة الصليبية الأولى فى الفترة الممتدة من سنة ١٠٩٥ إلى سنة ١٠٩٩ م ؛ أى منذ قيام الحملة من الغرب حتى الاستيلاء على بيت المقدس وتأسيس المستعمرات اللاتينية فى الشرق . وللكتاب أهمية خاصة ، إذ كان مؤلفه شاهد عيان لمعظم المعارك والأحداث التى دارت رحاها فى الشرق العربى فى ذاك الحين. كما كان عليما بما يدور فى مجالس النبلاء ، مما يؤيد الرأى القائل بأنه كان فارسا رفيع القدر . ولسنا نعرف كثيرا عن سنى حياته الأولى وعن اسمه . ويحتمل أنه كان من فرسان مملكة النورمانديين بجنوب إيطاليا . ونستدل على ذلك مما كتبه هو نفسه عن المعارك التى اشترك فيها ، وعن سيده بوهيمند النورماندى أحد زعماء الحملة الأولى(١) . فقد كان يقرن اسم بوهيمند وابن اخته تنكريد بأوصاف تدل على احترامه الشديد لهما .

والمتصفح لهذا الكتاب يدرك على الفور أن شخصا ثانيا اشترك مع المجهول فى تأليفه . إذ نلاحظ وجود أسلوبين متميزين عن بعضهما تماما . أولهما أسلوب ضعيف ركيك بعيد كل البعد عن اللاتينية الكلاسيكية، ويمثل أصدق تمثيل لاتينية العصور الوسطى المبكرة ، ويدل على أن كاتبه لم ينل حظا وافرا من التعليم . ويلاحظ أن مؤلف هذا الجزء من الكتاب قد دون معظم الحوادث التاريخية

= Tudebodus abbreviatus . وقد تم تصحيح هذا الخطأ فى مقدمة الجزء الرابع من المجموعة . راجع عن ذلك أيضاً :

Cahen, La Syrie du Nord, p. 8 & n. I, 5; Molinier, II, 280 — 1.

(١) أنظر : Michaud, Bib. des Crois., I, 24-5 — وللمزيد من المعلومات عن سيرة المؤرخ المجهول ومؤلفه ، أنظر ما كتبه كل من هاجيماير وبرييه فى كتابيهما المشار إليهما فى الحاشية السابقة . وراجع أيضـــا السيد الباز العرينى : مؤرخو الحروب الصليبيـة ، ص ٢٦ — ٣٧ .

التي شاهدها بنفسه أو التي اشترك فيها بشخصه . وعلى هذا فإن القسم الأول من الكتاب المذكور يتضمن المادة الأساسية التي تهمنا بالنسبة لموضوع البحث . وهى تكشف عن دوافع اللاتين فى قيامهم بحركتهم ، وطبيعة العلاقات التى قامت بينهم وبين البيزنطيين ، ووجهة النظر الغربية حيال الأحداث التى كان الشرق الأوسط العربى مسرحا لها وقتذاك . وتكاد تجمع الآراء على أن مؤلف هذا القسم هو ذلك الفارس المجهول الاسم الذى اشترك فى الحملة مع بوهيمند النورماندى. أما القسم الثانى من الكتاب فهو مدون بأسلوب اكثر نقاء وبلاغة وأشد عمقا وتعقيدا من سابقه ، ولعله اسلوب المدارس التى كانت قائمة فى ذاك العصر . ويبدو أن مؤلفه كان من رجال الدين ، إذ يكثر من الاستشهاد فيما كتب بآيات من الكتاب المقدس . ويلاحظ أنه كان يميل فى كتابته إلى الأسلوب الخطابى أكثر من الأسلوب التاريخى . فهو يمدنا بقطع خطابية أدبية تدل على أن موهبته الأدبية تفوق قدرته التاريخية (١) .

ويتضح من مقارنة ما كتبه المؤرخ المجهول وما دونه غيره من اللاتين المعاصرين له ، أن رواياته تمتاز بصحتها ، حتى لقد رجع إليه معظم الذين كتبوا عن هذه الفترة من أمثال روبرت الراهب ، وتيدبوده ، وراؤول ده كان ؛ بل

(١) أنظر: Molinier, II, 281 ـ ويلاحظ أن المؤلف أورد من نسج خياله كثيراً من الخطب التى ينسبها إلى الأتراك . ويحتمل أن بعض الفصول قد أضيفت إلى الكتاب فى فترة متأخرة ، وخاصة الفصل السابع والعشرين الذى انحاز فيه المؤرخ المجهول صراحة إلى جانب سيده بوهيمند ضد الامبراطور الكسيس كومنين حينما اشتد العداء بينهما فى الفترة الواقعة بين عامى ١١٠٣ و ١١١١م . ولعله كتب بقصد الدعاية لبوهيمند ضد الامبراطور البيزنطى . وكذلك الفصل الأخير من الكتاب الذى يصف فيه المؤلف مدينة أنطاكية . أنظر عن ذلك كتاب : Cahen, op. cit., 8-10 & notes.

لقد نقل بعضهم عنه نقلا حرفيا (١) ، وكان النقل يعتبر أمرا مألوفا فى ذلك الحين. وهذا يدل على أن الكتاب كان موجوداً ومنتشراً بعد استيلاء الصليبيين على البيت المقدس . ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أن كتابات المجهول وغيره من بنى جلدته كانت تتسم بصفة عامة بطابع التحيز ضد المسيحيين الاغريق ، وطابع الحقد والتعصب ضد العرب .

وهناك مصدر لاتينى آخر لا يقل عن سابقه فى أهميته التاريخية ، وهو « تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس » (٢) لمؤلفه ريمون داجيل Raimond d'Agiles الذى عاصر هو الآخر تلك الأحداث وكان شاهد عيان لها . ويعتبر ريمون من اوائل الذين كتبوا عن حملة ١٠٩٥ . فقد اشترك هو وأدهيمار أسقف مدينة بوى Puy مع جيش ريمون ده سان جيل كونت تولوز ، ورافقاه منذ قيامه من جنوب فرنسا حتى موقعة عسقلان بعد انتهاء

---

(١) وللكتاب المذكور ، فضلا عما تقدم ، أهمية كبرى فى دراسة النظام الاقطاعى فى المجتمع الغربى الوسيط فى أخريات القرن الحادى عشر ، والعملة التى كانت مستعملة وقتذاك ، وفى معرفة قواعد اللغة اللاتينية الوسيطة وأصولها .

(٢) ألف ريمون كتابه باللاتينية تحت اسم Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem ، وقد أهداه إلى أسقف مدينة فيفييه Viviers . والكتاب منشور فى مجموعه بونجار ، الجزء الأول ، ص ١٣٩ — ١٨٣ ؛ وفى الجزء الثالث من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) ص ٢٣١ — ٣٠٩ . ونعرف عن مؤلف الكتاب أنه كان راعياً لكنيسة كونت تولوز الذى اصطحبه معه فى الحملة على الشرق . والقارىء لهذا الكتاب يدرك أن مؤلفه كان يدافع عن سيده دفاعا مجيدا ، كما كان ينتحل له مختلف الأعذار إذا أخطأ أو تهاون فى أمر من الأمور ، وهو إلى جانب ذلك يتحدث عنه فى تقدير واحترام زائدين ، إذ يكتفى عندما يتعرض له فى معظم الأحيان بقوله « الكونت » دون حاجة إلى ذكر اسمه فهو فى نظره فى غنى عن التعريف . ولانجافى الحق إذا قررنا أن كتاب ريمون هذا هو فى واقع الأمر تاريخ حياة كونت تولوز نفسه وقصة اشتراكه فى الحملة الصليبية . انظر :

Cahen, op. cit., 7,8 n. 3.

الحملة الأولى . كما ساهم ريمون بنصيب فى المعارك التى دارت رحاها فى هذه المنطقة . وكان بحكم مركزه من المقربين إلى كونت تولوز ، وعلى علم تام بما كان يدور فى مجالس زعماء الفرنج ، مما أضفى على كتابه أهمية خاصة .

ولهذا الكتاب قصة تتلخص فى أن ريمون بدأ بتسجيل أحداث الحملة بالاشتراك مع أحد فرسان كونت سان جيل واسمه بونس ده بلازون Ponce de Balazun ؛ واهتما بصفة خاصة بتدوين الأحداث التى تتعلق بكل من كونت تولوز والأسقف أدهيمار. وبعد عودة ريمون إلى فرنسا أتم بمفرده الكتاب بعد أن لقى زميله بلازون حتفه فى الشرق سنة ١٠٩٩ .

ويذكر المؤرخ ميشو أن ريمون استهدف من وضع كتابه هدم الأكاذيب التى نشرها فى الغرب الأوروبى أولئك الذين فروا من ميدان القتال فى الشرق عائدين إلى بلادهم ، حيث أخذوا يبثون الدعايات بقصد منع أهل الغرب من الذهاب لمساعدة اخوانهم فى الشرق (١) .

ولهذا المصدر أهميته فيما يتعلق بالمعلومات العامة المتعلقة بالحركة الصليبية ، وعلاقة كونت تولوز بالامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين . وقد وقف ريمون - مثل المؤرخ المجهول - إلى جانب سيده ضد البيزنطيين عندما ساءت العلاقات بين الطرفين ، مما يكشف عن وجهة نظر اللاتين الكاثوليك حيال المسيحيين الاغريق وقتذاك ؛ وهذا أمر لا يمكن إغفاله عند التعرض للموضوع . كما أنه خصص جانبا كبيرا من مؤلفه للدفاع عن الرؤيا الدينية التى ظهرت لأحد الصليبيين واسمه بطرس برثولماوس اثناء حصار كربوغا حاكم الموصل للفرنج داخل

---

(١) Michaud, Bib. des Crois., I, 42.

انطاكية ، وتأكيد الرواية القائلة بأن الحربة التى عثر عليها فى انطاكية هى الحربة الحقيقية التى طعن بها المسيح فى جنبه. وهذه اسطورة قيمتها التاريخية موضع كثير من الشك، شأنها شأن الروايات والأساطير والتنبؤات الدينية التى شاعت فى الغرب الأوروبى وقتذاك بقصد حث اللاتين على الانخراط فى سلك الحركة الصليبية .

وقد وضع ريمون كتابه بلغة لاتينية رديئة ، اذ كان محدود الثقافة والتعليم. وليس من السهل تتبع طريقة معالجته للأحداث بسبب غموضها . ويعزى هذا العيب فى الغالب إلى تردد المؤلف فى سرد الأحداث حتى لا يقع - كما قال هو عن نفسه - فى أخطاء تقلل من قيمة الكتاب . والمتصفح له يدرك أيضا أن صاحبه كان يقبل كل ما يسمعه أو يروى له كحقيقة ثابتة ؛ ولذلك يجب عند استخدامه توخى الحرص والحذر (١) .

ومن المؤرخين الغربيين الذين يتناولون بالكلام أحداث هذه الفترة يجب أن نذكر فوشيه ده شارتر Foucher de Chartres ، (٢) الذى ذهب هو الآخر

---

(١) Molinier, II, 283-4. - ويلاحظ أن هذه العيوب التى سجلها المؤرخون على كتاب ريمون لا تقلل من أهميته ؛ ويكفى أنه كان من المصادر الرئيسية التى اعتمد عليها وليم الصورى فيما كتبه عن الحرب الصليبية الأولى . انظر :

Michaud, Bib. des Crois., I, 50.

(٢) ولد فوشيه بمدينة شارتر بفرنسا سنة١٠٥٩ وأصبح كاهنا بها ، وكانت بها وقتذاك مدرسة لها شهرتها فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية ، فى وقت ازدهرت فيه المعارف والعلوم فى غربى أوروبا عقب النهضة الكنسية المعروفة فى أوائل القرن الحادى عشر . ويبدو من مؤلفه أنه شاهد مؤتمر كليرمون الكنسى سنة ١٠٩٥ ، إذ تحدث عنه فى مستهل كتابه حديث الخبير العارف بما دار فيه من مناقشات وما اتخذ فيه من قرارات ؛ كما أورد الخطبة التى ألقاها البابا أربان الثانى فى المؤتمر المذكور والتى دعا فيها إلى حمل الصليب . ولو أنه لايمكن البت بصفة حاسمة إن كانت الخطبة التى أوردها فوشيه هى النص الحرفى للخطبة التى ألقاها البابا أربان الثانى أم لا ؛ ذلك لأن بعض المؤرخين المعاصرين الذين أشاروا إلى مؤتمر كليرمون أوردوا هذه =

إلى الشرق مع جيش روبرت كونت نورمانديا واتين كونت بلوا وشارتر . وقد شاهد معظم المعارك التى دارت رحاها بين الافرنج والأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى ، ومنها حصار مدينة نيقية والاستيلاء عليها . وحضر غير ذلك من المعارك التى دارت رحاها فى آسيا الصغرى ، ثم انفصل عن الجيش الصليبى الرئيسى قبل الاستيلاء على مدينة انطاكية ، حيث لازم بلدوين شقيق جودفرى ده بويون دوق اللورين السفلى فى فترة توليه إمارة الرها ، وأصبح خادم كنيسته الخاصة . واشترك معه فى جميع المعارك الحربية التى خاضها . كما اصطحبه بلدوين عندما استدعى لتتويجه ملكا على بيت المقدس بعد موت جودفرى ، وظل ملازما له حتى وفاته سنة ١١١٨ م . ولكتابه أهمية خاصة فيما يتعلق بتاريخ هذه الفترة من الزمن . فقد اشترك مع سيده فى كثير من الحملات ، منها حملة وصلت حتى البحر الأحمر ، وأخرى بلغت عسقلان . ويبدو من كتابات فوشيه أنه لم يبرز فى بعض هذه المعارك شجاعة كافية . فهو يحدثنا عن الصعاب والأهوال التى كانوا يلاقونها من شدة البرد وقسوة الجوع ووطأة المرض ، فضلا عن اعتداءات الأتراك المستمرة عليهم . (١)

لقد سجل لنا فوشيه مشاهداته فى مؤلفه المسمى « أعمال الفرنجة الحاجين إلى بيت المقدس » (٢) ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول كتبه حوالى

= الخطبة مع اختلاف فى الألفاظ وفى بعض المواضع . وإن كانت الخطبة التى ذكرها فوشيه تتفق فى مجملها ومضمونها مع ما ورد فى المصادر الغربيـة الأخرى . انظر نص الخطبة فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) ، الجزء الثالث ، ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

(١) انظر : Michaud, Bib. des Crois., I, 71.

(٢) اسم الكتاب Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium (1095-1127). — وكان بونجار هو أول من نشره عن مخطوطة ناقصة تنتهى بسنة ١١٢٤ =

سنة ١١٠٥ م وينتهى بموت جودفرى، والقسم الثانى ينتهى بموت بلدوين الأول سنة ١١١٨ م ، أما القسم الثالث والأخير فيستمر حتى سنة ١١٢٧ م التى يتوقف عندها الكتاب فجأة .

وتنحصر قيمة الكتاب فى أن صاحبه لم يدون سوى الأحداث التى شاهدها بنفسه ، أو تلك التى رواها له شهود العيان ، أو التى جمعها من مصادر موثوق بها . وقد أثبتت البحوث التاريخية أن كتاب فوشيه يعتبر مصدر ثقة فى تاريخ تلك الفترة ؛ إذ أبدى وعيا لابأس به ، وفهما دقيقا للموضوعات التى تناولها . ويكفى أن عددا كبيرا من المؤرخين اللاتين المعاصرين له والذين جاءوا بعده ، قد اعتمدوا عليه فى سرد أحداث الحملة الأولى ؛ ومن هؤلاء المؤرخ بودرى ده بورجى الذى أفاد فائدة كبرى من القسم الأول من الكتاب .

ولم يكن فوشيه مجرد كاتب عادى ، فقد زود مؤلفه ببيانات قيمة عن التاريخ الطبيعى . فهو يحيطنا علما بأسماء الأنهار ومنابعها ومجاريها ، وكذلك مختلف الحيوانات التى تعيش فى أرض المعركة بالشرق . ولكن مما يدعو إلى الدهشة أن كاتبا مثقفا مثله لم يذكر شيئا عن أصل وطباع الشعوب والقبائل التى تحدث عنها .

= أنظر: Bongars, I, 381-440 . ثم أعاد ديشسن Duchesne نشره فى طبعة أدق وأوفى عن مخطوطة تنتهى بأحداث سنة ١١٢٧ . وبعد ذلك قام العالم مارتين Martenne بنشره من جديد فى مجموعته المعروفة باسم « النوادر » "Anecdotes" ، وزوده بمقدمة المؤلف نفسه لم ترد فى الطبعتين السالف الاشارة إليهما . وقد صحح مارتين الكثير من الأخطاء ، وملأ بعض الفجوات الناقصة فى الكتاب . ثم نشره بعد ذلك هاجينماير (طبعة هايدلبرج سنة ١٩١٣) . انظر عن ذلك : Cahen, 10-11: Molinier, II, 284; Michaud, I, 72. ـ والكتاب منشور أيضا فى مجموعة R.H.C.—H.Occ., III, 311-485. ، وهى التى اعتمدنا عليها فى بحثنا هذا .

وللكتاب ـ فضلا عما تقدم ـ قيمة لا تنكر فى دراسة تطور علم التاريخ . فقد كان النظام المتبع قبلئذ هو نظام الحوليات . ولكن فوشيه لم يتبع طريقة أصحاب الحوليات القدامى عندما تحدث فى مؤلفه عن تاريخ مدينة صور التى ينتهى بها كتابه . إذ تغيرت كتابة التاريخ فى الغرب منذ ذلك الحين إلى الشكل الذى نعرفه اليوم . ويلاحظ أن أسلوب المؤلف سهل واضح ، وإن كان يستخدم أحيانا أبياتا من الشعر يستعين بها فى تحديد تاريخ بعض الأحداث الهامة ، ولكنها على أى حال لا تعطينا فكرة طيبة عن مقدرته الشعرية . وكان يستخدم فى كثير من الأحيان الألفاظ الضخمة الطنانة التى يبدو فيها الادعاء والتكلف(١).

هذا ويوجد مختصران لبعض أبواب كتاب فوشيه . أولهما يسمى « أعمال الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس » لكاتب مجهول الاسم ، ويتناول تاريخ الحملة منذ قيامها سنة ١٠٩٥ إلى سنة ١١٠٦ م . وقد ذكر هذا المؤلف فى الفصل الثانى من مختصره أنه قام بتلخيص كتاب فوشيه ده شارتر متجنبا الإفاضة والإسهاب ، مقتصرا على سرد الوقائع المتصلة بموضوعه ، وذلك بعد تصحيح ماورد بالكتاب الأصلى من أخطاء . ولكنه أضاف بعض المعلومات الهامة التى استقاها من جهات أخرى . وتم وضع هذا المختصر قبل سنة ١١٠٩م ؛ وهو مكتوب بلغة لاتينية سهلة . ويتشبه الكاتب المجهول بفوشيه ، فيستخدم أحيانا أبياتا من الشعر اللاتينى لتحديد زمن الأحداث التى عرض لها ، وإن كان اسلوبه الشعرى لا يرقى بحال إلى مستوى كتابته النثرية . وينسب العالم بارث Barth هذا المختصر إلى شخص غير معروف يدعى بارتلفوس ده نانجيو Bartolfus de Nangeio. أما المختصر الثانى فيسمى « تاريخ بيت المقدس » ، وهو يتناول الفترة من سنة

---

(١) Molinier, II, 284; Michaud, I, 71, 81.

١١٠٠ إلى سنة ١١٢٤ م . ولم يصل إلينا سوى القسم الثانى منه ، ويشغل الفترة من سنة ١١٠٩ إلى سنة ١١٢٤ م . وينسبه بارث إلى شخص يدعى ليزيار التورى Lisiard de Tours (١) .

ووضع كاتب آخر مجهول الاسم ترجمة مختصرة بالفرنسية القديمة لكتاب فوشيه ده شارتر تحت اسم « تاريخ اورشليم وانطاكية » ، وهى تمتد حتى سنة ١١٢٢ م . وأضاف إليها بعض الأشعار والأساطير ، وذلك نقلا عن مخطوط يرجع إلى أواسط القرن الثالث عشر (٢) .

وهناك مصـــدر لاتينى آخر يجب الإشارة اليه وهو كتاب البرت دكس Albert d'Aix مؤرخ حملة جودفرى دوق اللورين السفلى . ولا نعرف على وجه التحديد الاسم الكامل لهذا المؤرخ ومكان مولده والعصر الذى عاش فيه . وكل مانعرفه أنه كان كاهنا وأمينا لخزينة مدينة اكس Aix . ويبدو من نبذة وردت فى الباب السادس من تاريخ البرت تحدث فيها عن موضوع انتخاب جودفرى ، وعن رؤيا ظهرت لأحد الجنود الصليبيين الألمان ، أن البرت هذا كان من مدينة اكس لاشابل Aix — la — Chapelle الألمانية ، وليس من اكس البروفانسية فى الجنوب الفرنسى . وكان بعض الكتاب القدامى قد

---

(١) Michaud, I, 93-6; Molinier, II, 284. ـ واسم المختصر الأول Gesta Francorum expugnantium Iherusalem ، وهو منشور فى مجموعتى : Bangars, I, 561-593; R. H. C. - H. Occ., III, 487-543. ـ أما المختصر الثانى فاسمه Historiae Iherosolymitanae ؛ وهو منشور فى نفس المجموعتين السابقتين : Bongars, I, 594-625; R. H. C. - H. Occ., III, 545-585.

(٢) أنظر : Molinier, II, 285 ، واسم الكتاب المشار إليه Estoire de Jerusalem et d'Antioche ، وهو منشور فى مجموعة : R.H.C. - H. Occ., V, 621 - 648.

أكدوا عكس ذلك . ويرجح المؤرخ ميشو اتجاهه إلى اكس الألمانية . ومما يؤكد صحة هذا الرأى أن البرت يكثر فى كتابه من الحديث عن منطقة الراين ، ويبدى إعجابه الشديد بجودفرى والصليبيين الألمان . وكل هذا يدل على أنه ألمانى وليس فرنسى (١) . ولا يوجد تحت أيدينا ما يثبت أنه ذهب إلى الشرق ، وإن كان قد أبدى هذه الرغبة فى كتابه المسمى « تاريخ بيت المقدس »(٢) ، الذى

---

(١) أنظر : Michaud, I, 50-1.

(٢) وضع البرت كتابه باللاتينية تحت اسم Historia Hierosolymitana ، وهو يروى قصة الحملة الأولى وتاريخ مملكة اللاتين فى الأراضى المقدسة من سنة ١١٠٣ الى ابريل ١١٢٠ ، ويبدو أنه لم يتمه . وظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٥٨٤م بفضل العالم رينسيوس Reineccius ، ولم يذكر فيها اسم المؤلف ، ثم أعاد بونجار طبعه مع إثبات اسم مؤلفه . انظر التفصيل فى : Michaud, I, 51 . ولم يتضمن كتاب البرت أية إشارة إلى التواريخ التى وقعت فيها الأحداث ، وهو يعتمد على السماع والرواية ، ولهذا وقع فى كثير من الأخطاء التى تتعلق بالزمن والوقائع التاريخية . وكان هذا الكتاب يعتبر حتى وقت غير بعيد من المصادر الرئيسية للحركة الصليبية ، حتى أن وليم الصورى استعان به فيما يتعلق بتاريخ الفترة المتقدمة من هذه الحركة . ومن هنا ظهرت الأسطورة التى تنسب إلى جودفرى الدور الأول فى قيام الحرب الصليبية ، والتى ثبت عدم صحتها فيما بعد . انظر عن ذلك مقالى « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ، مجلة كلية الآداب باسكندرية ، المجلد ١٦ ، ص١٩٧–١٩٨ . وقد تناول العلماء المحدثون كتاب البرت بالنقد والتحليل ، فنجد العالم الألمانى سيبل H. Sybel يهمله ولا يعتبره مصدر ثقة ، ويتهم المؤلف بأنه لا يستند إلى الحقائق التاريخية وإنما إلى معلومات مشوشة . أما المؤرخ كوجلر B. Kugler فقد بذل جهدا كبيرا ليثبت أن البرت دكس نقل عن مصدر مكتوب من تأليف أحد أولئك الذين لازموا جودفرى ، وأنه لهذا السبب لا يمكن الشك فى صحة الروايات التى أوردها . وأشار كوجلر بالاعتماد على الكتاب المذكور ولكن فى شىء من الحرص والتمحيص أما المؤرخ الفرنسى فرديناند شالندون F. Chalandon فقد أنصف البرت عندما أوضح أن بعض البيانات التى ذكرها موثوق بصحتها ، لاسيما ما يتعلق منها بالحملات الشعبية . وكيفما كان الأمر فلا شك أن مؤلف دكس مصدر له قيمته ، وإن كان يجب توخى الحذر عند الإشارة إليه . فهو لا يراعى الدقة أحيانا فيما يكتب ، كما أنه يكثر من ذكر الحوادث الخارقة للطبيعة . وانصافا للرجل نقول إنه كغيره من كتاب ذلك العصر كان يعتقد تماما فيما يكتب . ولهذا لا يمكن اتهامه بالكذب أو المبالغة . أنظر عن ذلك : Cahen, 12-13 & notes.

يعتبر من أفضل الوثائق التى كتبت عن الحملة الأولى. ويبدو أنه استعان بالمصادر المعروفة فى ذاك الوقت ، كما نقل عن أصول أخرى اندثرت ولم تصل الينا ، واستمع إلى عدد ممن اشتركوا فى الحملة ، واطلع على بعض المراسلات والمراسيم المتعلقة بها . ولهذا يعتبر الكتاب من أكثر المصادر التى توجد تحت أيدينا استيفاء لتاريخ الحملة الأولى . فضلا عن أنه يتضمن الكثير من التفاصيل والبيانات التى لم ترد فى تآليف غيره . ولتاريخه قيمة خاصة فيما يتعلق بالحملات الشعبية التى سبقت قيام الجيوش النظامية الى الأراضى المقدسة . وكان البرت يرى أن جيش بطرس الناسك لم يقترف من الآثام والمعاصى مثل تلك التى اقترفها الجيش اللباردى الذى سبقه إلى الشرق ، بينما نجد أن معظم المؤرخين اللاتين قد تناولوا جيش بطرس وتصرفاته بالقدح الشديد .

ولعل أهم ما نخرج به من كتاب البرت هو عدم تحيزه للاتين ضد الاغريق، بعكس زملائه من أهل الغرب ، وبخاصة المؤرخ المجهول . بل نراه فى كثير من الأحيان يعترف بالخدمات الجليلة التى أسداها الامبراطور البيزنطى الكسيس للفرنج اثناء مرورهم عبر أراضيه وعند تقدمهم فى آسيا الصغرى .

وتاريخ البرت دكس مكتوب بأسلوب سهل عادى . ومع أن لغته لم تكن ممتازة ، الا أننا نلمس بين ثناياها الحقيقة العارية دون تنميق ؛ بالاضافة إلى بعض التفصيلات اللاذعة . ولعل موضع النقد الذى يؤخذ على البرت هو أنه لم يعن إطلاقا بتحديد تواريخ الأحداث التى رواها (١) .

وفى معرض الحديث عن الكتاب الغربيين الذين عاصروا أحداث الحملة الصليبية الأولى وإن لم يكونوا شهود عيان لها ، يجب أن نذكر ستة هم : بطرس

(١) انظر : Michaud, I, 51, 70-1

تيدبوده Pierre Tudebode ، وروبرت الراهب Robert le Moine ، وبودرى ده بورجى Baudri de Bourgueil ، وجيبرت ده نوجان Guibert de Nogent ، ورأؤول ده كان Raoul de Caen ، واكهارت دورا Ekkehart d'Aura ، وكافارو الجنوى Caffaro ، وجوتييه المستشار Gauthier le Chancelier . فقد تركوا لنا كتبا لها قيمتها ووزنها ولاتزال باقية إلى اليوم . علما بأن بعض هؤلاء الكتاب قدموا إلى الأراضى المقدسة بعد انتهاء الحملة ، ونخص بالذكر راؤول ده كان الذى كان موجودا فى فلسطين سنة ١١٠٧ وعمل عند تنكريد ، وكذلك اكهارت دورا الذى قدم إلى الشرق سنة ١١٠١ .

ألف أول هؤلاء وهو تيدبوده كتابا اسمه « تاريخ الرحلة الى بيت المقدس » ، تناول فيه أحداث الفترة من ١٠٩٥ إلى ١٠٩٩ م . ويلاحظ أنه اكتفى بنقل كتاب المجهول مؤرخ حملة بوهيمند النورماندى ، بعد أن أضاف اليه بعض الفقرات التى ربما يكون قد استقاها إما من كتاب ريمون داجيل أو من جهة أخرى غير معروفة . ويرجح أنه وضع كتابه فى الفترة الواقعة بين عامى ١١٠٢ و ١١١١ م .(١)

أما روبرت فقد كان راهبا بدير القديس ريمى Saint-Remi فى ريمز Reims بفرنسا ، ثم أصبح رئيسا لهذا الدير عام ١٠٩٤ م . وبعد ذلك صدر ضده قرار الحرمان الكنسى ، وطرد من الدير حوالى عام ١٠٩٦ / ١٠٩٧ م ، فالتجأ إلى دير سنوك Senuc فى مارموتييه بفرنسا ليقضى هناك بقية أيام

---

(١) أنظر : Molinier, II, 281 وقد ألف كتابه باللاتينية باسم Historia de Hierosolymitano itinere ، وهو منشور فى الجزء الثالث من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) ص ٣ — ١١٧ .

حياته (١) . وفى هذا الدير انكب على تدوين كتابه . ومسألة ذهابه إلى الأراضى المقدسة مجرد احتمال يحتاج إلى الدراسة والاستقصاء (٢) ، إذ ليس هناك ما يؤكد أنه توجه مع الحملة إلى الشرق . وتاريخ وفاته غير معروف بالضبط ، وإنما يظن أنه حوالى سنة ١١٢٢ م .

وقد ألف كتابه المسمى « تاريخ بيت المقدس » (٣) أثناء إقامته فى دير سنوك حسبما أسلفنا . وكان هدفه اتمام كتاب المؤرخ المجهول بأسلوب رفيع ، نظرا لما امتاز به أسلوب الكاتب المجهول من ضعف وركاكة . ويروى الكتاب

---

(١) يذكر ميشو أن سبب طرد روبرت من دير القديس ريمى يرجع إلى أن رهبان الدير المذكور اتهموه أثناء تغيبه فى الشرق بتبديد أموال الدير فى سبيل الانفاق على رحلته . وقد تم عزله من رئاسة الدير خلال وجوده بالشرق . وبعد عودته إلى بلاده أقام فى دير سنوك . انظر : Michaud, I, 25-6

(٢) اختلفت آراء المؤرخين حول مسألة ذهاب روبرت الراهب الى الشرق . فقد أوضح هو نفسه فى كتابه أنه كان يود زيارة الأماكن المقدسة . ويذكر ميشو أنه توجه للحج فعلا فى السنة التالية لعقد مؤتمر كليرمون ؛ كما كان موجودا عند حصار بيت المقدس وواقعة عسقلان . انظر : Michaud, I, 25 . أما مولينيه فيرجع ذهابه إلى الأراضى المقدسة حوالى سنة ١١٠٠م . انظر : Molinier, II, 282

(٣) ألف كتابه باللاتينية واسمه Historia Iherosolimitana .وهو يعتبر من أوائل الكتب التى صدرت فى باريس عقب اختراع الطباعة. وطبعته الأولى مليئة بالأخطاء ؛ وقد صدرت فيما بين عامى ١٤٧٠ و ١٤٧٢م ؛ وهى بدون تاريخ وبدون ذكر اسم الدار التى تولت نشره . وظهرت بعد ذلك طبعة ثانية فى مدينة بال Bâle بسويسرا سنة ١٥٣٥م؛ وفيها هى الأخرى أخطاء عديدة . ولم يقم العالم بونجار بنشر كتاب روبرت إلا بعد مراجعة هاتين الطبعتين مراجعة دقيقة ، كما اعتمد على ثلاثة مخطوطات أخرى لهذا الكتاب . انظر : Bongars, I, 30-81. . وأضاف بارث بعض الحواشى القيمة على كتاب روبرت الذى نشره فى فرانكفورت بألمانيا سنة ١٧٢٦ م . انظر عن ذلك : Michaud, I, 33-4 . والكتاب منشور أيضا فى مجموعة R. H. C. - H. Occ., III, 717-782 ؛ وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث .

القصة الكاملة للحملة الصليبية الأولى ؛ فهو يبدأ بمؤتمر كليرمون وينتهي بموقعة عسقلان . ومع ذلك فليست له أية قيمة أصلية ، وان كان قد تناول بعض الأحداث بإفاضة اكثر من المؤرخ المجهول ، وأضاف بعض المعلومات التي تأتي في المرتبة الثانية من الأهمية (١) . مثال ذلك الفصل الذي كتبه عن مؤتمر كليرمون الذي اشترك فيه باعتباره من رجال الدين .

وهناك وجه شبه كبير بين كتابي روبرت والمجهول . ولعل الخلاف الوحيد بينهما هو الأسلوب وطريقة التبويب . وذكر روبرت في مقدمة كتابه أن هدفه هو توخي الحقيقة ، وبنص قوله : « لن يجد القارىء في كتابي توافه أو أكاذيب أوترهات » . وبالرغم من انه كان يتوخى الدقة والصدق فيما يكتب ، إلا أنه كان يميل أحيانا إلى تصديق الاساطير والمعجزات التي لا يقبلها العقل(٢).

أما بودري ده بورجي فقد ولد بمدينة اورليانز ، واعتنق منذ صغره مبادىء الرهبنة ، وامتاز بثقافته العالية . وأصبح بفضل علمه ومتانة خلقه رئيس أساقفة مدينة دول Dol بمقاطعة نورماندیا شمال غربي فرنسا . وقد ألف كتبا عديدة منها كتابه عن الحملة الصليبية الأولى المعروف باسم « تاريخ بيت المقدس » (٣) . ويذكر في مقدمته أنه فرغ منه وهو في الستين من عمره ؛ ويحتمل أن يكون قد وضعه بعد عام ١١٠٧ م . وقد اشترك بودري هو الآخر في مؤتمر كليرمون وأشار اليه في كتابه . ولكنه لم يذهب مع الحملة الى الشرق ، وانما أستمد معلوماته

---

(١) Molinier, II, 282.

(٢) Michaud, I, 26,33.

(٣) اسم الكتاب Historia Jerosolimitana ؛ وهو منشور في مجموعتي : Bongars, I, 85-138; R. H. C. - H. Occ., IV, 1-111.

من أولئك الذين شاهدوا وقائعها ومن كتاب المؤرخ المجهول . ويبدأ كتاب بودرى بقيام الحملة من الغرب ، وينتهى بالمعركة التى قامت بعد الاستيلاء على بيت المقدس .

لقد أفاد بودرى من كتاب المؤرخ المجهول فائدة يبدو أثرها واضحا فى مؤلفه ، وإن كان يفضل المجهول فى نقاء أسلوبه وبلاغته . كما أضاف بعض الروايات التى سمعها شفاهة ، وبعض المعلومات التى يغلب عليها عنصر الخيال . وجدير بالذكر أنه إعتمد على مؤلف بودرى كل من اوردريك فيتال Orderic Vital ، ووليم الصورى ، وفنسان ده بوفيه Vincent de Beauvais (١) . ويمتدح فيتال صدق بودرى ووضوح عبارته ونقاء أسلوبه . ويرى المؤرخ الفرنسى ميشو أن تمسك بودرى بالحقيقة ، والعناية التى بذلها فى سبيل إخراج الكتاب ، فضلا عن صراحته وطيبة قلبه - كل هذا يجعل الكتاب وثيقة هامة ، كما لو كان مؤلفه شاهد عيان لأحداث ذلك الزمان (٢) .

أما جيبرت ده نوجان فقد ولد من أسرة عريقة فى مدينة كليرمون وسط فرنسا . وكان الطيش يلازمه فى سنى حياته الأولى . وما لبث أن عاف حياة العبث ، وانكب على العمل والتحصيل وانغمس فى الدين . وقد وضع عدة كتب فى اللاهوت ، كما ألف كتابه عن « اعمال الفرنجة » (٣) أهداه الى ليزياردوس

(١) اسم الكتاب Selecta e speculo Historiali Vincentii Bellocensis وهو منشور فى مجموعة : Bouquet, M. (ed.), Recueil des Historiens des Gaules et de la France, XXI, 71-75.

(٢) Michaud, I, 34-5,41; cf. also Molinier, II, 282-3.

(٣) اسم الكتاب Gesta Dei per Francos ، وهو منشور فى المجموعتين التالى بيانهما : Bongars, I, 467-560; R. H. C.- H. Occ., IV, 113-263

Lisiardus أسقف مدينة سواسون (١١٠٨ - ١١٢٦). ولم يذهب جيبرت إلى بيت المقدس، ولم يشاهد شيئا مما سجله، وإنما اعتمد فى روايته على عدد من المؤرخين المتقدمين، ومن بينهم المؤرخ المجهول الذى أفاد منه، ولكن مع شىء من التدقيق والتمحيص أكثر من زميله بوردرى ده بورجى. وأضاف الكثير من المعلومات التى لم ترد أصلا فى كتاب مؤرخ حملة بوهيمند. وفى أسلوبه تكلف وغموض، كما دون جانبا من مؤلفه شعرا والباقى نثرا (١).

ويبدأ تاريخه بكلمة إهداء إلى أسقف سواسون. ويعقبها بمقدمة أشار فيها إلى كتاب المؤرخ المجهول الذى كان معروفا فى أيامه، ويعترف بأنه نال منه فائدة بعد أن صحح الكثير من الأخطاء الواردة فيه. ويقول إنه قام بوضع كتابه لا حبا فى الشهرة أو المال، وإنما لما ينطوى عليه الموضوع من أهمية (٢).

وهناك أيضا المؤرخ راؤول ده كان الذى ولد بمدينة كان بفرنسا. وقد ذهب إلى الشرق عام ١١٠٧ م حيث لازم تنكريد إبن أخت بوهيمند. ودون كتابه بعد عام ١١١٢ م نقلا عن الروايات التى حكاها له هذا الأمير. وتوفى راؤول بعد عام ١١٣١ م بقليل. ويروى مؤلفه المسمى «أعمال تنكريد» تاريخ الحركة الصليبية حتى سنة ١١٠٥ م. ونلمس بوضوح مما كتبه شعوره العدائى لكل من الإمبراطور البيزنطى الكسيس كومنين والأمير ريمون ده سان جيل، بسبب العلاقات السيئة التى كانت قائمة بين هذين السيدين وكل من تنكريد وخاله

---

(١) Michaud, I, 88; Molinier, II, 283.

(٢) وفيما يلى نص ما ذكره ميشو عن جيبرت :

« Il y dit qu'il a été engagé à écrire cette histoire, non par amour de la gloire ou de l'argent, mais à cause de l'importance du sujet. » Cf. Michaud, I. 89.

بوهيمند . وسنعرض لذلك بالتفصيل فى الفصلين الأخيرين من الكتاب. هذا ، وكتاب راؤول خليط من الشعر والنثر. ويلاحظ أنه لم يقم بمراجعته وتنقيحه مثلما فعل غيره من مؤرخى الحملة الأولى (١) .

وفى معرض الحديث عن مؤرخى هذه الحملة يجب ألا نغفل الأسقف اكهارت دورا، وهو ألمانى ذهب إلى سورية سنة ١١٠١م ، أى بعد انتهاء الحملة . ووضع بعد عودته إلى بلاده كتابه المعروف باسم « بيت المقدس » (٢) .

وهناك أيضا كافارو الجنوى Caffaro . وهو من أسرة عريقة ، قدم إلى فلسطين سنة ١١٠٠ ، ثم زار الأراضى المقدسة بعد ذلك عدة مرات . وهو صاحب كتاب « حوليات جنوه » الذى يشغل الفترة من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٦٣ . وله أيضا كتاب صغير عنوانه « تحرير مدن الشرق » Liberatio civitatum orientis ، وقد وضعه سنة ١١٥٥ . وظل هذا الكتيب مجهولا ، ولم يعثر عليه إلا بعد قرن من ذلك التاريخ بين أوراق أخرى قديمة (٣) .

ويجب أن نذكر فى هذا الصدد جوتييه المستشار Gauthier le Chancelier

---

(١) Cahen, 11-12; Molinier, II, 285. — والكتاب باللاتينية واسمه Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana ؛ وله طبعات عديدة أهمها تلك التى توجد فى مجموعة R. H. C.-H. Occ., III, 537-716 .

(٢) انظر : Cahen, 11, & n. 2 . وقام بنشر الكتاب المذكور العالم هاجنماير (طبعة Tübingen, 1877) ، وهو منشور أيضاً فى الجزء الخامس من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الغربيين . هذا وطبعة بول ريان أفضل بكثير من طبعة هاجنماير .

(٣) أنظر : Cahen, op. cit., 11 . وتوجد طبعتان لكتاب كافارو المسمى « حوليات جنوه » : الأولى طبعة « بلجرانو » Caffaro, Fonti per la storia d'Italia, éd. Blgrano, Rome, 1890. والثانية طبعة « ريان » فى الجزء الخامس من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) .

فهو يعتبر بدون شك من مؤرخى عصر الحملة الصليبية الأولى . وعلى الرغم من أن عنوان كتابه هو « حرب أنطاكية » De Bello Antiocheno ، إلا أنه يقتصر على حرب سنة ١١١٥ ، والحروب التى وقعت فيما بين عامى ١١١٩ و ١١٢٢ . ويعتبر مؤلفه من أهم المصادر، إن لم يكن أهمها على الإطلاق فى تاريخ الصليبيين فى شمال سورية وبخاصة أنطاكية . ويحتمل أن يكون جوتييه هذا قد عمل مستشاراً لدى روجر . كما كان على معرفة تامة بالنظم والوقائع والأحداث فى سورية الشمالية ، فضلا عن معرفته بجغرافية المنطقة (١) .

يضاف إلى ماتقدم بعض الكتب والمختصرات التى وضعت عن هذه الحقبة ، منها كتاب لمؤرخ غير معروف الإسم وضعه بناء على طلب بلدوين الثالث ملك بيت المقدس اللاتينى، وسرد فيه تاريخ الحركة من بدايتها حتى سنة ١١٢٣م . وهو عبارة عن مختصر لكتابى روبرت الراهب وفوشيه ده شارتر . وقد تم وضعه حوالى سنة ١١٤٦/١١٤٧م . والنص المذكور ليس له أى قيمة تاريخية (٢) .

وثمة مؤلف آخر اسمه جونتر الباريسى Gunther de Pairis ، وضع كتاباً عن الحملة الأولى فى أخريات القرن الثانى عشر نقلا عن مؤلف روبرت الراهب (٣) .

---

(١) أنظر : Cahen, op. cit., 16 . ولكتاب جوتييه طبعتان : الأولى طبعة « هاجينماير » (Heidelberg, 1896) ؛ والثانية طبعة « ريان » فى الجزء الخامس من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) .

(٢) Molinier, II, 282. واسم الكتاب Balduini III Historia Nicaena vel Antiochena ، وقد قام بنشره الكونت بول ريان Comte P. Riant الذى توفى سنة ١٨٨٨م ، فى مجموعة : R.H.C.-H. Occ., V, 133-185

(٣) Molinier, II, 290. ـ والكتاب اسمه Solimarius ، وقد عثر على شذرات منه فى مدينة كولونيا قام بنشرها العالم فاتنباخ Wattenbach فى مجموعة أرشيف الشرق اللاتينى . انظر : A. O. L., I, 551-561

وإلى جانب تلك المصادر اللاتينية المعاصرة التى أسلفنا الإشارة إليها، يوجد عدد من الرسائل والوثائق والمكاتبات ، نخص بالذكر منها الخطاب الذى يقال إن الكسيس كومنين أرسله إلى روبرت ده فلاندرز أمير الأراضى الواطئة (١) ، وخطابى اتين كونت بلوا وشارتر اللذين بعث بهما من الشرق إلى زوجته أديل فى أوروبا . (٢) وخطاب الكسيس يكشف عن الدوافع الشخصية فى قيام الحركة الصليبية ، وأطماع اللاتين التى وجهتهم نحو الشرق العربى ؛ بينما نجد فى الخطابين الآخرين اعترافا صريحا من أحد زعماء اللاتين بتلك الخدمات التى أداها البيزنطيون للفرنج خلال الحملة الأولى . ويتفق الكونت اتين فى هذا الاتجاه مع زميله البرت دكس ، بخلاف باقى المؤرخين اللاتين الذين امتلأت كتاباتهم بالحقد والكراهية ضد المسيحيين الشرقيين ، الذين كانوا فى نظرهم مجرد هراطقة منشقين عن كنيسة روما الكاثوليكية .

وإلى جانب هـــذه المستندات والوثائق يوجد بعض المؤرخين اللاتين المتأخرين نسبيا عن الحملة الأولى الذين أفدنا منهم ، نذكر من بينهم وليم الصورى Guillaume de Tyr ، وامبرواز Ambroise (٣)، وجوانفيل Joinville ،

(١) انظر تحليل الخطاب المذكور والمناقشات التى أثيرت حوله فى مقالى : «الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » تحت عنوان دور بيزنطة والكسيس كومنين فى الدعوة إلى الحروب الصليبية ، ص ١٨٨ - ١٩٥ . انظر أيضا الترجمة العربية لمقتطفات من الخطاب فى الملحق الأول بآخر الكتاب .

(٢) انظر الترجمة العربية لمقتطفات من خطاب الكونت اتين إلى زوجته الذى حرره من معسكر الجيش الصليبى بالقرب من نيقية فى يونيو ١٠٩٧ ، فى الملحق الرابع بآخر الكتاب .

(٣) فيما يتعلق بكل من وليم الصورى وامبرواز ، انظر : نظير سعداوى : ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية ، ص ٥ - ١٦ و ١٩ - ٢٠ . راجع أيضا مقدمة الأستاذ هبرت Hubert التى مهد بها لترجمته الانجليزية لكتاب امبرواز عن الحملة الصليبية الثالثة . فقد =

وروتلان Rothelin ، ومتى الباريسى Matthew Paris (١) . ولو أن النقل هو الطابع الغالب فى معظم هذه الأصول فيما يتعلق بالأحداث الماضية ، إلا أننا نجد فيها أحيانا إشارات لها أهميتها ووزنها ، ويبدو أثرها واضحا فى ثنايا البحث (٢) .

هذا عن الأصول اللاتينية من معاصرة وغير معاصرة ؛ أما المصادر البيزنطية ففيها هى الأخرى مادة ممتازة من الدرجة الأولى فيما يتعلق بحقيقة اتجاهات الحركة الصليبية ، وطبيعة العلاقات بين المسيحيين الشرقيين والغربيين إبان تلك الفترة من الزمن ، وتشابك العلاقات بين العرب والبيزنطيين واللاتين . وأهم هذه

= عرض لتاريخ حياة المؤلف ، وتناول الكتاب بالدراسة والتحليل مبدياً قيمته التاريخية ، حيث أن مؤلفه كان شاهد عيان لأحداث تلك الحملة . أنظر :
Ambroise, Crusade of Richard, 3-27.

(١) وفيما يتعلق بسير جوانفيل وروتلان ومتى الباريسى ومؤلفاتهم ، انظر كتابى : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ٣—٧ و ١٠—١١ . راجع أيضا السيد الباز العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ١٤٨ — ١٥١ ، ١٥٣ — ١٧٣ .

(٢) يحلل الأستاذ كولنجوود Collingwood فى كتابه « فكرة التاريخ » ، ترجمة الأستاذ محمد بكير خليل ، ص ١١٢ — ١١٩ ، تحليلا منطقيـا ممتعا كتابة التاريخ فى العصور الوسطى فيقول إنها كانت استئنافا للأسلوب التاريخى الذى جرى عليه اليونان والرومان القدماء دون استحداث أى تغيير فى الطريقة المتبعة . ويستطرد قائلا أن مؤرخ العصور الوسطى فى الغرب عاش أسيراً فى جو سيطرت فيه الكنيسة على كل شىء ، فكان يكتب مايكتبه داخل إطار معين لم يكن من السهل الخروج عنه أو الفكاك منه ، وقد أدى ذلك إلى اهمال المؤرخ الغربى الوسيط الواجب الأول للمؤرخ من حيث تفهم حقيقة الأحداث ومحاولة الكشف عنها . ومن هنا اتسم تدوين التاريخ فى تلك القرون بصفة عامة بالضعف من حيث النقـد والتحليل والتقدير الدقيق للحقائق التاريخية ، مما لا يتفق مع روح البحث العلمى الحديث . وعلى هـذا الأسـاس كان مؤرخو الحروب الصليبية اللاتين — شـأنهم شأن باقى مؤرخى العصور الوسطى الأوروبية — يصورون الوقائع والأحداث من وجهة نظر معينة بعدت بها فى كثير من الأحيان عن الواقع التاريخى الصحيح .

المصادر بلا شك كتاب الألكسياد Alexiad الذى وضعته الأميرة آن كومنين (١) Anne Comnène قبيل منتصف القرن الثانى عشر بقليل ، عن تاريخ حياة أبيها الامبراطور ألكسيس كومنين . وقد ضمنته ذكرياتها ومشاهداتها وأحاسيسها وانفعالاتها خلال تلك الفترة المضطربة من تاريخ الدولة البيزنطية . ولا يمكن اغفال كتاب الألكسياد عند تناول العلاقات الصليبية الرومية العربية قبيل الحملة الأولى وفى اثنائها وبعد انتهائها . فمادته دسمة وفيرة تكشف عن العوامل المختلفة المتشابكة البعيدة الغور فى أعماق التاريخ الوسيط التى أدت الى قيام سوء التفاهم بين الاغريق واللاتين أو بين مسيحيى الشرق والغرب . وفيه تكشف الأميرة آن فى أسلوب ممتع شائق ، وفى صراحة تامة ،

---

(١) ولدت الأميرة آن فى ديسمبر ١٠٨٣ ، وتزوجت من نقفور برنيوس Nicephorus Bryennius ؟ وتوفيت سنة ١١٤٨ عن ٦٦ سنة . وهى ابنة الامبراطور الكسيس من زوجته الامبراطورة ايرين دوكاس . وقد قام أخوها حنا كومنين بحبسها فى أحد الأديرة بعد وفاة أبيهما . وهى غزيرة العلم واسعة الثقافة ، وكانت على معرفة بأدب اليونان القدماء وكتب اللاهوت . ووضعت كتابها الالكسياد باللغة اليونانية السائدة وقتذاك ، ليكون سجلا حافلا لتاريخ حياة أبيها ، حتى أنها أسمته باسمه . وهو يشغل الفترة الممتدة من سنة ١٠٦٩ الى سنة ١١١٨ . وقد بدأت فى تدوينه بعد سنة ١١٣٧ ، وأتمته فى أواسط القرن الثانى عشر (حوالى سنة ١١٤٨) . ونخرج من الكتاب بصورة نابضة عن المؤلفة نفسها ، تلك الكاتبة التى تميزت بشخصيتها المستقلة ، وحساسيتها المرهفة ، وعاطفتها القوية ، وقلبها الطيب ، واعتدادها بنفسها وبلادها وبأبيها الامبراطور . أنظر التفاصيل فى :

Diehl, Figures Byzantines, 26-52; Cahen, 95; Ostrogorsky, 311.

وهناك طبعتان قديمتان قيمتان للكتاب تتضمنان الأصل اليونانى القديم مع الترجمة اللاتينية ، وهما:

1 — Anna Comnena, Alexias, Venetiis, 1729, ed. «De Bisentine Istorie, T. XI».

2 — Anna Comnena, Alexiadis (Libri XV), Volumen I, Addidit Ludovicus Schophenus, Bonnae, 1839, ed. « Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae ».

عن الاتجاهات الاستعمارية العدوانية للحركة الصليبية ، وجشع اللاتين واطماعهم فى دولة الروم وفى العالم العربى ، ثم موقف كل من اللاتين والاغريق حيال الآخر من وجهة النظر البيزنطية ، ذلك الموقف العجيب الذى كانت تسوده الريبة والشك المتبادلين وتعلوه قشور سطحية من المودة والمجاملات الدبلوماسية ، مما يجعل روايتها تحمل فى طياتها صفة الوثائق الرسمية (١) .

والباحث المدقق يجد أن هذه الكاتبة تمثل خير تمثيل العقلية الاغريقية المستنيرة فى تلك القرون الغابرة التى امتازت فيها اوروبا بالتعصب الأعمى . وآية ذلك آراؤها الصريحة فى اللاتين الغربيين وطباعهم وأخلاقهم وأطماعهم ، وفى تحليلها الدقيق الرائع للوقائع والأحداث التاريخية ، وتناولها الصادق لشخصيات عصرها ، فقد أمدتنا بصورة حية لوالدهـــا الامبراطور والأمير بوهيمند النورماندى وغيره من زعماء الحملة الأولى من الفرنج وكثير من الزعماء العرب .

مما سلف يعتبر الكتاب المذكور مصدر ثقة فى دراسة تاريخ هـذه الحقبة . فقد عاصرت الكاتبة الاغريقية الأحداث التى كتبت عنها ، وعاشت فيها وتفاعلت معها . وكانت شاهدة عيان لجانب كبير منها ، كما رأت بعينيها ما كان يجرى فى بلاط والدها الامبراطور . وسجلت ذلك كله فى كتابها بصدق وأمانة يتجليان بالمقارنة بين روايتها وكتابات المؤرخين اللاتين المعاصرين لها . ولا شك انها استقت جانبا من المعلومات التى أوردتها فى الكتاب من بعض شهود العيان، ومن مذكراتها الخاصة المسجل بها ذكرياتها ، ومن مذكرات زوجها التى تركها لها ، ومن مصدر لاتينى اندثر ولم يصل الينا ، فضلا عن بعض الأصول الموثوق بها

---

(١) انظر الترجمة العربية لبعض النصوص من كتاب الالكسياد للأميرة آن كومنين فى الملحق الثالث بآخر الكتاب .

كالمراسلات والوثائق الرسمية وما شابه ذلك . ويمتاز أسلوبها بنقائه وزخرفته وتكلفه .

ومع ذلك فقد شاب الغموض واللبس بعض الوقائع التى تعرضت لها تلك الكاتبة . ويلاحظ أيضا أن الترتيب الزمنى لبعض الاحداث غيردقيق ، ولو أنها تزعم عكس ذلك (١) . ولها فى ذلك عذرها ، إذ كانت عندما مرت الحملة الصليبية بأراضى الدولة البيزنطية فتاة صغيرة فى الرابعة عشرة من عمرها ، ولم تسجل تلك الأحداث إلا بعد مضى حوالى نصف قرن من ذلك التاريخ .

وإلى جانب الأصول اللاتينية والاغريقية توجد بعض المصادر الأرمينية التى عادت علينا ببعض الفائدة ؛ ومنها كتاب متى الرهاوى Mathieu d'Édesse ، ومؤلف ميخائيل السورى Michel le Syrien . ولأولها حولية تتناول الأحداث من سنة ٩٥٢ إلى سنة ١١٢٧ م . وقد ولد متى بمدينة الرها ، ويبدو أنه توفى أثناء استيلاء عماد الدين زنكى عليها سنة ١١٤٤ م . وأتم أحد تلامذته ، وهو الكاهن جريجوار Grégoire le Prêtre الكتاب المذكور حتى سنة ١١٦٣ م . أما ميخائيل السورى فتمتد حوليته حتى تاريخ وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى (٢) .

---

(١) Molinier, II, 293-4; cf. also Ostrogorsky, 311.

(٢) Molinier, II, 296-7. ـ وتوجد مقتطفات من كتاب متى الرهاوى فى مجموعة R.H.C.- Doc. Arm. I, 1-150. ، ومقتطفات من حولية تلميذه جريجوار الأرمنى فى نفس المجموعة السابقة ، (ج ١ ، ص ١٥١ ـ ٢٠١) ، وكذلك شذرات من حولية ميخائيل السورى فى المجموعة المذكورة (ج ١ ، ص ٣٠٩ — ٤٠٩) . وحولية ميخائيل السورى منشورة بالكامل فى طبعة « شابو » . انظر : Michel le Syrien, éd Tidd. Chabot, 3 Vols., Paris, 1899-1910. — ويهمنا منها الجزء الثالث . أنظر : Cahen, op. cit., 96.

كانت الحملة الصليبية الأولى إذن غنية بالمؤلفات والرسائل التى وضعها أهل الغرب الأوروبى والاغريق البيزنطيون والأرمن . وكانت هذه التآليف تتسم بصفة عامة بالتحيز والمبالغة لاسيا المصادر اللاتينية . ومن سوء الحظ ان الكتاب العرب الذين عاصروا أحداث تلك الفترة لم يتركوا لنا شيئا مستقلا عنها . وهذا ما يمكن أن يقال بالنسبة لأولئك الذين عاصروا الحركة فى شتى مراحلها . فلم تصل الينا مؤلفات قائمة بذاتها عن تاريخ تلك الحملة وما لحقها من الحملات التى كانت رقعة الشرق العربى والشمال الإفريقى مسرحا لها خلال ثلاثة قرون من الزمان .

وليس من السهل تعليل عدم وجود كتاب وقتذاك تفرغوا لهذه الحروب العدوانية تفرغا تاما ، وتتبعوا أحداثها عن كثب ، ثم قاموا بتسجيل ذلك كله فى مؤلفات منفردة مثلما فعل أهل الغرب ، خاصة وأنه كان يوجد فى بلاط الحكام العرب مؤرخون تخصصوا فى كتابة السّير والتراجم وأحداث زمانهم . كما اشترك فى الحملات العربية المضادة كثير من الفرسان الأدباء الذين كان بوسعهم تدوين تاريخ هذه الحملات فى كتب مستقلة قائمة بذاتها . وإن مثل هذه المؤلفات لو كانت قد وضعت فعلا لأمدتنا بمادة وفيرة لا يمكن بحال التقليل من قيمتها وأهميتها ، ولساعدتنا فى الكشف عن الكثير من الغموض الذى يحيط ببعض جوانب هذه الحركة .

ولعل السر فى ذلك يرجع لسببين : أولهما أن الحركة الصليبية كانت حركة عدوانية قام بها الغرب الأوروبى ضد العالم العربى لتحقيق اتجاهات استعمارية توسعية . وقد أحيطت منذ بدايتها بهالة كبيرة من الدعاية الدينية والحماس الجنونى فى الغرب، مما دفع كثير من اللاتين الذين اشتركوا فيها وخاضوا معاركها، إلى تسجيل ذلك فى كتب حفظها لنا الزمن من العبث والضياع. وحتى أولئك الغربيين الذين

بقوا فى أوروبا ولم يشتركوا فى هذه الحملات ، كانوا يتلقفون أخبارها أولا بأول من الفرنج العائدين وغيرهم من الرواة والحجاج ، ويسجلونها فى مؤلفات بقيت إلى اليوم . ويلاحظ أيضا أن المؤلفات العامة فى التاريخ الأوروبى لم تخل من الإشارة إلى هـذه الحملات التى جندت لها العقول والأقلام فى الغرب . بل إن أخبار الحركة الصليبية كانت تطغى أحيانا على الموضوع الأصلى للكتاب . لذلك كان من الطبيعى أن يوجه لها الغربيون اهتماما خاصا . وعلى العكس ، لم تنل الحملات الصليبية من المؤلفين العرب المعاصرين لها نفس القدر من الاهتمام . فقد فوجئوا بجيوش غازية تنزل فى ديارهم فى أعداد كبيرة ، تنهب وتقتل وتسرق ماشاء لها النهب والقتل والسرقة ، فى وقت كان فيه العالم العربى ضعيفا منقسما على نفسه ، ولم يكن قد أعد عدته بعد لتجميع قواه ودفع اولئك الغزاة . ولذلك اكتفوا بتسجيل أحداثها فى حولياتهم وكتبهم العامة دون حاجة إلى الدخول فى تفصيلات مطولة ودقائق عديدة كتلك التى تعرض لها الغربيون . ولذلك كان المؤرخون العرب يميلون بصفة عامة إلى التعميم والاجمال ، بعكس الافرنج الذين كانوا يميلون أحيانا إلى التخصيص والافاضة (١). هذا عن السبب الأول ، أما السبب الثانى فمن المحتمل أنه يرجع إلى طريقة كل من الغرب الأوروبى والعالم العربى فى تدوين التاريخ وقتذاك . فقد كان الغرب حتى أخريات القرن الحادى عشر يتبع نظام الحوليات المعروف ، ولكن كتابة التاريخ تطورت عندهم منذ قيام الحركة الصليبية على النحو الذى نراه اليوم . أما الكتاب العرب فقد ظلوا يسيرون فى تدوين كتبهم على غرار نظام الحوليات (٢) . ولهذا كانت أحداث

(١) أنظر : محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية ، ص ١٠٧ .

(٢) ونعنى بها طريقة التأريخ بالسنين . فكان معظم الكتاب العرب يؤرخون للحوادث سنة بسنة ، بينما اتبع فريق آخر طريقة التأريخ لعهود الخلفاء والحكام ، وفيها يسرد المؤلف =

الحركة الصليبية تدون إلى جانب غيرها من الوقائع التى لاتوجد بينها أى رابطة ، وذلك وفقا للترتيب الزمنى للأحداث .

لقد انصب اهتمام أولئك الكتاب بوجه عام على تسجيل تواريخ المدن والبلدان ، وكتابة السّير والتراجم ، وتأليف الكتب الجامعة وتواريخ الدول والممالك. وبين طيات هذه الكتب ومن خلال سطورها نجد المادة التى تهمنا مبعثرة هنا وهناك .

فمن الكتب التى اختصت بالمدن والبلدان نذكر ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٦ م) الذى عاصر أحداث هذه الحقبة من الزمن وكتب عنها ، وكذلك تاريخ حلب لابن العديم (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) ، والدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب لابن الشحنة (ت ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م) ، والأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لأبى اليمن العليمى (ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م) .

أما كتب السير والتراجم فمنها ما اختص بسيرة خليفة من الخلفاء أو حاكم من الحكام ، ومنها ماكان أكثر توسعا فشمل عدة سير . فمن النوع الأول

= أيام الخلفاء والحكام والأحداث التى وقعت فى عهودهم . وقليل من المؤرخين من حاول كتابة التاريخ على حسب الموضوعات ، وعلى رأس هؤلاء ابن الأثير والنويرى ؛ وهدف هذا الفريق هو تجميع الحوادث وعدم التفريق فى ذكرها قدر الاستطاعة . هـذا ولو أن نظام الحوليات الذى كان متبعا فى كتابة التاريخ كان يحد من نشاط المؤرخ فى ذكر كل الأخبار المتعلقة بحادثة ما مجمعة مترابطة . انظر عن ذلك: محمد عبد الغنى حسن: علم التاريخ عند العرب، ص ١٧١ـ١٧٧ . انظر أيضا ماكتبه الدكتور عبد المنعم ماجد عن نشأة الكتابة التاريخية عند العرب فى العصر الاسلامى فى مؤلفه: مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامى ـ ط. ثانية (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣١ ـ ٤١ ، وكذلك سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث فيه (القاهرة ١٩٦٠) ص ٤٨ ـ ٥٦ .

نجد سيرة صلاح الدين الأيوبى لابن شداد (١) (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م)، والتاريخ الصالحى لابن واصل (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م)، الذى تناول فيه مؤلفه سيرة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو لا يزال مخطوطا لم ينشر بعد. ومن النوع الثانى مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لابن الجوزى (ت ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٧ م)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م)، ومخطوط الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين لابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م)، والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لأبى المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م).

والمكتبة العربية عامرة بكتب التواريخ العامة وتواريخ الدول والممالك، ومن أهمها تاريخ دولة آل سلجوق للأصفهانى (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م)، والكامل فى التاريخ لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) وأتابكة الموصل لنفس المؤلف، وكتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية والذيل على الروضتين لأبى شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م)، ومفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل (٢) (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م)، وكنز الدرر وجامع

---

(١) نشره الدكتور جمال الدين الشيال فى مجموعة « تراثنا » تحت اسم سيرة صلاح الدين « السيرة اليوسفية » المسماه بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية — ط. أولى — القاهرة ١٩٦٤.

(٢) يعتبر هذا الكتاب حجة لا يستهان بها فى تاريخ العصر الأخير من دولة بنى أيوب حيث اتصل ابن واصل بالبلاط فى عهد الصالح أيوب وابنه توران شاه وأرملة الصالح شجر الدر. وهو مصدر أساسى لا غنى عنه فى تاريخ حملة لويس التاسع على مصر. ويقوم على نشر هذه الموسوعة الدكتور جمال الدين الشيال، وقد ظهر منها للآن ثلاثة أجزاء، انظر ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ـ ٣ ج (حتى سنة ٦١٥هـ) ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠. وفيما يتعلق بسيرة ابن واصل انظر كتابى : حملة لويس التاسع فى الشرق الأوسط، ص ١٤ـ١٦ والحواشى ؛ ابن واصل : مفرج الكروب : نشر الدكتور الشيال، ج ١، ص ٤ ـ ٨.

الغرر لابن ايبك (ت٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) وهو لم ينشر بعد ، و المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) ، وتاريخ الإسلام للذهبى (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨ م) ، ومخطوط مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار للعمرى (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٨ م) ، وتتمة المختصر لابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) ، ومخطوط عيون التواريخ للكتبى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) ، وتاريخ ابن خلدون (١) (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م) ، ومخطوط نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام لابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى(٢) (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢ م)، وكتابا إغاثة الأمة بكشف الغمة واتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا لنفس المؤلف ، (٣) وعقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان للعينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) الذى نشرت مقتطفات منه فى مجمـــوعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الشرقيون) ، ولا يزال الجانب الأكبر من هذه

---

(١) يتمتع ابن خلدون بمكانة خاصة بين المؤرخين باعتباره مجددا فى علم التاريخ . فقد اشتمل القسم الخاص بتاريخ العرب من كتابه العبر على بحوث ودراسات تاريخية قيمة استمدها من مشاهداته الشخصية ومن قراءاته الخاصة ومن بعض المصادر التى كانت موجودة فى أيامه ولم تصل إلينا . ونجده يتحرى الدقة العلمية ويتوخى البساطة والوضوح فيما عرض له ، مع تحقيق الأحداث واستبعاد ما لا يقبله العقل منها . أنظر عن ذلك على عبد الواحد : عبد الرحمن بن خلدون ، ص ٢٣٣ ــ ٢٣٦ ؛ سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الاسلامى ، ص ٦٠ ــ ٦٣ .

(٢) لقد وقف على نشر هذا السفر الهام الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وظهر منه للآن جزءان ، كل فى ثلاثة أقسام . وللمزيد من المعلومات عن المقريزى وغيره من مؤرخى القرن الخامس عشر ، انظر : زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر ، القاهرة ١٩٥٤ .

(٣) قام بنشر الأول الدكتور جمال الدين الشيال والدكتور محمد مصطفى زيادة (طبع القاهرة ١٩٤٠) ، ونشر الثانى الدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٨) . وتمت الطبع الآن نسخة جديدة كاملة من كتاب اتعاظ الحنفا عن مخطوطة طوب قبو سراى ، نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال .

الموسوعة الضخمة مخطوطا، وكذلك مخطوط تاريخ الدول والملوك لابن الفرات (ت ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م)، وتاريخ مصر لابن اياس (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣م)، وغيرها العديد من الكتب التي ظهرت خلال القرون التالية. وقد نشر المستشرقون بعضها، كما نقلوا جانبا منها إلى لغاتهم المختلفة (١). وهناك نهضة علمية حديثة تقوم على أكتاف المؤرخين والكتاب العرب هدفها نشر هذا التراث القديم نشرا علميا دقيقا محققا. والعمل على تعميمه ليكون فى متناول الجميع.

ومن دراساتنا فى المنابع العربية نخرج ببعض الملاحظات التى نجملها فيما يلى:

أولا — تميزت مصادر القرن الثانى عشر بصفة عامة بطابعها المحلى الضيق، بعكس مصادر القرن الثالث عشر والقرون التالية له التى كانت دائرتها أكثر اتساعا.

ثانيا — لم يعن الكتاب والمؤرخون العرب بتسجيل أحداث الحركة الصليبية فى كتب مستقلة قائمة بذاتها حسبما أسلفنا، إذ لا يوجد مؤرخ واحد نهج هذا السبيل باستثناء عماد الدين الأصفهانى الذى وضع كتابه «الفتح القسى فى الفتح القدسى»، والذى ضمنه قصة استعادة صلاح الدين البيت المقدس من الفرنج. وكذلك ابن شداد الذى تناول فى كتابه «سيرة صلاح الدين» تاريخ حياة هذا البطل العربى وجهاده ضد الغزاة. وغير خاف أن الأصفهانى وابن شداد كان هدفهما الأساسى من وضع كتابيهما هو تسجيل سيرة سيدهما صلاح الدين، مثلهما فى ذلك مثل القاضى الفاضل.

(١) راجع فى ذلك: محمد عبد الغنى حسن: علم التاريخ عند العرب. ص ٢١١.

ثالثا — جميع المنابع المنوه عنها متأخرة نسبيا عن الفترة موضوع دراستنا ، باستثناء كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى الذى وضع أساسا ليكون سجلا لتاريخ دمشق . ونجد فيه شذرات مبعثرة عن بداية الحركة الصليبية التى عاصر أحداثها ، وهى لا تشفى غلة الباحث فى هذه الناحية .

رابعا — هناك تقارب شديد بين هـذه المراجع ، فهى تكاد تتشابه فى الأسلوب وفى طريقة سرد الوقائع والأحداث . وجدير بالذكر أن المؤرخين العرب - شأنهم شأن المؤرخين الأوروبيين فى تلك المرحلة الوسيطة من التاريخ - كانوا ينقلون عادة عن مؤلفات من سبقوهم أو عن المعاصرين لهم . وكانوا فى كثير من الأحيان ينقلون كتبا بأكملها دون دراسة أو نقد أو تمحيص . ويتم نقل هذه المادة التاريخية إما بطريق الرواية عن السند التى لزمها أكثر مؤرخى العرب وخاصة فى الفترة المبكرة من تاريخ القرون الوسطى ، وإما عن طريق الرواية والخبر المسطور مع إيضاح المصدر الذى نقلوا عنه فى أغلب الأحيان (١) . ومع ذلك فقد أشار بعض المؤرخين المتأخرين إلى أحداث لها قيمتها التى لا تنكر والتى لم ترد فى الأصول المعاصرة ؛ ويغلب على الظن أنهم نقلوها عن أصول فقدت ولم تصلنا .

خامسا — تمدنا المنابع العربية بمادة دسمة فيما يتعلق بأحوال العالم العربى فى أخريات العصور الوسطى ، وعلاقاته بكل من الصليبيين

(١) انظر : سيدة اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الاسلامى ، ص ٥٠-٥٣ ؛ محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

والبيزنطيين فى شتى مراحل الحركة الصليبية ، مما لايقل فى أهميته عما ورد فى الأصول اللاتينية والاغريقية والأرمينية المنوه عنهـا ؛ ومما كان له أكبر الأثر فى تقويم ما اعوج من كتابات أهل الغرب وملء الثغرات التى أغفلوهـا أو تجاوزوا عنها عمداً أو عن غير عمد ، وتصحيح الانحراف الذى لازمهم أحيـانا وبلغ حد الشطط والتحيز نحو بنى جلدتهم .

وإذا كانت الأصول المعاصرة قد أمدتنا بالمادة الأصلية التى أفدنا منهـا فى موضوعنا ، فإن كتب المحدثين من أهل الشرق والغرب لا تقل أهمية بالنسبة للتصدى لهذا البحث . فقد أسهم الكتاب العرب بنصيب كبير فى هذا المضمار . فنهم من أرخ للحركة الصليبية كلها أو أحد فصولها ، ومنهم من نقل إلى العربية بعض مؤلفات الغرب فى هذه الناحية . فمن النوع الأول نذكر كتاب مملكة بيت المقدس الصليبية للدكتور عمر كمال توفيق ، وكتاب الحركة الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، وكتاب الشرق الأوسط والحروب الصليبية للدكتور السيد الباز العرينى ، وكتاب الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى للدكتور نظير حسان سعداوى، وكتاب الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب لمؤلفه محمد العروسى المطوى . وكذلك مؤلفات الدكتور حسن حبشى عن الحملات الأولى والثانية والسابعة ، ومؤلف كل من الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور العقيد عبد الرحمن زكى عن حملة لويس التاسع على مصر ، وثلاث كتب لى ، اثنين منها عن حملتى لويس التاسع على مصر وبلاد الشام والثالث عن الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبى ، وكتاب الدكتور سعيد عاشور عن قبرص والحروب الصليبية . ومن النوع الآخر نذكر كتاب ارنست باركر الذى قام بترجمته الدكتور السيد الباز العرينى . هذا فضلا عن الكتب المؤلفة أو المعربة عن تاريخ اوروبا فى العصور الوسطى ، والمتضمنة دراسات

تحليلية مركزة عن الحروب الصليبية ، مثل مؤلف ديفز ترجمة الدكتور عبدالحميد حمدى محمود ، وكتاب فشر ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد البازالعرينى والدكتور ابراهيم العدوى ، وكتاب أوروبا العصور الوسطى تأليف الدكتور سعيد عاشور .

والى جانب هؤلاء يجب أن نذكر بعض المؤلفات فى التاريخ الاسلامى السياسى والحضارى التى لها قيمتها التى لاتنكر ، مثل مجموعة الوثائق الفاطمية ، ومصر والشام بين دولتين ، وتاريخ مصر الإسلامية ، وأعلام الاسكندرية فى العصر الإسلامى للدكتور جمال الدين الشيال ؛ والتاريخ السياسى للدولة العربية ، والناصر صلاح الدين الأيوبى ،وتاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، والعلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى للدكتور عبد المنعم ماجد ؛ وطرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ، والمغرب الكبير فى العصر الاسلامى للدكتور السيد عبد العزيز سالم ؛ والدولة العربية الإسلامية للدكتور على حسنى الخربوطلى . فهذه التآليف وغيرها تمدنا بمعلومات لها وزنها فيما نحن بصدده .

وهكذا أمدتنا المكتبة العربية بوافر من الكتب القيمة العربية والمعربة فى هذا الموضوع .

ومن أهم الكتب الغربية الحديثة التى تناولت تاريخ الحركة الصليبية والحملة الأولى على وجه أخص ، مؤلفات رهرشت Röhricht ، وبول ريان P. Riant . ولويس بريبه L. Bréhier ، وفرديناند شالندون F. Chalandon، ووليم ستيفنسون W. Stevenson ، و ر. سميل R. C. Smail [1] ، ورينيه

(١) أنظر كتابه R.C. Smail, Crusading Warfare, Cambridge, 1956.
وقد قام بنقله إلى العربية السيد درويش النخيلى . والكتاب تحت الطبع عن المجلس الأعلى =

جروسيه R. Grousset ، وستيفن رانسيمان S. Runciman . وتقوم حاليا جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة بتنظيم مؤلف كبير فى خمسة مجلدات عن الحركة الصليبية ، يشترك فى تحرير فصوله مجموعة من العلماء والمؤرخين المتخصصين فى تاريخ هذه الحركة وفى تاريخ العرب والدولة البيزنطية والغرب الأوروبى فى العصور الوسطى ، أمثال سيدنى بينتر Sidney Painter ، ومارشال بلدوين Marshall Baldwin وستيفن رانسيمان وبرنارد لويس Bernard Lewis وكلود كاهن Claude Cahen وسير هاملتون جب Sir Hamilton Gibb وغيرهم . وقد ظهر منه حتى الآن الجزءان الأول والثانى . وكذلك مؤلف الدكتور عزيز سوريال عطية فى تاريخ الحروب الصليبية المسمى « الحروب الصليبية ـ التجارة ـ الثقافة » (١) .

ومن الكتب التى اختصت بالتاريخ البيزنطى وتناولت الحركة الصليبية والعلاقات الصليبية البيزنطية ، يجب أن نذكر تآليف جوستاف شلومبرجيه G. Schlumberger ، وشارل ديل Ch. Diehl ، ول . بلوى L. Bloy ، واوجست بابى A. Bailly ، وج . هاسى G. Hussey ، وستيفن رانسيمان ،

= لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة ، ويقوم بمراجعة الترجمة العربية مع التقديم لها الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال . كذلك ظهر لسميل كتاب حديث عن الحروب الصليبية (طبع سنة ١٩٦٥) .

(١) لا تزال مؤلفات رهرشت وريان وشالندون ، على الرغم من قدمها، تتمتع بمكانة كبيرة بين مراجع الحروب الصليبية . وهناك مراجع أخرى عديدة فى تاريخ الحركة الصليبية أصبحت الآن فى المرتبة الثانية أو الثالثة من حيث الأهمية . وقد فقد بعضها قيمته بعد أن عفا الزمن على الآراء التى وردت به ، نذكر منها تآليف ر . كندر R. Conder ، وآرشر وكينجزفورد T. A. Archer & C. L. Kingsford ، وم. كالثروب M.Calthrop، وج. كامبل G. Campbell ، وفانك برنتانو F. Funck - Brentano ، وا. جيبون E. Gibbon ، ون . يورجا N. Iorga ، وهـ . لامب H. Lamb ، وج . م . لودلو J. M. Ludlow ، وب . ممبورج P. Maimbourg .

واستروجورسكى Ostrogorsky ، وفازيلييف Vasiliev ، وارنست باركر E. Barker ، وشارل أومان Ch. Oman ، وبينز وموس Baynes & Moss ، و ف . شالندون F. Chalandon .

وقد أسهمت المكتبة العربية بنصيب واضح فى هذا الميدان . فمن الكتب المعربة فى التاريخ البيزنطى كتاب الامبراطورية البيزنطية تأليف نورمان بينز ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، وكتاب الامبراطورية البيزنطية تأليف شارل أومان ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر ، وكتاب الحضارة البيزنطية تأليف ستيفن رانسيمان ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد . ومن الكتب المؤلفة نذكر مؤلفات الدكتور عمر كمال توفيق وهى مقدمات العدوان الصليبى (الامبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية) ، وتاريخ الامبراطورية البيزنطية ، والامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة . وكذلك كتاب الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية للدكتور ابراهيم أحمد العدوى ، وكتابى الدولة البيزنطية ، ومصر البيزنطية للدكتور السيد الباز العرينى .

وبعد ، فنرجو أن نكون قد وفقنا بما بذلناه من جهد متواضع فى تلك المصادر والأسانيد التاريخية ، من عربية وافرنجية ، معاصرة وغير معاصرة ، إلى مواجهة مشكلات البحث بقسط من النجاح .

الفصل الثانى

الفكرة الصليبية على حقيقتها

تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب هو تاريخ الانسانية نفسها منذ القدم حتى وقتنا هذا ، حيث احتكت العقول والأفكار ، وتضاربت المشارب والأهواء ، وتبدت المطامع عارية ، وقامت الحروب الدامية ، واختفت دول وممالك وامبراطوريات وظهرت أخرى على انقاضها ، واندثرت أنظمة وحضارات لتحل محلها مدنيات وثقافات جديدة مغايرة . ففى زحمة هذه الأحداث والتغييرات الهائلة ، قام الصراع بين شقى العالم فى شتى عصور التاريخ القديم والوسيط والحديث .

ومن أهم خصائص القرون الوسطى التى شغلت قرابة ألف عام هى تلك الحركة التى اشتهرت باسم الحروب الصليبية ، والتى تكون فى الواقع دورا رئيسيا من أدوار ذلك الصراع العتيق بين الشرق والغرب . فقد بدأ منذ أقدم العصور بحروب طرواده التى خلدها الشاعر هوميروس فى أشعاره المعروفة باسم « الالياذة والاوديسية » . ثم قامت الحروب الميدية بين الفرس والاغريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد التى انتهت بسيادة الاسكندر المقدونى على أكثر بقاع العالم وقتذاك ، وما استتبع ذلك من فرض الحضارة الهيلينية عليها بعد قضائه على دولة الفرس التى أصبحت عاصمتهم المدائن إحدى الولايات الداخلة فى نطاق الامبراطورية الجديدة . وأعقب ذلك ظهور الرومان على مسرح الأحداث ، وتوسعهم فى الشرق ، وانتزاعهم السلطة من الاغريق بعد معارك عنيفة حملت

وروما بعدها لواء الكفاح فى الغرب ، وورثت الاغريق سلطانهم ونظمهم وحضارتهم .

هكذا بدأ الصراع بين الشرق والغرب فى العصور القديمة قبل ظهور المسيحية بأجيال عدة . ولذلك لم يقدر له أن يصطبغ بالصبغة الدينية ؛ بل كان صراعا سياسيا وحربيا بين قوتين مختلفتين وحضارتين متباينتين ، ويرمى إلى سيطرة أحد الفريقين على الآخر ومحاولة ضمه بالقوة المسلحة إلى منطقة نفوذه .

ولكن الأوضاع سرعان ما تبدلت منذ القرن الرابع الميلادى ، وعلى وجه التحديد فى سنة ٣٢٣ م حينما اعتنق الامبراطور الرومانى قسطنطين الكبير الديانة المسيحية التى أصبحت الدين الرسمى للدولة الرومانية ، وبخاصة فى القسم الشرقى منها الذى عرف باسم الدولة البيزنطية أو دولة الروم كما كان يسميها العرب .

وأخذ الصراع منذ ذلك الحين يصطبغ بالصبغة الدينية . فقامت الحروب بين بلاد فارس ودولة الروم فى وقت شهدت فيه الاولى نهضة دينية كبيرة بينما كانت الثانية تدين بالمسيحية . وكان من أثر ذلك استيلاء خسرو ملك الفرس على أورشليم والصليب الحقيقى الذى صلب عليه المسيح سنة ٦١٤ م . وكان رد الفعل هو تلك الحروب المضادة التى قام بها الامبراطور هرقل سنة ٦٢٨ م لاسترداد البيت المقدس وصليب الصلبوت من قبضة الفرس (١) .

---

(١) انظر عن ذلك : Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 23-8; Grousset, Sum of Hist., 7-12; Arnold, Legacy of Islam, 40-1.

وكذلك تراث الإسلام ، الترجمة العربية ، جـ ١ ، ص ٨١ — ٨٣ . وتناول الاستاذ أرنولد توينبى فكرة قيام المجتمعات والحضارات ، وتداخل الحضارات فيما بينها ثم احتكاكها وتصارعها ، وأخيرا انهيارها وتحللها ، مع بيان أسباب هذا التحلل ودوافعه فى موسوعته =

وفى أوائل القرن السابع ظهرت قوة جديدة فى الميدان بظهور الاسلام فى شبه الجزيرة العربية وقيام الدولة العربية الناهضة . وأصبح الكفاح منذ ذلك الحين بين العرب والروم من ناحية ، وبين العرب واللاتين من ناحية أخرى ، أمرا واقعا (١) . وكانت أهم مراحله هى الحروب الصليبية التى امتدت من أخريات القرن الحادى عشر إلى اخريات القرن الرابع عشر .

ويستمر الحال على هذا المنوال إلى أن بزغت شمس النهضة التى آذنت بنهاية القرون الوسطى بمبادئها ونظمها وفلسفتها ، وبداية العصور الحديثة . وفيها يأخذ الصراع مظهرا جديدا يتلاءم ومقتضيات الظروف ، ونعنى بذلك بداية التوسع الاستعمارى الاوروبى عندما نشبت اوروبا مخالبها فى دول الشرق العربى والشمال الإفريقى بخاصة وفى آسيا وافريقية بصفة عامة ؛ ثم يقظة هذه الشعوب العربية الاسيوية الافريقية ، وقيامها من سباتها العميق لتحرير نفسها من ربقة الاستعمار فى شتى صوره ومظاهره .

وإذا دققنا النظر فى حقيقة الصراع الذى قام بين شقى العالم خلال العصور ، نجد أنه اتخذ فى كل عصر شكلا معينا يتناسب والظروف الموضوعية القائمة فى

= الضخمة المسماه « دراسة للتاريخ » التى تقع فى ١٢ جزءاً . وقد اختصر المستر سومرفيل الأجزاء العشرة الأولى من هذه الموسوعة فى جزءين اختصاراً لايخل بفكرة الكتاب الأصلية. وقام الأستاذ فؤاد محمد شبل بنقل هذا المختصر إلى العربية نقلا دقيقاً . أنظر : توينبى : مختصر دراسة للتاريخ (الترجمة العربية) ج ٢ ، ص ٧٠ — ٧١ . ويلاحظ أن المؤلف يعرض لهذه الفكرة العميقة بالدراسة والتحليل فى أكثر من مناسبة وفى أكثر من موضع فى مؤلفه الكبير وكتابه المختصر . راجع أيضا : توينبى : الحضارة فى الميزان ، ص ١٩٢ — ١٩٥ .

(١) أنظر جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبى ، ص ٢ ؛ على الخربوطلى : محمد والقومية العربية ، ص ٤٩ و ٥٢ . وكذلك : Atiya, op. cit., 28-34.

وقت ما ، وإن اتحد فى الغاية والهدف . فقد كان فى العصور القديمة صراعا سياسيا حربيا فى عالم يدين بالوثنية ؛ بينما اتخذ الغرب من الدين فى العصور الوسطى ستارا لتحقيق نفس الأغراض والغايات . واليوم يبدو الصراع سافرا بعد أن كشف الاستعمار عن نفسه وأماط اللثام عن حقيقة نواياه . وهكذا تشابهت أسباب هذا الصراع ودوافعه فى شتى مراحله ، وإن بدا فى كل مرحلة فى شكل مغاير ، أو هو بمثابة حلقات متتابعة فى سلسلة واحدة ممتدة عبر القرون والأجيال (١) .

كانت الحروب الصليبية إذن مرحلة من مراحل الكفاح المرير الطويل بين الشرق والغرب . فهى لم تقم فجأة ولم تنته فجأة ، إنما جاءت نتيجة عمليات تطور بطيئة مستمرة فى فترات متباعدة غير قصيرة ؛ كما انها تركت آثارها

(١) جدير بالذكر أن جروسيه استعرض فى كتابه « امبراطورية شرق البحر الأبيض المتوسط أو تاريخ المسألة الشرقية » الصراع الطويل بين الشرق والغرب ، وقد أوضح فيه أن الحركة الصليبية لم تكن إلا دوراً واحداً من أدواره . وهو يسرد وقائع هذا الصراع منذ حروب الاسكندر المقدونى فى القرن الرابع قبل الميلاد حتى واقعة ليبانتو فى أواخر القرن السادس عشر . ويخلص مما تقدم أن المسألة الشرقية ليست وليدة القرن السابع عشر ، إنما هى أبعد من ذلك بكثير . أنظر :

Grousset, L'Empire du Levant, 7sqq., 21sqq., 46sqq., 67sqq., & 186sqq.

أنظر أيضاً نقد الدكتور عزيز سوريال للكتاب المذكور فى المجلة التاريخية المصرية، المجلد الأول ، ص ٣١٤ــ ٣١٩ . وقد أثبت هذه النظرية ووضعها فى شكلها النهائى الدكتور عزيز سوريال فى أحدث مؤلفاته ، وهو Crusade, Commerce and Culture الذى تولت طباعته مطبعة جامعة انديانا بأمريكا (طبعة Bloomington, 1962) وأبان سيادته أن الحركة الصليبية هى مرحلة من مراحل الصراع الطويل بين الشرق والغرب ، ذلك الصراع الذى ترجع أصوله إلى أيام اليونان والرومان القدماء ، وتمتد جذوره حتى يومنا هذا. أنظر ص ١٩ و ٢٤-٥٤ و ١٥٦-١٦١ من الكتاب المذكور .

لأحقاب أخرى بعد نهايتها بمعناها الدقيق . وعلى هذا من الخطأ ان نضع الخط الواضح الذى يفصل بينها وبين المرحلة السابقة لها وتلك التى أعقبتها . إذ أن هذا الصراع عبارة عن مجموعة متراصة من الوقائع والأحداث المترابطة التى لا يمكن تقسيمها أو تجزئتها أو فصلها عن بعضها ، وأن كل مرحلة منه ما هى إلا فترة انتقال من السابق إلى اللاحق . لهذا لا يمكننا أن نأخذ بفكرة بداية الحركة الصليبية أو نهايتها فى سنة معينة أو يوم معين ، فتحديد السنين والتواريخ مسألة اعتبارية بحتة لتسهيل فهم أى موضوع وتقريبه إلى الأذهان .

ويمكن القول إن هذه الظاهرة التاريخية كانت تمثل روح العالم الغربى الوسيط والأفكار السائدة فيه وقتذاك تمثيلا صادقا فى ناحيتين هامتين رئيسيتين ألا وهما ناحية الدين وناحية الحرب . (١) فالأولى أوحت بها منذ البداية الديانة المسيحية التى سادت الغرب بعد صراع رهيب مع الوثنية وأباطرة الرومان فى أخريات عهدهم . وأصبح الدين والكنيسة قوة عظيمة فى تلك القرون الغابرة ، حتى أن كل من كان يخالف تعاليمها كان يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب . وما أكثر أسلحتها التى كانت تستخدمها ضد معارضيها وبخاصة فى ميدان السياسة . لقد تحكمت هذه الكنيسة بحكم الظروف التى أحاطت بنشأتها عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط فى مقدرات الأفراد وفى حياتهم الخاصة والعامة ، لها الأمر والنهى وعليهم السمع والطاعة . (٢) وبلغت ذروة

---

(١) Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 20.

(٢) لقد عانى المصلحون الدينيون فى أوروبا على أيدى المتزمتين من رجال الدين من الاضطهاد والتنكيل مايفوق حد الوصف . راجع عن ذلك :

Turberville, Mediaeval Heresy & the Inquisition, 145-154; Coulton, The Inquisition, 5-99.

مجدها وقمة سطوتها أثناء الصراع العنيف الذى قام بينها وبين القوى الزمنية فى الغرب وعلى رأسها الامبراطورية حول المسائل العلمانية . فأخذت تنكل بالأباطرة والملوك والأمراء ، وتوقع عليهم قرارات الحرمان الكنسى والنقمة واللعنة والقطع ، وتشتبك معهم فى حروب دامية تحقيقا لمصالحها وأطماعها التى لم تكن تقف عند حد (١) .

وهكذا عاش الفرد الوسيط داخل هذه الدائرة الضيقة المغلقة التى وضعته فيها الكنيسة ، لا حول له ولا طول ، وعليه السمع والطاعة دون جدل أو مناقشة . هذا عن الدين ، أما عن ناحية الحرب فهى تقترن بقيام النظام الاقطاعى وما يلحقه من نظام الفروسية حيث يبرز الفارس ما تعلمه من فنون القتال . ولقد تأثر العقل الوسيط بهاتين الفكرتين تأثرا كبيرا ، حتى انه عندما دعا البابا اربان الثانى إلى حمل الصليب فى خطبته الملتهبة التى ألقاها فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م فى مؤتمر كليرمون بفرنسا ، وجد تجاوبا عجيبا من كافة الطبقات والهيئات . واندفع الناس للانخراط فى سلك هذه الحروب من كل فج وصوب فى الغرب الاوروبى ؛ ذلك لأنها اصطبغت بصبغة الدين والحرب . فالدين غدا من ألصق الأشياء بحياة الناس الخاصة والعامة وقتذاك، بينما كانت الحرب صناعة الفارس الأولى . ويكفى أن النجاح الذى لاقته تلك الدعوة فى بدايتها فاق بكثير ما كان يأمله أربان نفسه بشهادة المؤرخين اللاتين الذين عاصروا أحداثها وكتبوا عنها ، ومن نقل عنهم من المحدثين (٢).

---

(١) أنظر عن ذلك هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ـ ترجمة وتعليق د . جوزيف نسيم يوسف (الاسكندرية ١٩٦٦) ص ٤٠ – ٤٩ و ١١٨ وما بعدها و ٢٣٩ وما بعدها ؛ كولتون: عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ـ ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٢٦٥ ومابعدها .

(٢) أنظر: Baldwin, Med. Church, 101; Ostrogorsky, Byzantine State, 320.

والحرب الصليبية ولو أنها تتفق مع الحروب السابقة عنها واللاحقة لها فى حقيقة دوافعها واتجاهاتها الاستعمارية ، الا أنها تختلف عنها اختلافا بينا من حيث طبيعتها وماهيتها وخصائصها . فلها كيانها ومقوماتها والأسس التى ترتكز عليها ، مما يجعل لها وضعا خاصا فى تاريخ الاستعمار . فهى حرب جامعة «Passagium generale» قام بها أهل الغرب الأوروبى ضد الشرق العربى والشمال الافريقى ، استجابة لنداء البابوية فى روما وتحت إشرافها وبتوجيه منها ، بقصد الاستيلاء على الأراضى المقدسة وتأسيس مملكة لهم بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المملكة وتوسيع حدودها والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل ، حتى تكون نقطة ارتكاز لهم يتوسعون منها على حساب البلدان المجاورة . (١)

وهى كثيرة معقدة امتدت من أخريات القرن الحادى عشر إلى أخريات القرن الرابع عشر ، واتصل فيها الكفاح بين الغزاة الوافدين من الغرب وبين أصحاب البلاد الأصليين . ولكن الحملات الرئيسية من الحروب المبكرة ثمان أو تسع ، لما تميزت به من دوافع أدت بحق إلى اعتبارها حملات مستقلة قائمة بذاتها(٢). ولم

---

(١) أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ٨ . وحول أوجه الشبه والخلاف بين الحروب الصليبية والحروب البيزنطية ، وبخاصة فى عهد كل من نقفور فوكاس ويوحنا تزيمسكس ، وكذلك موقف كل من بابوية روما وكنيسة بيزنطة من تلك الحروب ، أنظر عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة (الاسكندرية ١٩٥٩) ، ص ٦ — ٨ و ٢١ — ٢٣ و ٤٧ — ٤٨ ، ومقدمات العدوان الصليبى « الامبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية » (الاسكندرية ١٩٦٦) ، ص ٨٧ — ١٠٠ . وسوف نعرض لتعريف كبار المؤرخين الغربيين لتلك الحروب فى الصفحات القادمة .

(٢) اعتاد مورخو الحروب الصليبية تقسيم هذه الحركة إلى ثمانى حملات كبيرة . ولكن الدراسات التاريخية الحديثة أثبتت أنها تسع بعد اعتبار فترة إقامة الملك الفرنسى لويس التاسع فى سورية من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٢٥٤ م ، عقب هزيمته فى مصر ، حملة مستقلة قائمة =

تكن قاصرة على أمة معينة أو جنس بذاته، فقد اشترك فيها فرنسيون وإيطاليون وألمان وانجليز وأسبان وفلمنكيون وغيرهم من شعوب الغرب اللاتيني، وإن كانت نسبة إسهام أي أمة غربية في أي حملة من تلك الحملات ترتبط إلى حد بعيد بالظروف والأحوال السائدة فيها وقت قيام حملة ما أو الدعوة لها . (١) وكان المظهر الدولي هو الطابع المميز لها ، وهناك عدة عوامل تؤكد هذا المظهر

= بذاتها ، تضاف إلى زميلاتها من تلك الحملات العدوانية . أنظر جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٣٤٠ ــ ٣٤٤ . أما المؤرخ فردريك هير فيرى أن الحملات الصليبية الرسمية هي الحملات الخمس الأولى فحسب ؛ هذا بخلاف المناوشات التي كانت تحدث عادة بين الفريقين في الأراضي المقدسة فيما بين الحملات المذكورة . أنظر : Heer, Med. World, 96. وكيفما كان الأمر يجب أن ندخل في الاعتبار أن المقصود بالحملات الرئيسية تلك الحملات التي كانت تقرر في مؤتمرات أو مجامع كنسية ، مثل الحملة الصليبية الأولى التي تقررت في مجمع كليرمون الكنسي في نوفمبر ١٠٩٥ برئاسة البابا أربان الثاني ، وحملة لويس التاسع على مصر التي تقررت في مجمع ليون الكنسي سنة ١٢٤٥ برئاسة البابا انوسنت الرابع . ومع ذلك فهناك حملات ثانوية لا تدخل ضمن الحملات الكبرى الرئيسية ، ومثل تلك الحملات الصغرى قد لا تدعو إليها البابوية ، ولكنها كانت تقوم ــ في الغالب ــ لمساعدة القوات الصليبية بالشرق . ولذلك يمكن اعتبارها امتدادا طبيعيا للحملات الصليبية الكبيرة ــ أنظر عن ذلك Matt. Paris, II, 64-5, 86-8; S. Runciman, A. Hist. of the Crusades, Vol. I, (Cambridge, 1954), 106-11.

(١) نجد مثلا واضحا لذلك في حملات لويس التاسع ملك فرنسا على مصر والشام والشمال الافريقي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، إذ كانت كلها حملات فرنسية الصبغة والطابع . وإن كانت باقي أمم الغرب قد أسهمت فيها بنصيب ، فإنما كان ذلك بقوات رمزية فحسب . ويرجع هذا أولا وقبل كل شيء إلى الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في الغرب اللاتيني وقتذاك ، والتي سمحت لفرنسا باعداد تلك الحملات ، وحالت دون اشتراك باقي دول الغرب فيها اشتراكا فعليا . أنظر المصادر التالية : Matt. Paris, II, 103-4, 122-3, 163, 291-2, 331, 356-7, 387, 439-40, 481-3, 497-8, 505-6; Rothelin, op. cit., II, 525-6, 556-66; Joinville, op. cit. (ed. Wailly), 40-50, 56-60.

راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع في الشرق الأوسط (القاهرة ١٩٥٩)، ص ٢٩ و ١٠٠ ــ ١٠٦ .

وتبرزه . فقد كانت اوروبا بأسرها تدين بالمسيحية على المذهب الكاثوليكى ، لها كنيسة واحدة هى كنيسة روما ، وعاصمة روحية واحدة هى روما ، وقد سادت لغتها اللاتينية وحضارتها بين جميع أهل الغرب . كما مرت هذه الدول جميعها بنفس العوامل والتطورات التاريخية التى ميزت نهاية التاريخ القديم وبداية العصور الوسطى ؛ فقد كان معظمها يدخل فى نطاق الامبراطورية الرومانية المجددة . كما تركت فيها غزوات البرابرة الجرمان نفس التأثير ولو بدرجات متفاوتة . ثم ان النظام الاقطاعى بمعناه المعروف كان منتشرا فى الغرب الاوروبى كله وقتذاك . كل هذا جعل العالم الغربى وحدة كبرى فى مجموعه على رأسه عاهلين : البابا ويحكم من الناحية الدينية ، والامبراطور ويحكم من الناحية الزمنية .

وإن هذه العوامل متجمعة تساعد على فهم ماهية الحركة الصليبية وطبيعتها ومظهرها الدولى فى المجتمع الغربى الوسيط ، حتى أنه عندما أصبحت حقيقة واقعة وجدت فى أوروبا مرتعا خصيبا ، واعتنق الناس مبادئها وغامروا بأموالهم وأنفسهم فى سبيلها .

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن كلمة « الحروب الصليبية » أطلقت على كثير من الحروب التى تختلف عنها فى طبيعتها وخصائصها ومميزاتها . فيعتبر بعض المؤرخين حروب الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) ضد الفرس لاستعادة الصليب الحقيقى أول الحروب الصليبية أو من نوعها ، بحجة أن الدولة البيزنطية قامت بها بحافز من الحماس الدينى (١) . وينظر إليه البعض باعتباره أول المحاربين

---

(١) أنظر : أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٥-١٠٦ . راجع أيضاً :
Runciman, Byzantine Civilisation, 40; Grousset, Sum of Hist.,163.
ويلاحظ أن هذه الفكرة مستوحاة أساسا من كتاب المؤرخ الصليبى وليم الصورى .

الصليبيين ، فيما يتعلق بحروبه ضد العرب وهزيمته أمام القوات العربية فى واقعة اليرموك سنة ٦٣٦ م . (١) ويكفى ان المؤرخ اللاتينى وليم الصورى أشار فى بداية كتابه إلى حروب هرقل باعتبارها ممهدة للحركة الصليبية نفسها ، ونقل عنه المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه هذه الفكرة(٢). وهناك من يرى أن حروب كل من الامبراطور البيزنطى نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) وخلفه يوحنا تزيمسكس المعروف باسم حنا الشميشق (٩٦٩—٩٧٦ م) ضد العرب ، هى أيضاً من قبيل الحروب الصليبية (٣) . وإنه من باب التجاوز تعريف هذه الحروب التى قامت بها بيزنطة سواء ضد الفرس أو العرب بالحروب الصليبية التى تختلف فى مدلولها الدقيق عن تلك الحملات البيزنطية . وهى وان اصطبغت بالصبغة الدينية فى وقت ما ، فقد كان يغلب عليها العنصر السياسى (٤) .

---

(١) أنظر : Grousset, L'Empire du Levant, 85; Arnold, Legacy of slam, 41.

(٢) Grousset, Histoire des Croisades, I, I-IV. Cf. Atiya, op. cit., 27.

يلاحظ أن مؤلف وليم الصورى الذى وضعه باللاتينية تحت اسم « تاريخ الأحداث التى وقعت فى المناطق التى فيما وراء البحار » هو أساسا سرد لتاريخ الأراضى المقدسة فى عصره. وأما الكتاب المعنون «تاريخ الامبراطور هرقل والاستيلاء على البلاد التى فيما وراء البحار» والمنشور فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) — ج ٢ (باريس ١٨٥٩)، ص ١ — ٤٨١ ، يعتبر الجزء الأساسى فيه لوليم الصورى نفسه . وهو مترجم إلى الفرنسية القديمة عن الأصل اللاتينى لمؤلف وليم الصورى .

(٣) Matt. d'Édesse, R. H. C.- Doc. Arm., I, 13-20. راجع أيضاً: عمر كمال : نقفور فوكاس ، ص٦—٨ و ٤٧ — ٤٨ ؛ حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٩ . ويعتبر الدكتور عمر كمال توفيق ثقة فى هذا الموضوع . ينظر مؤلفه القيم « مقدمات العدوان الصليبى — الامبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية » — الاسكندرية ١٩٦٦، وبخاصة الفصل الرابع .

(٤) الحروب الصليبية هى حروب قامت بها جامعة الأمم المسيحية الغربية بأكملها ضد أمم =

وهناك فئة أخرى من المؤرخين تعتبر حروب مسيحي الغرب ضد العرب فى اسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا فى القرنين العاشر والحادى عشر ، هى الأخرى حروبا صليبية (١) . بل ان هناك من يرى ان الحروب التى قامت بين المسلمين والمسيحيين منذ بدء الدعوة الاسلامية دون اعتبار للزمان أو المكان حروب صليبية (٢) . وهذه التسمية بعيدة عن الحقيقة ، ويمكن تعريف مثل هذه الحروب بأنها مقدمة للحركة الصليبية أو الحروب الممهدة لها . ويطلق بعض المؤرخين على الحروب التى قامت فى القرن الرابع عشر اسم « الحروب الصليبية

= العالم العربى تحت زعامة البابوية التى منحت امتيازات عديدة لمن يشترك فيها . أما الحروب البيزنطيـة فهى حروب فردية قامت تحت زعامة أباطرة بيزنطيين ، وكانت القـوات المشتركة فيها بيزنطية هيلينية ، ولم تباركها الـكنيسة البيزنطية لظروف خاصة بها . أنظر : عمر كمال : نقفور فوكاس ، ص ٢١ — ٢٣ و ٤٧ — ٤٨ . وكـذلك كتاب :

Heer, Med. World, 97.

وجدير بالذكر أن مصطلحـات مثل « الصليبيين » و « الحروب الصليبية » لم تستخـدم قبل الحركة الصليبية . بمعنى أننا لم نقرأ عنها فى المصادر الغربية حتى أواخر القرن الحادى عشر عندما دعا البابا أربان الثانى إلى تلك الحركة فى كليرمون . وأن حملات بعض الأباطرة البيزنطيين مثل هرقل وفوكاس وتزيمسكس ضد العرب ، وإن كانت هناك أوجه شبه بينها وبين الحروب الصليبية ، إلا أنه لم يطلق عليهـا فى حينها هذا الاسم . وإنمـا عرفت هذه التسمية رسميـا فى الغرب بعد القاء أربان الثانى خطابه المعروف فى كليرمون ، وصاح المحتشدون صيحتهم المشهورة « هذه هى إرادة الله » ، وحملوا منذ ذلك الحين شارة الصليب ، ومن هنا سميت الحركة باسم « الحروب الصليبية » .

(١) باركر: الحروب الصليبية، ص١٦ـ١٧؛ زكى محمد حسن :الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص٨٥ . أنظر أيضا: Haskins, Normans in European Hist., 208: هـذا ويطلق بعض المؤرخين على حروب الأسبان المسيحيين ضد غرناطة العـربية فى أخريات القرن الخامس عشر اسم الحروب الصليبية أيضا . أنظر : عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ، ص ١٩٥ وما بعدها .

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٧ـ١٨ .

المتأخرة » ، تمييزا لها عن الحروب الصليبية المبكرة (١) . وهى فى واقع الأمر خاتمة الحروب الصليبية الأولى وجزء لا يتجزأ منها ، باعتبارها من أهم نتائجها وآثارها .

وبناء على ما تقدم ، عندما نقول إن الحركة الصليبية بدأت فى عام ١٠٩٥ م وانها انتهت فى عام ١٢٩١ م ، فهذا لا يعنى انها بدأت دون ممهدات أو سابق انذار ، أو انها انتهت دون أن يترتب عليها نتائج وآثار فى الأحقاب التالية . لقد اعتبرت سنة ١٠٩٥م كبداية لها ، لأنها السنة التى بشر فيها البابا اربان الثانى بتلك الحركة فى كليرمون ، والتى دعا فيها إلى حمل الصليب للاستيلاء على فلسطين وتأسيس مستعمرات لاتينية هناك . كما اعتبرت سنة ١٢٩١ م كنهاية لها ، لأنها السنة التى استولى فيها السلطان الأشرف خليل على مدينة عكا ، وهى آخر معاقل الفرنج الحصينة بالساحل الشامى . لذا لا يمكن للباحث المدقق أن يأخذ بهذا التحديد الزمنى الجاف . فقد كانت روح هذه الحركة وصفاتها موجودة فى الغرب قبل سنة ١٠٩٥ بعشرات السنوات ، ولم يكن ينقصها سوى أن تصطبغ بالصبغة الرسمية وأن يوجد الرجل الذى يعلن مولدها ، وقد تم هذا فى عام ١٠٩٥ . كذلك اتفق المؤرخون على اعتبار سنة ١٢٩١ بمثابة نهاية هذه الحركة . ولكن بالرغم من ذلك قامت مشاريع وحملات أخرى تحمل نفس الطابع خلال القرن الرابع عشر ، والتى تعتبر امتدادا للفكرة الصليبية واستمرارا لها . والواقع الذى لاخلاف فيه انه كانت هناك عوامل كثيرة مختلفة متشابكة معقدة مهدت لتلك الحركة الغربية وأدت فى نهاية الأمر إلى قيامها . ولم تكن هذه العوامل بنت يوم وليلة ، إنما استغرقت وقتا طويلا قبل قيام الحروب الصليبية

---

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 10, 480.

نفسها . كما ظلت هذه الفكرة بعد سقوط عكا نحو قرن من الزمان ، ولم تفقد صفاتها الحقيقية بمدلولها الدقيق الا بعد القرن الرابع عشر .

وهناك من يقول إن الحروب الصليبية نفسها ما هى الا امتداد طبيعى لحروب التوسع الاقطاعى التى كان يقوم بهـا كبار رجال الاقطاع فى الغرب الاوروبى قبيل الحركة الصليبية (١) ، مثل حروب جودفرى دوق اللورين السفلى مع جيرانه ، وحروب جويسكار وابنه بوهيمند فى جنوب ايطاليا (٢). والحقيقة أنهما يتشابهان فى فكرة الأطماع والاتساع ، مع فارق هام وهو أن هذا الاتساع كان منظما أيام الحروب الصليبية ، وقامت به معظم دول الغرب مجتمعة تحت إشراف البابوية ووجهته الشرق العربى . أما الحروب الاقطاعية الغربية السابقة للحركة الصليبية فكانت فردية بين أمراء الاقطاع وبعضهم البعض ، أو بينهم وبين البيزنطيين أو العرب المتاخمين لهم فى المناطق التى استولوا عليها فى اوروبا . وكانت مثل هذه الحروب تعتبر أمرا عاديا ومألوفا فى ذلك الحين .

---

(١) أول من أشار إلى هذه النظرية هو العالم لويس هالفن فى مؤلفه « انطلاقة أوروبا فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر » . وقد أوضحها فى الكتاب الأول من مؤلفه عندما تناول العلاقة بين أوروبا الاقطاعية والتوسع الصليبى الغربى فى الشرق . فتحدث أولا عن الاقطاع فى أوروبا فى القرن الحادى عشر ، ثم انتقل إلى أوضاع الكنيسة اللاتينية خلال ذلك القرن، فالتوسع الاقطاعى داخل أوروبا قبيل الحملة الصليبية الأولى مثل استيلاء النورمان على صقلية وجنوبى إيطاليا والجزيرة البريطانية . واستطرد بعد ذلك فى الحديث عن التوسع الاقطاعى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، فقيام الحملة الصليبية الأولى وامتداد التوسع الاقطاعى الأوروبى من غربى البحر المتوسط إلى شرقيه .

أنظر : L. Halphen, L'Essor de l'Europe (XIe - XIIIe siècles), Paris, 1941, 4 ff., 46 ff., 63 ff.

(٢) أشرنا إلى ذلك عندما تعرضنا لحملتى جودفرى وبوهيمند فى الفصل الخامس من هذا الكتاب .

ومما يدعو إلى التساؤل أنه وجد نوع آخر من الحروب التى لا صلة لها إطلاقا بالحركة الصليبية لعدم توفر الصفات الهامة فيها التى تعتبر من مستلزماتها ، ومع ذلك أطلق عليها اسم الحروب الصليبية . من ذلك الحملات التى شنتها بابوية روما ضد معارضيها من الألمانيين خلال الصراع العنيف بينها وبين الامبراطورية على الأمور الألمانية ، مثلما فعل البابا انوسنت الرابع عندما بشر بحملة صليبية ضد كونراد الرابع ابن الامبراطور فردريك الثانى ، واعداً بمنح صكوك الغفران لكل من يشترك فيها ولذويهم ايضا ؛ تلك الصكوك التى كانت تمنح عادة لمن ينخرط فى سلك الحرب الصليبية بقصد غزو بيت المقدس (١). ومن هذا النوع أيضا الحروب التى بشرت بها البابوية ضد الخارجين عليها من الهراطقة المسيحيين ؛ كتلك التى شنتها ضد الألبيجيين فى شتاء ١٢١١/١٢١٢م ؛ وتلك التى وجهتها ضد اتباع المصلح البوهيمى يوحنا هس فى الفترة الواقعة من ١٤٢٠ م إلى ١٤٣١ م . (٢) وكذلك الحروب الصليبية التى دعا اليها بابوات روما وافنيون ضد بعضهم البعض فى فترة الأسر البابلونى . (٣) وإن استغلال البابوية لهذه التسمية فى أغراض ونواح شتى متباينة ، إن دل على شىء فإنما يدل على انها اتخذتها سيفا مسلطا ضد معارضيها من حكام واباطرة وهراطقة ، وانها تسترت وراءها تحقيقا لاغراض ليست من الدين فى شىء . فأصبحت الدعوة إلى حرب صليبية سلاحا ماضيا فى يد البابوية تشهره فى وجه الخارجين عليها ، وتستخدمه كلما دعت الضرورة إليه . شأنه شأن باقى أسلحتها المعروفة

---

(١) Matt. Paris, II, 462.

(٢) انظر عن ذلك : Baldwin, Med. Church, 107; Arnold, Legacy of Islam, 69; Waugh, Hist. of Europe, 163 sqq.

(٣) Waugh, op. cit., 16.

كالحرمان والنقمة واللعنة والقطع ، ولكن هذا السلاح بدأ يفقد قوته عندما فقدت البابوية هيبتها ونفوذها فى أخريات العصور الوسطى وأخذت تسير سريعا نحو التدهور والانحلال .

وكيفما كان الأمر ، فقد قامت الحروب الصليبية نتيجة لظروف وعوامل متشابكة أفاض الكتاب المحدثون فى دراستها وتحليلها . ومع ذلك فهناك بعض البواعث التى لم تدرس بعد دراسة وافية ولا زالت فى حاجة إلى مزيد من البحث ، ومنها الباعث الشخصى فى قيام هذه الحروب ، والرجل الذى دفعها إلى الأمام تلك الدفعة القوية التى جعلت منها حقيقة واقعة . وقد اختلفت آراء المؤرخين حول هذا الموضوع اختلافاً بينا ، وظهرت كثير من النظريات التى تسند قيام الحركة إلى شخص دون آخر . نجملها فيما يلى (١) :

أولا — أنشودة رولان وقصيدة حج شارلمان إلى الأراضى المقدسة :

تعتبر انشودة رولان من أشهر الأناشيد المعروفة فى الأدب الشعبى فى المجتمع الغربى الوسيط ، وهى التى خلد فيها الشعراء الحملة التى قام بها الامبراطور شارلمان تجاه الأندلس سنة ٧٧٨ م . ونظرا لما كانت تحويه من آراء تدعو إلى القتال ، فقد استغلت زمن الحروب الصليبية لتحقيق أغراضها . كذلك ظهرت أسطورة حج شارلمان إلى الأراضى المقدسة فى ذلك الوقت بالذات بقصد حث أهل الغرب لنجدة اخوانهم فى الشرق . (٢) وتناول هذه الفكرة بالنقد أكثر

(١) تناولت أهم النظريات التى أثيرت حول هذا الموضوع بشىء من الافاضة والتحليل فى مقالى « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد ١٦ ، ص ١٨٣ — ٢١١ . واكتفيت هنا بالاشارة إلى خلاصة آراء المؤرخين فى هذه الناحية دون التعرض للتفصيلات .

(٢) انظر : ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ٥٦ .

من مؤرخ ، نذكر منهم و . ب . كير ، وكارلس ديفز ، وجاستون باريس ، وارنست باركر . وخلاصتها أن أغنية رولان وقصيدة حج شارلمان اسطورتان بعيدتان عن الحقيقة التاريخية ، وقد لعب فيهما الخيال دورا كبيرا ، وانه تم وضعها قبل قيام الحركة الصليبية بوقت غير قصير ، ثم استغلا زمن الحرب الصليبية لتحقيق أهدافها . ولعل الأثر الوحيد لها هو نجاحهما فى إثارة الرغبة الكامنة لدى أهل الغرب للقيام بحروب عدوانية ضد العرب فى الشرق عند بداية الحركة . (١) وعلى هذا فإنه يمكن النظر إلى مثل تلك الملاحم باعتبارها عاملا مساعدا هيأ الجو لقيام العدوان الصليبي ، ولكنها لا ترقى بحال إلى مستوى العوامل الرئيسية التى أدت إلى قيام هذا العدوان .

ثانيا — دور بيزنطة والكسيس كومنين فى الدعوة إلى الحركة الصليبية :

يرى بعض المؤرخين الغربيين المحدثين أن الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين هو المسئول الأول عن قيام الحركة الصليبية . ويستدلون على ذلك من

---

(١) انظر: ديفز: شارلمان ، ص ٢٨٥–٢٨٨ ؛ وكذلك Paris, Med. French Lit., 32, 38-42. ويؤكد و. ب. كير أنه لا توجد أية صلة بين الحروب الصليبية وبين تلك القصيدة الفرنسية الأصل التى تروى قصة ذهاب شارلمان إلى الأراضى المقدسة ، والتى تم وضعها قبل قيام الحركة الصليبية نفسها ، قائلا انها لا تعدو أن تكون أسطورة هجمية . أما عن أغنية رولان فيقول إنها أنشودة سابقة للحملة الأولى . ومع ذلك فهى فى روحها أنشودة صليبية تتناول سير البطولة إذ تروى حروب المسيحية النوبية ضد العرب فى أسبانيا . فضلا عن كونها أغنية فرنسية تتحدث عن شرف فرنسا وكرامتها . انظر : Ker, Dark Ages, 350, 353-6. — وجدير بالذكر أن كثيرا من المؤرخين اللاتين المعاصرين للحركة الصليبية استغلوا هذه الأحداث إلى أقصى حد . فكانوا يذكرون مواطنيهم الفرنج بأمجاد أسلافهم فى الحروب بقصد إثارة هممهم ضد العرب . ومن هؤلاء امبرواز الذى ضمن كتابه قصيدة عن شارلمان وحملاته فى الشرق والغرب ، وكأنه يريد أن يقدم لمعاصريه مثالا يحتذون به ونموذجا يسيرون على منواله . انظر :

Ambroise, Crusade of Richard Lion — Heart, 324 - 5.

خطاب يقال إنه أرسله حوالى سنة ١٠٨٨ م إلى روبرت أمير الأراضى الواطئة ، يستحثه فيه على ايفاد النجدات إلى القسطنطينية لدفع خطر السلاجقة عنها ، ثم التوجه بعد ذلك للاستيلاء على الأراضى المقدسة(١). وعلى رأس الذين يعتقدون فى صحة هذه الوثيقة العالمان هاجينماير الألمانى Hagenmeyer ، ورهرشت النمسوى Röhricht (٢) . وخلاصة رأيهما أنه إذا لم يكن الخطاب الذى وصلنا هو الخطاب الأصلى الصادر عن الكسيس ، فهو على الأقل صورة أخرى منه تتضمن نفس المعانى والأفكار . أما الرأى المعارض فهو ينفى نفيا قاطعا صدور الخطاب عن الامبراطور البيزنطى . وعلى رأس هذا الفريق المؤرخان الفرنسيان فرديناند شالندون وشارل ديل . ويؤيدهما فى ذلك كثير من المؤرخين المحدثين أمثال الكونت بول ريان . وفازيلييف . ورانسيمان ، واستروجورسكى . ويتلخص رأى الجبهة المعارضة فى عدة نقاط هى :

١ — لا يوجد أى أصل اغريقى لهذا الخطاب ، وكل ما وصلنا هو النص اللاتينى المنوه عنه وليس هناك ما يدل على أنه ترجمة لأصل يونانى مفقود (٣) .

٢ — الأسلوب والطريقة التى دون بها الخطاب لا يتفقان بحال مع العادات والتقاليد المرعية فى ديوان الانشاء فى الدولة البيزنطية فى ذاك الحين .

٣ — ان طلب بيزنطة المساعدة من أهل الغرب كان أمرا عاديا وقتذاك ،

---

(١) انظر الخطاب المذكور فى : Guibert de Nogent, R.H.C. - H. Occ., IV, 131-2. ؛ انظر الترجمة العربية للخطاب فى الملحق الأول بآخر الكتاب نقلا عن طبعة هاجينماير .

(٢) راجع عن المناقشة فى هذا الموضوع : Grousset, Crois., I, p. 2 & n. 2

(٣) Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 48; Riant, A.O. L. I, 74.

ولا يعنى الدعوة إلى حرب صليبية بمعناها المعروف ، إذ سبق لها استخدام الغربيين فى جيوشها كمرتزقة لدفع التركمان عن حدودها (١) .

٤ — لم يشر المؤرخون المعاصرون لبداية الحركة الصليبية إلى طلب الكسيس المساعدة من أهل الغرب للقيام بحرب مقدسة فى الشرق العربى . وتؤكد الكاتبة الأغريقية آن كومنين أن والدها الامبراطور لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الحركة ، وأنه فوجىء بوصول الجيوش اللاتينية الجرارة إلى أراضى دولته (٢) .

٥ — لا نجد هذه الأسطورة إلا فى كتب بعض المؤرخين اللاتين المتأخرين نسبياً أو الذين لم يشاهدوا أحداثها مثل روبرت الراهب ، وجيبرت ده نوجان.(٣) ويعتقد الكونت ريان أن واضع الخطاب هو روبرت الراهب نفسه (٤).

٦ — لم يكتب الخطاب المذكور سنة ١٠٨٨م، وإنما وضع فى الغرب فيما بين سنتى ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ م بقصد إثارة الشعور هناك ضد العرب فى المشرق . ويرجح أنه وضع أثناء حصار كربوغا حاكم الموصل لمدينة أنطاكية فى الحملة الأولى (٥) .

والخلاصة أن الخطاب المذكور أسطورة أو وثيقة مزورة لا تقوم على أساس علمى سليم ، وليس فيها أى احتمال للصحة .

---

(١) Heer, Med. World, 96; Chalandon, Alexis Comnène, 156-7.

(٢) Alexiad, 249, 250, 263.

(٣) Robert le Moine, R. H. C. - H. Occ., III, 727; Guibert de Nogent, R. H. C. - H. Occ., IV, 131-2.

(٤) انظر الحاشية رقم ٣ بالصفحة رقم ٥٣ .

(٥) Diehl, L'Europe Orientale, 16. وأشار إلى ذلك أيضا شالندون فى كتابه عن حكم الكسيس كومنين .

ثالثا — أساطير قامت حول بعض زعماء الحملة الأولى :

وهناك فئة من المؤرخين تنسب قيام الحركة الصليبية إلى بعض زعماء الحملة الأولى . فمن قائل ان بطرس الناسك هو المسئول الأول عنها . وحجة هذا الفريق أن بطرس هو الذى حث البابا اربان الثانى على القيام بتلك الحركة . وقد ثبت أن هذه الأسطورة هى الأخرى بعيدة عن الحقيقة التاريخية (١) . ويبدو أن النجاح الذى أصابه اللاتين فى الحملة الأولى ، جعل بعض المؤرخين المتأخرين نسبياً ينسبون أمر قيامها إلى عدد من زعماء تلك الحملة مثل ريمون ده سان جيل كونت تولوز ، وجود فرى دوق اللورين السفلى الذى جعلوا منه بطل الحرب الصليبية ومحركها (٢) .

وإن مثل هذه الروايات والأساطير السالف الاشارة إليها ليس فيها أى أساس من الصحة ويجب تقبلها بحذر ، كما يبدو فيها طابع الخيال الشعرى واضحا . وقد ذاعت فى الغرب طوال عصر الحروب الصليبية بقصد التسلية وإثارة الشعور والهمم فحسب . وكان الشعراء يكسون قصصهم باللون الصليبى فى عصر كان يقوم على دعامتين هامتين هما الحرب والدين (٣) .

---

(١) ظهر الدور المنسوب إلى بطرس فى بداية القرن الثانى عشر ، وخاصة عند البرت دكس وغيره من مؤرخى الحروب الصليبية مثل وليم الصورى فى أواخر ذلك القرن . أنظر : Albert d'Aix, R.H.C. - H. Occ., IV, 272 - 4; Guillaume de Tyr, R.H.C. - H. Occ., I, le., 32. — وكانت آن كومنين هى الكاتبة الوحيدة المعاصرة للحملة الأولى التى نسبت أمر قيامها إلى بطرس الناسك . انظر ، Alexiad, 248—9. ولها عذرها فى ذلك ؛ إذ لم تضع كتابها إلا بعد انتهاء الحملة الأولى بحوالى نصف قرن .

(٢) Michel le Syrien, R.H.C.-Doc. Arm., I, 327; Guillaume de Tyr, 71.

(٣) أنظر : Arnold, Legacy of Islam, 65—9.

رابعاً — البابا اربان الثانى والحركة الصليبية :

يتضح مما سلف أن النظرية السابقة لا تقوم على أساس علمى سليم . والثابت تاريخيا أن المسئول الأول عن قيام الحركة الصليبية هو البابا اربان الثانى ، يؤيده فى دعواه الجهاز الكنسى فى الغرب . وينسب إليه جميع المؤرخين اللاتين المعاصرين له الدور الرئيسى فى تحقيق هذه الفكرة ، وعلى رأسهم فوشيه ده شارتر ، وتيدبوده ، ورااؤول ده كان . (١) فقد كان على علم بالأوضاع السائدة فى كل من العالم العربى ودولة الروم وقتذاك ، فى وقت كانت فيه أوروبا فى وضع يسمح لها القيام بهذه الحملات . يضاف إلى ذلك أن تربية أربان وتنشئته الكلونية ساهمتا إلى حد كبير فى التعجيل بتنفيذ الفكرة الصليبية . فبذل جهدا واضحا فى سبيل الدعوة لها فى الأشهر السابقة لعقد مؤتمر كليرمون ، وتوج عمله باعلان مولدها فى الخطبة التى ألقاها فى المؤتمر المذكور . (٢) ثم واصل التبشير بها والاستعداد والدعاية لها فى الأشهر القليلة التى أعقبت انتهاء المؤتمر حتى قيام الجيوش الصليبية من أوطانها متجهة نحو الشرق .

---

(١) راجع عن ذلك : Foucher de Chartres, R.H.C.-H. Occ., III, 321; Tudebode, R. H. C. - H. Occ., III, 121; Raoul de Caen, R. H. C. - H. Occ., III, 606.

(٢) أنظر نص الخطبة فى المصادر التالية : Foucher de Chartres, 323-4; Robert le Moine, 727-30; Baudri de Bourgueil, 12-15; Guibert de Nogent, 137-40.

راجع أيضا الترجمة الانجليزية لنص فوشيه وترجمة بعض المقتطفات من نص روبرت الراهب فى : Downs, Basic Documents, 73-6. أنظر تحليل الدكتور عزيز سوريال للخطاب المذكور فى كتابه : Crusade, Commerce and Culture, 20-2.

أنظر أيضا الملحق الثانى بآخر الكتاب وهو عبارة عن نص مأخوذ من كتاب فوشيه عن الظروف التى دعا فيها البابا إلى المؤتمر المذكور .

نخلص مما سبق أن الحركة الصليبية هى حركة غربية بحتة تعهدتها الكنيسة الرومانية برعايتها وعنايتها طيلة مراحلها ، وقام البابا اربان الثانى بدور إيجابى فيها إلى أن خرجت إلى حيز الأشياء الملموسة ؛ (١) وإن جاءت نتائجها البعيدة مخيبة لآمال البابوية وأطماعها (٢).

وما دمنا نتحدث عن أثر الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية وعن دور اربان الثانى ومؤتمر كليرمون ، والبابا فرنسى الأصل والمدينة التى عقد فيها المؤتمر جلساته تقع فى قلب فرنسا - يحسن أن نعرض فى إيجاز لدور فرنسا فى هذه الحركة.

لقد كانت هذه الحروب منذ قيامها حتى نهايتها ، والتى اكتوى العرب بنارها فى المشرق والمغرب العربيين ، تحت إشراف معظمه فرنسى . بل إن بعضها كانت تتسم بالطابع الفرنسى الخالص . وهذا ما دفع فريقا من المؤرخين المحدثين إلى اعتبار فرنسا بحق مهد الحروب الصليبية والدولة الصليبية الكبرى فى أوروبا (٣)، وانها قامت من تلك الحروب مقام الروح من الجسد بالقياس إلى غيرها من دول الغرب الأوروبى (٤).

والشواهد على ذلك كثيرة متعددة . فأول من شجع مسيحى الغرب على القتال ضد العرب فى أسبانيا وغيرها من المناطق التى كانت فى قبضة العرب فى جنوب غربى البحر المتوسط قبل قيام الحركة الصليبية نفسها ، هم جماعة كلونى

(١) Grousset, Sum of Hist., 172-3.

(٢) Coulton, Med. Panorama, 653.

(٣) أنظر باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٤ ؛ وكذلك: Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 6; Daniel — Rops, La Cathédrale et la Crois., 547.

(٤) فشر : أوربا فى العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

الديرية جنوبي فرنسا . ولهذه الجماعة دور هام وأثر كبير فى هذا المضمار . وأول نداء أذيع للحركة الصليبية كان من فرنسا ، وأول من لبى النداء هم فرسانها الذين أصبحوا نموذجا لغيرهم من الفرسان الأوروبيين . فالبابا الذى نادى بالحركة فى كليرمون وهو أربان الثانى كان فرنسيا ، والمدينة التى شهدت مولد الحركة تقع فى وسط فرنسا (١) . كما أن بطرس الناسك أحد زعماء الحملة الشعبية كان راهبا فرنسيا ؛ وكذلك كان معظم زعماء الحملة الأولى من أصل فرنسى ، وعلى رأسهم روبرت النورماندى وروبرت الفلمنكى واتين ده بلوا وهيوج ده فيرماندوا شقيق فيليب الأول ملك فرنسا(٢) . وحتى قادة الفرق الألمانية والإيطالية الذين اشتركوا فى الحملة الأولى كانوا يتكلمون الفرنسية ، ونعنى جودفرى دوق اللورين السفلى وشقيقه بلدوين ، وبوهيمند النورماندى وابن أخته تنكريد . وكانت المملكة التى أقامها الفرنج فى الأراضى المقدسة فرنسية المظهر والطابع . ثم أن القديس برنارد الذى بشر بالحملة الثانية كان فرنسيا ، كما كان أحد قواد هذه الحملة هو لويس السابع ملك فرنسا . بينما اشترك فيليب أغسطس جد لويس التاسع مع عدد كبير من المقاتلين الفرنسيين فى الحملة الثالثة التى ساعد فى الدعاية لها الأسقف

---

(١) تعرف هذه المدينة حالياً باسم كليرمون فران Clermont Ferrand ؛ وهى تقع فى وسط فرنسا وتنقسم إلى قسمين أحدهما جبلى مرتفع والثانى سهل منبسط .

(٢) يعزى الأسقف الألمانى اكهارت دورا سبب اشتراك الفرنسيين فى الحملة الأولى إلى العامل الاقتصادى وحده . ويدلل على ذلك بأن البلاد أصبحت نهبا للحروب الأهلية ، كما انتشرت فيها الأوبئة والمجاعات، مما دفع جموع الشعب إلى البحث عن مخرج من هذه الأزمة. ولذلك لم يجد المسئولون صعوبة فى اقناعهم بترك أراضيهم والانخراط فى سلك الحرب المقدسة. أنظر : Coulton, Med. Village, 323. – وإن اسنادقيام الحملة الأولى إلى هذا العامل دون غيره فيه بعد عن الحقيقة التاريخية ، ويجب تناوله بحذر شديد ؛ لاسيما وأن أحداث الحركة من بدايتها إلى نهايتها ، والآثار المترتبة عليها حتى وقتنا هذا ، تؤكد اتجاهاتها التوسعية الإستعمارية فى العالم العربى .

وليم الصوري . والحملة الرابعة دعا إليها البابا انوسنت الثالث الفرنسي بقصد امتلاك مصر والبيت المقدس ، ولو أنها انحرفت عن هدفها . وتتميز الحملات الثلاث التي قام بها لويس التاسع ملك فرنسا على مصر والشام وشمال إفريقية بالطابع الفرنسي البحت(١)، ثم إن معظم المؤرخين اللاتين الذين عاصروا الحركة الصليبية وأرخوا لها ، كانوا هم أيضا من أصل فرنسي .

وإذا انتقلنا إلى الحروب الصليبية المتأخرة التي قامت في القرن الرابع عشر ، نجد أن فرنسا أسهمت فيها أيضا بنصيب الأسد . فمنها خرج كثير من الدعاة والمبشرين الذين أخذوا ينادون ببعث الفكرة الصليبية من مرقدها، تلك الفكرة التي كانت قد شهدت احتضارها على الساحل الشامي في أخريات القرن الثالث عشر. ومن هؤلاء الدعاة بطرس ديبوا Pierre Dubois ، ورامون لال Ramon Lull ، وبيركارد Burcard في عصر فيليب الجميل ملك فرنسا الذي أخذ يشجع على القيام بحملة صليبية جديدة بقصد غزو الأراضي المقدسة . وغيرهم من الدعاة أمثال بطرس ده توما Pierre de Thomas ، وفيليب ده مزيير Philippe de Mézières . وكان من أثر ذلك قيام بعض الحملات الفاشلة التي اتسمت بالطابع الفرنسي ، نذكر منها حملة بطرس الأول لوسنيان على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ م ، وحملة لويس الثاني دوق بوربون على المهدية بعد ذلك التاريخ بربع قرن (٢) . وحتى

(١) أنظر : جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٦ ؛
Paris, Med. French Lit., 37; Grousset, Sum of Hist., 172; Daniel-Rops, 547.

(٢) أثبت هذه النظرية الدكتور عزيز سوريال عطيه في مؤلفاته بالانجليزية : حملة نيقوبوليس الصليبية (طبعة لندن ١٩٣٤) ، والحروب الصليبية في أخريات العصور الوسطى (طبعة لندن ١٩٣٨) ، والحروب الصليبية والتجارة والثقافة (طبعة بلومنجتون ١٩٦٢) . أنظر أيضا .
McKisack, Fourteenth Century, 123-5; Waugh, op. cit., 27,431.

أدب الأساطير المتعلق بالحروب الصليبية كان فى غالبه فرنسى الطابع (١) .

والخلاصة أن الفرنسيين هم الذين كانت لهم اليد الطولى فى الدعوة لهذه الحركة (٢) ، وهم الذين أقاموا مملكة بيت المقدس اللاتينية فى قلب الشرق العربى ، وكانت حضارتهم هى الغالبة فيها . وهم الذين حاولوا عبثا الاستيلاء على الديار المصرية قلب العروبة النابض . وكرروا نفس المحاولة دون جدوى فى شمال افريقية . ونستطيع اليوم أن نقول دون مغالاة أن الانتداب الفرنسى الذى تعرضت له كل من سورية ولبنان فى العصر الحديث ، والتدخل الفرنسى فى شئون دول شمال افريقية ، يعد أثرا سيئا من آثار الحروب الصليبية . (٣) وهذا أيضا ما يمكن أن يقال بالنسبة للحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ م ، واشتراك فرنسا فى العدوان الثلاثى على البلاد سنة ١٩٥٦ م .

وهكذا اشتهرت فرنسا التى أسهمت بنصيب وافر فى تلك الحروب الدامية بعدائها التقليدى المزمن للعروبة والإسلام ، تساندها فى ذلك بقية دول الغرب اللاتينى التى شاركت فى الحروب المذكورة بالقدر الذى كانت تسمح به ظروفها الداخلية وقتذاك . (٤) وغير خاف انه لو كانت قد أتيحت لها نفس الظروف التى اتيحت لفرنسا ، لأصبحت كلها دولا صليبية كبرى .

---

(١) Coulton, Med. Panorama, 574. أنظر أيضا مقالى « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٨٠–١٨٨ والحواشى و ١٩٠ – ١٩٨ والحواشى .

(٢) Coulton, op. cit., 507.

(٣) أنظر : أرنولد : تراث الاسلام (الترجمة العربية) ، ج ١ ، ص ١٤٠ – ١٤١ .

(٤) يذكر المؤرخ الانجليزى جورج تريفيليان أن اشتراك الفرسان الانجليز فى الحروب الصليبية يعتبر بمثابة حالات فردية ؛ وأن الحركة الصليبية فى انجلترا لم تصبح إطلاقا مشروعا وطنيا أو تقليداً مرعياً ، مثلما كان الحال فى فرنسا . ويعلل ذلك بقوله إن فرنسا كانت لها =

نستبين مما سبق إلى أى اتجاه كانت تسير الحركة عندما أعلن البابا اربان الثانى مولدها فى كايرمون فى أخريات عام ١٠٩٥ م ، وعندما صاح المحتشدون لسماعه صيحتهم المشهورة « هذه هى ارادة الله » (Deus lo vult) ، وعندما حمل الجميع شارة الصليب شعارا لهم . ومن هنا عرفت الحركة فى التاريخ باسم الحروب الصليبية .

فهى اذن حروب دينية ، أو على الأقل كما يبدو من تسميتها وشعارها. وعلى هذا الأساس نظر اليها المؤرخون الغربيون ، القدامى والمحدثون ، فمن الكتاب المعاصرين للحركة نذكر فوشيه ده شارتر ، وريمون داجيل ، والمؤرخ المجهول ، والبرت دكس ، وروبرت الراهب ، وراؤول ده كان ، وجيبرت ده نوجان ، وتيدبوده ، وبودرى ده بورجى ، ووليم الصورى ، وامبرواز ، وفيل هاردوان (١) ، وجوانفيل ، وغيرهم . ومن المحدثين نذكر وهرشت ، وباركر ،

= موانى على البحر الأبيض المتوسط بعكس انجلترا . أنظر : Trevelyan, Shortened Hist. of England, 141. — ولا يمكن بحال أن نغفل الشعور الصليبى فى الجزيرة البريطانية التى ألقت بزهرة فرسانها وشبابها فى أتون تلك الحملات التوسعية ، وكان ملوكها على رأس أكثر من حملة منها . وحتى تلك الحملات التى اتسمت بالطابع الفرنسى الخالص فقد اشتركت فيها قوات رمزية من انجلترا . والواقع أنه لولا ظروف انجلترا ومشاكلها فى الداخل والخارج وقتذاك ، لساهمت فى الحركة الصليبية بنفس القدر الذى ساهمت به فرنسا، ولتهيأت لها الأسباب التى تجعل منها دولة صليبية كبرى مثل فرنسا . وهذا مايمكن أن يقال أيضا بالنسبة لبقية دول الغرب الأوروبى .

(١) هو جوفروا دى فيلهاردوان Geoffroi de Villehardouin مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة . وفيما يتعلق بسيرته ومذكراته المعروفة باسم « تاريخ سقوط القسطنطينية فى يد الفرنسيين والبنادقة » أنظر : محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية ، ص ١٠٧ - ١١٥ . أنظر الترجمة الإنجليزية لتاريخ فيلها ردوان فى :

Villehardouin, The Conquest of Constantinople, ed. Chronicles of the Crusades, trans. with an Introduction by M.R.B. Shaw, London, 1963, pp. 7-160 [Penguin Classics].

وستيفنسون ، ولويس برييه ، وشالندون ، وشارل ديل ، وشلومبرجيه ، ورينيه جروسيه ، ودانيال روبس ، وستيفن رانسيان . بل إن أحدهم وهو الكونت ريان وصف الحروب الصليبية بأنها حروب دينية خالصة ، ودوافعها واتجاهاتها دينية بحتة ، وهدفها الأول والأخير هو استرداد الأماكن المقدسة سواء أكان ذلك عن طريق مباشر أم غير مباشر(١). فهى فكرة تناقلها اللاحقون عن السابقين دون أن يتناولوها بما هى جديرة به من بحث وتمحيص وتحليل علمى سليم ، ودون أن يضعوا الأمور فى نصابها ويسموا الحقائق بمسمياتها . أو لعلهم تعمدوا إضفاء الصبغة الدينية البحتة عليها بقصد التمويه وإبعاد الشبهات عن الأهداف الحقيقية للعدوان الصليبى .

وهكذا اعتبر العامل الدينى هو الدافع الأساسى لهذه الحروب . وكيف لا وقد قامت فى نظر أولئك الكتاب اللاتين لهدف أسمى ألا وهو تخليص قبر المسيح وانقاذ الأراضى المقدسة من قبضة العرب ، فهى المكان الذى ولد فيه السيد المسيح وقدسه بزيارته وبشرفيه برسالته . وليس أدل على ذلك مما قاله مؤرخ صليبى عاصر أحداثها هو روبرت الراهب ، من أنها كانت من عمل الله وليست من عمـــل الانسان(٢). وليس هذا بمستغرب فى عالم كان يرتكز على هذه الناحية التى اعتبرت الأساس الأول للحياة والتفكير فى المجتمع الغربى الوسيط .

وإن اصطباغ هذه الحركة بصبغة الدين لا يعنى اطلاقا أنه كان العامل الحقيقى

---

(١) Riant, Inventaire des lettres des Crois., A.O.L., I, 2.

(٢) « ... Hoc enim non fuit humanum opus, sed divinum. »

Cf. Robert le Moine, R.H.C. - H. Occ., III, 723.

راجع أيضا عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس ، ص ٦ .

الذى أدى إلى قيامها . لاشك أن للدين أهميته وأثره فى كثير من الحروب التى شهدها العالم قديما وحديثا . فكان يستغل منذ أقدم العصور لإثارة الشعوب وحثها على قتال خصومها وأعدائها فى سبيله ، لما له من أثر فى النفوس . ولكن الباحث المدقق يدرك على الفور أنه ليس إلا وسيلة للتحريض وعاملا لتحقيق أهداف أخرى ، سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية أو عسكرية (١) . ويجد المتصدى لتاريخ الحركة الصليبية أن الدين قد استغل فى الغرب وقتذاك استغلالا واضحا للدعاية للحركة والعمل على انجاحها تحقيقا لأغراض أخرى لا تمت للدين بأى صلة (٢).

وهناك أدلة ملموسة تكشف عن استغلال المسئولين وأصحاب الأطماع فى أوروبا لعامل الدين ، نذكر منها على سبيل التمثيل استغلال أغنية رولان وقصيدة حج شارلمان فى اشعال الحماس الدينى لدى اللاتين عند بداية الحركة . وكذلك الخطاب المنسوب الى الكسيس كومنين الذى يحث فيه البابوية وأهل الغرب على ارسال النجدات لتخليص الأراضى المقدسة وقبر السيد المسيح . والخطاب ملىء بالمغريات والمؤثرات الدينية التى تكشف عن السبب الحقيقى من وضعه(٣). هذا

---

(١) أنظر عن ذلك : عمر كمال : مملكة بيت المقدس ، ص ٦ — ٩ .

(٢) عنان : مصر الاسلامية ، ص ١٠٨ — ١٠٩ .

(٣) «...Nam pueros et Juvenes Christianorum circumcidunt super baptioteria Christianorum et circumcisionis sanguinem in despectum Christi fundunt ineisdem baptisteriis . . Nam melius est, ut vos habeatis Constantinopolim quam pagani, quia in ea habentur prtiosissimae reliquiae Domini ... Agite ergo, dum tempus habetis, ne Christianorum regnum et ,quod majus est, Domini perdatis Sepulcrum....» Cf. Hagenmeyer, Epistolae et chartae, 129 sqq.

أنظر الترجمة العربية لهذه الفقرات فى الملحق الأول بآخر الكتاب .

فضلا عن أسطورة بطرس الناسك وغيره من الوعاظ والمبشرين الذين ظهروا فى شتى مراحل الحركة ، وخطبة البابا اربان الثانى النارية فى كليرمون التى تقطر بالحقد والكراهية ضد العروبة والعرب . وغير هذه وتلك من الأساطير التى يبدو فيها الطابع الدينى واضحاً .

كذلك ظهرت الرؤيات والتنبؤات كمنصر هام فى الأدب الشعبى وقتذاك . وهدفها هى الأخرى اشعال الحماس الدينى فى الغرب ، وتقوية الروح المنهارة بين اللاتين ، وحث هممهم على القتال . ومن هذه الأساطير ما تروى أن صاحبها شاهد رسولا من الرسل أو قديسا من القديسين . ومن الأشخاص من يدعى أن المسيح تراءى له فى المنام وكلفه بالدعوة بين أهل الغرب للذهاب إلى الأراضى المقدسة وتحرير قبره . ومنابع الحركة الصليبية عامرة بالأمثلة الدالة على ذلك . ونعرض هنا لأهم هذه الرؤيات والآثار المترتبة عليها .

لقد انتشرت فى الغرب فى أواخر القرن العاشر أسطورة تقول إن العالم سينتهى بنهاية الألف الأولى. ويروى الكتاب أن هذه الأسطورة كان لها أثرها فى ظهور موجة من التقشف والزهد والبعد عن ملذات الحياة الدنيا والتقرب إلى الله والعمل على مرضاته . ولما كان أقدس مكان يمكن أن يتبرك به مسيحى قبل أن يلتقى بربه هو كنيسة القيامة فى القدس والمكان الذى ولد فيه المسيح ، فكان لهذا أثره فى توجيه الاوروبيين فى زحف عام نحو الأراضى المقدسة . وهناك من يقول إنه تراءى لكثير من الغربيين خلال الحملة الصليبية الأولى قتال عنيف بين اللاتين والعرب انتصر فيه الأولون . فاعتبر هذا دليل على أن النصر سيكون حليف القوات الصليبية التى كانت قد بدأت احتكاكها بالعرب فى الشرق . وكان هذا مدعاة لمواصلة العدوان . كما ذكر بعض المؤرخين اللاتين المعاصرين لبداية

الحركة الصليبية أن بطرس الناسك رأى فيما يرى النائم المسيح الذى طلب منه مقابلة البابا أربان وحثه على الدعوة للحرب الصليبيـة ، وأن بطرس قام بتنفيذ هذه الرؤيا (١) . وهكذا جعلت منه الأسطورة المحرك الرئيسى للحرب الصليبية الأولى. وهناك رواية أخرى تقول إن أحد الفرنج الذين اشتركوا فى الحملة الأولى واسمه بطرس برثولماوس ، ظهر له أحد القديسين فى المنام ، ودله على مكان الحربة المقدسه التى طعن بها المسيح فى جنبه ، وكان ذلك أثناء حصار كربوغا حاكم الموصل للقوات الصليبية الموجودة داخل مدينة انطاكية (٢) . وتقول المصادر اللاتينية إن اكتشاف الحربة كان له أثره فى إلهاب حماس الصليبيين المحاصرين داخل المدينة ، فتحولت هزيمتهم إلى نصر . ومن الرؤيات التى يجدر الاشارة اليها تلك التى ادعى الملك الفرنسى لويس التاسع أنها ظهرت له، والتى كان من أثرها

---

(١) Historia Belli Sacri, R.H.C.-H. Occ., III, 169; Guillaume de Tyr, R.H.C.-H. Occ., I, lep., 34—5.

وفيما يلى نص ماجاء فى كتاب تاريخ الحرب المقدسة عن رؤيا بطرس الناسك :

«... Qui etiam in visu Jesum Christum Dominum vidit, talia dicentem sibi : « Petre, surge citiusque revertere, Urbanum papam aditurus, cui ex mei parte dicatur, quatinus fratres meos cunctos commovens, cis praecipiat ut huc quantocius properantes, et Jerusalem, immo meum Sepulcrum, a profanae gentis huius invasione atque spurcitia aliaque sacra loca per circuitum, me quoque adiuvante, liberare festineut. Nam et regni coelestis janua mei amore venturis ad istud peragendum nunc omnibus patet. »

وللمزيد من التفاصيل عن دور بطرس الناسك ، انظر مقالى « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٩٥ ـ ١٩٧ ؛ أنظر أيضا ماجاء بالملحق الثالث بآخر الكتاب عن دور بطرس الناسك حسبما ورد فى كتاب الالكسياد .

(٢) Matthieu d'Edesse, R. H. C. - Doc. Arm., I, 41 - 2; cf. also Downs, Basic Doc., 107 - 110.

قيامه بحملاته العدوانية الثلاث ضد بلدان الشرق العربي والشمال الافريقي . إذ تذكر الرواية أنه ظهر له فيما يظهر للنائم لاتيني وعربي يتقاتلان ، وأن العربي انتصر على الأوروبي ، وقد فسر هذه الرؤيا بأن أفرنج الشرق فى حاجة إلى العون والمساعدة ، وأن المولى أناط اليه القيام بهذه المهمة (١) .

وهناك رواية أخرى تنسب إلى هذا الملك ، جاء فيها أنه وقع فى أواخر سنة ١٢٤٤ فريسة مرض عضال خيف عليه منه ، وأرجف رعاياه بموته حين انقطعت أخباره عنهم ، وأخذوا يبتهلون إلى الله فى الكنائس والأماكن العامة من أجله . وذكر مؤرخه جوانفيل أن هذا المرض الخطير الذى أصيب به لويس قد أدناه من الموت ، حتى أن إحدى السيدات اللائى كن يعنين به وهو على فراش المرض أرادت أن تلقى الغطاء على وجهه ظنا منها أنه أسلم روحه إلى بارئها . غير أن هناك سيدة أخرى كانت واقفة إلى الجانب الآخر من فراشه ، أبت عليها ذلك قائلة إنه ما زال فيه عرق ينبض . وتستمر الرواية فتقول إنه بينما كان لويس ينصت إلى المحاورة الدائرة بين هاتين السيدتين ، إذ سرعان ما أسبغ عليه الله ثياب الصحة والعافية ، وثاب إلى رشده ، لأنه كان قبل ذلك مباشرة لا يستطيع نطقا من وطأة المرض الذى حل به . فلما أسعفه الكلام طلب ممن حوله أن يحضروا له الصليب . وتعهد منذ ذلك الحين بحمل الصليب والذهاب للاستيلاء على الأراضى المقدسة ، إيمانا منه بأن الله قد من عليه بالشفاء ليقوم بهذه المهمة التى كرس حياته من أجلها (٢) .

---

(١) Campbell, Crusades, 424; King, knights Hospitallers, 238.
وترجح الكاتبة برأى أن هذه الرؤيا كانت نتيجة للهذيان الذى أصيب به الملك الفرنسى فى فترة مرضه قبل قيامه بحملاته ضد العرب . أنظر : Bray, St. Louis, 54.
راجع عن هذا أيضا كتاب الشرق العربى بين شقى الرحى للدكتور حبشى ، ص ٢١–٢٢ .

(٢) Joinville, op. cit. (ed. Wailly), 60-2; Matt. Paris, op. cit., II, 37-8.

وجدير بالذكر أن هاتين الأسطورتين ظهرتا فى تلك الفترة بالذات لحث الغربيين على الانخراط فى سلك حملة صليبية جديدة ضد العالم العربى ، فى وقت كانت فيه دولة الغزاة فى الشرق فى طور الاحتضار ، وفى أمس الحاجة إلى مساعدة أهل الغرب .

وهكذا كلما خبا الحماس للحركة الصليبية فى الغرب ، أو كلما فكر أهل الغرب فى القيام بعدوان جديد ، أو كلما شعر اللاتين فى الشرق بقرب نهايتهم ، خرجوا علينا بمثل هذه الرؤيات والتنبؤات التى تحمل الطابع الأسطورى . وهى وإن كانت لا تستحق الاعتبار ، إلا أنها لقيت الكثير من الشيوع والرواج بين كافة الطبقات فى المجتمع الغربى الوسيط ، لاسيما الجماهير الشعبية التى كانت تعيش فى جهالة مطبقة وتقبل أوامر الكنيسة ونواهيها بالسمع والطاعة .

وفوق هذا وذاك فقد كانت الحملات الصليبية كلها تحت اشراف الكنيسة الرومانية والبابوية نفسها (١) . فقد بشر بالحملة الأولى اربان الثانى وكان من دعاتها بطرس الناسك ، وبشر بالحملة الثانية البابا ايوجين الثالث وساعده فى الدعاية لها القديس برنارد دى كليرفو ، كما بشر بالحملة الثالثة البابا كلمنت الثالث وقام بالدعاية لها وليم الصورى . وبشر بالحملة الرابعة انوسنت الثالث ، بينما بشر انوسنت الرابع بحملات لويس التاسع . كما بشر بابوات افنيون فى المنفى بالحروب الصليبية المتأخرة . وتكشف المراسيم البابوية ، والامتيازات الروحية والمادية التى قدمتها الكنيسة للمشتركين فى هذه الحملات . عن حقيقة اتجاهاتها ودوافعها .

---

(١) Baldwin, Med. Church, 103-4; Arnold, Legacy of Islam, 69.

وخلاصة القول ان الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب كان لها دور فعال فى توجيه الحركة الصليبية وفى السيطرة عليها باسم الدين . فهى التى دعت اليها ، وهى التى أمدتها بتأييدها الأدبى والمعنوى ، وهى التى شجعت المحاربين من كافة الأجناس والفئات على الاشتراك فيها مقدمة كافة التسهيلات اللازمة لكل من يحمل الصليب ، وهى التى سمحت للجماعات الرهبانية العسكرية القيام بالدور الموكول اليها فى الأراضى المقدسة ، وأخيراً كان يمثلها فى كل حملة صليبية مندوب بابوى يعين من قبلها .

ولنا أن نتساءل عن السر فى هذا الموقف ، ولماذا كان وقفاً على الجهاز الكنسى البابوى دون غيره ؟ تكمن الإجابة عن هذا السؤال فى الظروف التى كانت سائدة فى الغرب الأوروبى وقتذاك . ونعنى الظروف التى احاطت بنشأة الكنيسة فى الغرب عند نهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط والتى جعلت منها قوة دينية ودنيوية هائلة ، بحيث أمكنها أن تسيطر على مقدرات الأفراد وعلى حياتهم الخاصة والعامة ، لها الأمر والنهى ، وعليهم السمع والطاعة . والويل كل الويل لمن يخالف تعاليمها أو يحاول الخروج عليها . تم هذا فى وقت لم تكن فيه القوميات قد ظهرت بعد فى الغرب ؛ بل كان العالم الغربى - حسبما أسلفنا - عبارة عن وحدة واحدة فى مجموعه ، له كنيسة واحدة هى كنيسة روما اللاتينية الكاثوليكية ، وله بابا واحد هو بابا روما على رأس هذه الكنيسة ، وله عاصمة روحية واحدة هى روما ، وله لغة رسمية واحدة هى اللغة اللاتينية ، وتسوده حضارة واحدة هى الحضارة اللاتينية . كما مر الغرب كله بنفس العوامل والتطورات والظروف التاريخية ، وتركت فيه غزوات البرابرة نفس التأثير ، وكان ينتشر فيه النظام الاقطاعى . ومن هنا لم يكن هناك جهاز آخر فى الغرب يملك من السلطات والوسائل والإمكانيات ما يمكنه من الدعوة إلى تلك الحروب الموجهة ضد العالم العربى سوى الجهاز الكنسى البابوى .

ويجب ألا ننسى أيضا أن روما – مقر البابوية – هى التى منحت الجماعات الرهبانية العسكرية كالداوية والاسبتارية والتيوتونية ، العديد من الامتيازات والإعفاءات للقيام بالدور الموكول إليها فى الأراضى المقدسة . وكان هدف الجماعة الأولى فى بادىء الأمر حماية الحجاج الأوروبيين ، بينما كان الغرض من تأسيس الجماعتين الثانية والثالثة إغاثة الجرحى والمرضى من الفرنج فى ساحة القتال . ولكن هذه الجماعات لم تلبث أن تحولت إلى جماعات عسكرية . وتعلم أعضاؤها صناعة الحرب ، وقاتلوا فى صفوف الفرنج ضد العرب ، وساهموا فيما بعد بدور كبير فى الدفاع عن إمارات الصليبيين وفى حماية قلاع الحدود . وكانوا يجدون العطف والتشجيع والتأييد من البابوية . وهكذا أصبحوا رجال دنيا ودين فى نفس الوقت . ومما يذكر أيضا أن البابوات كانوا يرسلون مندوبين من قبلهم بصفة دائمة إلى الشرق ، وقد اشترك ممثلوهم فى الحملات الصليبية نيابة عنهم وتوكيدا لإشرافهم عليها . كما أخذوا يحيلون مساجد الشرق إلى كنائس لاتينية على المذهب الكاثوليكى (١) . وبالاختصار بذلوا قصارى جهدهم لصبغ الشرق العربى بصبغة كاثوليكية بحتة . ولهذه السياسة دلالتها ومغزاها ، بحيث لا يمكن فصلها عن الفكرة الصليبية نفسها .

وهناك من المؤرخين الغربيين من يعترف بأن الكنيسة اللاتينية كانت تطمع فى نشر الكاثوليكية فى جميع أنحاء العالم المعروف وقتذاك ، ولو أدى ذلك إلى النضال المسلح (٢) . وقد قام المبشرون والدعاة البابويون والجماعات الرهبانية

---

(١) Baldwin, op. cit., 104. ؛ راجع أيضا الفصل السابع من هذا الكتاب .

(٢) أنظر باركر : الحروب الصليبية ، ص٩ . هذا مع ملاحظة أن التبشير المنظم بالمسيحية على المذهب الكاثوليكى لم يظهر إلا منذ أواسط القرن الثالث عشر .

التبشيرية مثل الدومنيكان والفرنسيسكان بدور كبير فى سبيل تحويل كل من المسلمين والمسيحيين الشرقيين إلى المسيحية على مذهب روما الكاثوليكى . ولم يكن ذلك فى واقع الأمر إلا استمرارا للفكرة الصليبية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر (١) . وقد امتدت سياسة البابوية فى هذا الاتجاه نحو الشرق الأقصى ، عندما حاولت اجتذاب المغول إلى الكاثوليكية ، واستخدامهم فى صراعها الصليبي ضد العرب (٢) .

كل هذه تعتبر فى الواقع وسائل للدعاية والتحريض والإثارة باسم الدين فى وقت كان فيه للدين مكانة كبيرة فى المجتمع الغربى الوسيط ، وفى وقت امتازت فيه أوروبا بالتعصب الأعمى فى هذه الناحية .

لقد بالغ كثير من المؤرخين فى تقدير أهمية العامل الدينى وأثره المباشر فى قيام الحروب الصليبية . ولكن الباحث المدقق يدرك أن هذه الشواهد التى أسلفنا الإشارة اليها لم تكن إلا حركات مسرحية القصد منها إثارة الغرب الأوروبى ضد العالم العربى فى المشرق والمغرب ، وأنها وضعت لبث الحماس بين الصليبيين فى الغرب ضد العرب كلما جد جديد وكلما دعت الضرورة إلى ذلك . ويكفى أن المؤرخ رينيه جروسيه المعروف بتعصبه لقوميته الفرنسية ، اعترف فى كتابه « حصيلة التاريخ » بأن الحركة الصليبية لم تقم نتيجة لدوافع دينية (٣).

لقد دعت البابوية إلى الحروب الصليبية باسم الدين ، وقامت هذه الحروب

---

(١) أنظر : Baldwin, op. cit., 109—112.

(٢) راجع عن ذلك كتابى : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ٢٣٥ — ٢٧٣ . وكذلك : Heer, Med. World, 118 sqq.

(٣) Grousset, Sum of Hist., 191.

تحت إشرافها وبتوجيه منها ، فأثبتت بذلك دهاءها ودلت على بعد نظرها وسعة حيلتها حتى أنه لا يمكن بحال تجاهل دورها فى هذا الصدد (١) .

لقد وجدت فى الحركة الصليبية فرصة ذهبية لبسط نفوذها على الغرب الأوروبى كله ، بالتخلص من مضايقات امراء الاقطاع لها ، وارسالهم فى هذه الحروب التى وجدوا هم فيها أيضا مجالا طيبا لتوسيع اقطاعياتهم والاستيلاء على أراض جديدة يظهرون فيها مواهبهم الحربية التى تعلموها بعد أن ضاق الغرب بمطامعهم . هذا فضلا عن حبهم للمخاطرة ورؤية بلاد وأصقاع جديدة(٢). كذلك وجدت فى هذه الحروب مجالا لتحقيق حلمها القديم فى فرض سلطانها الدينى والدنيوى على العالم المسيحى بشقيه الشرقى والغربى، والعمل على توحيد الكنيستين اللاتينية والاغريقية على المذهب الكاثوليكى الذى تدين به روما ، وذلك بعد الشقاق الدينى المعروف سنة ١٠٥٤ م الذى كان من نتائجه انفصال هاتين الكنيستين عن بعضهما انفصالا تاما (٣) . وفوق هذا وذاك أتاحت الحروب الصليبية للبابوية فرصة لن يجود الزمن بمثلها لكى تشبع حقدها الدفين ضد العروبة والإسلام ، فى محاولات مستميتة يائسة هدفها النهائى القضاء على العالم العربى والحضارة العربية . ولكى تحقق البابوية أغراضها وعدت كل من يشترك فى هذه الحملات بالغفران التام عن آثامه وخطاياه ، فضلا عن حمايتها لاقطاعيات

---

(١) Baldwin, Med. Church, 98.

(٢) للمزيد من المعلومات عن استغلال الحروب الصليبية فى توجيه الغرائز الحربية للمجتمع الاقطاعى فى الغرب الأوروبى : أنظر باركر : الحروب الصليبية ، ص ٧–٩ ؛ سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤٠٥ .

(٣) راجع عن ذلك : Baldwin, 100, 101; Daniel—Rops, 543-544; Mahmud, Story of Islam; 132; Arnold, Legacy of Islam, 46; Hitti, Hist. of Syria, 591; Ostrogorsky, op. cit., 320.

المقطعين المشتركين فيها لحين عودتهم إلى أوطانهم ، مع موافقتها على تمليك الأفراد الأراضى التى يستولون عليها فى الشرق . وغير هذه وتلك من الامتيازات والتسهيلات والمغريات التى كانت تمنحها عادة للمحاربين الصليبيين (١). وكان من مصلحة البابوية تشجيع تلك الحروب التى باتت معينا لا ينضب من المال الذى امتلأت به خزائنها، بما فرضته من ضرائب وعشور دينية بحجة الانفاق عليها. ولكنها كانت فى الواقع تبدد على أوجه أخرى تحقيقاً لمصالح البابوية وأطماعها العلمانية (٢) .

وعلى ذلك يمكن القول بأن الحركة الصليبية كانت منذ بدايتها ركنا أساسيا من أركان سياسة البابوات الخارجية فى العصور الوسطى . فقد اتخذت البابوية من الدين وسيلة لتحقيق مآربها . فعندما دعا أربان الثانى إلى تلك الحروب فى كليرمون ، أعلن المجتمعون موافقتهم بلا تردد ، وأخذ الآلاف من الناس من كافة أرجاء أوروبا ومن مختلف الطبقات والفئات ينضمون تحت لوائها .

هكذا اتخذ الاوروبيون الدين أيام الحركة الصليبية قناعا زائفا لتحقيق اتجاهاتهم الاستعمارية فى المنطقة العربية منذ تسعة قرون مضت (٣) .

ويبدو هذا الأمر جليا قبل قيام الحروب الصليبية نفسها بعشرات السنوات. فقد ثبت بما لايدع مجالا للشك أن الحروب الغربية المقدسة التى قامت بها الممالك

---

(١) أنظر : Matt. Paris, English Hist., II, 86 - 8; Berger, St. Louis, 134—7; Setton, Hist. of the Crus., I. 248.

(٢) أنظر : Arnold, op. cit., 69 — 70.

(٣) لقد عبر عن ذلك بحق السيد الرئيس فى صدر الباب الثالث من مشروع الميثاق الوطنى عندما أشار سيادته إلى نضال الشعب العربى فى مصر فى صد « أول موجات الاستعمار الأوروبى التى جاءت متسترة وراء صليب المسيح وهى أبعد ما تكون عن دعوة هذا المعلم العظيم » .

المسيحية فى شمال أسبانيا ضد العرب فى سبيل الاستيلاء على شبه الجزيرة الأيبيرية، تشجعها على ذلك البابوية وجماعة كلونى الديرية ، كانت حروبا تستهدف خدمة البابوية والكنيسة الكاثوليكية . كما كانت النزعة السائدة فيها هى نزعة واضحة نحو المطامع المادية ، والعمل على الفوز بالسلطان والنفوذ (١) .

وأعلنت الحركة الصليبية رسميا فى مؤتمر كليرمون عندما أخذ أربان الثانى يشنع على العرب فى خطبته المعروفة ، وعندما أشار إشارات صريحة إلى فرص الربح المادى والنجاح فى تكوين الامارات والممالك فى منطقة الشرق العربى على حساب أهلها وأصحابها (٢). وفى الحملة الأولى برز بعض الزعماء الإقطاعيين مثل بوهيمند النورماندى الذى ذكر المؤرخون أنه اشترك فيها لا لتخليص القبر المقدس وإنما لتأسيس إمارة له فى الشرق. ويكفى أنه ابن روبرت جويسكار صاحب الأطماع المعروفة فى الدولة البيزنطية . وان مافعلته جيوش الحملة الصليبية الأولى، الشعبية والنظامية، عندما حلت بأراضى بيزنطة، وعندما تقدمت فى آسيا الصغرى متجهة صوب الأراضى المقدسة ، من نهب وفسق وتخريب ، لدليل واضح على عدم تأصل الدافع الدينى عندها . وكلما تقدمت الجيوش الصليبية فى رقعة الشرق العربى ، كلما إتضحت نواياها العدوانية ، وقد تمثل ذلك فى النزاع الدائم المستمر بين القادة والرجال البارزين فيما حول السيطرة على البلدان التى يفتحونها ، (٣)

---

(١) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ، ص ١٨٨ .

(٢) لقد امتلأ خطاب البابا المذكور بالتهجم وألفاظ السباب ضـد العرب ؛ وفيه تحريض واضح على الذهاب إلى الشرق لقتال العرب واستئصال شأفتهم . وفى سبيل ذلك نراه يقـدم لأهل الغرب كافة المغريات المادية والمعنوية . أنظر الترجمـة الانجليزية لنص فوشيه ده شـارتر عن الخطاب المذكور فى : Downs, Basic Doc., 74 — 5.

(٣) Ostrogorsky, 323.

ضاربين بالهدف الذى زعموا أنهم قاموا بحملاتهم من أجله عرض الحائط .
وتذكر المصادر التاريخية أنهم استولوا فى حملتهم الأولى على عدد كبير من المراكز والقلاع والحصون الأمامية فى آسيا الصغرى وشمال الشام ، وذلك قبل غزو البيت المقدس نفسه ، مما يدل على أنه سيطرت عليهم رغبة كامنة فى التوسع وامتلاك اقطاعيات أكثر فأكثر قبل توجههم إلى أورشليم . ولنضرب مثلا ببلدوين شقيق جودفرى ده بويون وأحد زعماء الحملة الأولى الذى استقر فى الرها وأسس لنفسه إمارة صليبية بها . وان إقامة هذه الامارة فى أعالى الفرات قبل أن تصل الجيوش الصليبية الرئيسية إلى بيت المقدس ، إن دلت على شىء فإنما تدل على الاتجـــاهات التوسعية للحركة منذ بدايتها ؛ حيث أن الإمارة المذكورة تبعد جغرافيا عن فلسطين وهى الهدف الذى ادعت أوروبا أنها قامت بحركتها من أجله . وقد دلل هذا الزعيم مرة أخرى على ماتنطوى عليه الفكرة الصليبية من أغراض توسعية عندما أغار على الديار المصرية سنة ١١١٨م عن طريق العريش ورفح بقصد الاستيلاء عليها . ثم تتكرر هذه المحاولات الاستعمارية متمثلة فى الحملات الأربع التى قام بها اموری الأول ملك بيت المقدس اللاتينى على مصر فيما بين سنتى ١١٦٤ و ١١٦٩ م . (١) وهكذا يتضح أن خط سير الحركة الصليبية كشف منذ اليوم الأول عن حقيقتها ، لولا أن ثارت فى وجه القوات اللاتينية الغازية بعض العناصر من أمثال جودفرى والأسقف أدهيار ، مما جعل أفرادها يواصلون المسير إلى البيت المقدس .

وكيفما كان الأمر، فقد أثبتت الأحداث أنه كلما ازداد اقتراب أولئك القوم من بلدان الشرق العربى ، كلما وضح للعيان أن انقاذهم لكنيسة القيامة ليس إلا

---

(١) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٤ — ٥ وص ٧ ومابعدها .

اعتبارا ثانويا يخفى وراءه الاتجاهات الحقيقية للفكرة الصليبية. وحتى بعد تأسيس المستعمرات اللاتينية فى الأراضى المقدسة ، بات واضحا أن هم حكامها هو توسيع حدود تلك المستعمرات وتدعيمها تحت تاج بيت المقدس اللاتينى (١) .

هذا عن الصليبيين ، أما البيزنطيون فلم يكونوا يهدفون إلى غزو اورشليم وتخليص كنيسة القيامة بقدر ماهدفوا إلى استرداد الأملاك التى اقتطعها من دولتهم الاتراك السلاجقة ، وخصوصا إمارة أنطاكية . وقد عمل امبراطورهم الكسيوس كومنين على تحقيق ذلك بكافة الطرق والوسائل ، ودون مراعاة لمصالح الافرنج ومطامعهم. بل أنه دخل مع اللاتين أنفسهم فى حروب ومنازعات عندما أخلوا بالمعاهدة التى وقعوها معه فى القسطنطينية فى مايو ١٠٩٧ م . وتكشف مصادر الحملة الأولى عن العلاقات السيئة التى قامت بين هذا الامبراطور وبين الأمير بوهيمند النورماندى عندما حنث بالقسم الذى قطعه على نفسه ، مما يؤكد أن سلوك كل من اللاتين والاغريق كان يسير منذ البداية فى اتجاه المصلحة الخاصة والرغبة فى امتلاك الأراضى . (٢)

وإذا عدنا إلى اللاتين نجد أن أطماع كبار رجالهم تتضح بجلاء بعد تأسيس مستعمراتهم فى الشرق. فقد ثارت المشاكل منذ اللحظة الأولى حول اختيار رئيس للدولة الجديدة فى بيت المقدس المحتلة . وعقد الفرنج عدة اجتماعات فاشلة لهذا الغرض كشفت عن أطماعهم. وبدا الخلاف واضحا بين الكنيسة والدولة، أو بين رجال الدين والعلمانيين الذين اشتركوا فى الحملة الأولى ، وكان كل منهما يرى أنه أولى من الآخر فى حكم تلك الدولة التى أقاموها فى فلسطين . فرجال الكنيسة

---

(١) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ، ص ١٩٥ و ١٩٦ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك فى الفصلين الخامس والسادس من الكتاب ، وكذلك الملحق الثالث بآخر الكتاب .

يرون اختيار رئيس روحى لها ، بينما أصر العلمانيون على اختيار حاكم دنيوى. واحتدمت المناقشات واشتد الخلاف بين الفريقين دون الوصول إلى نتيجة مرضية . وأخيراً انتهى الأمر باختيار أحد زعماء الفرنج وهو جودفرى كحامى للقبر المقدس وذلك كحل وسط (١) ، بعد أن تذرع رجال الدين فى الحملة بأنه لايجوز لحاكم بيت المقدس أن يلبس تاجا من الذهب فى المكان الذى لبس فيه المسيح تاجا من الشوك . وكانت هذه حجة واهية اتخذها الاكابركيون ذريعة لتعزيز مركزهم فى الأراضى المقدسة على حساب العلمانيين. وهنا تثور الأطماع من جديد، فلم يكتف خلفاء جودفرى بهذا اللقب ، بل أضفوا على أنفسهم فيما بعد ألقاب العظمة والملك مايميط اللثام عن نواياهم .

هذا عن الحملة الأولى ، أما إذا انتقلنا إلى الحملتين الثانية والثالثة ، نجد أن النزاع الذى نشب بين كونراد الثالث الألمانى وفيليب السابع الفرنسى فى الحملة الثانية (٢) ، وبين ريتشارد قلب الأسد الانجليزى وفيليب أغسطس ملك فرنسا فى الحملة الثالثة (٣) ، من أجل الزعامة وقيادة الجيوش وتملك البلدان ـ نجد أن هذا النزاع كان شاهدا جديدا يضاف إلى الشواهد السابقة .

ولنتمعن قليلا فى أحداث الحملة الثالثة تاركين تفصيلاتها ومعاركها. فقد كان

---

(١) يتحدث ارنست باركر عن الخلاف الذى قام بين رجال الدين والعلمانيين فى الحملة الأولى بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، مما يكشف عن مطامع البابوية والمصالح الدنيوية للأمراء وكبار رجال الاقطاع الذين اشتركوا فى تلك الحملة فضلا عن تباين الأهواء والمشارب. انظر : باركر : الحروب الصليبية ، ص ٤٣ — ٤٤ ؛ وكذلك :
Arnold, Legacy of Islam, 69.

(٢) Haskins, Normans in European Hist., 129-130.

(٣) أنظر : Heer, Med. World, 105.

هدفها الأساسى هو كسر شوكة العرب [١] وتفتيت وحدتهم بعد ظهور بوادر حركة اليقظة العربية الشاملة ، والقضاء بكل وسيلة على القوى المصرية الناهضة . إذ رأى الغربيون أن صلاح الدين أوشك على استعادة سورية وبلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى . ولذلك تآمروا على وضع حد لهذه القوى الجديدة التى برزت فى الميدان ، حتى يتمكنوا من حماية مصالحهم الاستعمارية فى الشرق . فكان من أثر ذلك قيام تلك الحملة التى استهدفت مدينة بيت المقدس التى كان صلاح الدين قد استردها من الفرنج سنة ١١٨٧ م ، ولكنها انتهت بالفشل الذريع . ونعرف أيضا أن ريتشارد ملك انجلترا استولى وهو فى طريقه إلى الأراضى المقدسة على جزيرة قبرص التى أصبحت منذ ذلك الحين ولقرون عديدة تالية مركزا للاستعمار اللاتينى يوجه منها حملاته العدوانية ضد مصر وغيرها من بلدان المشرق العربى ، إلى أن استعادها السلطان برسباى سنة ١٤٢٦ م [٢] .

أما الحملة الصليبية الرابعة فكانت مثلا حيا على انعدام الباعث الدينى من ناحية ، وثبوت الاتجاه التوسعى للحركة من ناحية أخرى . [٣] كما أكدت أن

(١) غنى عن البيان أنه بعد ظهور الاسلام وحركة الفتح أخذت الدولة العربية الكبرى شكلها العضوى المعروف من المحيط إلى الخليج منذ ذلك الحين وحتى اليوم ؛ وقوامها وحدة اللسان والفكر والثقافة ، فضلا عن عناصر الوحدة العربية ومقوماتها العديدة المعروفة . وعلى هذا تدخل فى نطاقها — بطبيعة الحال — جميع الشعوب التى كانت تعيش فى المنطقة والتى كانت حضارتها عربية .

(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٨ ومابعدها و٤٦ ومابعدها و٨٤ وما بعدها و١٢٧ وما بعدها . أنظر أيضا : ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٩٩ — ١٠٢ .

(٣) تكشف مذكرات روبرت كلارى عن الاتجاه الاستعمارى فى تلك الحملة . وقد قام بترجمة هذه المذكرات إلى العربية مع التقديم لها الدكتور حسن حبشى . انظر كلارى (ر.): فتح القسطنطينية على يد الصليبيين — ترجمة الدكتور حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٤) ص٥٠ ==

الكسيس كومنين وابنته آن كانا على حق عندما أبديا ارتيابهما حيال اللاتين وأطماعهم فى الدولة البيزنطية قبل ذلك التاريخ بقرن أو يزيد . ثم أنها تعزز ماسبق أن أوضحناه من أن الحركة الصليبية كانت تهدف منذ البداية إلى التوسع والاستعمار تحت ستار من الدعاية الدينية ، وسواء أكان ذلك على حساب العرب أم الروم . ففى سنة ١٢٠٣ م قامت الحملة وكانت وجهتها مصر وهدفها القضاء عليها حتى يتسنى لها الوثوب على بقية أجزاء المشرق العربى . ولكن لما كان يشترك فيها عدد كبير من البنادقة الذين كانت لهم مصالح تجارية وقفت القسطنطينية عقبة فى سبيلها ، فقد أرادوا العمل على تحقيق تلك المصالح بالقوة واقنعوا كبار القادة فى الحملة بذلك . وتم الاتفاق على خلع الامبراطور البيزنطى الذى كان يحكم وقتذاك واسمه الكسيس الثالث (١١٩٥ - ١٢٠٣) ، وذلك بعد أن تآمروا مع ولى عهده الكسيس الرابع (١٢٠٣ - ١٢٠٤) وأخذوا منه عهدا لتحقيق أهدافهم . وحتى يموهوا على العامة الجهلاء المتحمسين للحركة دينيا ، فقد أقنعوهم انهم اضطروا إلى اتخاذ هذه الخطوة لأن الكسيس الرابع وعد بمساعدتهم وامدادهم بكل ما هم فى حاجة اليه من المال والرجال فى حروبهم ضد المصريين . وهكذا لعبت الأطماع دورا واضحا فى الحملة الرابعة التى وجهت ضـــد المسيحيين الشرقيين ، واستحالت إلى عصابات ناهبة استقرت فى القسطنطينية وأعملت فيها النهب والتخريب وأسست مملكة لاتينية بها استمرت من عام ١٢٠٤ إلى عام ١٢٦١ م . (١) فكانت هـذه المملكة هى ثمرة أطماع

= وللمزيد من التفاصيل عن حقيقة اتجاهات هذه الحملة ، أنظر عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى (بيروت ١٩٦٦) ص ١٨٧ ـ ١٨٩ .

(١) أنظر : شارل ديل : البندقية ، ص ٤١ ـ ٤٥ ؛ راجع أيضا :Pirenne,
= Economic and Social Hist., 33; Grousset, Sum of Hist., 181-2.

اللاتين فى بيزنطة ، تلك الأطماع التى ظهرت بوادرها قبيل الحركة الصليبية نفسها ، والتى تتمثل فى حروب جويسكارالنورماندى وابنه بوهيمند فى البلقان.

ويقول المؤرخ جروسيه إنه اذا كانت الحملات الصليبية الأولى والثانية والثالثة قد أدت إلى أول توسع استعمارى للغرب المسيحى فى الشرق على حساب الاسلام ، فقد تحول الاستعمار اللاتينى فى الحملة الرابعة شطر الدولة البيزنطية(١) . ولا يعنى هـذا أن النوايا الاستعمارية فى أرض العرب قد انتهت . لقد ظلت كامنة إلى أن كشفت عنها الحملات التالية . ولـكن بعد أن كانت بلاد الشام هدفها فى المرات السابقة ، أصبحت الديار المصرية مطمعها فى هذه المرة باعتبارها معقل القوى العربية وحصنها المنيع .

لقد كانت حملة جان دى برين Jean de Brienne صاحب عـكا والملك الاسمى لبيت المقدس (٢) ، ومن بعدها حملة لويس التاسع ملك فرنسا فى النصف

= هذا وقد وصف أحد شهود العيان من الاغريق ويدعى نيكيتاس Nicetas ما تعرضت له القسطنطينية على أيدى الصليبيين والبنادقة من نهب وسرقة وتدمير ، وكيف استحوذ أحـد رؤساء الأديرة اللاتين واسمه مارتين ، وقد اشترك هو الآخر فى الحملة ، على الذخائر المقدسة التى عثر عليها فى العاصمة البيزنطية ، وأرسلها إلى ديره بالقرب من باريس . أنظر : كلارى : فتح القسطنطينية ، ص ١٢٢ وما بعدها و ١٤٠ ومابعدها ؛ راجع أيضا :
Heer, Med. World, 105; Downs, Basic Doc., 182—5.

(١) Grousset, op. cit. 182.

(٢) هى المعروفة فى التاريخ بالحملة بالصليبية الخامسة (١٢١٨ ــ ١٢٢١) . ومما يدل على حقيقة اتجاهات العدوان الصليبى ، وعلى فتور الروح الصليبية لدى الغربيين ؛ الحملة المعروفة باسم حملة الأطفال الممهدة للحملة الخامسة بقصد إثارة نخوة الرجال وحثهم على الاشتراك فيهـا أنظر: عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٨٩ــ١٩٠ . وحول تفاصيل حملة الأطفـال ، أنظر : Runciman, Crusades, III, (Cambridge, 1955), 139—144.

ويلاحظ أن المؤرخ رينيه جروسيه لم يتعرض لها فى كتابه عن الحروب الصليبية .

الأول من القرن الثالث عشر ، تهدفان إلى الاستيلاء على مصر وتأسيس مستعمرة بها . (١) وكانت حملة لويس إلى جانب نواياها العدوانية تتسم بطابع التعصب . (٢) إذ شب قائدها وقد أشرب الدين إشرابا سيطر على جوانحه ، وانعكس أثره فى مبادئه وأفكاره وأعماله ، فكان تلقيبه بالقديس لويس صدى واضحا لتلك النزعة التى بدت بجلاء فى هذه الحملة . (٣) وتذكر المراجع أن الملك كان منذ صغره دائم التطلع إلى غزو الأراضى المقدسة ، حتى أنه لم يترك وسيلة لتحقيق أمنيته هذه إلا واصطنعها . (٤) وحتى بعد هزيمته هو ورجاله على ضفاف النيل ، نراه يذهب إلى بلاد الشام حيث أقام أربع سنوات كاملة (١٢٥٠ - ١٢٥٤م) أمضاها فى محاولات يائسة فاشلة للقيام بعدوان جديد . (٥) ولكن الأطماع التى لم تفارق الفرنجة تدفع هذا الملك للقيام بعدوان ثالث. ولم تكن وجهته هذه المرة مصر أو الشرق الأوسط العربى ، وإنما شمال افريقية ، تلك المنطقة التى اتجهت اليها انظار الغربيين منذ القدم ، ولا زالت تتجه إليها حتى اليوم . ففى عام ١٢٧٠ م قام لويس بحملته الصليبية الثالثة والأخيرة فى قائمة الحروب الصليبية المبكرة ، والتى كانت وجهتها تونس وهدفها استمالة صاحبها محمد بن يحيى الملقب بالمستنصر إلى المسيحية على المذهب الكاثوليكى ، ومواصلة الزحف على مصر خط الدفاع

---

(١) أنظر عن ذلك كتابى: الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ٣٠ و ح ١ . راجع أيضا : Ludlow, Crusades, 338; Grousset, Crois., III, 428; Michelet, Hist. of France, I, 565.

(٢) Bray, St. Louis, 82.

(٣) Joinville, 22-30, 42. ، أنظر أيضا حسن حبشى : الشرق العربى بين شقى الرحى ، ص ١٤ — ١٥ .

(٤) Matt. Paris, II, 52-3; cf. Lacroix, Chevalerie et Crois., 180.

(٥) تناولت فى كتابى « لويس التاسع فى الشرق الأوسط » تفاصيل هذه الخطة العدوانية ونتائجها .

الأول عن العالم العربى ، ومركز إمداده بالجند والميرة والسلاح . وبالقضاء عليها يمكنه امتلاك الأراضى المقدسة وتحقيق كافة الأطماع الصليبية . ولكن هذه كانت اضغاث أحلام ، فلم يلبث أن توفى الملك القديس فى أغسطس من نفس العام وهو على أبواب قرطاجنة دون أن يتأتى له تحقيق بغيته (١) .

ولعلنا نستنتج مما تقدم أن العلاقات بين الغزاة الوافدين من الخارج وبين العرب من أهل البلاد لم تكن بحال طيبة أو مرضية . ولكن لما شعر الدخلاء بأنهم فى أرض غريبة عنهم ، وأحسوا بحاجتهم الملحة لتدعيم كيانهم المتداعى والمحافظة على مستعمراتهم فى الشرق ، بذلوا جهدا يائسا فى سبيل التفاهم مع الأهالى والتعرف اليهم . ولذلك سعوا على أن تقوم بينهم وبين العرب المجاورين لهم وأهالى البلاد المستعمرة علاقات صداقة ومودة قدر الاستطاعة . وحاولوا جهد استطاعتهم ايجاد صلات حسنة مع التجار العرب ضمانا لتصريف منتجاتهم وتنشيط الحركة الاقتصادية بإماراتهم وزيادة مواردهم عن طريق الضرائب التى يجبونها ، تحقيقا لمصالحهم فحسب . (٢)

---

(١) أنظر عن ذلك كله : أبوالمحاسن: المنهل الصافى ، جـ١ ، ورقة ٣٥٨ ا ـ ١٣٥٩ ؛ السكتبى : فوات الوفيات ، جـ١ ، ص ٨٣ ـ ٨٤ ، راجع أيضا Joinville, 396 - 406 Eracles, L' Estoire de Eracles Empereur, R. H. C. - H. Occ., II (Paris, 1859), 458 ff.

راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ٣٠ وح ٢ .

(٢) انظر : Grousset, Sum of Hist., 178; Coulton, Med. Panorama, 322. وقد أورد ابن جبير فى رحلته وأسامة بن منقذ فى كتاب الاعتبار العديد من الأمثلة التى تكشف عن العلاقات القائمة بين الصليبيين والعرب زمن الحروب الصليبية . أنظر: رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ و ٢٨٨ و ٢٩٠ و ٢٩١ ـ ٢٩٢ و ٢٩٣ ؛ زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، ص٨٢ ـ ٨٣ و ٩٨ . أنظر أيضا عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية (الاسكندرية ١٩٥٨) ص ١١١ ـ ١٣٦ Hitti, Hist. of the Arabs (London, 1964), 643 f.

أنظر أيضا كتاب الدكتور زكى نقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج ـ بيروت ١٩٥٨ .

ولم يكن اصطناع الفرنج هذه السياسة عن رغبة صادقة أو نوايا طيبة. إنما كان هدفهم هو إشاعة الازدهار والثراء فى الأراضى التى اغتصبوها من أهالى البلاد الأصليين ، وحتى يضمنوا عدم ثورة الأهالى عليهم فى الوقت الذى كانت فيه دولتهم فى طور التكوين . وكانت عبارة عن شريط ساحلى ضيق على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، بينما ظلت البلاد الداخلية والمحيطة بهم من كل جانب فى أيدى العرب . ولم يتسن لأولئك الدخلاء تهديدها أو تعريض أمنها للخطر . والنتيجة أن هذه السياسة الماكرة لم تؤت ثمارها المرجوة . ولم يكن ينتظر لمثل هذا التفاهم أو الاندماج أن يتم أو يسير إلى نهايته . ذلك أن اللاتين هم الذين بدأوا بالعدوان ، وهم الذين اغتصبوا البلاد عنوة من أصحابها ، وفرضوا حكمهم فيها بقوة السلاح وحد السيف . ولهذا كانت العداوة قائمة بينهم وبين العرب الذين لم تنطل عليهم سياسة الدهاء واللين التى استنها خصومهم ، ولم يثقوا فى نواياهم وفى عهودهم ، وهم يعرفون تماما حقيقة نوايا الفرنج وزيف وعودهم التى كانوا على أتم استعداد لنقضها والتخلى عنها (١) . وكانت أحداث السنوات التى تلت قيام الحركة الصليبية خير مصداق على ذلك . إذ سرعان ما اتحدت الجهود ، ووقف الجميع وقفة رجل واحد ضد الفرنج حتى أجلوهم عن ديارهم .

ولما كان الفرنج يهدفون إلى تثبيت أقدامهم فى الشرق بأى ثمن تحقيقا لأهداف العدوان ، فقد بذلوا جهدا كبيرا فى سبيل تشجيع الغربيين على المجىء إلى الشرق والاستيطان فيه حتى تزداد أعدادهم ويقوى بذلك مجتمعهم . لقد كان الحماس يملأ أولئك القوم عندما قاموا بحركتهم . ولكن ما أن استقروا فى الشرق واستمتعوا

---

(١) أنظر رحلة ابن جبير، ص ٢٨٩–٢٩٠ و٢٩١ و٢٩٣ و٢٩٧ ؛ زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون ، ص ٩٦ .

بشمسه الدافئة وأرضه الخصبة حتى بدأ هذا الحماس يخبو تدريجيا إلى أن تقلص وزال فى نهاية الأمر. فقد استهوتهم الحياة الجديدة التى أخذوا يحيونها. وتكشف المصادر اللاتينية ، ولا سيما مؤلف فوشيه ده شارتر ، وكذلك كتب الرحالة العرب القدامى الذين زاروا البلاد العربية التى استولى عليها الفرنج ، مثل أسامة ابن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ / ١٠٩٥ - ١١٨٨ م) وابن جبير (٥٤٠ - ٦١٤ هـ / ١١٤٥ — ١٢١٧ م) — عن ذلك التطور الخطير الذى طرأ على الفرنج بين عشية وضحاها . فقد اختلطوا بالشرقيين وأخذوا من طباعهم وعاداتهم بنصيب ، وتزوج الكثيرون منهم وأنجبوا الأولاد ، وأعدوا أنفسهم للإقامة الدائمة فى الشرق ، ولم يعودوا يفكرون فى العودة إلى أوطانهم (١) . وقد تنبه إلى ذلك المؤرخ فوشيه خادم كنيسة بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨) وأحد مؤرخى الحملة الأولى ، عندما كتب حوالى سنة ١١٢٥م يقول : « نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين بمعنى الكلمة . لقد أصبح الإيطالى أو الفرنسى الذى استوطن فى هذه البلاد جليليا أو فلسطينيا . واستحال الرجل الذى قدم من ريمز أو شارتر إلى صورى أو أنطاكى . وسرعان مانسينا مساقط رؤوسنا ، وبات معظمنا لايعرف أو يسمع عنها شيئا . وامتلك البعض الديار والرقيق ، كما لو كانوا قد ورثوها ، بينما اتخذ البعض زوجات لهم ليس من مواطنيهم وإنما من السوريات والأرمينيات ... وأصبح الذى كان غريبا أجنبيا بالأمس مواطناً اليوم ، والذى كان مهاجرا بات الآن مقيما وصاحب حق . وقد أخذ أقاربنا وأصدقاؤنا فى الحضور إلينا تباعا، تاركين عن طيب خاطر كل ما كانوا يملكون فى الغرب . والذين كانوا فقراء معدمين هناك جعلهم المولى أغنياء مترفين هنا . والذين كانوا لا يملكون درهما واحداً هناك، أصبحوا يمتلكون قطع الذهب

---

(١) Lewis, Arabs in Hist., 150.

التى لا تقع تحت حصر . والذى لم يكن يملك مزرعة واحدة هناك ، وهبه الله مدينة بأكلها هنا . فلماذا إذن نعود إلى الغرب ما دام الشرق يفى تماما برغباتنا ومطالبنا (١) ؟ »

لقد كان فى هذا الاعتراف الخطير على لسان أحد كتابهم دعوة صريحة إلى الاستيطان الاستعمارى ، والعمل على تهجير الغربيين إلى الشرق وتوطينهم فيه بصفة دائمة دون التفكير فى العودة إلى ديارهم . ولم يكن ينقص هذه الحركة سوى تدبير الأعداد الكافية ، ولم يكن هذا بالأمر السهل أو الميسور (٢) . وهكذا تأقلم اللاتين الذين أقاموا فى الشرق الذى أصبح بالنسبة لهم موطنهم الأول بعد أن نسوا أو تناسوا أوطانهم الأصلية . وبدأوا ينبذون فكرة الحرب

---

(١) أنظر الترجمة الانجليزية لنص فوشيه فى :

Grousset, Sum of Hist., 177; Heer, Med. World, 111; Lewis, Arabs in Hist., 150, 152. راجع أيضا : عمر كمال : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ٨٣ — ٨٤ .

(٢) وهو ما يعرف فى العصر الحديث بالاستيطان الاستعمارى . وتتلخص التجربة الصليبية فى قدوم الحملات الغربية لتحقيق أهداف العدوان . وبعد انتهاء كل حملة يعود غالبية المغامرين الصليبيين إلى ديارهم بالغرب ، بينما تبقى فى الشرق أقلية منهم . وحتى هذه الأقلية كانت تنزح إلى أوطانها بعد قليل . ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة من سياسية واجتماعية واقتصادية داخل أوروبا نفسها ، فضلا عن اضطراب الأحوال الاقتصادية والسياسية داخل الأرض العربية المحتلة ، والمقاومة العربية الشديدة المتزايدة ، وإدراك الغزاة الدخلاء أن العرب يحيطون بهم من كل مكان وأنهم إذا اتحدوا سيطبقون عليهم ويقضون على البقية الباقية منهم . ولهذا السبب لم تكن نداءات الهجرة ، مثل نداء فوشيه دى شارتر ، تلقى استجابة كافية فى الغرب . يضاف إلى ما تقدم أنه كان من عادة الصليبيين الغربيين الاستقرار فى المدن ، وترك المواطنين العرب أصحاب الديار فى القرى يحرثون الأرض ويفلحونها . والنتيجة أن العرب أصحاب الديار كانوا دائما أغلبية فى بلادهم ، بينما الفرنج الغزاة أقلية ليست هناك أى رابطة تربطهم بالأرض التى يحتلونها . وقد أسهم كل هذا فى القضاء على دولة الغزاة فى المشرق العربى إبان العدوان الصليبى ، فى وقت كان فيه ميزان القوى فى المنطقة قد اعتدل لصالح العرب وفى وقت أصبح فيه العرب فى مركز القوة بعد أن توحدت جبهتهم .

المقدسة ، وأصبحوا يماسكون الديار ، كما صار لهم زوجات وأبناء ومصالح تحتم عليهم العيش فى دعة وهدوء . وقد لاحظ ذلك الفارس الرحالة أسامة بن منقذ عندما حدثنا عن الهوة بين ليوتة الصليبي القديم المستوطن فى الشرق ، وصرامة زميله الجديد القادم من الغرب الذى كان يطمع هو الآخر فى امتلاك الأراضى والاقطاعيات (١). ومصادر الحركة الصليبية تحدثنا عن كثير من هؤلاء المغامرين الجدد أمثال رينوه ده شاتيون المعروف فى المراجع العربية بأسم أرناط صاحب الكرك ، وكذلك وليم ده منتفرات ، وغيرهما ممن كانوا يتوافدون على المملكة اللاتينية لتحقيق أغراضهم وأطماعهم . ولم يعد المستوطنون الأفرنج ، القدامى والجدد ، ينظرون إلى بعضهم البعض بعين الرضا والارتياح . وبلغ من شدة الخلاف بين الفريقين أن أهل الغرب الجدد كانوا يطلقون على الأفرنج القدامى كلمة « بولان » أو « أفرنجى شرقى » ، وذلك على سبيل السخرية والتحقير . ولكلمة بولان دلالتها ، إذا كانت تطلق عادة على الطفل المولود من أم افرنجية وأب سورى أو العكس (٢) . وغير هذه وتلك من الألفاظ التى كانت تطلق على كل من ولد عن مثل هذه الزيجات غير المتكافئة فى الجنس (٣) . ويكشف هذا الخلاف الواضح بين البولان والافرنج الجدد كيف كان المستعمرون اللاتين قد

---

(١) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٩٩ ؛ زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون ،ص ٩٨ ؛ عبد الرحمن زكى : معركة المنصورة ، ص ١٣ . راجع أيضا : Lēwis, op. cit., 152;

(٢) « Pullani dicuntur, qui de patre Syriano et matre Francigena generantur. » Cf. Joinville, Memoirs of Louis IX, King of France, tr. Johnes of Hafod (London, 1848), 466 n. I; idem, Saint Louis, King of Frnace, tr. James Hutton (London, 1868), 122 n. I.

(٣) Joinville, 234, 236; Ambroise,16; cf. also Rey, Colonies franques, 60-1. أنظر أيضا كتابى : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ٨٤ ح ٢.

أعدوا أنفسهم للمعيشة فى أرض العروبة بعد أن استطابوا الحياة فيها (١)، علماً بأن الخلاف المذكور كان هو نفسه من العوامل التى ساعدت على انهيار دولة اللاتين فيما بعد ، ويؤكد فى ذات الوقت حقيقة اتجاهات العدوان الصليبى .

وكيفما كان الأمر ، فقد استمرت هجمات الفرنج على البلاد العربية متوالية هوجاء طيلة القرنين الثانى عشر والثالث عشر بقصد الغزو والاستعمار . ولكن الأيوبيين فى مصر ومن بعدهم المماليك تمكنوا من الحاق شر أنواع الهزائم بأولئك الغزاة حتى أجلوهم عن الساحل الشامى عام ١٢٩١ م . وقد عز على أهل الغرب أن تذهب جهودهم فى سبيل السيطرة على هذه المنطقة والتحكم فى مصيرها ومقدراتها أدراج الرياح ، فنراهم يعملون بهمة على إحياء الفكرة الصليبية من جديد . فيشنون الحملات تباعا على مصر والشام وشمال افريقية خلال القرن الرابع عشر ، ولكنهم يلقون الضربات الشديدة من أهلها ، مما يضطرهم للعودة إلى ديارهم فى انتظار فرصة أخرى مواتية (٢) .

ومن هنا يلمس الدارس لتاريخ هذه الحركة وضوح الاتجاهات التوسعية الاستعمارية وتدخل المصالح المادية فيها ، وفتور الروح الدينية بشكل ملموس بين الجميع . فقد اشتركت الغالبية العظمى ، وهم الأقنان وعبيد الأرض وعامة الشعب ، بقصد الإفلات من قيود الاقطاع والتزاماته التى كانت عبئا يثقل كواهلهم . وكانت مساهمتهم فى تلك الحروب تعود عليهم بفائدتين : أولاهما تحريرهم من عبودية الاقطاع ، وثانيتهما خلاص نفوسهم من الأدران العالقة

---

(١) أنظر : Grousset, op. cit., 179

(٢) حول الحروب الصليبية المتأخرة ونتائجها ، أنظر كتابى « الوحدة وحركات اليقظة العربية » ، ص ٣٧-٤٣ والحواشى .

بها حسبما وعدتهم البابوية . أما الفرسان فقد وجدوا فيها هم أيضاً متنفسا لهم ، ومجالا طيبا لاشباع غريزتهم فى الحرب وسفك الدماء . وكيف لا وهم سلالة العنصر الجرمانى الذى يعتبر القتال غريزة متأصلة فى دمائه ، حتى أن الكنيسة اللاتينية حاولت تخفيف حدة هذه النزعة بما عملت على فرضه باسم « سلم الله » و « هدنة الله » (١) . ولو أن الجهاز الكنسى البابوى هو الذى استغل تلك النزعة فيما بعد عند الدعوة للحركة الصليبية . وإذا انتقلنا إلى قادة هذه الحملات من الحكام وكبار رجال الاقطاع ، نجد أنهم جميعا كانت تداعبهم الآمال العراض فى توسيع رقعة أملاكهم وتأسيس مستعمرات جديدة لهم فى الشرق بعد أن ضاق الغرب بمطامعهم . وكانت البابوية على رأس هذه الطوائف والفئات ، وهى التى أخذت تحث الجميع باسم الدين ، وقد تسترت تحت قناعه لتحقيق أهدافها البعيدة .

وما دمنا نتحدث عن الاتجاهات الحقيقية لتلك الحركة ، يجب أن نشير إلى طائفتين أسهمتا بنصيب كبير فيها هما الجاليات التجارية والجماعات الرهبانية المسلحة .

لقد كان هدف تجار المدن الايطالية والفرنسية والأسبانية الذين اشتركوا فى الحروب الصليبية ، استغلالى بحت نظراً للكسب الكبير الذى يعود عليهم من السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التى أصبحت مصدر ثراء عريض للمشتغلين بها . فإن امتلاك مصر وبلاد الشام والشمال الافريقى حيث تنتهى الطرق البرية الرئيسية للسلع الشرقية هو حجر الزاوية فى السيطرة على تجارة هذه

---

(١) Runciman, Hist. of the Crusades, I, 83-7. - راجع أيضا عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ١٨ .

السلع (١) . لذلك قامت أساطيلهم بدور فعال فى الاستيلاء على المراكز الرئيسية فى الشام . فساعد الجنوية الفرنج فى الاستيلاء على انطاكية سنة ١٠٩٧ م . وأسهم البنادقة بعد ذلك بعامين فى عملية استيلاء اللاتين على بيت المقدس ، وكانوا عنصرا بارزا فى الحملات التى كانت مصر وشمال افريقية مسرحا لها فيما بعد (٢) .

ولم يقتصر دور هؤلاء التجار على المساهمة الفعالة فى قيام الدويلات اللاتينية بالأراضى المقدسة ، بل امتد إلى العمل على الاحتفاظ بها أطول مدة ممكنة ، تمكينا لمصالحهم وتثبيتا لها (٣) . وقد تمثل ذلك أصدق تمثيل فى تلك المعاهدات التى عقدت بينهم وبين حكام مملكة بيت المقدس اللاتين ، والتى تضمنت امتيازات عديدة اقليمية ومالية وقضائية لصالح هذه الجاليات (٤) . هذا ، ووثائق تلك

---

(١) Pirenne, Economic and Social Hist., 31; Grousset, Sum of Hist., 181.

(٢) لقد كان للمدن التجارية الإيطالية، وهى امالفى وبيزة وجنوة والبندقية علاقات تجارية مع دول الشرق العربى قبيل قيام الحركة الصليبية ، وخاصة مصر والشام . وحصلت من الخلفاء الفاطميين على امتيازات تجارية واسعة ، وجنت من وراء ذلك أرباحا طائلة . فجاء اشتراكها فى الحملات الصليبية نتيجة طبيعية لهذه العوامل السالفة . أنظر عن ذلك : محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطميـة ، ص ١٧٢ — ١٧٦ . وفيما يتعلق بتحول هذه المـدن إلى دويلات مستقلة ، وكذلك نشاطهـا التجارى ، أنظر عبد المنعم ماجد : العـلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ص ٩٥ .

(٣) Pirenne, Med. Cities, 64; Coulton, Med. Panorama, 320.

وفيما يتعلق بدور البنادقة فى الحرب الصليبية، انظر ايلين بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ٤٩ — ٥٣ .

(٤) منابع الحركة الصليبية الأوروبية زاخرة بالمعاهدات التى عقدت بين هذه الجاليات وبين ملوك بيت المقدس اللاتين ، لاسيما كتاب وليم الصورى وكذلك ارشيفات المدن التجارية الأوروبية . راجع :

Pirenne, Economic and Social Hist., 30-3; Mahmud, Story of Islam, 135.

الفترة وحولياتها وكذلك ارشيفات كل من جنوه والبندقية وبيزه ، مليئة بمثل هذه الاتفاقيات التى لا تخرج عن كونها صفقات تجارية يتقاسم فيها الشريكان المكاسب والأسلاب . فالفرنج فى حاجة إلى الأساطيل لنقل القوات والعتاد والامدادات من الغرب إلى الشرق ، ولضرب الحصار حول المدن الساحلية الشامية والمصرية وموانى شمال افريقية ، بينما كان للجاليات التجارية مصالح وأطماع قديمة فى هذه الموانى التى تفتح لها الطريق إلى الشرقين الأقصى والأوسط ، مما يؤدى إلى إنماء ثرواتها وزيادة أرباحها . وكان أفراد هذه الجاليات يعيشون فى أحياء خاصة بهم فى كل ميناء أو مدينة يشتركون فى فتحها ، وكانوا يمارسون داخلها جميع مظاهر الحكم الذاتى . كما كانوا يجنون الأموال الطائلة من السيطرة على طرق التجارة ، ومن أجور نقل الحجاج ، ومن نقل المؤن والقوات والمعدات اللازمة لإمارات الفرنج من أوروبا إلى الشرق . وقد غدت المدن والموانى الواقعة على طول الساحل الشامى مسرحاً عجيباً للصراع بين هذه الجاليات لأسباب تتعلق بالملكية والمسائل التجارية ، وكثيراً ما تطور إلى قتال مكشوف وحروب دامية ذهب ضحيتها الكثيرون (١) .

وهكذا غلبت الصفة التجارية البحتة على هذه الجاليات بعد أن وضح الاتجاه الاستعمارى الاستغلالى فى نشاطها ، إذ كان هدفها الأول والأخير منذ قيام الحركة حتى نهايتها هو الربح والكسب المادى ، ولم يكن يعنيها الباعث الدينى إلا بالقدر الذى يحقق مصالحها (٢) . ويكفى أن نعرف أن شعار البنادقة الذى

---

(١) Heyd, Hist. du commerce, I, 343-4. راجع أيضاً كتابى: لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ٢٨٦ — ٢٨٨ .

(٢) Mahmud, Story of Islam, 132.

عرفوا به وقتذاك كان ، لنكن أولا بنادقة ، ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين ، (Siamo Veneziani, poi Christiani) . (١)

هذا هو موقف الجاليات التجارية من الحركة الصليبية ، تلك الجاليات التى كانت تجرى وراء مصالحها حيثما وجدتها . ولكن مما يدعو إلى الدهشة أن أولئك الرهبان المحاربين الذين اشتركوا مع الفرنج فى شتى مراحل الحركة ، مثل الداوية والاسبتارية والتيوتونية ، والذى كان من أولى مبادئهم الفقر والطاعة والحرمان والصلاة والتقشف والبعد عن ملذات الدنيا وماديانها ، قد استحالوا هم أيضاً إلى جمعيات نفعية . وأصبحوا يتمنعون داخل قلاعهم وحصونهم فى الشام ، ولهم جيوشهم ومواردهم المالية وسياستهم الخارجية التى تتفق ومصالحهم الخاصة . وكانت حياتهم فى الأراضى المقدسة دليلا قويا على هذا التغيير الواضح الذى طرأ عليهم . فقد أصبحوا يمتلكون المتاجر والحوانيت ، وأخذوا يتطاحنون ويتنازعون فيما بينهم على المغانم والأسلاب بعد أن كان عملهم أساسا هو العناية بالمرضى والجرحى فى ميدان القتال (٢) . ويكفى أن ظهور هذه الجماعات الرهبانية المحاربة كان فى حد ذاته نتيجة من نتائج قيام الحروب الصليبية ، كما كان اشتراكها بدور إيجابى فيها دليلا قاطعا على حقيقة اتجاهاتها والغرض من

---

(١) انظر عن Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 114. ذلك ايضا: Matt. Paris, II, 306; Davis, Invasion of Egypt, 23-4.

(٢) أنظر عن ذلك الكتب التالية: Joinville, 206-210, 224-6; Lacroix, Chevalerie et Crois., 226; idem, Vie Militaire, 198-9; Grousset, Crois., III, 510. راجع أيضا : عنان : تراجم اسلامية ؛ ص ٥٦ ؛ جوزيف نسيم : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ٢١٦ ، وهزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، ص ١١٦ .

انشائها (١). وقد أشارت المصادر العربية إلى أولئك الرهبان المحاربين باعتبارهم من ألد أعداء العروبة والإسلام (٢).

هكذا انحرفت تلك الجماعات الرهبانية المسلحة عن مبادئها الأصلية، وأصبح رجالها رجال دين ودنيا، رجال يلبسون مسوح الرهبان وفى نفس الوقت يقاتلون من فوق ظهور الخيل، ويتاجرون ويغنمون، ويفرضون الضرائب والأتاوات على القوافل المارة بمعاقلهم فى الشام.

يتضح مما سبق أن الحروب الصليبية وان اصطبغت بالصبغة الدينية، إلا أن الدين لم يكن الدافع الأساسى لقيامها، وانما كان قناعا لتغطية أسباب العدوان. ولعل من أبرز الأدلة على فساد الدافع الدينى وزيفه هو حياة اللهو والفجور التى كان يحياها الفرنج الوافدون إلى الشرق. ومنابع الحركة الصليبية عامرة بالأمثلة

---

(١) للمزيد من المعلومات عن الجماعات الرهبانية العسكرية انظر: Woodhouse, F., The Military Religious Orders of the Middle Ages. London, 1879; Delaville Le Roulx, J., Les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre (1100-1310). Paris, 1904; King, E., The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931; P. Lacroix, La Chevalerie et les Croisades. Féodalité, Blason, Ordres Militaires, Paris, 1887; E. Tenison, Chivalry and the Wounded. The Hospitallers of St. John of Jerusalem (1014-1914), London, 1914.

ومن المراجع العربية أنظر حسن حبشى: الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٤٧)، ص ٩٥ — ١٠٠؛ عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية، ص ١٠٤ — ١٠٦؛ السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى (الاسكندرية ١٩٦٧)، ص ٢١٢ — ٢٢٣.

(٢) جدير بالذكر أن المؤرخين العرب كانوا يطلقون على رجالهم الذين يبلون بلاء حسنا فى القتال ويستبسلون حتى الاستشهاد بأنهم « داوية الاسلام » نسبة إلى داوية الفرنج. انظر ابن واصل، جـ ٢، لوحة ٣٦٩ ب؛ العينى، جـ ١٨ قسم ٢، لوحة ٣١٢؛ السلوك جـ ١، قسم ٢، ص ٣٥٦.

التى تشهد بذلك (١). فقد انغمسوا فى الملذات مع الأوروبيات اللائى أحضروهن من الغرب ، وأقاموا معهم فى المستعمرات التى أسسوها فى فلسطين .

لقد كان الشرق اللاتينى مرتعا خصيبا للفسق والشرور ، وأصبح التدهور الخلقى بين اللاتين حديث الجميع ، بعد أن فاحت رائحته وأصبحت تزكم الأنوف. فكان أمراً عاديا أن يضبط أحد الفرنج زوجته فى وضع مريب مع رجل غريب، ويتقبل الأمر ببرود كأن لم يحدث شىء (٢) . وكان أمرا عاديا ايضا أن يضبط أحد الفرسان الصليبيين بمنزل يدار للفساد فقد حدث أثناء إقامة الملك الفرنسى لويس التاسع فى مدينة قيسارية ـ وكانت تحت حكم الفرنج وقتذاك ـ أن ضبط أحد فرسانه فى منزل يدار للدعارة ، وخير طبقا لتقاليد تلك البلدة بين أحد أمرين : إما أن تجره المرأة الفاسقة التى ضبط معها من قميصه داخل المعسكر الفرنجى بصورة مخزية ، وإما أن يصادر جواده وملابسه ويطرد من المعسكر . فاختارلنفسه الحل الثانى ، وذهب لحال سبيله ذليلا كسيرا . ويكفى أن جوانفيل مؤرخ سيرة لويس التاسع قد صرح فى كتابه انه اعتاد أن يضع فراشه أثناء إقامته فى الأراضى المقدسة عند مدخل خيمته حتى يراه كل من يمر أمام الخيمة راقدا عليه . وبالمثل فعل سيده الملك الفرنسى ، وذلك منعا للشبهات التى قد تحوم حول اتصالها بالنساء (٣) .

ويذكر نفس المؤرخ أن الحديث تطرق ذات يوم بينه وبين المندوب البابوى فى الحملة عن هذا التدهور ، وأخذ كل منهما يقص على زميله ما يعرفه فى

---

(١) أنظر : Joinville, 94, 96.

(٢) أنظر رواية أسامة بن منقذ فى كتاب الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون ، ص ٩٦ .

(٣) Joinville (ed. Wailly), 276.

هذا الشأن ، واختتم القاصد الرسولى كلمته بقوله : « لا يعلم أحد مثلى المعاصى والآثام التى يرتكبها الفرنج فى عكا . ولذلك فإن المولى سوف ينتقم منهم حتى تغسل المدينة بدمائهم . وحينئذ سوف يأتى شعب آخر للإقامة فيها » (١) . ولم تكن هذه العبارة إلا نبوءة صادقة حققتها الأيام باستيلاء العرب أيام الأشرف خليل على عكا سنة ١٢٩١ م . ومن مظاهر الانحلال أن مسألة الحلف باسم الله زورا وبهتانا أصبحت أمراً شائعا بين الفرنج ، حتى لقد اضطر لويس التاسع أثناء اقامته فى سورية إلى فرض عقوبات مشددة على كل من يجدف باسم الله (٢) .

هكذا أودى الانحلال الخلقى بالمستعمرات اللاتينية فى الشرق إلى الحضيض . ولم يكن هذا أمرا مستغربا ، فقد كانت موئلا لأجناس شتى من الخلق تباينت مصالحهم وميولهم وأهواؤهم ومطامعهم تباينا عجيبا . فكان فيها البنادقة والبيازنة والجنوية وأهل مرسيليا وأمالفى الذين يمثلون النشاط التجارى البحرى ، ولم يكن يعنيهم فى شىء الشعار الدينى الذى أخفى الاتجاهات الحقيقية للحركة . وكذلك الاسبتارية والداوية والتيوتونية من الرهبان المحاربين الذين انحرفوا عن مبادئهم الأصيلة . هذا إلى جانب جماعات من المغامرين والقتلة واللصوص وقطاع الطرق والخارجين عن القانون الذين قدموا من مختلف بلاد الغرب الأوروبى مدفوعين بعوامل شتى أهمها السيطرة والأطماع والسلب وأقلها

(١) Joinville (ed. Wailly), 334-6. — هذا ويعتبر المؤرخ اللاتينى جاك دى فيترى Jacques de Vitry ، الذى ولد حوالى سنة ١١٨٠ وتوفى حوالى سنة ١٢٤٠ ، من أفضل من كتب من الغربيين القدامى فى موضوع التدهور والانحلال الخلقى فى مستعمرات اللاتين فى الأراضى المقدسة .

(٢) Joinville (ed. Wailly), 378.

بدون شك العامل الدينى (١) . هكذا كان الغزو الغربى لبلدان الشرق العربى يتألف فى الواقع من هذا الخليط العجيب ، وليس من اللاهثين وراء القبر المقدس (٢) .

ويمكن القول بناء على ما تقدم إن الحماس الدينى للحركة الصليبية لم يكن حقيقيا متأصلا ، كما لم يكن لدى الفرنج رغبة صادقة فى الجهاد . (٣) وليس لنا أن ننتظر منهم ذلك بعد أن وضحت نياتهم واتجاهاتهم وبعد أن تأكد فتور الحماس الدينى عندهم . وان اخلاص العرب لهذا الاعتقاد كان يفوق بلا شك إخلاص أولئك القوم له . فالعرب كانوا يدافعون بصدق عن أرض آبائهم وأجدادهم ، ولم يكن هذا الأمر متوفراً لدى الفرنج الغزاة . فالجهاد كان عقيدة لها أثرها الفعال فيما أحرزه العرب على أعدائهم من انتصارات . وكانت دعوة الجهاد كافية لإثارة الحماسة بين الناس . فكل مشترك ضد هذه الغزوات الصليبية مجاهد ، وإذا مات فى ساحة الوغى فهو شهيد . وكان للخطب والمواعظ الدينية التى تلقى من فوق المنابر أكبر الأثر فى الحث على الجهاد ضد أعداء الوطن ، أعداء الله . وقد قام الجامع الأزهر بدور رئيسى فى تنبيه الأذهان إلى الخطر

---

(١) أنظر Burchard, Description of the Holy Land, 102 - 3; P. K. Hitti, History of the Arabs from the Earliest Times to the Present (London, 1964), 636. ينظر أيضا كتابى « الوحـدة وحركات اليقظة العربية » ، ص ١١ — ١٢ والحواشى .

(٢) Lewis, Arabs in Hist., 150.

(٣) Matt. of Westminster, Flowers of Hist., II, 316; cf. Masson, Med. France, 95-6.

هذا ويعتبر كتاب بالمر تروب Palmer A. Throop, Criticism of the Crusade : A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda, Amsterdam, 1940. من أفضل ما كتب حتى الآن عن معارضة الرأى العـام الغربى لفـكرة العدوان الصليبى ضد العالم العربى .

الجاثم فى أرض فلسطين (١). فخطب العلماء ورسائل الحكام مؤيدة بآيات من كتاب الله تهدد العدو وتنذره بسوء الخاتمة «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون»، وآيات تستنهض عزائم العرب أن يحملوا أعباء الجهاد دفاعا عن مقدساتهم، «انفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون»، وآيات تبشر بالنصر وتؤكده «ان ينصركم الله فلا غالب لكم» (٢). كذلك وضعت خلال الحروب الصليبية المؤلفات العديدة فى فضائل الشام والبيت المقدس وفى أدب الجهاد والحث على قتال أعداء الله (٣).

---

(١) محمد شديد: الجهاد فى الاسلام، ص ٩٠-٩٣، ١٠٥ و١٢٧ و١٥٣-١٥٤؛ جوزيف نسيم: هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل، ص ١١٧ – وجدير بالذكر أن الشيخ محمد أبو زهرة تناول فى كتابه «نظرية الحرب فى الاسلام»، ص ١٧ وما يليها، فكرة الباعث على الحرب والقتال وهى دفع الاعتداء والعدوان. وأوضح ما يجب اتباعه قبل المعركة وفى أثنائها وبعد انتهائها، مدعما ذلك بآيات من كتاب الله ومن الأحاديث الشريفة. أنظر أيضا مقالى «العدوان الغربى الاستعمارى على العالم العربى قديما وحديثا» بمجلة العهد الجديد – العدد ١١٥٤ (٥ سبتمبر ١٩٦٧).

(٢) راجع عن الجهاد Gibb, Mohammedanism, 66-7. – ويجد القارىء نماذج لرسائل الحكام وكتبهم المؤيدة بالآيات القرآنية فى المصادر التالية: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٢، لوحة ٣٦٤ ب؛ ابن ايبك: كنز الدرر، ج ٧، ورقة ٣٦٧ – ٣٦٨ و ٣٨١ – ٣٨٢؛ المقريزى: السلوك، ج ١ قسم ٢، ص ٣٣٥ و ٣٥٦ — ٣٥٧؛ والخطط، ج ١، ص ٢١٩؛ ابن دقماق: نزهة الأنام (القطعة الثانية) لوحة ١٧٧ أ و ١٨٠ أ – ١٨٠ ب.

(٣) فيما يتعلق بفلسفة الجهاد فى الإسلام أنظر كتاب جرونيباوم: حضارة الإسلام، ص٢٣ وكذلك Rosenthal, Political Thought in Med. Islam, 24-6, 29, 196, 247 n. 59, 286 n. 27.

وتحتفظ دار الكتب المصرية بالقاهرة بعدد كبير من المخطوطات والمخطوطات المصورة فى موضوع فضائل الشام بعامة والبيت المقدس بخاصة، نذكر منها ما يلى: =

فى الوقت الذى كان فيه العرب يحافظون على كيانهم وقوميتهم وعروبتهم ووحدتهم عن عقيدة حقيقية راسخة تمتد جذورها إلى أعماق التاريخ ، وفى الوقت الذى كان فيه العرب يدافعون عن استقلالهم ووجودهم بكل ما يملكون من قوة وإيمان وعزم واصرار ، لم يكن لدى الفرنج رغبة صادقة فى القتال .

---

١ — « فضائل بيت المقدس » — تأليف أبى المعالى المشرف بن المرجى بن ابراهيم المقدسى — نسخة فى مجلد مأخوذة بالتصوير الشمسى عن النسخة الخطية المكتوبة بخط على بن محمد ، وقد فرغ منها فى رمضان ٨٠٦ هـ ، والمحفوظة بمكتبة جامعة توتنجن — رقم ٤٥٤٢ تاريخ و ٣١٩١ تاريخ .

٢ — « فضائل الشام » — تأليف شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادى المقدسى الحنبلى ، المعروف بابن عبد الهادى — نسخة فى مجلد مخطوطة بخط محمد بدوى ابن جبر — رقم ٧٤٩ تاريخ .

٣ — « فضائل الشام » — تأليف أبى سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور بن عبد الجبار المعروف بالسمعانى ، المتوفى سنة ٥٦٢ هـ — نسخة ضمن مجموعة فى مجلد مخطوط — رقم ٥١٩ مجاميع .

٤ — « فضائل الشام » — تأليف أبى عبد الله محمد بن أبى العباس أحمد الأسيوطى الشافعى — نسخة فى مجلد مخطوطة بخط محمد بن عمر الشافعى الذى فرغ من كتابتها سنة ١١١٢ هـ — رقم ٧٥٠ تاريخ .

٥ — « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » — تأليف شهاب الدين أبى محمود أحمد بن محمد المقدسى الشافعى المتوفى سنة ٧٦٥ هـ — مخطوط بخط محمد بن يوسف — رقم ٢٤ تاريخ .

٦ — « فضائل بيت المقدس » — تأليف أبى بكر محمد بن أحمد بن محمد الواسطى المقدسى (ق ٥ هـ) — ضمن مجموعة فى مجلدين بالتصوير الشمسى مأخوذة عن نسخة خطية محفوظة بمكتبة المدرسة الأحمدية فى جامع أحمد باشا الجزار فى عكا — رقم ٧٨١ مجاميع .

٧ — « فضائل الشام » — لمؤلف مجهول — نسخة فى مجلد برقم ٣٩٨٢ تاريخ .

٨ — « فضائل الشام » — تأليف أبى الحسن على بن محمد الربعى المالكى (ق ٥ هـ) — ضمن مجموعة فى مجلد بالتصوير الشمسى — رقم ٧٨١ مجاميع .

٩ — « نزهة الأنام فى محاسن الشام » — تأليف أبى البقاء عبد الله بن محمد البدرى المصرى الدمشقى الشافعى (ق ٨ هـ) — طبع القاهرة ١٣٤١ هـ .

١٠ — « باعث النفوس إلى زيارة القدس الشريف المحروس » — تأليف برهان الدين ابراهيم

وهكذا برهنت الحركة الصليبية منذ بدايتها على عقمها وانحلال الدافع الدينى لدى المسيحيين الغربيين بعد أن سيطرت عليهم الأطماع الشخصية ، وبعد أن ظهروا على حقيقتهم وكشفوا عن خبيئة نواياهم . فقد كانت تحركهم دوافع دنيوية تنم عن ضعف البواعث الدينية ورياء المثل الصليبية العليا (١) . وهكذا شاب الفتور تلك الحركة ، وتشكك كثير من المفكرين الأوروبيين فى جدواها (٢) . ونلمس ذلك بوضوح من كتابات المتعقلين من أهل الغرب من

= ابن إسحاق بن تاج الدين أبى عبد الله عبد الرحمن بن درهم الشافعى الفزاوى المتوفى سنة ٧٢٩ هـ ـ نسخة ضمن مجموعة فى مجلد مخطوط ـ رقم ٥١٤ مجاميع ـ ويتناول المخطوط فضائل المسجد الأقصى والمسجد الحرام .

هذا ويوجد بمكتبة بلدية اسكندرية عدد غير قليل من المخطوطات والمخطوطات المصورة فى هذا الموضوع الهام ، منها :

١ ـ « اتحاف الاخصا فى فضائل المسجد الأقصى » ـ تأليف محمد بن أحمد المنهاجى السيوطى ، ألفه ببيت المقدس سنة ٨٨٠ هـ ـ نسخة فى مجلد مكتوبة بقلم نسخ سنة ١١٥٥ هـ ـ رقم ن ٣٢١٧ ـ ج .

٢ ـ « تحفة الأنام فى فضائل الشام » ـ تأليف أحمد بن محمد البصراوى المعروف بابن الإمام ـ أتم تأليفه سنة ١٠٠٣ هـ ـ نسخة فى مجلد مكتوبة بقلم عادى سنة ١٢٠٨ هـ ـ رقم ن ٢٠٣٧ ـ ج .

٣ ـ « فضائل الشام » ـ تأليف عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥ هـ ـ نسخة مكتوبة بقلم عادى سنة ١٠٢٣ هـ ـ ضمن مجموعة برقم ن ١٣٥١ ـ ل .

٤ ـ « تحصيل الأنس لزائر القدس » ـ تأليف عبد الله بن هشام المتوفى سنة ٧٦١ هـ ـ نسخة مكتوبة سنة ٩٠١ هـ ـ ضمن مجموعة برقم ن ١٣٥١ ـ ل .

٥ ـ « حسن الاستقصا لما صح وثبت فى المسجد الأقصى » ـ تأليف محمد النافلاتى مفتى الحنفية بالقدس المتوفى سنة ١١٩١ هـ ـ نسخة فى مجلد مكتوبة بخطوط مختلفة بدون تاريخ ـ رقم ن ٤٩٨١ ـ ج .

(١) عنان : مصر الإسلامية ، ص ١١٣ .

(٢) زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٢٦٢ .

رجال الدين والفكر والقلم والحكام العلمانيين ، أمثال الكاهن الانجليزى متى الباريزى ، والشاعر الفرنسى وليم رتيف W. Rutebuef ، والامبراطور الألمانى فردريك الثانى .

ويعتبر متى الباريزى من كبار كتاب القرن الثالث عشر . وقد تحدث فى كتابه المسمى « تاريخ انجلترا » فى سخرية مريرة وتهكم لاذع عن الجهاز الكنسى فى أوروبا الذى استشرى فيه الفساد ، وعن رجال الدين وعلى رأسهم البابا الذى لم يكن يعنيه التبشير بحملة صليبية الا بالقدر الذى يخدم أطماعه ويحقق مصالحه العلمانية (١) . ويقول فى موضع آخر من كتابه إن « البابا الذى اقتفى خطى الامبراطور قسطنطين ، وكان الأجدر به أن يحذو حذو القديس بطرس قد سبب الكثير من القلق والاضطرابات فى العالم » (٢) . وقد يبدو هذا أمرا مستغربا فى تلك العصور التى كان فيها للدين مكانة كبيرة فى المجتمع الغربى الوسيط ، خاصة وان هذا الهجوم ضد الفكرة الصليبية وضد النظام الكنسى البابوى ، قد صدر عن رجل دين يعرف خبايا هـــذا النظام ومساوئه ومواطن الضعف فيه حق المعرفة . ولكن كان لدى متى من الجرأة والشجاعة ما يكفى لقول الحق فى تلك العصور التى عاش فيها الفرد الوسيط داخل دائرة ضيقة مغلقة لم يكن من السهل الإفلات منها ، وان كانت تباشير عصر جديد قد بدأت تلوح فى الأفق .

أما الشاعر رتيف فقد عاش هو الآخر فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، وعاصر أحداث تلك الفترة من الزمن . وكتب قصيدة طويلة بالفرنسية الوسيطة يقول فيها دون مواراة وفى صراحة تامة إنه من الحماقة أن يخاطر

---

(١) Matt. Paris, II, 391, 400, 403.

(٢) Matt. Paris, II, 498. – أنظر الملحق السابع بآخر الكتاب .

الانسان فى حرب تتسم بالطابع الدينى خارج بلاده ، ما دام بوسعه أن يتصل بالله فى وطنه وهو بين أهله وعشيرته ، وأن يعيش فى نعمة ويسر وسلام . ويسخر الشاعر فى القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا من الحروب الصليبية وسيلة لابتزاز الأموال وتحقيق أطماعهم فى الشرق (١) .

وثالث هؤلاء هو الامبراطور فردريك الثانى (٢) . كان رجلا غزير العلم واسع الأفق ، ويعتبر بحق من الحكام اللاتين القلائل المتحررين من سلطان الكنيسة وقيودها . فقد استقر فى جنوب ايطاليا ، وتأثر إلى حد كبير بالثقافة المتحررة التى سادت هناك . وكانت ثقافة متنوعة الأصول والمصادر ، تأثر فيها باليونان والرومان القدماء ، والبيزنطيين والعرب ، مما خلق فى هذه المنطقة عقلية متميزة عن باقى أجزاء إيطاليا ودول الغرب . وقد اعجب فردريك بعلم العرب وعاداتهم وأخلاقهم ، ومن هنا كان أقل خضوعا للكنيسة التى كانت قد تشكلت وبعدت عن التعاليم المسيحية الأصيلة . ولذلك لم تكن عنده تلك النعرة الصليبية المتزمتة . لقد امتاز بروح التسامح ، وكان يحترم جميع الأديان . كما كان بلاطه موئلا للعلماء المسلمين والمسيحيين . وكثيرا ما كان يجتمع بمفكرى الإسلام ، كما اتصل بتلامذة ابن رشد وكانت بينه وبينهم مكاتبات ومساجلات عديدة كان لها أكبر الأثر فى روح التسامح التى تميز بها (٣) .

---

(١) هذه القصيدة كتبها رتبف بالفرنسية الوسيطة السائدة فى ذاك العصر . أنظر ترجمتها الانجليزية فى Heer, Med. World, 110; Masson, Med. France, 96-7.
أنظر الترجمة العربية للقصيدة فى الملحق السادس بآخر الكتاب .

(٢) تناول سيرة فردريك الثانى وشخصيته وحملته الصليبية وعلاقته بكل من العرب والبابوية كثير من المؤرخين الغربيين المحدثين . ويعتبر مؤلف كانتوروفتش من أحسن ما كتب عن تاريخ حياة هذا الإمبراطور . أنظر : Kantorowicz, E., Frederick the Second (1194 - 1250). London, 1957.

(٣) أنظر المقريزى : السلوك ، جـ ١ قسم ١ ، ط . ثانية (القاهرة ١٩٥٦) ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

لقد عبر فردريك بذلك عن موقف الرجال الأحرار فى تلك الرقعة من العالم ، وكان على علاقة طيبة بالحكام العرب وعلى رأسهم الكامل محمد سلطان مصر وابنه الصالح نجم الدين ايوب . وعقد مع الكامل معاهدة سلمية سنة ١٢٢٩م تكاد أن تكون الأولى من نوعها فى تلك العصور التى إشتهرت بالتزمت الدينى ، تنازل له فيها السلطان الأيوبى عن طيب خاطر عن مدينة بيت المقدس (١) .

وتروى المصادر العربية أن فردريك عندما علم بحركة الملك الفرنسى لويس التاسع ، واعتزامه السير بجيوشه صوب مصر لغزوها ، أرسل إلى صديقه الصالح نجم الدين يخبره بذلك حتى يكون على حذر ويتخذ للأمر عدته (٢) . لذلك كان العرب فى مصر وسورية وفى جزيرة صقلية يكنون للامبراطور الألمانى كل تبجيل واحترام ، (٣) حتى لقد اعتبره كثير منهم أنه أميل إلى الاسلام منه إلى النصرانية ، وأنه كان يؤثر القرآن على الانجيل(٤). هذا ، بينما اضطهدته الكنيسة اللاتينية ، واصدرت ضده قرار الحرمان متهمة إياه بالهرطقة والخروج على الدين .

---

(١) حول حملة فردريك الصليبية ، أنظر المقريزى: السلوك ، ج ١ قسم ١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ و ٢٢٨ - ٢٢٩ و ٢٣٠ - ٢٣٢ ؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج ٦ (القاهرة ١٩٣٦) ، ص ٢٧١ .

راجع أيضا ;Grousset, Hist. des Crois., III, 282 ff., 289 ff. Runciman, Hist. of the Crusades, III, 171 ff.; Hitti, Hist. of the Arabs, 653.

(٢) راجع التفاصيل فى المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٩ ؛ العينى : عقد الجمان ، ج ١٨ قسم ٢ ، لوحة ٣٠١ ؛ ابن ايبك : كنز الدرر ، ج ٧ ، ورقة ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٢ ، ص ١٤٨ ، وكتاب :
Davis, Invasion of Egypt, 4.

(٤) أنظر : أبو الفداء ، نفس المصدر والصفحة ؛ العينى : عقد الجمان (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية — المؤرخون الشرقيون) ج ٢ قسم ١ ، ص ١٩٩ .

وبذلك عبر كل من فردريك ورتبف ومتى البارىزى تعبيرا صادقا عن موقف ذوى التعقل فى تلك العصور ، حيث بدأت الأنظمة القديمة التى ارتكز عليها العالم الوسيط فى الدين والسياسة والحرب والاقتصاد فى التداعى لتحل محلها أنظمة أخرى مغايرة تبشر بقيام عصر جديد (١) .

ولقد وجد فى الغرب إلى جانب هؤلاء الأحرار عشرات ممن فهموا الأمور على حقيقتها ، وممن أخذوا يندددون بالكنيسة البابوية وبفكرة الحروب الصليبية . (٢) ومما ساعد على ذلك نمو المدن والقوميات ، وظهور شخصية الفرد ، واتساع الآفاق والمدارك ، وتطور الحركة الفكرية ، ونشأة الجامعات فى أخريات العصور الوسطى التى خرج من بين جدرانها الكثير من الشباب والعلماء المثقفين المستنيرين . (٣) ومع ذلك فقد كانت صيحات هؤلاء المصلحين ،

---

(١) يقول الكاتب الانجليزى ماى مكيزاك إنه لم يكن هناك من سبب يدعو الذين عاصروا القرن الرابع عشر إلى الاعتقاد بأن عصر الحروب الصليبية قد ولى إلى غير رجعة . أنظر : McKisack, Fourteenth Century, 123. — والحقيقة أن هذه الفكرة — على الرغم من الحروب الصليبية المتأخرة — كانت قد تقلصت وخبا الحماس الذى صاحب بدايتها بعد أن تكشفت حقيقتها ، ويتضح ذلك من أقوال أناس موثوق بصحة رواياتهم مثل الكاهن متى البارىزى والشاعر رتبوف ، وغيرهما من أصحاب الفكر والقلم .

(٢) Coulton, Med. Panorama, 649.

(٣) أنظر عن ذلك المراجع الافرنجيــة التالية : Waugh, W.T., A History of Europe from 1378 to 1494. London, 1932; McKisack M., The Fourteenth Century (1307 - 1399). Oxford, 1959; Haskins, C.H., The Rise of Universities. New York, 1960; Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages. London, 1955.

ومن المراجع العربية أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور ، الجامعـات الأوربية فى العصور الوسطى – القاهرة ١٩٥٩ ؛ سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى – الجزء الثانى (النظم والحضارة) – القاهـرة ١٩٥٩ ؛ سعيد عاشور ومحمد آنيس : المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى – القاهرة ١٩٦١ .

التى كانت تنبعث بين الحين والحين منادية بالتعقل، أشبه بصرخة فى واد عميق . إذ لا تلبث المبادىء والأفكار المسيطرة على الغرب أن تنبعث من مرقدها لتخمد هذه الصيحات التى لا تجد لها إلا صدى متباعدا .

وعلى هذا لا نعدو الحق إذا قلنا إن الحروب الصليبية قامت تحت قناع الدين وباسمه لتحقيق أطماعها التوسعية البعيدة المدى ، سواء فى العالم العربى أو فى دولة الروم الشرقية التى كانت قائمة وقتذاك ، وان دور العامل الدينى كان يقتصر على تغذية هذه الحركة وتزويدها بالوقود اللازم لدفعها إلى الأمام .

فقد كان من أحد أهدافها وضع يدها على ممتلكات الدولة البيزنطية المترامية الأطراف ، والتى أخذ جيرانها الأتراك السلاجقة وغيرهم فى الاستيلاء عليها الواحدة تلو الأخرى . وليس من المستبعد القول إن البابوية والغرب الكاثوليكى عندما دعوا إلى حمل الصليب ، كانت تراودهم فكرة إحياء الامبراطورية المقدسة من جديد . بضم ممتلكات الامبراطورية البيزنطية إليها والاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية ، وإعادة صبغ هذه الدولة بالصبغة اللاتينية ، وفرض المذهب الكاثوليكى الذى تدين به روما عليها . (١) وتؤكد ذلك أحداث السنوات التالية .

وأما هدفها الجوهرى فهو تحقيق أغراضها الاستعمارية فى العالم العربى ، والعمل على تفتيت وحدته وكسر شوكته ضمانا لبقاء نفوذ الاستعمار فى المنطقة . وهكذا لم يكن استرداد الأراضى المقدسة أو تخليص قبر المسيح هو الدافع الأساسى لقيام هذه الحركة ، إنما كان عاملا ظاهريا لإثارة النزعة الدينية بين

---

(١) أنظر : Anna Comnena, Alexiad, 250, 252. — وسنتناول هذه الفكرة بالتفصيل فى الفصول التالية من الكتاب .

مسيحي الغرب ، فى وقت كان فيه للدين تأثير كبير فى نفوس الناس الذين كانت تخيم عليهم سحابة كثيفة من الفقر والجهل والحرمان ، باستثناء فئة قليلة من رجال الدين المتزمتين المثقفين ، بحيث كان من السهل التأثير على الناس باسم الدين وحثهم على الحرب والقتال فى سبيله .

والخلاصة أن الحروب الصليبية التى حمل المشتركون فيها شارة الصليب ، هى فى الواقع حروب التوسع والاستعمار ضد دولة الروم والمسيحيين الشرقيين الذين كانوا ينظرون اليهم باعتبارهم هراطقة وملحدين . وهى فى ذات الوقت حروب التوسع والتعصب والاستعمار ضد العرب فى المشرق والمغرب الذين رأوا فيهم خطرا يتهددهم ، فعملوا على القضاء على استقلالهم وتفتيت وحدتهم واعاقة تكتلهم ، تحقيقا لاتجاهاتهم الاستعمارية .

وهكذا لم يكن الباعث الدينى هو الدافع الرئيسى لتلك الحركة ، بل كان ستارا لتغطية الأغراض الحقيقية لها . ولم يكن انقاذ الأراضى المقدسة وتحرير قبر المسيح سوى اعتبارا ثانويا يخفى الأسباب الرئيسية التى تتلخص فى العمل على تأسيس مستعمرات لاتينية فى الشرق، وتدعيمها وتوسيع حدودها تحت تاج بيت المقدس اللاتينى (١) .

وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين الغربيين الحديثين الذين اشتهروا بتعصبهم لبنى جنسهم ، قد اعترفوا صراحة بذلك . ومن هؤلاء المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه الذى قال فى كتابه « حصيلة التاريخ » ان الحروب الصليبية أدت إلى أول توسع استعمارى للغرب المسيحى فى الشرق العربى على حساب الاسلام (٢).

---

(١) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ، ص ١٨٣ و ١٩٥ ـ ١٩٦ ؛ جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ٨ .

(٢) Grousset, Sum fo Hist., 182.

كما ردد فى كتابه مرارا عبارات مثل « المستعمرات الفرنجية » و « الاستعمار الفرنجى » و «التوسع الفرنسى الاستعمارى فى الشرق» و «المستعمرون اللاتين» وغيرها (١). أما زميله جورج تريفليان الانجليزى فقد أوضح فى كتابه « تاريخ انجلترا » أن الحركة الصليبية هى حركة اتساع خارجى قامت بها أوروبا المسيحية الاقطاعية ضد العرب (٢) . ويتحدث ارنست باركر عن الامارات التى أسسها أولئك الفرنج فى فلسطين تحت اسم « الاستيطان اللاتينى » (٣) . أما هنرى وليم ديفز فقد أطلق على تلك الحروب اسم « الاستعمار الأوروبى » (٤) . بينما قال برنارد لويس فى كتابه « العرب فى التاريخ » ان تلك الحروب كانت أول محاولة مبكرة فى التوسع الاستعمارى للغرب ، تحركها اعتبارات مادية دنيوية ، ويغلفها الدين كعامل نفسانى (٥) .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١٨١ — ١٩٠ . ويستخدم جروسيه هنا ألفاظا مثل : « Frankish colonies » و « Frankish colonization » و « Colonial expansion » . ولفظة Colony تعنى هنا مستعمرة وليس مجرد جالية أجنبية مستوطنة حسبما هو مفهوم منها . وبالمثل بالنسبة لمشتقاتها .

(٢) Trevelyan, 141.

(٣) أنظر مقالة باركر عن الحروب الصليبية فى: Arnold, Legacy of Islam, 46.

(٤) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ، ص ١٧٨ .

(٥) Lewis, Arabs in Hist., 140. — وجدير بالذكر أن بعض الكتاب الغربيين أطلقوا على مؤلفاتهم التى تتناول تاريخ الحركة الصليبية أو أحد فصولها، أسماء تدل على حقيقة أهدافها . من هؤلاء المؤرخ رى Rey الذى أطلق على كتاب له اسم « المستعمرات الفرنجية فى سوريا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر » (طبع باريس ١٨٨٣) . وله كتاب آخر تحت اسم « نبذة عن السيادة الفرنسية على سوريا فى العصور الوسطى » (طبع باريس ١٨٨٦) . ويرى أصحاب المدرسة الحديثة فى التاريخ الاقتصادى أن الحركة الصليبية هى شكل من أشكال الاستعمار فى القرون الوسطى ، وذلك باعتبارها مرحلة من مراحل التوسع الأوروبى فى الشرق . أنظر عن ذلك كتاب الدكتور عزيز سوريال عطية : =

لقد اتجهت الحركة منذ بدايتها إلى تحقيق هذه الأهداف . فهي حركة استعمارية بكل ماتحمله هذه الكلمة من معان . هي استعمار عسكري اتخذ من القوة المسلحة وسيلة لتحقيق أهداف العدوان . وهي استعمار سياسي يستهدف سلب البلاد حريتها وتفتيت وحدتها وإعاقة نموها . وهي استعمار استيطاني يهدف إلى الاستيلاء على الأراضي واستعباد النفس البشرية . وهي استعمار ثقافي يسعى إلى فرض الحضارة الغربية اللاتينية على العـــالم العربي . ثم هي استعمار ديني يتمثل في محاولات أوروبا نشر الكاثوليكية في العالم العربي عن طريق الحروب الصليبية والبعثات التبشيرية ، كما يبدو من تسميتها وشعارها ومن مسلكها وتصرفاتها . وأخيرا هي استعمار اقتصادي استغلالي مظهره نهب ثروات البلاد والاستئثار بخيراتها من موارد وخامات أولية وفيرة . وبهذه الروح عبرت الحركة بوضوح عن نفسها . ولذلك فهي تعتبر حلقة من حلقات الصراع الطويل العتيق بين الشرق والغرب ، وفصلا هاما في تاريخ الاستعمار ومرحلة رئيسية من مراحله ، لايجوز إغفالها أو التجاوز عنها عند التأريخ للاستعمار القديم أو الحديث .

وان الباحث المدقق في تطور سير الأحداث عبر القرون الوسطى التي أعقبت العدوان الصليبي حتى وقتنا هذا يدرك في غير عسر نوايا الغرب السيئة واتجاهاته الاستعمارية في الوطن العربي ، مما يعزز ما سبق أن بيناه في الصفحات السابقة .

لقد أثبتت الأحداث أن النضال في سبيل غزو الأراضي المقدسة لم ينته بصفة نهائية باستئصال شأفة الأوروبيين منها واستيلاء العرب على آخر معاقلهم

Atiya, Crus., Commerce and Culture, 18. =

وفيما يتعلق بآراء الكتاب والمؤرخين العرب حول حقيقة أهداف العدوان الصليبي ، انظر كتابي : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ١٠ ـ ١٢ والحواشي .

الهامة فيها فى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى . فقد كان وقع هذه الضربات المتتالية شديدا على أهل الغرب بعد أن تحطمت آمالهم على صخرة الواقع ، حتى انهم ظـــلوا طيلة قرن من الزمان بعد سقوط عكا يضعون المشروعات الضخمة والمؤلفات العديدة لغزو الشرق . وظهر من بينهم فى السنوات الأخيرة من القرن الثـالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الـكثير من المبشرين والدعاة ممن قام عملهم على إحياء الفـكرة الصليبية بين أهل الغرب . كما قاموا بالدعاية لحملات جديدة ضد المشرق والمغرب العربيين ، ووضعوا الخطط بقصد حض المسيحيين الكاثوليك على الأخذ بأسباب الحروب الصليبية من جديد . وقد بارك البابوات والمسئولون فى الغرب هـذا الاتجاه تمشيا مع سياستهم التقليدية القديمة . وكان من أثر ذلك أن قامت أوروبا بشن عدد من الغزوات على البلاد العربية فى البقية الباقية من القرن الرابع عشر . وكان من أهمها حملة بطرس الأول لوسنيان ملك قبرص الفرنسى على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ م ، وحملة لويس الثانى دوق بوربون الفرنسى على المهدية فى شمال أفريقية سنة ١٣٩٠ م . كما كانت آخرهـا وأوسعها نطاقا هى حملة نيقوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦ م التى قامت بهـا أوروبا بأسرها لا لإخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول إلى بيت المقدس فى قلب إمبراطورية المماليك . وانتهت الحملة ـ كما انتهت سابقتاها ـ بهزيمة الفرنج الساحقة أمام قوات السلطان بايزيد الأول ، حتى أنه لم تقم لهم من بعد ذلك قائمة . وقد وقع فشل هذه الغزوة على رؤوس أهل الغرب وقع الصاعقة ، وكان بمثابة مسمار كبير دق فى نعش الحركة الصليبية بمعناها المعروف وقتـذاك . إذ أصيب الغربيون بضربة قاضية جعلت اليأس يتمكن من نفوسهم للمرة الثانية ، وجعلتهم ينصرفون عن تلك الفكرة التى نادى بها أجدادهم قبل ذلك التاريخ بثلاثة

قرون إلى مصالحهم الخاصة ومشاكلهم الداخلية (١) .

ولكن هل تخلى الغرب عن مشروعاته العدوانية ورضى بالأمر الواقع ؟ وهل قدر للأراضى المقدسة التى كانت هدفا لحروب التعصب والاستعمار فى العصر الوسيط ، والتى أريقت بين جنباتها الدماء أنهارا ، أن تعيش بعد ذلك فى دعة وسلام ؟ وهل قدر للعالم العربى من المحيط إلى الخليج بعد أن لقن الغربيين درسا قاسيا فى الماضى ، أن يظل بمنأى عن العدوان ؟

لقد ظلت مدينة بيت المقدس منذ ذلك الحين بأيدى المماليك إلى أن استولى عليها الأتراك العثمانيون فى القرن السادس عشر . واستمرت فى قبضة العثمانيين حتى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م . وقد استطاع الحلفاء الغربيون ، بعد مفاوضات قامت بينهم وبين العرب . إقناعهم بدخول الحرب إلى جانبهم مقابل وعد بمنحهم الاستقلال بعد أن تضع الحرب أوزارها ، ومساعدتهم على تكوين الوطن العربى الكبير. وفى أثناء الحرب اتفقت بريطانيا وفرنسا من وراء ظهر العرب على تقسيم الأراضى العربية فيما بينهما . وبذلك تكشف خداع الغرب وبانت اتجاهاته الاستعمارية ونواياه العدوانية . فما أن انتهت الحرب حتى دخلت قوات غرب أوروبا فلسطين العربية ، وكان ذلك فى العاشر من ديسمبر سنة ١٩١٧ م ؛ تلك السنة التى امتازت بوعد بلفور المشئوم الذى بذلته الحكومة البريطانية على لسان اللورد آرثر جيمس بلفور وزير خارجيتها فى وزارة لويد

---

(١) Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 3 ff., 17 ff., 48 ff., 74 ff., 128 ff., 345 ff., 398 ff., 435 ff., 480 ff.; idem, Crusade, Commerce and Culture, 92 ff.; Huizinga, Waning of the Middle Ages, 95—6.

واجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ٣٥٩-٣٦٠.

جورج ، بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين والذى لعب الصهيونى المعروف حاييم وايزمان دورا كبيرا فى سبيل إصداره (١) .

وهكذا نرى أن أهل الغرب لم يتخلوا إطلاقا عن أطماعهم ونواياهم القديمة، بل كانوا يتحينون الفرص والظروف المواتية لنشب أظفارهم من جديد فى البلدان العربية . وهكذا نرى أيضا أن الحلم القديم من أجل غزو فلسطين وتفتيت وحدة العرب ، ظل مطويا فى زوايا النسيان مدى خمسة قرون من الزمان، إلى أن تمكنت القوات المتحالفة من دخولها فى أخريات عام ١٩١٧ م ، فأحيت بذلك الروح الصليبية القديمة ولكن فى ثوب جديد يتفق والظـــروف والأوضاع السائدة آنئذ (٢) .

والواقع أنه ما أن انتهت الحرب العظمى الأولى حتى كان العالم العربى قد خضع بأسره للحكم الإنجليزى الفرنسى الايطالى وتم توزيع التركة فيما بينهم .

---

(١) أنظر : محمد علوبة : فلسطين وجاراتها ، ص ٩٦ ومايليها . وراجع أيضا :
Atiyah, The Arabs, 96 — 100; Atiya, Crus., Commerce and Culture, 161.
ولقد عبر السيد الرئيس جمال عبد الناصر عن وعد بلفور الباطل فى صدق ووضوح فى الكلمات التالية : « لقد أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق ، ثم استطاع الاثنان » من لا يملك ومن لا يستحق ، بالقوة والخديعة أن يسلبا صاحب الحق الشرعى حقه فيما يملكه وفيما يستحقه » .

(٢) فيما يتعلق بأطماع الغرب الأوروبى فى الشرق العربى اعتبارا من القرن السادس عشر ، أنظر : Lewis, Arabs in Hist., 165—178. ـ ولا يجب أن نغفل فى هذا المقام الخطوات الاستعمارية التى اتخذتها كل من فرنسا وانجلترا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ؛ وتتمثل فى الحملة الفرنسية على مصر من يوليو ١٧٩٨ م إلى أكتوبر ١٨٠١ م ، والاحتلال البريطانى للبلاد سنة ١٨٨٢ م ، وكانت قد سبقته حملتان بريطانيتان الأولى سنة ١٨٠١م والثانية سنة ١٨٠٦م، مما يكشف عن نيات المستعمرين العدائية ضد الوطن العربى .

فبموجب اتفاقية سان ريمو التى عقدت بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٢٠ م ، أصبحت فلسطين والأردن والعراق تحت الانتداب ومصر تحت الحماية البريطانية. أما سورية ولبنان فأصبحتا تحت الانتداب الفرنسى. فكان الجحود ونكران الجميل هو الثمن الذى دفعه الغرب للشعوب العربية جزاء وقوفها إلى جانبه. وأما دول الشمال الافريقى فكانت قد خضعت قبل ذلك للاستعمار الأوروبى . فكانت الجزائر وتونس تئن من نير الاستعمار الفرنسى ، إذ احتل الأولى سنة ١٨٣٠ م ووضع يده على الثانية سنة ١٨٨٢ م . بينما احتلت ايطاليا ليبيا سنة ١٩١١ م ، واحتلت فرنسا مراكش فى السنة التالية . وبذلك أصبح العالم العربى كله من المحيط إلى الخليج فى قبضة الاستعمار الغربى ، سواء أكان بريطانيا أم فرنسيا أم ايطاليا (١) .

وهكذا تتكرر فى عصرنا الحاضر نفس المسرحية القديمة ، ولكن بصورة أخرى مغايرة تتلاءم ومقتضيات الظروف الجديدة وأساليب الاستعمار الجديد. فقد اتخذ الغرب الأوروبى من الدين فيما مضى وسيلة لتحقيق مآربه العدوانية فى الوطن العربى، واليوم يسفرعن وجهه ويتخذ من اسرائيل سلاحا لتحقيق نفس الأغراض ، ضمانا لبقائه واستمرار نفوذه ومصالحه على حساب المنطقة وأهلها.

وعلى هذا لا نجافى الحق إذا قلنا إن إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين

---

(١) أنظر محمد عبد الغنى حسن : صراع العرب خلال العصور ، ص ١١٠ — ١١٣ . ويذكر الكاتب اللبنانى ادوارد عطية أن ادعاءات فرنسا بالسيادة على هذه المنطقة من العالم العربى إنما ترجع أصولها إلى عصر الحروب الصليبية التى قامت فيها فرنسا بدور قيادى . ويقول إن وجود جالية كبيرة من المسيحيين الكاثوليك فى جبال لبنان فى القرون التالية ، كان أمراً يهم فرنسا غاية الأهمية ، إذ هيأ لها الفرصة للتدخل فى شئون الشام والعمل على امتلاك الأراضى . أنظر : Atiyah, The Arabs, 98.

العربية السلبية، يعتبر امتداداً للفكرة الصليبية نفسها وفصلا من فصولها المتتابعة، وذلك مع مراعاة الظروف الدولية والتيارات العالمية التى كانت قائمة إبان العدوان الصليبى وتلك التى تسود اليوم (١) . وعلى هذا لانجافى الحق أيضا إذا قلنا إن اسرائيل لم تكن فى حقيقة الأمر إلا أثراً سيئا من آثار الاستعمار فى عالمنا العربى (٢) . فقد خلقها الغرب فى قلب المنطقة لتظل جسراً له وشوكة فى جنبات الدول العربية جمعاء (٣) .

وعلى ضوء الحقائق السالفة يمكن تفسير الحركة الصليبية التى قامت منذ حوالى تسعمائة عام خلت ، وتفهم أصولها وخصائصها ، ومعرفة حقيقة أغراضها واتجاهاتها ودوافعها وأسرارها ومراميها ، والصلة بينها وبين الاستعمار الصهيونى الغربى ضد العالم العربى فى شكله الجديد فى عصرنا الحديث (٤) .

---

(١) يرى المؤرخ ارنست باركر أن الحروب الصليبية قد استمرت إلى عهد السياحات البحرية البرتغالية واستكشافات خريستوف كولمبس أنظر : Arnold, Legacy of Islam, 41. أما المؤرخ شارل اومان فيرى ان آخر آثار هذه الحروب لم تنته بصفة قاطعة إلا عندما طرد الأتراك البنادقة من قبرص (١٥٧١) وكريت (١٦٦٩) وشبه جزيرة المورة (١٧١٥) . أنظر Oman, I, 232, n. 1. – ويبدو من استعراضنا للاحداث التى تعرض لها العالم العربى منذ قيام الحروب الصليبية ، أن آثارها لاتزال قائمة حتى اليوم .

(٢) تناول الرئيس جمال عبد الناصر بالتحليل العميق مسألة اغتصاب اسرائيل لأرض فلسطين العربية ، ودور الاستعمار فى المعركة ، واطماع الصهيونية العالمية فى العالم العربى التى تتمثل فى ذلك الحلم الذى يداعب خيالهم وهو تكوين امبراطورية ضخمة تمتد من النيل إلى الفرات ، وكذلك العبر والدروس التى نستمدها مما ألم بالعالم العربى من محن بعد أن تكالب عليه المتذائبون من كل جانب ، وأولها ضرورة الكفاح الواحد المشترك للوطن الواحد الكبير. أنظر : فلسفة الثورة للسيد الرئيس ، ص ٦٢ — ٧٥ .

(٣) أوضح الدكتور محمد عبد العز نصر فى كتابه : الصهيونية فى المجال الدولى ، ص ٩٦ — ٩٩ ، كيف أن الاستعمار خلق اسرائيل فى فلسطين لتكون عينا ومركزا له فى الشرق الأوسط العربى .

(٤) أوضحت فى مقالى « الصهيونية فى فلسطين امتداد طبيعى للاستعمار الصليبى » المنشور بمجلة العهد الجديد (العدد ١١٤٥ — بتاريخ ١٦ مايو ١٩٦٧) ـ كيف أن اسرائيل فى فلسطين اليوم هى امتداد للعدوان الصليبى وإن اختلفت الأسماء وتعددت المسميات، وبينت أوجه الشبه بين العدوانين فى مقارنة علمية موضوعية مركزة .

الفصل الثالث

الروم واللاتين

كانت الحروب الصليبية اذن من الحركات الهامة فى تاريخ العصور الوسطى ، ظاهرها الخلاص والرحمة والدين ، وباطنها الأهواء والأطماع والشهوات . وقد اعتاد المؤرخون أن ينظروا إليها باعتبارها حروبا بين أهل الغرب والعرب فى الشرق بقصد الاستيلاء على الأراضى المقدسة . وكلما ذكرت هذه الحركة ذكر معها الصليب والهلال . ولكن بالرغم من ذلك فقد كانت سببا لاحتكاك اللاتين بالروم ، واتصال مسيحيو الغرب الكاثوليكى بمسيحى الشرق الأرثوذكسى ، ذلك الاتصال الذى كانت له نتائج بعيدة المدى فى تاريخ ونوع وتطور العلاقات بين الصليبيين والدولة البيزنطية ؛ والذى سينعكس أثره فى موقف كل منهما حيال الآخر منذ قيام هذه الحركة فى أخريات القرن الحادى عشر حتى نهايتها فى أواخر القرن الرابع عشر . وإن ماترتب على ذلك الاحتكاك من آثار لايزال حقيقة قائمة حتى اليوم . وعلى هذا لا نغالى إذا قلنا إن العلاقات العدائية التى قامت بين شقى العالم المسيحى فى الحرب الصليبية الأولى ، لا تقل فى أهميتهـا عن حروب الصليبيين الاستعمارية ضد العرب .

وللحرب الصليبية الأولى أهمية خاصة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية ؛ إذ أنها أول مرة يتقابل فيها اللاتين الغربيين بالروم الاغريق فى كثرة ضافية العدد . وقد استمر بعد ذلك الاتصال والاحتكاك بينهما إلى آماد طويلة عبر القرون التاليـة التى ازدحمت بأوخم العواقب على العلاقات بين مسيحى الشرق والغرب أو بين الأرثوذكس والكاثوليك ؛ حتى لقد قيل بحق إنه فى

ثنايا هذا الصراع الفكرى والروحى والمادى والحربى ولدت المسألة الشرقية فى العصور الوسطى .

ولتفهم حقيقة هذه العلاقات يجب أن نمهد لها بكلمة عن أوجه الخلاف العديدة القائمة بين شقى العالم المسيحى قبل قيام الحركة الصليبية نفسها .

لم تكن العلاقات بين اللاتين والاغريق فى ذلك الحين طيبة أو مرضية . وكان الشك وعدم الثقة متوفرين لدى كل منهما ، كما كانت أوجه الخلاف بينهما فى شتى النواحى عاملا هاما على توسيع شقة البغضاء بين الطرفين (١) .

وإذا عدنا قليلا إلى الوراء نجد أن الحروب الصليبية لم تكن المرة الأولى التى احتك فيها الاغريق باللاتين ، فالصلة بينهما ترجع إلى عهود بعيدة منذ ظهور المسيحية نفسها . فبعد ظهور الدين الجديد ، أخذ أتباع المسيح ورسله يبشرون به فى أقطار الأرض المعروفة وقتذاك ومن بينها روما . وأخذ الرومانيون يتركون وثنيتهم التى كانوا يدينون بها ، ويدخلون فى هذه الديانة الجديدة التى وجدوا فيها ملاذا ومخرجا من حالة الفوضى والاضطراب التى كان يعانيها العالم الرومانى القديم فى أخريات أيامه من جراء غزوات البرابرة الجرمان . حدث هذا فى أخريات التاريخ القديم عندما كان الأباطرة الرومان لا يزالون يسيطرون على دولة واسعة مترامية الأطراف . وقد هالهم أن المسيحية كانت تدعو إلى وحدانية الله دونهم ، معارضة فى ذلك ديانة الدولة التى تتمثل فى عبادة الامبراطور ، تلك العبادة التى كانت رمز الوحدة الامبراطورية الرومانية من ناحية ولسيطرة الامبراطور المطلقة من ناحية أخرى . لذا وجد الأباطرة فى هذه الدعوة منافسا خطيرا لهم ولسلطانهم ودولة داخل الدولة ونوعا من

(١) Chalandon, Alexis Comnène, 160.

الخيانة العظمى التى لا يجوز السكوت عليها ، والتى يجب عقاب كل من ينادى بها . وحاولوا جهد استطاعتهم طمس معالمها وتعقب اتباعها فى المغاور والكهوف . وترتب على ذلك سلسلة من الاضطهادات التى تميز بها تاريخ روما فى القرون الأولى للسيحية ، وبخاصة أيام نيرون وفاليريان ودقلديانوس وجاليريوس وماكسنتيوس وغيرهم .

ولكن هذه الاضطهادات لم تمنع الرعايا الرومانيين من اعتناق الدين الجديد الذى اعترفت به الدولة آخر الأمر كدين رسمى لها . وكان ذلك فى أوائل القرن الرابع الميلادى أيام الامبراطور قسطنطين الكبير ، عندما أصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ م الذى أجاز رسميا اعتناق الدين المسيحى .(١) وعندما نزلت قبائل الجرمان المتبربرين داخل حدود العالم الرومانى فى أخريات القرن الخامس ، كانت هذه الديانة قد تأصلت جذورها . وتم تأسيس الكنيسة الرومانية التى أصبح لها شأن خطير فى تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وفى سياستها وحضارتها واتجاهاتها داخل القارة وخارجها . وكان على رأس هذه الكنيسة فى روما أسقف كغيره من أساقفة العالم المسيحى فى الشرق والغرب وقتذاك . وكان أولئك الرجال فى العصر الأول مثال الزهد والورع والتقوى

---

(١) Jones, A. H. M., Constantine and the Conversion of Europe (London, 1961), 29 ff., 46 ff., 79 ff.; Barrow, The Romans, 181 sqq., Katz, Decline of Rome, 61-4; Runciman, Byzantine Civilisation, 18-9, 23-5.

راجع أيضا تشارلز وورث : الامبراطورية الرومانية ، ص ١٧٣ـ١٨١و١٨٧ـ ١٩١ و ٢٠١ـ٢٠٦ و ٢١٠ ؛ بينز : الامبراطورية البيزنطيـة ، ص ٩ ؛ كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ـ ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف ـ ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص٤٤ وما بعدها .

حتى لاذ الناس بهم فرارا من وجه غزوات الجرمان التى اتسمت بالوحشية والعنف .

وبمضى الوقت أخذت كنيسة روما تتفوق على باقى الكنائس المسيحية ، كما أصبح لأسقفها مركز الصدارة بين أقرانه بعد أن خلا له الجو بانتقال الاباطرة إلى القسطنطينية (١) ، تلك المدينة التى جعلوا منها عاصمة للعالم الرومانى ، فحلت محل روما فى ذلك المركز الممتاز . وهكذا ورث أسقف روما القياصرة الأقدمين سلطانهم ونفوذهم . (٢) وأخذ يتجه تدريجيا إلى فكرة زعامة الغرب الأوروبى دينيا ودنيويا ، محاولا قدر الاستطاعة الاستقلال والانفصال عن الكنيسة الشرقية التى كانت تنظر هى الأخرى بحق وجودها فى القسطنطينية عاصمة الأباطرة الشرقيين كراعية لباقى الكنائس المسيحية . وقد ارتكز أسقف روما لتحقيق استقلاله على نظرية السيادة البطرسية التى كانت تنادى بأسبقية روما وأساقفتها على باقى الكنائس الشرقية . (٣) ورأت الكنيسة البيزنطية فى اتجاهات كنيسة روما اللاتينية نزعة انفصالية خطيرة . فكان هذا إيذانا ببداية الخلاف والشقاق المذهبى بين الكنيستين الشرقية والغربية ، الذى استمر طيلة

---

(١) حول القسطنطينية أنظر الكتاب التالى :

M. R. (tr.), Constantiniade, ou description de Constantinople, ancienne et moderne, composée par un philologue et archéologue, traduite du Grec par M. R. Constantinople, 1846.

(٢) أنظر عن ذلك: Runciman, op. cit., 109-110; Stanley, Lectures on the Hist. of the Eastern Church, 214; Katz, op. cit., 123-6.

راجع أيضا : بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٦ .

(٣) Runciman, op. cit., 39; Baldwin, Med. Church, 22; N. F. Cantor (ed.), The Medieval World : 300-1300 (New york, 1963), 93 ff.

العصور الوسطى وعانت منه المسيحية الأمرين ، وترك آثاره البالغة على العلاقات بين اللاتين والأغريق عندما تقابلا وجها لوجه فى الحملة الصليبية الأولى وما تلاها من حملات .

وقد بدا هذا الخلاف واضحا أيام جريجورى الكبير (٥٩٠ — ٦٠٤ م) الذى حول أسقفية روما فى أخريات القرن السادس إلى بابوية لها كيانها ومقوماتها . وكان هدفه من ذلك العمل على استقلال الكنيسة الغربية عن منافستها الشرقية . ووضع لخلفائه السياسة التى ساروا عليها فى هذا السبيل . وتحقيقا لذلك نجد أن البابا الرومانى مارتين الأول (٦٤٩ — ٦٥٥ م) يقف فى أواسط القرن السابع موقفا صلبا تجاه الكنيسة الشرقية واتجاهاتها السياسية والمذهبية . وفى مجمع القسطنطينية المسكونى سنة ٦٨٠ م نجد أن بابوية روما تحرز انتصارا كبيرا على القسطنطينية عندما تقرر بطلان بعض عقائدها الدينية التى كان أباطرة بيت هرقل يعضدونها ويؤيدونها ، واعتبارها هرطقة (١) . بينما واجه البابا جريجورى الثانى (٧١٥ — ٧٣١ م) مشكلة الحملة على الأيقونات التى قام بها الامبراطور البيزنطى ليو الثالث الأيسورى سنة ٧٢٥ م (٢) . ونراه يتحداه

---

(١) Runciman, op. cit., 116; Sullivan, Heirs of the Roman Empire, 49, 50. والمجمع المشار اليه هو المجمع المسكونى السادس فى عهد الامبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع للقضاء على هرطقة جديدة . وفيه رفض مذهب التوفيق الذى يعرف بالمذهب المونوثليتى ، وهو مذهب المشيئة الواحدة للمسيح الذى كان أعضاء أسرة هرقل ينادون به .

(٢) كانت هذه الحركة تستهدف تحريم عبادة الصور والايقونات وكسر التماثيل التى تمثل المسيح والعذراء والقديسين ، الأمر الذى أثار موجة من السخط والغضب فى غرب أوروبا التى كانت تعتبر عبادة الصور أمرا طبيعيا ورثته عن ديانتها الوثنية القديمة ، وكان استعمالها من التقاليد المرعية فى الكنيسة الغربية . ويحتمل أن الدافع الأول لهذا الاجراء كان دينيا ؛ =

تحديا صريحا ، ويشجع الرومانيين على إهمال قراراته . وتتخذ المعارضة شكلا قويا عندما أصدر البابا المذكور قراراً بحرمان الإمبراطور اللاأيقونى . ورد ليو عليه بخطوات أشد عنفا ، عندما قرر حرمان بابوية روما من حقوقها وأملاكها فى صقلية وجنوب ايطاليا ، كما فصل جميع الكراسى الأسقفية عن روما وحولها إلى بطريق مدينة القسطنطينية . وهكذا أدى النقاش ضد الصور والأيقونات إلى انفصام صريح بين روما والامبراطورية البيزنطية ، مما ترتب عليه ضعف سلطة بيزنطة فى الغرب بعامة وايطاليا بصفة خاصة ، وأصبح ممثل الامبراطور فى روما مجرد ظل لا حول له ولا طول (١) . ولم تلبث العلاقات بين المسيحيين فى الشرق والغرب أن مرت بأزمة جديدة ، وكان ذلك فى فترة حكم الامبراطورة البيزنطية ايرين (٧٩٧ - ٨٠٢ م) . إذ قام البابا الرومانى ليو الثالث بتتويج شارلمان امبراطورا على الغرب ، وحول اليه رسميا تلك التبعية الشكلية التى كان حتى ذلك التاريخ يعترف بها للقسطنطينية . فكان هذا إيذانا خطيرا بفصم ذلك الارتباط الواهى الذى ظل قائما بين روما والقسطنطينية منذ

= إلا أنه سرعان ما اصطبغ بصبغة سياسية . فاستغلت بابوية روما هذا الموقف لاثارة اللاتين ضد البيزنطيين الاغريق ، مما كان له أكبر الأثر فى ازدياد هوة الخلاف والعداء بينهما ، واتساعها عبر القرون التالية . انظر : Runciman, op. cit., 44; Sullivan, op. cit., 99-102. – ويرى بعض المؤرخين أن الثورة على الايقونات كانت بتأثير اسلامى مباشر عندما أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك بازالة الايقونات الموجودة فى الكنائس الواقعة داخل حدود دولته باعتبارها أثرا من آثار الوثنية القديمة . أنظر : Ostrogorsky, Byzantine State, 142-4, 146-7. ؛ وكذلك : سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٢١ .

(١) وفيما يتعلق بتأثير السياسة الدينية التى انتهجها الأباطرة الأيسوريون على العلاقات بين بيزنطة وبابوية روما ، أنظر :

S. Painter, Hist. of the Middle Ages (London, 1966), 45-7.

أيام الامبراطورية القديمة .(١) ومنذ ذلك الحين أصبحت توجد امبراطورية رومانية غربية بجانب الامبراطورية الرومانية الشرقية .

وأخيرا قام الاصلاح الكلونى فى الغرب فى القرنين العاشر والحادى عشر ، ينادى بأسبقية روما على القسطنطينية وعلى بقية الكنائس المسيحية الشرقية ، وينادى أيضا بتجديد الدعوة البطرسية للسيادة البابوية العالمية . وبذلك أصبح الانفصال النهائى بين روما والقسطنطينية أمراً لامندوحة عنه . وقد جاءت القطيعة النهائية فى أثناء حكم البابا ليو التاسع من ناحية وبطرياركية ميخائيل كيرولاريوس Michael Cerularius من ناحية أخرى . وتوترت العلاقات الدينية والسياسية بينهما ، وتعقدت الأمور واضطربت الأحوال ، حتى إذا كان شهر مايو من سنة ١٠٥٤م انفصلت الكنيستان الشرقية والغربية عن بعضهما انفصالا تاما لا رجعة فيه ، وهو الذى يعرف عند المؤرخين باسم القطيعة الدينية الكبرى . وكانت هذه الخلافات هى التى أدت فى القرون التالية إلى فشل المحاولات العديدة التى بذلت لتوحيد الكنيستين . ويقول أحد المؤرخين الغربيين المحدثين ، وهو ستيفن رانسمان ، إن قصة علاقات الكنيستين الكبيرتين قصة غير مشرفة للعالم المسيحى ، وإنه ليس هناك من فائدة فى محاولة تحديد الحق والباطل أخلاقيا أو تاريخياً (٢) . أما مارشال بلدوين فيرى أن هذه القطيعة تعتبر من أسوأ

---

(١) ديفز : شارلمان ، ص ١٦٨ — ١٨١ . وللمزيد من التفاصيل أنظر هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٣٠ — ٣٥ و١٩٣— ٢٠٠ .

(٢) راجع عن ذلك : Runciman, op. cit., 119-24; Setton, Hist. of the Crusades, I, 207-13; Daniel — Rops, La Cathédrale et la Crois., 493-4. — أنظر كذلك هارتمان وباراكلاف: الدولة والامبراطورية (الترجمة العربية)، ص ٢٣٣ و ح ١ . وعند تناول موضوع القطيعة الدينية الكبرى التى تمت سنة ١٠٥٤ م ،

الأحداث التي مرت بها المسيحية في تاريخها الطويل ، ولاتزال آثارها الخطيرة باقية إلى يومنا هذا (١) .

وهكذا كانت المسائل الدينية والاختلافات المذهبية سببا لإثارة التخاصم الدائم بين روما والقسطنطينية ، إذ أصرت كل منهما على أن تسود وجهة نظرها، وعلى أن يكون لها الأسبقية على الأخرى ، وأن يكون لها أيضا السيادة الروحية على العالم المسيحي بشقيه الشرقي والغربي . ثم أن هذا الخلاف لم يقتصر على تلك المسائل المذهبية فحسب ، بل تعداها كما رأينا إلى أمور أخرى ظاهرها الغرض الديني وحقيقتها الأطماع السياسية ، مما أدى إلى فشل جميع المحاولات التي بذلت للاصلاح بين الطرفين .(٢)

يضاف إلى ماتقدم أن الامبراطور قسطنطين عندما أسس مدينة القسطنطينية عند اتصال البسفور ببحر مرمرة ، أصبحت تلك المدينة عاصمة العالم الروماني أو روما جديدة ، وانتقل إليها الأباطرة الرومان، وأمسى الكرسي الامبراطوري في روما القديمة خاليا. فكان هذا مما زاد العلاقات بينهما سوءا . إذ أصبحت روما

= يجب أن نفرق بينها وبين الشقاق الديني في الغرب الأوروبي في أخريات القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر (١٣٧٨ - ١٤١٧ م) . فالشقاق الأول شقاق مذهبي سياسي بين الكنيستين الشرقية والغربية أو بين القسطنطينية وروما ، بينما الثاني شقاق ديني في مظهره سياسي في حقيقته وجوهره داخل الكنيسة الكاثوليكية الغربية نفسها ، أي كنيسة روما اللاتينية . راجع عن ذلك : Waugh, Hist. of Europe, 105, 120 sqq.

(١) Baldwin, Med. Church, 93, 98.

(٢) أنظر فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١٧٥ . وقد تعرض الدكتور عمر كمال توفيق لموضوع النزاع الديني بين روما والقسطنطينية والآثار المترتبة عليه في العلاقات بينهما في دراسة تحليلية واضحة في مؤلفه : تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٣٨-٤٠ .

وهى العاصمة القديمة للعالم الرومانى تنظر بعين الحسد والغيرة والحقـــد الى القسطنطينية بحق وجود الأباطرة فيها ، ولما أصبحت تتمتع به من مكانة عظيمة ومركز ممتاز وتفوق ظاهر ومدنية زاهرة (١). هذا بينما كان العالم الغربى وقتذاك فى حالة تدهور وانهيار فى شتى مناحى الحضارة بسبب الغزوات الجرمانية المدمرة.

لقد اعتبر البيزنطيون أنفسهم بحكم وضعهم الجديد لا ورثة اليونان القدماء وحضارتهم الزاهرة فحسب ، بل ورثة الدولة الرومانيـة كذلك . واعتبروا الفرنجة والنورمان والألمان وغيرهم فروعا من العناصر المتبربرة التى لا ترقى اليهم بحال . كما اعتبروا امبراطورية شارلمان التى باركتها بابوية روما وأمدتها بتأييدها اغتصابا وافتئاتا على حقوقهم (٢) .

وفضلا عن هذا وذاك ، فقد كانت المسألة اللغوية عامـلا هاما على وجود التنافر وفتح الثغرات لسوء التفاهم بين الغرب والشرق . فمنذ القرن السابع الميلادى اتخذت الامبراطورية البيزنطية طريقا شرقيـا هيلينيا خالصـا عندما أصبحت اليونانية هى اللغة الرسمية فيها وفى القسطنطينية بالذات ، فى الوقت الذى كانت فيه اللغة اللاتينية فى طور الاحتضار ، وأخذ العنصر الرومانى فيها فى الزوال بسرعة عجيبة(٣). هذا ، بينما أخذ المتكلمون باليونانية يقل عددهم قلة محسوسة فى غرب أوروبا وفى روما بصفة خاصة . بمعنى أن الجزء الغربى من أوروبا اصطبغ

---

(١) أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥ . راجع أيضا :
Heer, Med. World, 100.

(٢) فشر: نفس المرجع والصفحة. راجع أيضا هارتمان وباراكلاف: الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ٢٢ ـ ٢٣ و ٣٤ ـ ٣٥ و ١٩٨ وما بعدها .

(٣) Runciman, op. cit., 44; Stanley, op. cit., 215-8. راجع أيضا : أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١١ ـ ١١٣ ؛ تشارلز وورث : الامبراطورية الرومانية ، ص ٢٢٥ .

بالصبغة اللاتينية البحتة ، بينما انطبع الجزء الشرقى بطابع هيلينى اغريقى خالص. كما اختلفت العادات والتقاليد فى القسمين اختلافا عجيبا بينا(١). وقد بلغت هذه الحالة ذروتها فى الحملة الصليبية الأولى عندما نزل الفرنج فى أراضى الدولة البيزنطية. إذ تذكر آن كومنين ان اسماء أولئك الصليبيين كانت غريبة عليهم ، ولم يكن من السهل نطقها . وفى موضع آخر من كتابها تقول إن بيزنطة كانت تعتمد على المترجمين الذين يجيدون اللسان اللاتينى كواسطة بينهم وبين أولئك القوم ، وان أباها الامبراطور لم يفهم من أحاديث اللاتين شيئا اللهم إلا من همهمة شفاههم(٢).

وبالاضافة إلى ما تقدم فقد كانت بيزنطة تشعر بشىء من القلق حيال اللاتين بصفة عامة ، وكانت نظرتها إليهم تشوبها الريبة وعدم الاطمئنان . إذ سبق أن استخدمتهم فى جيوشها كمرتزقة ، وهى تعلم جيدا مدى جشعهم وأطماعهم ، وانهم كانوا على استعداد للخدمة فى جيش أى حاكم أو أمير يغدق عليهم المال . وكانوا هم أيضا يعلمون مواطن القوة والضعف فى البلاد . ثم أن الذكريات الأليمة التى تركتها حملة روبرت جويسكار وابنه بوهيمند النورماندى فى أراضى بيزنطة قبل قيام الحملة الصليبية الأولى ببضع سنوات، كانت لاتزال ماثلة فى الأذهان(٣).

لقد كان سوء التفاهم متوفرا بين الفريقين ، وازداد العداء فيما بعد شدة نتيجة لمذبحة الايطاليين فى القسطنطينية سنة ١١٨٣ م . وبلغت الحالة نهايتها المريرة سنة

(١) Runciman, op. cit., 16-7; Baldwin, op. cit., 96. — وحول تعثرق الامبراطورية البيزنطية فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلادى ، انظر عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤١ — ٤٢ .

(٢) Alexiad, 263, 264. — أنظر أيضا المقتطفات المترجمة من كتاب الالكسياد فى الملحق الثالث بآخر الكتاب .

(٣) سنعرض لذلك بشىء من التفصيل فى الصفحات التالية ، وكذلك فى الفصل الخامس من الكتاب عند التعرض لحملة بوهيمند النورماندى .

١٢٠٤ م فى الحملة الصليبية الرابعة التى قضت على الأمل الأخير لاتحاد حقيقى بين اللاتين والاغريق المنشقين فى نظر الكنيسة الرومانية (١) .

يتضح من هذه الالمامة السريعة أن العلاقات بين المسيحيين فى الشرق والغرب قبيل الحركة الصليبية لم تكن قائمة على الود أو حسن التفاهم . فقد كان الاختلاف المذهبى ، والعامل اللغوى ، ثم التباين الحضارى ، واخيرا حب السيطرة وعدم الثقة بين الطرفين - كانت كل هذه الخلافات والمفارقات سببا لإثارة النزاع الدائم بين الاغريق واللاتين ، حيث حل الجفاء بينهما محل الصفاء ، وبات كل فريق منهما ينظر إلى الآخر باعتباره عدوه اللدود . فكان اللاتين يحقدون على الاغريق المنشقين ويشكون فيهم وفى نواياهم ويحسدونهم على ثروتهم وحضارتهم ، بينما احتقر الاغريق الهراطقة اللاتين الأفظاظ . لقد كان كل فريق يعتقد أن الفريق الآخر مهرطق ، وكان كل منهما يمثل حضارة ذات طابع مخالف لحضارة الآخر . ولذا لم يفهم كلاهما صاحبه فهما تاما صحيحا ، وكان لهذا أثره الفعال فى العلاقات بين الصليبيين والدولة البيزنطية عندما تم الاحتكاك بينهما منذ أواخر القرن الحادى عشر .

لم يكن إذن أول اتصال بين أهل الغرب والبيزنطيين وديا أو طيبا . ولهذا لم يستطع البيزنطيون تفهم حقيقة تلك الحركة الصليبية الواسعة النطاق . كما انزعجوا عندما علموا بوصول زعماء الفرنج إلى القسطنطينية ، وظنوا انهم إنما يريدون الاستيلاء على العاصمة البيزنطية وليس الأراضى المقدسة وفقا لرواية

---

(١) أنظر : Runciman, op. cit., 124-8. - وفيما يتعلق بالآثار التى ترتبت على استيلاء اللاتين على القسطنطينية فى الحملة الرابعة وتأسيس امبراطورية لاتينية بها ، أنظر عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٥٩ والصفحات التالية .

آن كومنين (١) . لذا لم يأمنوا جانب الصليبيين واحتاطوا منهم . ولقد سلكت القوات اللاتينية — على حد قول بطرس الناسك نفسه — مسلك اللصوص وقطاع الطرق ، ولم يكن رؤساؤهم بأفضل منهم . وتصفهم الأميرة آن كومنين — وكان عمرها أربعة عشر سنة عند وصول القوات الصليبية إلى بيزنطة — بأنهم قوم متقلبون لا يثبتون على رأى ولا يقفون على حال ، محبون المال متعجرفون ، متغطرسون . وقد كتبت عنهم تقول « ان العنصر اللاتينى هو أكثر جميع الأمم جشعا وحبا للمال . وقد بهرهم ثراء القسطنطينية وعظمتها ، فلم يزدهم هذا إلا طمعا فى الاستيلاء عليها » . وفى موضع آخر من كتابها تقول « انهم يبدون كأطفال كبار قليلى التربية ، بدائيين نوعا . شديدى الثرثرة ، مزعجين للغاية ، وانهم لم يفعلوا شيئا لتهدئة الخواطر المستاءة من تصرفاتهم » (٢) .

ولقد كان انشقاق عام ١٠٥٤ م الذى فصل الكنيسة الشرقية عن البابوية فى روما لا يزال حديث العهد فى أذهان المعاصرين . وهذا ما جعل الصليبيين الكاثوليك يشعرون بالكراهية والحقد والاحتقار نحو الاغريق الارثوذكس المنشقين فى نظرهم . ولما كان البيزنطيون يبالغون فى معاملة الصليبيين معاملة رسمية فحسب ، ويتمسكون بحرفية التقاليد فى مجاملتهم لهم ، شعر الصليبيون بأن مضيفيهم انما يجاملونهم مجاملة سطحية غير صادرة من اعماق قلوبهم . فكان هذا فى نظرهم دليلا جديدا على عدم صفاء نياتهم نحوهم ، وكانوا يتوجسون

---

(١) وهذا يؤكد ما سبق أن ذهبنا إليه من أن الخطاب المنسوب إلى الكسيس كومنين ، والذى يقال إنه بعث به إلى روبرت أمير الأراضى الواطئة ، هو خطاب مزيف مدسوس عليه لتحقيق أهداف العدوان الغربى ضد العالم العربى والدولة البيزنطية على السواء .

(٢) Alexiad, 248, 250, 258, 263, 266. راجع أيضا الكتاب التالى:
Heer, Med. World, 96.

خيفة من أن يكون للبيزنطيين من وراء تلك المجاملات غايات خبيثة ونوايا سيئة . يضاف إلى ذلك أن الفرنج كانوا يغارون من البيزنطيين نظرا لتفوقهم عليهم فى الحضارة والمدنية ، كما كانوا لا يثقون فيهم ويشعرون فى نفس الوقت بعدم الاطمئنان إلى ذلك الوسط الجديد الذى انتقلوا اليه (١) . وهذا يفسر لنا موقف كل من الصليبيين والبيزنطيين حيال الآخر فى الحملة الأولى ومضاعفاته فى الأحقاب التالية . ومن هنا أيضا عندما قدمت عصابات جوتييه المعدم ومن بعدها جماعات بطرس الناسك ، وأخذت تعيث فسادا فى أراضى الدولة البيزنطية، لم تكن الظروف طيبة أو مواتية لحسن التفـــاهم . إذ سرعان ما احتاط الامبراطور البيزنطى للأمر ، ووضع الخطوط العريضة لسياسته حيالهم ، والتى كانت تهدف أولا وأخيرا إلى العمل على حماية دولته وعاصمته من مسلك هؤلاء القوم وتصرفاتهم المريبة .

لم يكن بطرس الناسك هو أول من وصل إلى القسطنطينية من أهل الغرب ، فقد وصل قبله جوتييه المعدم وجماعة من اللومبارديين والنورمانديين . ويظهر أنهم كانوا قلة بالنسبة للجيوش الصليبية الأخرى التى جاءت بعدهم ، حتى أن مصادر العصر لم تشر إليهم الا إشارات سريعة خاطفة . ولم تترك هـذه الجماعات أثرا يذكر فى تاريخ العـلاقات بين اللاتين والاغريق ، اللهم إلا الشكوك التى ساورت البيزنطيين حيال الفرنج بصفة عامة . وبعد ذلك وصلت عصـابات بطرس ، وكانت كثيرة العدد قليلة العدة يعوزها النظام وحسن الإعداد . وقد فوجىء الامبراطور البيزنطى عندما علم بوصول هذه الجموع الغفيرة فى غير نظام ، وانزعج بما أحدثته فى أراضيه من أعمال التدمير ، الأمر الذى أكد شكوكه ومخاوفه .

---

(١) Diehl, L'Europe Orientale, IX, 16-7.

لقد وجد الامبراطور أن هذه المشكلة التى واجهته تتطلب ايجاد حل سريع ، قبل أن يستفحل الأمر ويتفاقم الخطر . حقيقة ان الكسيس لم يستدع الفرنج . ولكنه لم يكن يستطيع الحيلولة دون مرورهم عبر أراضى إمبراطوريته ، وهو الذى كانت تنقصه القوات الكافية للتصدى لهم وابعادهم عن بلاده . وكان الهدف الذى يرمى اليه هو التخلص بأسرع ما يمكن من تلك الجماهير بعد أن وجد أنهـــا ستشكل خطرا حقيقيا يهدد امبراطوريته وعاصمته بصفة خاصة . لذلك عول منذ البداية على أن يرسم لنفسه خطة يسير عليها وبرنامجا يهتدى به ، حتى يحفظ دولته من شر هذه الجيوش ، مع العمل على الانتفاع بها - إذا تيسر ذلك وفى الوقت المناسب - لخدمة مصالحه (١) .

وقد بدأت المعالم الأولى من خطة الكسيس تتضح خيوطها أثناء حملتى جوتييه المعدم وبطرس الناسك . فبعد أعمال العنف التى اقترفتها عصابات جوتييه فى الاراضى المجرية وفى بيزنطة ، أخذ الامبراطور يفكر جديا كيف ينجو بدولته من عبث أولئك القوم ، وكيف يوقفهم عند حدهم إذا تمادوا فى غيهم واستهتارهم . وتأكدت مخاوفه وشكوكه حيالهم بعد أعمال التخريب التى أحدثتها جماعات بطرس الناسك ، حتى أن أحد رؤساء الأساقفة البيزنطيين الذى شاهد بطرس ورجاله أثناء مرورهم عبر الأراضى البيزنطية ، قال يصفهم : « ان مرور أو غزو الفرنج ، ولا أدرى أيهما الأصح ، قد أذهلنا وشغلنا إلى حد بتنا لا نشعر معه بأنفسنا »(٢) . وكان هذا أمرا خطيرا يستدعى البحث والدراسة من جانب بيزنطة لمواجهة كافة الاحتمالات المتوقعة . ولم

---

(١) Diehl, IX, 17-8; cf. also Ostrogorsky, 322.

(٢) يدعى رئيس الأساقفة المشار اليه : Theophylactr d'Ochrida . أنظر: Diehl, IX, 18.

تكن الدلائل أو المقدمات تبشر بأى خير . فكان لابد للامبراطور من اتخاذ سياسة معينة مرسومة محددة المعالم محبوكة الأطراف ، وهو يعلم أن الجيوش الصليبية النظامية فى طريقها إلى عاصمة ملكه ، وذلك قبل حدوث مضاعفات جديدة قد تأتى على الأخضر واليابس . وكانت خطته تهدف إلى حماية دولته من عبثهم حتى ولو أدى الأمر إلى التخلص منهم مثلما فعل عندما أرسل رجال بطرس إلى الضفة الأسيوية للبسفور حفظا للقسطنطينية من تصرفاتهم ، فكان فى ذلك هلاكهم على أيدى السلاجقة (١) .

لقد نبهت هذه الحوادث الكسيس إلى الخطر الذى سوف تتعرض له البلاد، وأعادت إلى الأذهان ذكرى الحرب التى شنها النورمانديون على الدولة البيزنطية قبل قيام الحرب الصليبية الأولى ببضع سنوات (١٠٨١ - ١٠٨٥ م) ، فأدمت بذلك جرحا قديما لم يندمل بعـــد . فلم ينس الكسيس أن روبرت جويسكار دوق أبوليا النورماندى (١٠٥٧ - ١٠٨٥م) وابنه بوهيمند قد هاجما امبراطوريته وعرضاها لخطر كبير (٢) . وقد علمته تلك الحروب الغربية الاقطاعية ألا يستهين بأولئك القوم، خاصة انه هو وأسلافه قد لجأوا إلى استخدام جنود مرتزقة من الغرب فى جيوشهم . وقد تذكر كل هذا عندما انهالت جحافل الفرنج النظاميين داخل الأراضى البيزنطية . ولذا كانت تصرفاته تدل بجلاء على أنه كان يخشى تهديدهم لبيزنطة ، وأنه كان يسعى جاهدا لحصر تيار هذه الحروب التوسعية ومنعها من الامتداد حتى لا تجرف فى طريقها كل شىء .

لم يدرك الامبراطور الأهداف الحقيقية البعيدة المدى التى قامت من أجلها

---

(١) أنظر فيما بعد ، الفصل الرابع من هذا الكتاب .

(٢) La Monte, The World of the Middle Ages (New york, 1949), 143-4, 259-60, 277-8, 323-4; S. Painter, A History of the Middle Ages, 284-1500 (London, 1966), 50, 197-8, 203.

الحركة الصليبية ، وهى انتزاع الأراضى المقدسة من قبضة العرب . ونظر إلى المسألة من وجهة نظر بيزنطية بحته (١) . وقد انتقد بعض المؤرخين مسلكه هذا انتقادا مرا ، ونسوا أن هؤلاء الصليبيين قد اعتدوا على أراضى الدولة البيزنطية ، ولم يتورعوا عن قتل الكهنة ورجال الدين بحجة أنهم هراطقة على حد قول بطرس الناسك نفسه وبعض مؤرخى الحملة من اللاتين والأميرة آن كومنين (٢) .

على أى حال ، انزعج الامبراطور البيزنطى بوصول القوات الصليبية النظامية ، ولكنه وجد ألا مفر من مواجهة الأمر الواقع . ورأى بثاقب نظره أن يرحب بهم وألا يسىء معاملتهم طالما هم فى أراضيه ، وأن يعمل على استمالتهم اليه والانتفاع بهم لخدمة أغراضه وتحقيق مآربه السياسية والعسكرية . ولكى يكفل لسياسته هذه النجاح استعان بالوسيلة المعروفة ألا وهى المال ، إذ كان الصليبيون قوم يشتهون المال . فلم يتردد الكسيس فى بذل مبالغ طائلة وثروات هائلة بغية إملاء ارادته عليهم . وبوصفه امبراطوراً للدولة الرومانية الشرقية ، لم يقبل معاملة رؤساء الفرنج له ، وهم دونه فى المرتبة ، معاملة الند للند . لذلك طلب اليهم أن يقسموا له يمين التبعية والولاء ، وهو قسم يقارب ما يؤديه المسود للسيد عن إقطاعه فى غرب أوروبا (٣) ، ليضمن بذلك تبعيتهم له

---

(١) فيما يتعلق بالفارق بين الحروب الصليبية التى بشرت بها بابوية روما والحروب التى أرادتها بيزنطة ، وعدم التوافق فى الأغراض بينهما ، أنظر : سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٤٠٥ ؛ فهمى : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٧٤ ؛ عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ، ص ٨٧ وما يليها ؛ عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة ، ص ٦ ومايليها و ٤٧ — ٤٨ ؛ مصطفى الشكعة : سيف الدولة الحمدانى ، ص ١٣٨ — ١٤٣ .

(٢) Chalandon, Alexis Comnène, 161; cf. also Ostrogorsky,321.

(٣) سنتناول هذا القسم بشىء من التفصيل ، فيما بعد ، فى الفصل السادس من هذا البحث . أنظر أيضا ماجاء عن هذا القسم فى الملحقين الثالث والخامس بآخر الكتاب .

وخضوعهم لسيطرته وإذعانهم لمطالبه ، وليتقى شرهم أولا وقبل كل شيء . لذا أغدق عليهم المال وأمدهم بنصائحه وارشاداته ، وزودهم بما يحتاجون اليه من مؤن وخلافه ، حتى يخلدوا إلى السكينة ويكفوا عن أعمال التخريب . وبالرغم من الصعوبات التى واجهته فى بعض الأحيان ، استطاع تحقيق أغراضه وتطبيق سياسته تطبيقا عمليا . فتمكن بالعطف واللين وبذل الهدايا وتوزيع المال حينا ، وباستخدام القوة وفرض مراقبة الامدادات وقطعها عنهم حينا آخر — تمكن بهذه الوسائل من الانتفاع بضيوفه المزعجين الثقلاء الذين لم يستنجد بهم ، وكان يريد التخلص منهم بأى وسيلة وفى أسرع وقت (١) .

ويمكن استنتاج سياسة الكسيس حيال الصليبيين من كتابات ابنته آن كومنين . فقد كان الامبراطور يتوجس خيفة من هذه الجيوش الغربية ومن أعمال العدوان التى قد تحدثها فى دولته . وكانت خطته التى سار عليها هى المحافظة على بلاده من شرورهم ، ثم منعهم من التجمع أمام أسوار القسطنطينية حتى لا تتعرض للخطر . فكان عندما يعلم بقرب وصول فوج من الأفواج الصليبية ، يبعث برجال من قبله للإعراب لهم عن حسن نواياه حيالهم ، وإدخال الطمأنينة إلى نفوسهم . ولم تقتصر مهمة الرسل عند هذا الحد ، بل كانوا يقومون بدراسة أولئك اللاتين ومعرفة حقيقة أغراضهم ، ثم يزودون الامبراطور بكافة المعلومات اللازمة عنهم حتى يحتاط لنفسه ويدرأ خطرهم (٢) .

وفضلا عن ذلك فقد كان يرسل مندوبين عنه ليطلبوا من زعماء الفرنج منع

---

(١) Diehl, IX, 18; cf. also Baynes & Moss, Byzantium, 29-30; Painter, op. cit., 203.

(٢) Chalandon, Première Croisade, 70-1.

جنودهم من إحداث الشغب فى الأراضى البيزنطية ، ثم التوجه فوراً إلى العاصمة لمقـــابلة الامبراطور وحلف يمين التبعية والولاء له . كما كان سفراء الامبراطور يحيطون هؤلاء علما بأن أمرهم سيكون موضع عنايته ورعايته من حيث تهيئة وسائل الراحة وسبل العيش والإقامة لهم . وكان الكسيس فى نفس الوقت يرسل الكتائب من جنده لمراقبة الفرنج عن كثب حتى لايحيدوا عن الطريق الذى رسمه لهم ، ويمنعوهم من الاعتداء على الأهلين وممتلكاتهم إذا ما سولت لهم نفوسهم ذلك . وقد أنيط القيام بهـــذه العملية جماعة البتشنج Pechenegs (١) والكومان Kumans والتركوبول Turcopoles (٢) ، وكانوا يعملون كمرتزقة فى خدمة الدولة البيزنطية . وكان الجيش البيزنطى يلجأ فى بعض الأحيان إلى استخدام العنف إذا ما هاجم الصليبيون قرية من القرى أو أعملوا السلب فى ضاحية من الضواحى . ويلاحظ أيضا أن هجوم الجيش البيزنطى كان يحدث دائما عقب اعتداء اللاتين على البيزنطيين . وغير ذلك فقد كان الامبراطور يصدر الأوامر والتعليمات إلى عماله فى الأقاليم بفرض الرقابة المستترة على الصليبيين خلال مرورهم عبر أراضى امبراطوريته ، وأن يخطروه أولا بأول بتحركاتهم وسكناتهم حتى يكون على بينة من أمرهم . كما أوصى رجاله بأن يحسنوا استقبال قادتهم لاكتسابهم إلى صفه . كذلك كانت هناك قوات بيزنطية تسير فى مقدمة ومؤخرة الجيوش الصليبية لتنظيم عملية سيرها ، فضلا عن قوات

---

(١) يطلق عليهم أيضا البجاناكية ، وهم من العناصر التركية التى عبرت الدانوب إلى جوف الامبراطورية البيزنطية . وفيما يتعلق بالمراجع التى تناولت تاريخ هؤلاء القوم فى القرن الحادى عشر وعلاقتهم ببيزنطة ، أنظر :
Setton, Hist. of the Crusades, I, 181 n. 3.

(٢) وهما من القبائل التركية التى خدمت كمرتزقة فى الجيش البيزنطى . أنظر عن ذلك :
Setton, op. cit., I, 215, 261, 354, sq., 359.

أخرى كانت تطوق هذه الجيوش أثناء مرورها . والهدف من ذلك هو الحيلولة بين الصليبيين وبين القيام بأى عمل عدائى ضد الدولة .

وقد اتبع الامبراطور الكسيس هذه السياسة التى رسمها لنفسه بحذافيرها مع جميع الجيوش الصليبية النظامية التى كانت تتوافد تباعا على عاصمة ملكه ، ونجح فى تنفيذها إلى حد كبير . كما أبدى صبرا عجيبا وجلدا زائدا فى معالجته للموقف. وتوافد رؤساء الحملة الصليبية تباعا إلى القصر الامبراطورى حيث أقسموا له يمين الطاعة والاخلاص ما عدا ريمون ده سان جيل كونت تولوز وتنكريد ابن أخت بوهيمند لأسباب سيأتى ذكرها فيما بعد . وجدير بالذكر أن فكرة أداء اليمين المذكور بين يدى الامبراطور البيزنطى لقتال السلاجقة تحقيقا لمصالحه ، قد لقيت معارضة شديدة من بعض رؤساء الحملة الصليبية وكبار رجالها ، بينما أسرع البعض الآخر بحلف هذا اليمين دون أية صعوبة إما بسبب حسن معاملة الكسيس لهم ، أو تحت ضغط الظروف الملحة . وكان هيوج شقيق الملك الفرنسى هو أول من استجاب لرغبة الامبراطور . ولم يكتف بالالتزام بتعهداته له ، وإنما أضحى فيما بعد من أخلص أعوانه العاملين فى خدمته . وتبعه بعد ذلك رجال مثل جودفرى وبوهيمند وروبرت كونت نورماندیا واتين كونت بلوا الذى امتدح الامبراطور البيزنطى فى أحد خطاباته التى بعث بها من الشرق إلى زوجته فى الغرب . (١) وكانت النتيجة أن عقد اتفاق بين الامبراطور والصليبيين تعهد اللاتين بمقتضاه أن يردوا لبيزنطة الأقاليم والمدن التى كانت من ممتلكاتها فى الماضى ، وذلك بعد الاستيلاء عليها . كما وعدهم الامبراطور بإرسال جيش

---

(١) Chalandon, Première Crois., 120-1. — أنظر الملحق الرابع بآخر الكتاب .

بيزنطى لمساعدتهم وامدادهم بالمؤونة على طول الطريق (١).

من هذا العرض يتضح أن خطة الكسيس حيال الصليبيين بعد أن تبلورت واتخذت شكلها النهائى ، كانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام أو ثلاث مراحل رئيسية هى :

أولا - كان هدف الامبراطور الاساسى هو المحافظة على دولته مما قد تحدثه هذه الجماعات الصليبية من أعمال النهب والتدمير . ومن الثابت الذى لا شك فيه أنه فكر فى ذلك عندما علم بوصول قوات بطرس الناسك ومن قبلها قوات جوتييه المعدم ، وما أحدثته فى أراضيه من اضرار . وكانت خطته التى اتبعها فى هذا الصدد هى فرض رقابة مشددة عليهم ، تلك الرقابة التى تعددت صورها ومظاهرها .

ثانيا - بعد ذلك عمل الكسيس جاهدا على منع الجيوش الصليبية المختلفة من التجمع أمام أسوار القسطنطينية حتى لا يؤدى هذا إلى تعريض العاصمة للخطر ، وحتى لا يجد نفسه مضطراً فى وقت ما إلى قتال أولئك القوم دفعة واحدة ، فيحدث ما لا تحمد عقباه . ويتضح من النصوص والوثائق التاريخية أن هذه الفكرة نبتت فى ذهنه بعد أن وصلت قوات جودفرى إلى القسطنطينية ، بينما كان جيش بوهيمند النورماندى فى طريقه اليها . فعمل الكسيس على أن يتصل بدوق اللورين السفلى ويتفاهم معه قبل وصول عدوه القديم بوهيمند ، حتى

---

(١) أنظر كتاب : Alexiad, 248-68. - هذا وسنتناول تفاصيل الخطة والاتفاق المنوه عنهما أعلاه بشىء من الاسهاب والتحليل فى الفصول التالية من الكتاب . أنظر أيضا الترجمة العربية للقسم الذى أداه الأمراء الصليبيون أمام الامبراطور البيزنطى نقلا عن كتاب المؤرخ المجهول فى الملحق الخامس بآخر الكتاب .

لا ينضم الجيش النورماندى إلى الجيش اللوثارنجى مما قد يترتب عليه تهديد العاصمة أو على الأقل أحداث ارتباك فيها.

ثالثا - بعد أن رسم الامبراطور سياسته على هذا النحو للمحافظة على امبراطوريته وعاصمته من عدوان الجيوش الصليبية ، رأى أن الحكمة تملى عليه الانتفاع بهؤلاء القوم واستخدامهم لمصلحته ، فيقذف بواسطتهم الرعب فى الجيوش السلجوقية التى كانت تناصبه العداء ، ويحققوا له أغراضه السياسية التى تنحصر فى استرداد المناطق والأقاليم التى كان الأتراك قد استولوا عليها من بيزنطة منذ عهد قريب . (١) وهناك أكثر من دليل على ذلك ، فنراه يستخدم الفرنج ضـــد الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى وفى الاستيلاء على نيقية ودوريليوم وغيرهما . وأغلب الظن أن فكرة استخدام الصليبيين لمصلحته لم تختمر فى ذهنه إلا متأخراً ، أو على الأكثر ، بعد أن آمن جانبهم ، وبعد أن أقسموا له يمين الولاء ، وبعد أن وجد العناصر العسكرية الكافية المدربة التى يمكنه الإفادة منها . ولعله قد فكر فى الانتفاع بالآلاف المؤلفة من قوات بطرس الشعبية كما لو كانت جندا مرتزقة فى خدمته . ولكن الأمر لم يكن سهلا أو ميسورا وقتذاك بسبب ضعف هذه الجماعات من الوجهة الحربية والعناصر التى كانت تتألف منها . فقد أدرك الكسيس بثاقب نظره أنه لن يمكنه تلقى أية معاونة جدية من أولئك الحجاج الذين أحضرهم معه ذلك الناسك ، إذ كان معظمهم من الرهبان والنساء والشيوخ والأطفال . فضلا عن شراذم من القتلة والمجرمين وقطاع الطرق واللصوص ، بينما كان العنصر العسكرى معدوما فى

(١) Runciman, Byzantine Civilisation, 53; Daniel - Rops, 551.

جيشه ، وهو الأمر الذى يهمه غاية الأهمية .⁽¹⁾ بل كان أشد ما يضايقه هو وجود مثل هذه العصابات المشاغبة . ولعل فكرة الانتفاع باللاتين قد علقت بذهنه منذ وصول بطرس وقواته ، وأصبحت جزءا أساسيا من سياسته بعد وصول القوات النظامية .

ولأجل تنفيذ خطته بمراحلها الثلاث ، وفرض ارادته على الصليبيين ، استعان بالمال والحيلة الدهاء، كما التجأ إلى القوة ولوح لهم بمسألة التموين . ولقد كان لهذه الوسائل أثر فعال فى نجاح سياسة الكسيس . فأجزل لهم العطاء ، وأمدهم بالمؤونة والزاد ، وأحسن استقبال رؤسائهم، وأغدق عليهم المنح والهدايا ، إلا أنه كان يشتد فى معاملتهم ويقطع عنهم التموين عندما يحيدون عن جادة الطريق الذى رسمه لهم . فقد حدث أن قطـــع التموين عن جيش جودفرى أكثر من مرة عندما رفض هذا الأخير حلف يمين الولاء . وأخيرا التجأ إلى القوة العسكرية وهاجمه وألحق به الهزيمة ، حتى أن الدوق اللوثارنجى اضطر فى نهاية الأمر عندما أصبح جيشه مهددا بالمجاعة والفناء إلى الإذعان لمطالب الامبراطور واجابة رغباته وحلف اليمين المطلوب .

وعلى الرغم من أن المؤرخين الغربيين المعاصرين لأحداث تلك الفترة ممن كانوا شهود عيان لها مثل المؤرخ المجهول وريمون داجيل وفوشيه ده شارتر ، قد اتهموا الكسيس بالغدر والخيانة والخبث والدهاء ، إلا أنهم أجمعوا على أنه أحسن إلى الصليبيين وأجزل لهم العطاء وأمدهم بالأقوات اللازمة . وقد ذكر

---

(1) Chalandon, Première Crois., 75.

مؤرخ حملة بوهيمند أكثر من مرة أن البيزنطيين كانوا يمدون الفرنج بالطعام ويتبرعون لهم بالصدقات عند مرورهم بمدنهم (١) . ويمكن أن نلمس من الخطاب الذى أرسله إتين كونت بلوا وشارتر إلى زوجته أديل بأوروبا فى يونيو سنة ١٠٩٧ م من المعسكر الصليبى بالقرب من مدينة نيقية ، مدى كرم الامبراطور البيزنطى وحسن معاملته لهم، وعطف البيزنطيين عموما على الفقراء والمعوزين من الفرنج (٢) . وقد نهج المؤرخ البرت دكس نهج الفارس إتين فى موقفه المحايد بين اللاتين والأغريق . وفى هـــذا كله اعتراف ضمنى بحسن نية الامبراطور والدولة البيزنطية إزاء اللاتين .

لقد شرحنا سياسة الكسيس حيال الفرنج والوسائل التى استعان بها لتنفيذ هذه السياسة ، ويحسن بنا أن نلقى نظرة سريعة على الجانب الآخر من الموضوع ، ونعنى موقف الصليبيين من الدولة البيزنطية .

ذكرنا أن الحركة الصليبية لم تكن قاصرة على أمة أو دولة أو جنس معين ، إنما اشتركت فيها جميع أمم الغرب الأوروبى من فرنسيين وايطاليين وألمان وانجليز وفلنسكيين وغيرهم . واشتملت كذلك على عناصر من مختلف الطبقات ، فكان فيها النبلاء وكبار رجال الاقطاع والفرسان ورجال الدين ، وبجانبهم أعداد غفيرة

---

(١) أنظر : Anonymi Gesta Francorum, Capitulum III, 147.

(٢) أنظر الخطاب المذكور فى: Stephani, comitis Carnotensis ad Adelem, uxorem suam, Epistola, R.H.C. - H. Occ., III, 885-6. – والخطاب منشور أيضا فى : Hagenmeyer (Ed.), Epistolae et chartae, 138 - 40. ويجد القارىء فى ختام الفصل الخامس ترجمة عربية لبعض فقرات الخطاب . أنظر أيضا الملحق الرابع بآخر الكتاب .

من عامة الشعب والعبيد وأرقاء الأرض واللصوص والمجرمين وقطاع الطرق. ولذلك فقد اصطبغت هذه الحركة بالصبغة العالمية إلى حد كبير، كما اختلفت أهواء ومشارب المشتركين فيها اختلافا بينا عجيبا. أما الملاحظة الثانية فتنحصر فى أن الجماعات التى اشتركت فى الحرب الصليبية الأولى كانت كثيرة العدد (١)، حتى لقد وصفتهم آن كومنين بأنهم قوم لايعرفون النظام، وأن فى طبيعتهم شىء من العنف والحدة والشراسة والاندفاع، فضلا عن تقلبهم وعدم ثباتهم على رأى أو حال (٢). وهذا يفسر لنا سلوك هؤلاء الصليبيين اللاتين فى الدولة البيزنطية.

لقد وجد الكثيرون فى هذه الحركة، وبخاصة العبيد والأقنان، المنفذ المحقق للافلات من أغلال الاقطاع وقيوده ونظمه التى كانت عبئا أثقل كواهلهم. يضاف إلى ذلك أن البابا أربان الثانى كان قد وعد بغفران خطايا وآثام كل من يشترك فيها، وان من يموت فى سبيل المسيح يعتبر شهيدا ويذهب إلى الجنة دار الخلد والنعيم المقيم. كما ساهمت فيها عناصر كثيرة حبا للمغامرة ورؤية بلاد جديدة. ثم أن كل هذه الجماعات التى تتكون منها أغلبية الجيوش الصليبية كانت جماعات غير منظمة، لاسيما الحملات الشعبية الأولى التى كانت تتألف فى معظمها من عصابات من الغوغاء ليس لها مطامع سياسية واسعة. وقد اقتصر الدور الذى قامت به على الاعتداء على السكان أو إعمال السلب فى قرية من القرى أو ضاحية من الضواحى. وقد أدى هذا فى بعض الأحيان إلى توتر العلاقات

---

(١) «One might have likened them to the stars of heaven or the sand poured along the edge of the sea» Cf. Alexiad, 263.

(٢) أنظر: Alexiad, 248, 251, 266.

بين بيزنطة والصليبيين ، ولكنه لم يؤثر تأثيرا عميقا فى تطور العلاقات بينهما ، وسيترك هذا الدور الخطير ليقوم به رؤساء الفرنج وكبار رجالهم فى الحملات النظامية .

وإذا انتقلنا إلى رؤساء الصليبيين وكبار رجال الاقطاع الذين اشتركوا فى الحملة ، نلاحظ أن الذين لم يوفقوا منهم إلى ميرات اقطاعى واسع النطاق فى بلادهم مثل بوهيمند النورماندى وبلدوين شقيق جودفرى ، أصبحوا ينظرون إلى تلك الحملات الصليبية كوسيلة ناجحة لتأسيس إمارات جديدة يحكمونها فى الشرق حسبما وعدهم البابا أربان الثانى . وخصوصا بعد أن وصلوا إلى القسطنطينية ، وبعد أن بهرهم ثراؤها الزائد وكنوزها الثمينة ، وهم قوم جشعون محبون للمال مغامرون يتطلعون إلى السيطرة والسلطان وامتلاك الأراضى كما وصفتهم الأميرة آن كومنين . (١) وسوف تتضح هذه النزعة بجلاء فى علاقة رؤساء الصليبيين بالامبراطور الكسيس ، وفى مسألة انطاكية بالذات عندما قام النزاع بين بوهيمند والامبراطور ، والذى تطور فيما بعد إلى حرب مكشوفة بينهما .

ولهذا السبب ارتاب الكسيس فى نوايا أولئك القوم ، وكان على حق فى موقفه هذا ، إذ أكدت أحداث السنوات التالية صدق مخاوفه . وليس أدل على ذلك من انحراف الحملة الصليبية الرابعة التى بشر بها البابا انوسنت الثالث بقصد الاستيلاء على مصر وبيت المقدس ، عن هدفها الرئيسى ومهاجمتها الدولة البيزنطية

---

(١) Alexiad, 266. . ويذكر المؤرخ ارنست باركر أن القوات الصليبية لم تعمل مستقلة عن مصالح بيزنطة فحسب ، بل صارت فى آخر الأمر معادية لها . أنظر باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٠ .

واستيلائها عليها وتأسيس مملكة لاتينية بها استمرت أكثر من نصف قرن . فكان ذلك ثمرة أطماع أولئك القوم فى دولة الروم الشرقية ، تلك الأطماع التى تكشفت منذ بداية الحركة الصليبية وحتى قبل قيامها فى حملات جويسكار وابنه بوهيمند . ولذلك اعتبر بعض المؤرخين امثال ادوين جون ديفز ، هذه الحملة وصمة عارفى جبين المسيحية الغربية ونقطة سوداء فى التاريخ الأوروبى الوسيط . وهم لهذا السبب لا يدخلونها فى عداد الحركة الصليبية (١) .

ويقول المؤرخ شالندون إن بعض رؤساء الصليبيين كانوا من أهل الورع والتقوى ، وكانت حياتهم فى الغرب تنم عن ذلك . ولكن لم يلبث أن زال هذا الشعور الدينى الذى كانوا يظهرونه فى أول الأمر ، وغلبوا المصلحة الشخصية على المنفعة العامة ، مما يؤكد ما سبق أن بيناه من أن دافع الدين والتقوى لم يكن العامل الأساسى فى قيام الحركة الصليبية . ويستشهد المؤرخ على ذلك بسلوك وتصرفات بعض الزعماء أمثال جودفرى وبلدوين وسان جيل وغيرهم (٢) .

---

(١) أنظر Davis, Invasion of Egypt, 1-3. — ولهذا السبب أيضا جعل بعض المؤرخين مثل نورمان بينز سنة ١٢٠٤ م التى استولى فيها اللاتين على القسطنطينية هى نهاية الدولة البيزنطية . وحجتهم فى ذلك أن الامبراطورية البيزنطية وإن كانت قد أعيدت بعد ذلك واستمرت حتى أواسط القرن الخامس عشر ، إلا أن احداثا ومؤثرات جديدة من الغرب جدت عليها ، ولم يعد القسطنطينية نفسها من مجدها القديم إلا ظلا باهتا وشبحا متهالكا . أنظر : بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧١ — ٧٢ . راجع أيضا كلارى : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين — ترجمة وتقديم الدكتور حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٤) ، وبخاصة صفحات ٥ وما بعدها و ٥٠ وما بعدها و٧٦ وما بعدها و ٩٥ وما بعدها و ١٠٩ وما بعدها و ١٢٢ وما بعدها و ١٣٩ وما بعدها . هذا وترجع أهمية مذكرات روبرت كلارى أن مؤلفها اشترك فى الحملة من بدايتها وشاهد بنفسه سقوط القسطنطينية فى قبضة الغربيين .

(٢) Chalandon, Alexis Comnène, 162. أنظر أيضا باركر : الحروب الصليبية ، ٣٢ و ٤١ .

يضاف إلى ذلك أن رؤساء الفرنج كانوا يتصفون بالكبرياء والصلف والغطرسة وصلابة الرأى حسبما وصفتهم ابنة الكسيس وحسبما كان يبدو من مسلكهم وتصرفاتهم . وكانوا ينظرون إلى البيزنطيين على أنهم هراطقة ، كما كانوا دائما يشكون فى نواياهم ومقاصدهم ، ولذلك لم يكن من السهل أن يتفاهم معهم الامبراطور . وقد صادف فعلا صعوبات كثيرة فى سبيل إقناعهم بوجهة نظره واخضاعهم لنفوذه وسيطرته . ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى الإذعان لرغبته بعد أن وجدوا أنفسهم فى بلاد أجنبية لاحامى لهم فيها ولا نصير . كما كانت العيون التى بعث بها الامبراطور لمراقبتهم تنبث من حولهم ، وأدركوا أنهم لن يستطيعوا القيام بأى عمل دون موافقته . ورأوا أن من مصلحتهم خطب وده والحرص على مساعدته لهم ، وعرفوا أن حياتهم متوقفة إلى حد كبير على كلمة يتفوه بها الامبراطور . فى إمكانه أن يسهل لهم مسألة التموين ، وفى وسعه أن يقطع عنهم هذه الامدادات وأن يحيمهم إذا حادوا عن الطريق الذى حدده لهم ، أو أعملوا النهب والتدمير أو أحدثوا الشغب والاضطراب . وامداد الجيش بالمؤونة أمر له اعتباره وتقديره عند هؤلاء القوم. لهذه الأسباب وتحت ضغط هذه الظروف ، وجد رؤساء الجيوش الصليبية أنه لا مفر من قبول شروط الامبراطور وحلف يمين التبعية والولاء له . وفعلا تم ذلك وعقدوا معه اتفاقا فى مايو سنة ١٠٩٧ م ، ذلك الاتفاق الذى ستكون له نتائج بعيدة المدى فى تاريخ العلاقات بين اللاتين الكاثوليك والاغريق الارثوذكس .

لقد حقق الكسيس جانبا رئيسيا من خطته بمحافظته على دولته من عدوان الفرنج ، والاتفاق مع زعمائهم الذين أقسموا له يمين الإخلاص . ومع ذلك

فإن الاتفاقية المذكورة لم تنفذ روحا ونصا ، وبخاصة عندما ثارت فى الأفق مشكلة انطاكية وما ترتب عليها من مضاعفات فى الأحقاب التالية ، الأمر الذى دفع مؤرخا مثل كارل ستيفنسون إلى القول إن سياسة الكسيس قد فشلت لا لأنها لم تكن عملية أو صعبة التنفيذ ، ولكن بسبب سوء تصرفه حيال الافرنج.(١) والحقيقة أن خطة بيزنطة قد نجحت فى بداية الأمر بفضل شخصية الكسيس نفسه الذى أجل سقوط دولته فى أيدى اللاتين قرابة قرن أو يزيد . ولكن الخطة فشلت آخر الأمر بسبب أطماع اللاتين فى بيزنطة وأملاكها القديمة ، ونتيجة لطباعهم الخشنة وسوء سلوكهم .

وتحدثنا آن كومنين عن تصرفات أولئك القوم فى الدولة البيزنطيـة بإفاضة وإسهاب . فقد كانت القسطنطينية تعج بهم ، وقد سلكوا فيها مسلكا شائنا ، وكانوا لا يخجلون من شىء ، تنقصهم العزيمة وقوة الإرادة لمقاومة نزعاتهم وشهواتهم وأطماعهم. وقد ذكرت كيف كانوا يؤمون القصر من الصباح الباكر، فيدخلون وحاشيتهم على الامبراطور دون أدنى مراعاة للذوق والتقاليد المرعية، وكانوا لا يتركون للامبراطور من الوقت إلا ما يكاد يكفى لتناول إفطاره . وقد شرحت كذلك كيف كانوا فى مساء نفس اليوم يلاحقونه حتى باب غرفة نومه ليطلبوا منه نقودا أو ليسألوه فى إسداء نصح أو جميل أو حتى لمجرد التبسط فى الحديث .

وهناك أمثلة أشد غرابة من ذلك ، نذكر من بينها أنه اتفق فى يوم استقبال رسمى أن ذهب أحد كبار الفرنج من البارونات فجلس على عرش الامبراطور الذى

---

(١) Stephenson, Mediaeval Feudalism, 94-5.

ظل واقفا متظاهرا بعدم رؤيته . وحين سحبه الكونت بلدوين أخو جودفرى من كمه ليعيده إلى مكانه ، مبينا له أنه يجدر بالمرء إذا ما وجد فى بلد غريب أن يحترم عاداته وتقاليده ، انتصب البارون واقفا وأخذ يتطلع إلى الامبراطور فى شىء من السخرية والاحتقار وهو يتمتم بلغة بلاده : « أنظروا ، هاكم مخلوقا يبقى جالسا ، بينما كل هؤلاء القادة العظام واقفون » . ولم تغب عن الكسيس تمتمة هذا اللاتينى المتغطرس . فاستدعى أحد المترجمين ممن يجيدون اللسان اللاتينى ، وعرف منه مضمون ما تفوه به البارون المذكور . ومع ذلك ترك الحادثة تمر بسلام وكأن شيئا لم يقع ، دالا على دهائه وصبره وبعد نظره وسعة حيلته وحسن تصرفه . واكتفى بعد انتهاء الاحتفال بأن انتحى جانبا بذلك الرجل الفرنجى موبخا إياه قائلا له ما معناه إنه بوسعه إبراز قوته وعضلاته ليس فى بيزنطة ، وإنما فى القتال المرتقب ضد الأتراك (١) .

كيف نفسر سلوك هؤلاء الصليبيين ؟ الواقع أن ذلك يرجع إلى حد ما إلى أنهم لم يبلغوا المستوى الحضارى والثقافى والفكرى الذى كان يتمتع به البيزنطيون ، وإلى طباعهم الخشنة وأخلاقهم الفظة (٢) . كما أن السياسة التى وجد الكسيس نفسه مضطرا لاتباعها معهم ، من حيث فرض الرقابة عليهم ، وبث العيون من حولهم لتتبع حركاتهم ورصد سكناتهم ، ومطالبتهم بأداء اليمين ، ومضايقتهم بمسألة التموين — تركت أثرا سيئا فى نفوسهم . فلم يستسغ أولئك اللاتين هذه

---

(١) Alexiad, 263-4; cf. also Diehl, IX, 21-2. — ويذكر شارل ديل (نفس المرجع والصفحة) أن الكسيس أبدى صبرا عجيبا مقرونا بالحرص والحذر حيال الفرنج والأحداث التى مرت بها دولته ، وأنه ترك أجمل الأثر فى نفوس عدد منهم ، مثل لاتين كونت بلوا وشارتر .

(٢) Heer, Med. World, 98.

السياسة ، وساءهم أن يعاملهم الامبراطور هذه المعاملة ، وكانوا من وجهة نظرهم ينتظرون أن يعاملهم الكسيس معاملة أحسن من ذلك بكثير، حتى أنهم نشروا عنه وعن الإغريق عامة بعد عودتهم إلى الغرب أسوأ دعاية بين مواطنيهم كانت لها مضاعفاتها فيما بعد .

وسنرى فى الصفحات التالية إلى أى حد نجح إمبراطور بيزنطة فى تنفيذ سياسته عندما أصبح وجها لوجه أمام القوات الصليبية الشعبية والنظامية ، والآثار التى ترتبت على احتكاك اللاتين الكاثوليك بالروم الأرثوذكس أثناء الحملة الأولى وفى الأحقاب التالية .

الفصـــل الرابع

الحملات الشعبية والكسيس كومنين

فى العقود الأولى من القرن السابع الميلادى ظهر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية يدعو الناس بصفة عامة إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام ، والعرب بخاصة إلى الاتحاد والتآلف والمحبة ونبذ الفرقة والخلاف . ولم تمض بضع سنوات حتى كانت هذه الدعوة الجديدة قد تمكنت ودانت لها كافة القبائل العربية التى أصبحت ترى فيها رمز وحدتها وشعار مجدها وأمل مستقبلها . وعلى هـــذا الأساس قامت الدولة العربية الفتية ، وخرجت من جزيرتها الصغيرة للفتح دفاعا عن كيانها ونشرا لدعوتها وتأمينا لها من مناوشات جيرانها ومضايقاتهم المستمرة على الحدود . وانطلقت وراء حدودها لتصطدم بالدول المتاخمة لها . وكان من الطبيعى أن يبدأ الصراع بينها وبين دولة الروم ، ذلك الصراع الذى انتهى فى سنوات قليلة باستيلاء العرب على الولايات الشرقية التابعة لهذه الدولة. فامتلكوا بلاد الشام وشرقى آسيا الصغرى ومصر وشمال افريقية ، وواصلت جيوشهم تقدمها حتى وصلت إلى اسبانيا . وقام العرب بعدة محاولات فى أخريات القرن السابع وأوائل القرن الثامن بقصد الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ولكن لم يقدر لها النجاح بسبب متانة العاصمة ومناعة أسوارها (١) .

---

(١) من المراجع الحديثة عن الصراع بين العرب والروم منذ الفتح العربى حتى أوائل القرن الثامن ما يلى: Ostrogorsky, Byzantine State, 98-100, 103-5, 111-2, 142-7; Hussey, Byzantine World, 26; Diehl, L'Empire Byzantin, 52-4,59; idem, Byzance, 9; Bailly, Byzance, 134; Baynes & Moss (Eds.), Byzantium, 308-10; Sullivan, Heirs of the Roman

هكذا كان الصراع سجالا بين العرب والروم منذ الفتح واستمر حتى القرن التاسع الميلادى ، وقد اقتضته الضرورة السياسية لسلامة دولة العرب . وفيه وقفت بيزنطة موقف الدفاع عن نفسها بسبب الضعف الذى دب فى أوصالها ، فى وقت كانت فيه كفة العرب هى الراجحة(١) .

واستمر الحال هكذا إلى أن اعتلت الأسرة المقدونية عرش بيزنطة (٨٦٧ - ١٠٥٩م) ، فحدث انقلاب فى ميزان القوى فى المنطقة . إذ أخرجت هذه الأسرة عددا من الأباطرة الأقوياء الذين أخذوا على عاتقهم مهمة استرداد أملاكهم القديمة . وكان فى مقدمتهم بازيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦ م) مؤسس الأسرة ، وقسطنطين السابع (٩١٢ - ٩٥٩ م) ، وابنه رومانوس الثانى (٩٥٩ - ٩٦٣ م) ، ونقفور الثانى فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م) ، ويوحنا تزيمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٦م) ، وبازيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) . ففى عهودهم بلغت دولة الروم ذروة قوتها فى القرون الوسطى . فاستتبت الأمور فى الداخل ، مما سمح لأباطرتها بالتفكير فى التوسع وبسط نفوذهم على حساب جيرانهم العرب ، فقامت بين الدولتين الحروب التى أحرزت فيها دولة الروم عدة انتصارات . وقد تحول مجرى تلك الحروب أيام بازيل الأول لمصلحة البيزنطيين ، ولو أن نتائجها كانت ضئيلة فى بادىء الأمر . واستمرت هذه الانتصارات فى عهد قسطنطين السابع الذى

Empire, 26, 29-30, 32; Atiyah, The Arabs, 32 sqq.; Gibb, = Mohammedanism, 2 sqq.; Hitti, Hist. of the Arabs, 147 sqq., 160 sqq., 212 sqq., B. Lewis, The Arabs in History (London, 1958), 36 sqq., 49 sqq.

راجع أيضا ابراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون (القاهرة ١٩٦٣) ، ص ٥٣ ومابعدها و ٨١ ومابعدها و ٢١٢ وما بعدها و ٢٢٤ وما بعدها .

(١) أنظر: على الخربوطلى: محمد والقومية العربية ، ص٤٩و٥٢؛ جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ٢ .

استولى على مدينة حلب لفترة قصيرة عادت بعدها إلى العرب . ووصلت قوة بيزنطة مداها أيام نقفور فوكاس الذى استولى على صقلية وقبرص وانطاكية وبعض المدن فى آسيا الصغرى . بينما بلغت القوات البيزنطية حدود اورشليم وبغداد فى عهد سلفه يوحنا تزمسكيس أو حنا الشميشق كما تسميه المراجع العربية (١) .

ومما ساعد بيزنطة على تحقيق تلك الانتصارات انها كانت فى أحسن حالاتها فى الداخل والخارج . هذا فى الوقت الذى انتاب فيه العالم العربى بعض الضعف والوهن . إذ دب الانحلال السياسى فى جسم الدولة العباسية التى انقسمت إلى دويلات متعددة متنافرة . فقامت دولة الحمدانيين بالشام على أكتاف سيف الدولة الحمدانى ، واستقل الطولونيون ومن بعدهم الاخشيديون بمصر ، وقامت الخلافات بين الاخشيديين والحمدانيين . بينما ظهرت العناصر الفارسية التى أخذت توطد نفوذها على حساب سلطان العباسيين ، وتستأثر بالسلطة الفعلية من دونهم . وأصبح الخليفة العباسى العوبة فى أيدى الأمراء البويهيين ، ليس له من

---

(١) أنظر عن ذلك : Runciman, Byzantine Civilisation, 46 — 8; Ostrogorsky, 251 — 2, 257 — 8, 263 — 4; Bloy, Constantinople et Byzance, 13 — 49, 64 — 9, 108 — 10, 113 — 24; Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 32—4.

راجع أيضا عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١١ وما بعدها ، ومقدمات العدوان الصليبى ، ص ٦ وما بعدها و ٤٧ وما بعدها و ١٠١ ومابعدها و١١١ وما بعدها و ١٤١ وما بعدها ، والامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة ، ص ٢٦ وما بعدها ؛ السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ ، ٣٢٩ – ٣٣٣ و ٣٥٥ – ٣٥٦ و ٣٦٣ – ٣٧٣ و ٣٧٧ – ٣٨٤ و ٣٨٩ – ٤٠١ و ٤١١ – ٤٣٣ و ٤٧٢ – ٤٨٤ و ٥٢٢ – ٥٢٦ ؛ مصطفى الشكعة : سيف الدولة الحمدانى ، ص ١١٨ – ١٣٨ .

الخلافة سوى الاسم . فكان لهذا بطبيعة الحال آثاره السيئة على حدود العرب المشتركة مع بيزنطة (١) .

هكذا بلغت دولة الروم ذروة مجدها أيام الأسرة المقدونية فى وقت ضعف فيه العرب وتشتتت قواهم وتفتتت وحدتهم ، مما حال دون مواصلة تقدمهم فى اوروبا ، حتى لقد اعتبر أهل الغرب بيزنطة حامية اوروبا المسيحية الغربية ضد العرب فى الشرق (٢) . ولكن بعد انقراض هذه الأسرة حلت محلها فى الحكم أسرة ضعيفة هى أسرة دوكاس (١٠٥٩ - ١٠٨١ م) . وقد عمت الفوضى واضطربت الأمور داخل البلاد من جديد ، بسبب ضعف الجيش وانشغاله فى المنازعات الداخلية والحروب الأهلية . فكان هذا مما شغل الأباطرة عن مواصلة حروبهم فى الخارج . وانتهز الأعداء المتربصون بها هذه الفرصة ، فقاموا بتوجيه الضربات إلى حدودها الغربية والشرقية . فاستولى النورمان بقيادة روبرت جويسكار على مدينة بارى جنوبى ايطاليا سنة ١٠٧١ م ، ثم عبروا البحر الأدرياتى إلى سواحل البلقان . وكان جويسكار يفكر جديا فى غزو القسطنطينية نفسها ، إذ قام فى عام ١٠٨١ م بمحاولة فاشلة لتنفيذ هذا المشروع الذى يعتبره بعض المؤرخين المحدثين من الحروب التوسعية الاقطاعية التى تركت أثرا سيئا فى نفس الكسيس ورعاياه، سيبدو واضحا عندما احتك اللاتين بالروم فى الحرب الصليبية الأولى ، فى وقت كانت فيه العلاقات بين الفريقين قائمة على الريبة والشك وسوء التفاهم .

---

(١) عمر كمال : الامبراطور نقفور فوكاس ، ص ٨ — ١١ ، ومقدمات العدوان الصليبى ، ص ٤٧ — ٨٦ .

(٢) راجع بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٧ . وقد ردد هذه الفكرة معظم المؤرخين الحديثين والمشتغلين بالتاريخ البيزنطى وتاريخ أوروبا فى العصور الوسطى .

وفى هذا الوقت بالذات تجمع الأتراك السلاجقة (١) على حدود أرمينية البيزنطية استعدادا لغزو آسيا الصغرى التى كانت لا تزال تحت حكم بيزنطة . وقد بدأ هذا العنصر التركى هجومه على أملاك الدولة الفاطمية بالشام . وكانت دولة الفاطميين فى ذلك الحين فى طور الاحتضار ، فالسلطة الفعلية فى أيدى الوزراء والخلفاء معهم لا حول لهم ولا طول ، وليس لهم من الخلافة سوى الاسم . وكان فى استخدام هؤلاء الوزراء لقب « الملك » اشارة إلى تلك السلطة الضخمة التى استأثروا بها (٢) . وفى ظل هذه الظروف استولى السلاجقة على مدينة بيت المقدس من الفاطميين سنة ١٠٧٠ م (٣) . ثم اتجهت جحافلهم نحو آسيا الصغرى حيث ألحقوا بجيوش الامبراطورية البيزنطية فى السنة التالية هزيمة منكرة فى موقعة ملاذكرد . وفيها تمكن السلطان السلجوقى ألب أرسلان من إلحاق شر أنواع الهزيمة بالامبراطور البيزنطى رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogenes (١٠٦٨ - ١٠٧١) . ويعتبر المؤرخ ستيفن رانسيمان سنة ١٠٧١ التى سقطت فيها مدينة بارى فى قبضة النورمان ، والتى انتصر فيها التركمان على الروم فى ملاذكرد ، نقطة تحول فى التاريخ البيزنطى (٤) .

---

(١) حول السلاجقة والتعريف بهم وقيام دولتهم، أنظر عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩) ، ص ١٦ ومابعدها .

(٢) راجع عن ذلك ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (مجموعة الحروب الصليبية) ، جـ١ ، ص ٥٠٠ ؛ أبو الفداء : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٤٠ — ٤٢ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٣٨ — ٣٣٩ و ٣٤٥ — ٣٤٦ و ٣٦٣ ؛ أبو اليمن العليمى : الأنس الجليل ، جـ ١، ص٢٧٢ .انظرأيضا جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ٢٧ ومابعدها.

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ قسم ١ ، ص ٣٣ ؛ ابن القلانسى ؛ ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨ — ٩٩ .

(٤) Runciman, op. cit., 51-2; cf. also : Oman, Art of War, I, 218-23; Ostrogorsky, 303-5; Daniel-Rops, 504-6; Mahmud, Story of Islam, 121-2.

وواصل الأتراك تقدمهم على حساب بيزنطة بعد أن انفتح الطريق أمامهم فى آسيا الصغرى ، فاستولوا على ازمير ونيقية ودوريليوم . ولم تأت سنة ١٠٧٥ م حتى وقعت مدينة انطاكية فى قبضتهم ، وأضحت البلاد تواجه خطر هجومهم على القسطنطينية نفسها . وبدا كما لو كانت بيزنطة عاجزة تماما عن وقف زحفهم داخل أراضيها . وهكذا اجتاح السلاجقة آسيا الصغرى كلها ، وأحدثوا فيها النهب والتدمير ، وأحالوا الأراضى الزراعية إلى صحارى قاحلة ، وأتلفوا الطرق والقنوات . ذلك أنهم قوم رعويون لم يختصوا بزراعة الأرض وحرثها ، فلم يعنهم كثيرا أن تتلف هذه الأرض . ونتيجة لما تقدم بات من العسير على الامبراطورية استرداد هذه المقاطعات ، بينما أدى ضياعها إلى فقدان بيزنطة مركزا حربيا ممتازا ومصدرا هاما للحبوب والغلال . ثم انها لم تعد حامية الغرب الأوروبى كما كانت من قبل . واصبحت الحاجة ماسة إلى الاعتماد على الجند المرتزقة من أهل الغرب لصد خطر هذا العنصر التركمانى (١) . وفعلا نرى الامبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٨) يطلب من بابا روما جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) العون والمساعدة لصد السلاجقة (٢) ، تلك الفكرة التى كادت أن تخرج على شكل حملة غربية لمساعدة بيزنطة ضد

---

(١) Runciman, op. cit., 52. — ويذكر شارل أومان أنه بعد موقعة ملاذ كرد وانتصارات الأتراك السريعة المتلاحقة على حساب الجناح الشرقى من الامبراطورية البيزنطية ، أصبحت القوات المرتزقة تكون الجانب الرئيسى من الجيش البيزنطى ، بعكس الحال أيام الأسرة المقدونية . وأصبح الفرنجة واللمبارديون والاتراك والبجاناكية يكونون فرقا دائمة فى هذا الجيش . وكان الأباطرة يستأجرونهم فى الغالب من الامراء التابعين لهم نظير مبالغ من المال . أنظر كتاب : Oman, Art of War, I, 223

(٢) ويقول استروجورسكى ان هذه الدعوة أنعشت آمال البابا لبذل المزيد من الجهود فى سبيل اتحاد الكنيستين على أساس السيادة العالمية لروما ، بعد قطيعة ١٠٥٤ م.

أولئك القوم ، لولا منازعات البابوية مع القوى العلمانية وعلى رأسها الامبراطور الألمانى هنرى الرابع .

وفى ظل هذه الظروف السيئة التى أحاطت بدولة الروم الشرقية من كل جانب ، أنقرضت أسرة دوكاس لتحل محلها أسرة كومنين (١٠٨١ - ١١٨٥ م). وكان أول أباطرتها هو الكسيس الأول كومنين (١٠٨١ - ١١١٨م) ، الذى عاصر الحملة الصليبية الأولى ، وكانت له فيها جولات وصولات مع العرب واللاتين على السواء . كان الكسيس بشهادة جميع المؤرخين القدامى ، وعلى رأسهم ابنته آن ، رجل دولة ممتاز ، سياسيا محنكا من الطراز الأول ، يعرف جيدا كيف يعالج الأمور والأزمات التى تواجهه ، وكيف يعد لكل أمر عدته ، وكيف يهيء نفسه لكافة الاحتمالات . كان شديد الذكاء والفطنة والدهاء ، بعيد النظر ، واسع الأفق ، خبيرا بمجريات الامور والأحوال فى كل من العالم العربى والغرب الاوروبى ، مما ترك أكبر الأثر فى توجيه سياسة بيزنطة فى فترة حكمه وإبعاد الأخطار المحدقة بها ، أو على الأقل تأجيل حدوثها . وقد رأينا أنه لولا السياسة المرنة الحازمة التى اتبعها حيال اللاتين ، لوقعت البلاد فى قبضتهم مبكرا فى أخريات القرن الحادى عشر . ولا شك أن الفضل يرجع إليه فى تأخير وقوعها فى قبضة اللاتين حوالى قرن من الزمان ، عندما استولوا عليها فى الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م ، وأحالوها إلى إمارة لاتينية تضاف إلى مستعمراتهم المنهارة فى الأراضى المقدسة (١) .

---

(١) جدير بالذكر فى هذا المقام أن أباطرة بيزنطة قد امتازوا بصفة عامة بعامل السياسة والدهاء والحكمة وبعد النظر . فضلا عن قوة شخصياتهم وأخلاصهم لبلدهم . فقد حرصت تلك الدولة منذ البداية على ألا تبقى السلطة فى قبضة حكام ضعاف يسيئون إليها ، بل جاهدت على أن تكون السلطة دائما فى قبضة رجال أشداء أقوياء يعرفون كيف ينهضون بها . وكانت =

لوحة رقم ١



الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين أمام المسيح

على أية حال ، لقد انقذ الكسيس الامبراطورية مما حل بها من ضعف وانقسام فى الداخل . وبعد أن دانت له السلطة أخذ يحارب بلا انقطاع فى جميع الجبهات الخارجية . فتمكن بالحرب تارة والسياسة تارة أخرى من إبعاد النورمان عن دول البلقان بعد حروب دامية مع جويسكار وابنه بوهيمند استمرت من سنة ١٠٨١ م إلى ١٠٨٥ م (١) ، تلك الحروب التى اعتبرها بعض المؤرخين مقدمة للحركة الصليبية ، والتى تساعد على تفسير موقف بيزنطة من اللاتين الذين كان النورمان يؤلفون جانبا كبيرا منهم (٢) .

= واجبات الامبراطور ومشاغله ومهام الحكم وأعباؤه تلتهم كل وقته . وكان فى العادة جنديا محاربا. ويتضح هذا من موقف الأباطرة البيزنطيين من القبائل والأجناس المتبربرة التى شقت طريقها فى جوف الامبراطورية الرومانية الشرقية عبر الدانوب . وتتلخص هذه السياسة فى توجيه تلك العناصر من بيزنطة غربا إلى إيطاليا ، مثلما حدث عندما حاول القوط الغربيون تحت قيادة ملكهم المسمى الاريك اكتساح مقدونية فى سنة ٤٠٠ م ؛ إلا أن بيزنطة تمكنت من إلحاق الهزيمة بهم سنة ٤١٠ م . فاضطر هؤلاء أن يبحثوا لهم عن مكان آخر يلتمسون فيه سبل العيش والإقامة ، فاتجهوا غربا الى إيطاليا . ومثل آخر نراه فى سياسة أسرة كومنين حيال الصليبيين الغربيين . إذ أن موقف الكسيس كومنين ومن أتى بعده من الأباطرة البيزنطيين حيال أهل الغرب اللاتينى كان له أكبر الأثر فى الابقاء على الدولة البيزنطية وعدم سقوطها فى قبضة الغرب عند بداية الحركة الصليبية ، أو على الأقل تأجيل وقوع هذا الحدث قرابة قرن من الزمان عندما استولى عليها اللاتين فى الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ . وهذا ما يمكن أن يقال أيضا بالنسبة لسياسة بيزنطة حيال جيرانها العرب والسلاجقة فى الجبهة الشرقية ، وكذلك موقفها من جيرانها البلغار والآفار والروس والسلاف . أنظر عن ذلك هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، ص ٨ — ٩ . أنظر أيضا المراجع التالية .

Katz, Decline of Rome and Rise of Mediaeval Europe, 91-2; Runciman, Byzantine Civilisation, 81 - 2; Barker, Social and Political Thought in Byzantium, 21; Diehl, Byzance : Graudeur et Décadence, 53 ff., 67 ff.; idem, Histoire de l'Empire Byzantin, 139 ff.

(١) Runciman, op. cit., 52; Ostrogorsky, 316-7; Setton, Hist. of the Crus., I, 213-4; Daniel-Rops, 511-2.

(٢) Baynes & Moss, Byzantium, 28.

وفى تلك الأثناء أخذت الدولة السلجوقية تتحول إلى دول إقليمية صغيرة على رأس كل منها حاكم يتبع السلطان السلجوقى الأعظم ملك شاه فى بغداد. وكانت فتوحاتها لا تزال مستمرة فى آسيا الصغرى على حساب بيزنطة. وقد حاول الكسيس دون جدوى وقف زحفهم، وباتت عاصمته معرضة لخطر هجومهم عليها بين وقت وآخر. لذلك لم ير بدآ من الاتجاه صوب الغرب والبابوية فى روما – وهى صاحبة الزعامة الروحية بين الأمم اللاتينية – للاستنجاد بهم ضد السلاجقة والعمل على وقف تيارهم، مثلما فعل سلفه ميخائيل السابع. فبعث رسله إلى البابا أربان الثانى والى كبار رجال الاقطاع يدعوهم لارسال المساعدات لنجدة إخوانهم فى الشرق وحماية القسطنطينية ضد الخطر السلجوقى. وكان من الطبيعى أن تصادف هذه الطلبات هوى من البابا ومن الشعوب المسيحية الكاثوليكية فى الغرب الأوروبى تحقيقا لأطماعهم فى كل من العالم العربى والدولة البيزنطية (١).

تلك هى الحال التى وصلت إليها دولة الروم فى الفترة السابقة لقيام الحركة الصليبية. محاولات عديدة فى كلا الجبهتين الغربية والشرقية هدفها اقتطاع أملاكها، وعيون متجهة اليها تنتظر الفرصة المواتية للانقضاض عليها. فالنورمان وغيرهم من العناصر اللاتينية لهم معرفة سابقة بأحوالها وثرائها الفاحش عن طريق الجند المرتزقة الذين كانوا يعملون فى خدمتها. والسلاجقة يعلمون أيضاً مدى الضعف الذى انتابها هى والخلافة الفاطمية فى مصر فى ذلك الحين، وباتوا يتحينون اللحظة المناسبة للقيام بهجومهم الكبير فى المنطقة.

---

(١) أنظر ماسبق ص ٥٢ – ٥٤ من هذا الكتاب، وكذلك الترجمة العربية لخطاب الامبراطور الكسيس إلى أمير الأراضى الواطئة فى الملحق الأول بآخر الكتاب.

هـذا ولو أن الحرب الصليبية الأولى قد أعاقتهم عن تنفيذ مشروعهم بعد أن أصبحوا وجها لوجه أمام اللاتين القادمين من الغرب .

وفى غمرة هذه الأحداث التى كان العالم العربى ودولة الروم مسرحا لها، بدأت البابوية فى روما تفكر جديا فى نقل ميدان الحروب المسيحية المقدسة من الغرب اللاتينى إلى الشرق العربى . وفعلا نرى أربان الثانى ينتهز هذه الظروف المواتية ليعلن مولد الحركة الصليبية فى كليرمون فى أخريات عام ١٠٩٥ م .

وكان هـذا البابا يرى أن جيشا صليبيا منظما تحت رعاية روحية واحدة وقيادة عسكرية موحدة ، سيكفل للحملة المزعومة التقدم والنجاح . ولعله عندما فكر فى إرسال قوات إلى الشرق ، كان يعنى جيشا إقطاعيا منظما ، بخلاف تلك الجيوش الفردية غير المنظمـة التى عرفتها أوروبا فى حروب التوسع الاقطاعى التى سبقت قيام الحركة الصليبية. ونستشف ذلك من الإجراءات التى اتخذها بعد إعلان الحركة فى كليرمون ، ومن جولته الدينية التى قام بها فى بلدان الغرب الأوروبى قبل عقد هذا المجلس فى الفترة من أبريل إلى منتصف نوفمبر ١٠٩٥ م [١] . ولكن تعلياته فى هذا الصدد لم تنفذ بدقة ، مما كان له أسوأ الأثر بالنسبة للحملات الشعبية التى سبقت قيام الجيوش النظامية . ذلك أن دعاة الحركة والمبشرين بها من أمثال بطرس الناسك ، سمحوا لكل من حمل الصليب بالتوجه إلى الأراضى المقدسة ، مما ترك أثره بالنسبة للعناصر المختلفة التى انضمت إلى الحملة . فقد وجدنا فيها أعداداً غفيرة من طغام الشعوب والمعوزين ورقيق الأرض، فضلا عن المجرمين والمساجين وقطاع الطرق والقتلة واللصوص الذين لم يكن لهم بطبيعة الحال أى وازع دينى أو أى علم بفنون الحرب والقتال . هـذا إلى

---

(١) أنظر مقالى « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ، ص٢٠٢-٢٠٥ والحواشى.

جانب عدد من صغار النبلاء ممن كانت تدفعهم بدون شك الأطماع الشخصية ، ولم يهتموا بالغرض الدينى بل اتخذوا منه مسوحا لتحقيق غاياتهم ، شأنهم فى ذلك شأن العناصر الأخرى التى اشتركت فى الحملة (١) .

وعلى هـــذا الأساس انقسمت الحملة الصليبية الأولى إلى قسمين متباينين متميزين عن بعضهما تماما : القسم الأول ويمثل الحملات الشعبية ، والثانى وهو الحملات النظامية التى قادها أمراء الاقطاع . وكانت الحملات الشعبية ، على شـكل مجموعات مختلفة تحت زعامة أشخاص عديدين مثل جوتييه المعـدم ، وبطرس الناسك ، وفولكمار ، وجوتشالك ، وغيرهم .

وكانت حملة جوتييه (٢) هى أول حمـلة شعبية قامت من أوروبا . فلم يرغب هذا الرجل فى انتظار بطرس الناسك وجماعته ، بل سافر على رأس جيش من حوالى ٥٠٠٠ شخص يتكون من الطبقات المعدمة من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال . وعندما بلغ هو ورجاله بلاد المجر ، أمر ملكها المدعو كولومان (٣) تزويدهم بما يحتاجون إليه من الأقوات . ولما وصلوا مدينة سملين Semlin

---

(١) Hitti, History of the Arabs, 636. — راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ١١ — ١٢ .

(٢) فيما يتعلق بحملة جوتييه المعدم ، انظر كتاب البرت دكس :
Albert d'Aix, R.H.C. — H. Occ., IV, 274-6.
ويعتبر ماجاء فى الكتاب المذكور هو التاريخ المعاصر المسهب عن تلك الحملة ، وإن كان صحة ما أورده مثار شك وتساؤل . ويبدو بوضوح أن دكس أستقى معلوماته من شاهد عيان يحتمل أن يكون قد وضع مذكرات عن تلك الحملة وفقدت ولم تصلنا . أنظر عن ذلك:
Runciman, Hist. of the Crusades, I, 121 n. 1.

(٣) يطلق عليه وليم الصورى Rex Colemanus . أنظـــر : Guillaume de Tyr, R.H.C. — H. Occ., I, lep., 47-8.

الواقعة على الحدود المجرية البيزنطية ، وقعت بينهم وبين المجريين مناوشات بسيطة لم تؤثر تأثيرا عميقا فى العلاقات بين الطرفين . ثم واصلوا بعد ذلك سيرهم ، فعبروا نهر الساف Save ودخلوا أراضى الدولة البيزنطية حيث عاثوا فيها فسادا ، واصطدموا بالبيزنطيين الذين رفضوا إمدادهم بالمؤن بسبب تهورهم وسوء مسلكهم . ولكن العلاقات عادت فتحسنت بينهما ، ومروا بعد ذلك بمدن نيش وصوفيا وأدرنة . وأخيراً فى العشرين من مايو سنة ١٠٩٦ م بلغوا مدينة القسطنطينية التى سمح الامبراطور البيزنطى لهم بالإقامة فى ضواحيها ، فى انتظار وصول قوات بطرس الناسك وبقية الجيوش الصليبية (١) .

لقد أثارت عصابات جوتييه المعدم مخاوف بيزنطة وشكوك الكسيس كومنين ، وأخذ منذ ذلك الحين يفكر جديا كيف ينجو بامبراطوريته من شرور هذه الجماعات وكيف يعاملها ، وكيف يستميلها اليه ويستعين بها فى الوقت المناسب ، وأخيراً كيف يوقفها عند حدها إذا تمادت فى غيها واستهتارها . وسيبدو هذا جليا فى معاملة الامبراطور البيزنطى لبطرس ورجاله الذين كانوا فى طريقهم إلى عاصمة ملكه .

ولا خلاف أن مقدمة الحروب الصليبية تدور فعلا حول شخصية بطرس

---

(١) يلاحظ أن معظم المؤرخين اللاتين قد انحازوا صراحة إلى جانب الفرنج ضد البيزنطيين . فنجد مثلا البرت دكس يمتدح جوتييه المعدم ويلقى اللوم على الاغريق فيما يتعلق بالأحداث التى وقعت بين الفريقين . وقد ردد وليم الصورى ماقاله البرت فى هذا الصدد . أنظر :
Albert d'Aix, R. H. C.-H. Occ., IV, 275—6; Guillaume de Tyr, op. cit, 47-9; cf. also Runciman, Hist. of the Crusades, I, 122 — 3.

الناسك (١) . تلك الشخصية الغامضة التى كان لها أكبر الأثر فى قيام الجيوش الشعبية . ولا نعلم الكثير عن حياة هذا الناسك قبل الحروب الصليبية . ويعتقد أنه ولد فى بلدة أميان Amiens شمالى فرنسا أو فى ضواحيها . ويحتمل أن يكون قد سافر إلى الأراضى المقدسة ، ثم قفل عائدا إلى أوروبا دون أن يتمكن من الوصول إلى بيت المقدس بسبب مضايقات السلاجقة . وهناك من يقول إنه حج فعلا إلى أورشليم ، وشاهد مضايقات السلاجقة للحجاج الغربيين ، وأخذ بعد عودته يثير شعور العالم المسيحى فى غرب أوروبا ضد العرب فى الشرق . ولا شك أن فى وصف بطرس للإساءات التى لحقت بأولئك الحجاج كثير من المبالغة التى كانت تجد صدى وتجاوبا فى النفوس . (٢) وتقول الرواية إنه أخذ يحث دول أوروبا على غزو بيت المقدس ، وكان لدعايته أكبر الأثر فى إشعال الحماس الدينى فى الغرب ، وفى التفاف الناس حوله لتخليص قبر المسيح(٣).

---

(١) كان معاصروه يعرفونه باسم « بطرس الضئيل » نظراً لضآلة حجمه . ولكن غطاء الرأس الخاص بالنساك الذى اعتاد لبسه أضفى عليه لقب « الناسك » الذى اشتهر به فى التاريخ . أنظر : Runciman, op. cit., I, I13.

(٢) Runciman, Hist. of the Crusades, I, 113.

ونعرف من وثائق تلك الفترة أن الحجاج الأوربيين كانوا يقومون بحجهم إلى الأراضى المقدسة وهم هادئين مطمئنين دون أن يلحقهم أذى أو يصيبهم مكروه ، وذلك عندما كانت بيت المقدس خاضعة للعرب . فقد اشتهروا بسعة صدرهم وتسامحهم الصادق فى أمور الدين وفى الحريات الشخصية ، ولم يحدث أن تعرضوا للحجاج الغربيين الذين كانوا يرتادون الأراضى المقدسة بسوء حسبما ذكرت أبواق دعايتهم فى أوروبا وقتذاك . فقد انطوى الدين الاسلامى على روح التسامح والمحبة ولاسيما مع أهل الذمة والحجاج الغرباء . وإن كان أولئك الحجاج قد لقوا بعض المضايقات على أيدى السلاجقة ؛ فذلك لأن هذا العنصر كان حديث العهد بالاسلام ، ولم يكن قد تفهم بعد معانيه السامية وأن ماقاساه الحجاج اللاتين على أيدى البيزنطيين، وهم المسيحيين الاغريق ، قد فاق بكثير مالقيوه على أيدى التركمان ، وهم فى طريق رحلتهم إلى أورشليم . أنظر : Atiya, Crus., Commerce and Culture, 39-40.

(٣) Alexiad, 248-9; cf. also : Runciman, op. cit., loc. cit; Grousset, Crois., I, 5.

وكما كانت مسألة ذهابه إلى القدس موضع خلاف بين المؤرخين ، كذلك لا يوجد تحت أيدينا ما يؤكد أنه حضر مؤتمر كليرمون الدينى ، أو أنه اتصل بالبابا أربان الثانى بخصوص الدعوة للحملة . فهذه كلها مجرد فروض واحتمالات تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث ليس هنا مجال الافاضة فيها (١) .

وكيفما كان الأمر ، فقد كان بطرس هذا رجلا شديد الذكاء ، قوى الإرادة ، يميل إلى الخشونة والزهد والتقشف فى ملبسه ومأكله ، وفى حياته الخاصة والعامة . كما كان شديد الحماس ، يمتلك كل مواهب الخطيب الشعبى ، حتى أنه كان بمقدرته تحريك الشعوب بخطبه النارية وإثارة روح التعصب الكامنة فيهم ، وكانت شعوب الغرب المسيحى تعتقد أنه قديس وأن إرادة الله قد حلت فيه .

وأما عن صفاته الجثمانية ، فقد كان قصير القامة ، أسمر اللون ، مسناً بعض الشىء وقت قيام الحملة . وكان لا يأكل الخبز ولا اللحوم ، وغذاؤه الوحيد السمك وقليل من النبيذ (٢) .

وكان جيش بطرس البالغ عدده قرابة ٧٠٠٠ (٣) يتكون من فرنسيين وألمان وفلنكيين ، وغالبيته من المعدمين وأرقاء الأرض ، ومن الرهبان والشيوخ

---

(١) فيما يتعلق بأسطورة بطرس الناسك ودوره فى الدعوة إلى الحركة الصليبية ، أنظر مقالى : « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٩٥ — ١٩٧ والحواشى .

(٢) Grousset L'épopée des Crois., 12; Daniel-Rops, op. cit., 548; Runciman, op. cit., I, 313.

(٣) تذكر آن كومنين فى كتابها الالكسياد (ص ٢٥١) أن عددهم بلغ ثمانين الفا من المشاة ومائة الف من الفرسان . ولا شك أن هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد كبير . وهذه ظاهرة ملحوظة عند المؤرخين العرب واللاتين فى العصور الوسطى ، إذ كانوا يبالغون فى ذكر أعداد الجيوش والقوات المحاربة ، وعدد القتلى والأسرى فى المعارك التى يخوضون غمارها .

والنساء والأطفال ، الذين لم يكن لديهم أى خبرة بفن الحرب والقتال واستعمال الأسلحة . وكان كل ما يحمله معظمهم هو العصى والفؤوس وغير ذلك من أدوات الحرث والزرع التى لا تقاس بما تتطلبه مثل هذه الحروب من استعداد كاف ومن عدة وعتاد . وقد اتجهوا نحو الشرق دون أن يعرفوا ما هم قادمون عليه من عمل وتضحيات ، أو يقدروا بعد الشقة ومسافة الطريق التى سيقطعونها ، أو حتى يفكروا فى أهم مشكلة من مشاكل الحرب فى أى عصر من العصور ، ونعنى بها مشكلة التموين ، التى ستكون سلاحا فعـــالا فى يد الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين يشهره فى وجوههم كلما حادوا عن جادة الطريق ، أو عاثوا فسادا فى أراضى دولته .

على أى حال ، بدأ بطرس دعوته من غربى فرنسا متجها إلى الشرق حيث لاقت نجاحا عظيما فى نفوس أتباعه . ونزل هو وعصاباته التى ينقصها النظام وحسن الإعداد على سهول أوروبا وبلاد المجر والدولة البيزنطية ، « وقد بدا منظرهم كأنهار عديدة وقد تدفقت مياهها بشدة من كل جانب . » (١) ولم يكفوا منذ أن تركوا أوطانهم فى الغرب إلى أن نزلوا فى بيزنطة عن اعمـال السلب واشاعة الفوضى .

وقد مروا فى طريقهم بمدينة سملين (٢٠ يونيو ١٠٩٦) التى هاجموها وخربوها ، ثم استولوا عليها وقتلوا عددا كبيرا من سكانها المجريين . ويلقى المؤرخ اللاتينى البرت دكس اللوم والمسئولية على عاتق المجريين لاعتدائهم قبل ذلك على رجال الحملة الشعبية الأولى بقيـادة جوتيه المعدم التى سبق أن مرت بأراضيهم ، وثانيا لتآمرهم مع البيزنطيين على الغدر بالصليبيين . (٢) ويتناول

---

(١) Alexiad, 249.

(٢) Albert d'Aix, R.H.C.—H. Occ., IV, 276.

المؤرخ الفرنسى فرديناند شالندون هذا الرأى بالنقد والتحليل ، متهما البرت دكس بالتحيز إلى جانب الفرنج . ويقول إن هؤلاء القوم مسئولون عن كل ما حدث . ويعزز رأيه بمساوىء الصليبيين وأعمال العنف التى قاموا بها أثناء مرورهم بالمانيا وغيرها من البلاد ، ثم العناصر المختلفة التى كانت تتكون منها هذه الحملة الشعبية . (١) ولعل هذا الرأى هو الأقرب إلى الصواب نظراً لطبيعة هؤلاء القوم واختلاف أهوائهم ومشاربهم . فقد تميزوا بعنادهم وطباعهم الحادة وتهورهم الشديد واندفاعهم السريع . وكانوا يفقدون سيطرتهم على أنفسهم لأتفه الأسباب (٢) .

والمهم أن حادثة سملين هذه ستؤثر تأثيراً كبيراً فيما سيتلوها من أحداث. فمن ناحية سنرى كولومان ملك المجر يعامل الحملات الشعبية الأخرى معاملة سيئة ، وستكون علاقته بزعماء الحملات النظامية مشوبة بالحيطة والحذر وعدم الاطمئنان . ومن ناحية أخرى سيضطر البيزنطيون إلى اتباع سياسة حازمة حيال الصليبيين جميعا دون استثناء .

وعندما علم الفرنج باعتزام المجريين الانتقام منهم لما فعلوه بمدينة سملين ، بادروا بعبور نهر الساف وكان ذلك فى ٢٦ يونيو ، ومروا ببلغراد . ولما سمع أهل بلغراد بحوادث سملين ، تركوا المدينة خوفا على حياتهم من شرور الفرنج الذين أعملوا فيها السلب ، ثم واصلوا سيرهم إلىمدينة نيش التىبلغوها فى ٣يوليو وأقاموا أمامها . (٣)

(١) أنظر : Chalandon, Première Crois., 70—1.

(٢) Alexiad, 251.

(٣) تقع مدينة نيش على نهر موراقا فى قلب شبه جزيرة البلقان . أنظر أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٦ .

ولما علم الامبراطور الكسيس بنزول اتباع بطرس فى الأراضى البيزنطية، وما أحدثوه فى الطريق ، رسم لنفسه سياسة معينة يسير عليها ليحمى امبراطوريته من عبث هؤلاء القوم الذين لم يكونوا يعرفون معنى الطاعة أو النظام . فأصدر أوامره إلى عماله على الأقاليم بمراقبتهم، وبث من حولهم العيون حتى لا يحيدوا عن الطريق المرسوم . وأمر بامدادهم بالزاد على طول الطريق بشرط التزام الهدوء . وكانت تعليماته إلى رجاله صريحة باستخدام القوة ضد الفرنج إذا عاثوا فسادا فى أراضيه . وقد صاحبهم بعض الأشخاص الذين يجيدون اللاتينية للتفاهم معهم، والعمل على تسوية أى خلاف قد يقع بين الفريقين . (١)

وبينما كان الصليبيون يعسكرون فى ضواحى مدينة نيش قامت المفاوضات بين نيكيتاس Nikitas الحاكم البيزنطى على مقاطعة الدانوب وبين زعيم الفرنج . وأعرب الحاكم البيزنطى عن استعداده لإمدادهم بما يحتاجون اليه إذا لم يحدثوا أى شغب وقدموا الرهائن الكافية لضمان حسن نياتهم . وتم الاتفاق بين الطرفين على هذا الأساس، وسلمه بطرس الناسك الرهائن من الشخصيات البارزة فى جيشه. ولم يحدث طيلة اليوم أى اعتداء من جانب الفرنج على المدينة ، حتى أن السكان أخذوا يوزعون عليهم الطعام ، ويجودون بالصدقات على البؤساء منهم . وقد أقاموا أمام نيش يوما واحدا دون حدوث ما يعكر الجو . وفى مساء ذلك اليوم أعاد الحاكم البيزنطى الرهائن التى كانت فى حوزته الى بطرس . وبعد ذلك سرعان ماهاجم الفرنج مدينة نيش وأشعلوا النيران فى ضواحيها. فلم يجد الجيش البيزنطى بدأ من التدخل. ونشبت موقعة بين الجيشين قتل فيها كثير من الصليبيين، كما وقع عدد كبير منهم اسرى فى قبضة البيزنطيين . وقد استولى الرعب على الجيش الصليبى الذى تشتت شمله ، حتى أنه لم يبق مع بطرس سوى بضع مئات ، بينما هرب

---

(١) Alexiad, 250.

الباقون خوفا من أن يعمل فيهم جند الامبراطور الذبح والتقتيل . واضطر الصليبيون ـ بعد أن قطع عنهم التموين ـ إلى الالتجاء الى الحقول المجاورة للمدينة للحصول على ما يلزمهم من طعام . وبعد انتهاء الموقعة عمل بطرس على لم شمل جيشه ، ثم واصل سيره حتى بلغ مدينة صوفيا حوالى ٨ يوليو ١٠٩٦م ، ولم يقع أى حادث خلال الطريق .

وفى تلك الأثناء كان الامبراطور الكسيس قد أحيط علما بوصول بطرس الناسك إلى صوفيا ، وبما أحدثه جنوده فى كل من سملين ونيش من اضطرابات. فأوفد من قبله رسلا لمقابلته . وقد تمت المقابلة فى صوفيا بين بطرس والرسل الذين أعربوا له عن حسن نية الامبراطور ، وأفهموه أن سيدهم يحذر عليه هو واتباعه الإقامة فى أية مدينة أكثر من ثلاثة أيام . ووعدوه بامداده بما يحتاج اليه من مؤن إذا كفت عصاباته عن إحداث الشغب .

بعد ذلك واصلت العصابات الصليبية سيرها ، فمرت بمدينة فيليبوبوليس Philippopolis (١٧ - ١٨ يوليو) حيث أحسن اليها أهلها ، ومنها تقدمت إلى أدرنة (٢٤-٢٥ يوليو). وهناك قابل بطرس مبعوثا ثانيا من قبل الكسيس أعرب له عن رغبة الامبراطور فى رؤيته والتحدث اليه. وأخيرا وصل الزعيم الصليبي وعصاباته إلى القسطنطينية دون وقوع حوادث أخرى ، وكان ذلك فى أول أغسطس من سنة ١٠٩٦ م .

وعندما وصل بطرس وجماعته إلى العاصمة البيزنطية ، وجدوا أن بعض القوات الصليبية الأخرى بقيادة جوتييه المعدم قد سبقتهم اليها . كما نزلت بالعاصمة جماعات من شمال ايطاليا ومن جنوبيها . وقد اتفق بطرس وجوتييه على توحيد قواتهما ، وتم التفاهم على أن تعمل الجماعات الايطالية أيضا تحت إمرة بطرس .

غير أنه لا توجد أدلة ثابتة على أنهم قبلوه رئيسا عليهم . بل على العكس ، نجد أن اللومبارديين الذين عبروا آسيا الصغرى تبدو عليهم دلائل الفوضى وعدم النظام . ووجد بطرس أن مهمته غير سهلة فى مثل هذه الظروف ، فقد أخذ عدد القوات التى تحت إمرته فى الازدياد ، خاصة وان القادمين الجدد لم يعترفوا بسلطته عليهم . وعلى الرغم من ذلك ، كان الجميع يميلون إلى تحميله مسئولية ما آلت اليه الحملات الصليبية بسبب الدور الذى قام به حتى ذلك الوقت (١) .

كيفما كان الأمر ، عندما وصل بطرس إلى العاصمة ، ذهب لمقابلة الكسيس ، وقد علت الدهشة وجه الامبراطور عندما رأى أمامه رجلا فى مسوح الرهبان ، بينما كان ينتظر رؤية قائد حربى . وقد رحب به الكسيس ، وأغدق عليه المنح والهدايا وغمره بالذهب والمال . كما أمر بتزويده بالمؤن ، وأسدى اليه النصح بالتزام الهدوء والتريث أمام القسطنطينية إلى أن تصل الجيوش الصليبية الأخرى التى كانت فى طريقها إلى العاصمة ، لأنه كان يعرف ضعف عصابات بطرس من الوجهة الحربية (٢) .

ويقول المؤرخ شالندون إن الكسيس كان يرغب فى الانتفاع بأولئك الحجاج الذين قدموا مع بطرس ، ولكنه أدرك بثاقب نظره أنه لن يمكنه تلقى أية معاونة جدية منهم . فقد كان معظمهم من الرهبان والنساء والشيوخ والأطفال ، بينما كان العنصر العسكرى معدوما فى جيشه (٣) .

---

(١) Guillaume de Tyr, R.H.C. - H. Occ., I, lep., 56-7; cf. Chalandon, Première Crois., 75-6; Runciman, op. cit., I, 125-7.

(٢) Runciman, op. cit., I, 127; Chalandon, op. cit., 69—77.

(٣) Chalandon, op. cit., 75; cf. Oman, Art of War, I, 272.

ولكن الفرنج ـ وكانوا إذ ذاك يعسكرون فى ضواحى العاصمة ـ لم يلبثوا أن عادوا إلى سياسة القرصنة ، وكان مسلكهم شائنا وتصرفاتهم غير حميدة . ويبدو أن الكسيس لم يسمح لهم بدخول العاصمة لزيارة معابدها وكنائسها وآثارها . فقد كانت القسطنطينية تعج بالنفائس والكنوز ، (١) وهو يعلم سلفا جشع أولئك القوم وأطماعهم . وقد برهنوا فور وصولهم على ميلهم للفوضى . فنهبوا بعض قصور المدينة ودور اللهو بها ثم أشعلوا النيران فيها ، وانتزعوا طبقات القصدير التى كانت تغطى واجهات الكنائس وقاموا ببيعها للرهبان (٢) . وغضب الامبراطور غضبا شديداً ، وضاق ذرعا بتصرفات بطرس وجماعته ، وخاف على عاصمته من عبثهم خاصة بعد أن بهرتهم كنوزها . ورأى نفسه مضطراً إلى تغيير خطته حيالهم حماية لعاصمته منهم وحفظا لها من عدوانهم ، فبادر بنقلهم إلى ضفة البسفور الأسيوية (١٧ أغسطس ١٠٩٦م) حيث يمكنهم انتظار الجيوش الصليبية الأخرى القادمة من الغرب .

وأخذ الأسطول البيزنطى فى نقل الفرنج إلى المكان الجديد الذى حدده الامبراطور لهم ابتداء من ١٧ أغسطس ، وقد استغرقت هذه العملية بضعة أيام . ومما يؤسف له أنه ليست لدينا أية معلومات عن هذه الفترة التى مر عليها المؤرخون من لاتين وبيزنطيين مرور الكرام .

وعلى الرغم من ذلك فبعد عبورهم البسفور إلى آسيا الصغرى ، لم يتوقفوا لحظة واحدة عن ارتكاب الآثام ، كما أعملوا السلب فى المنازل والكنائس .

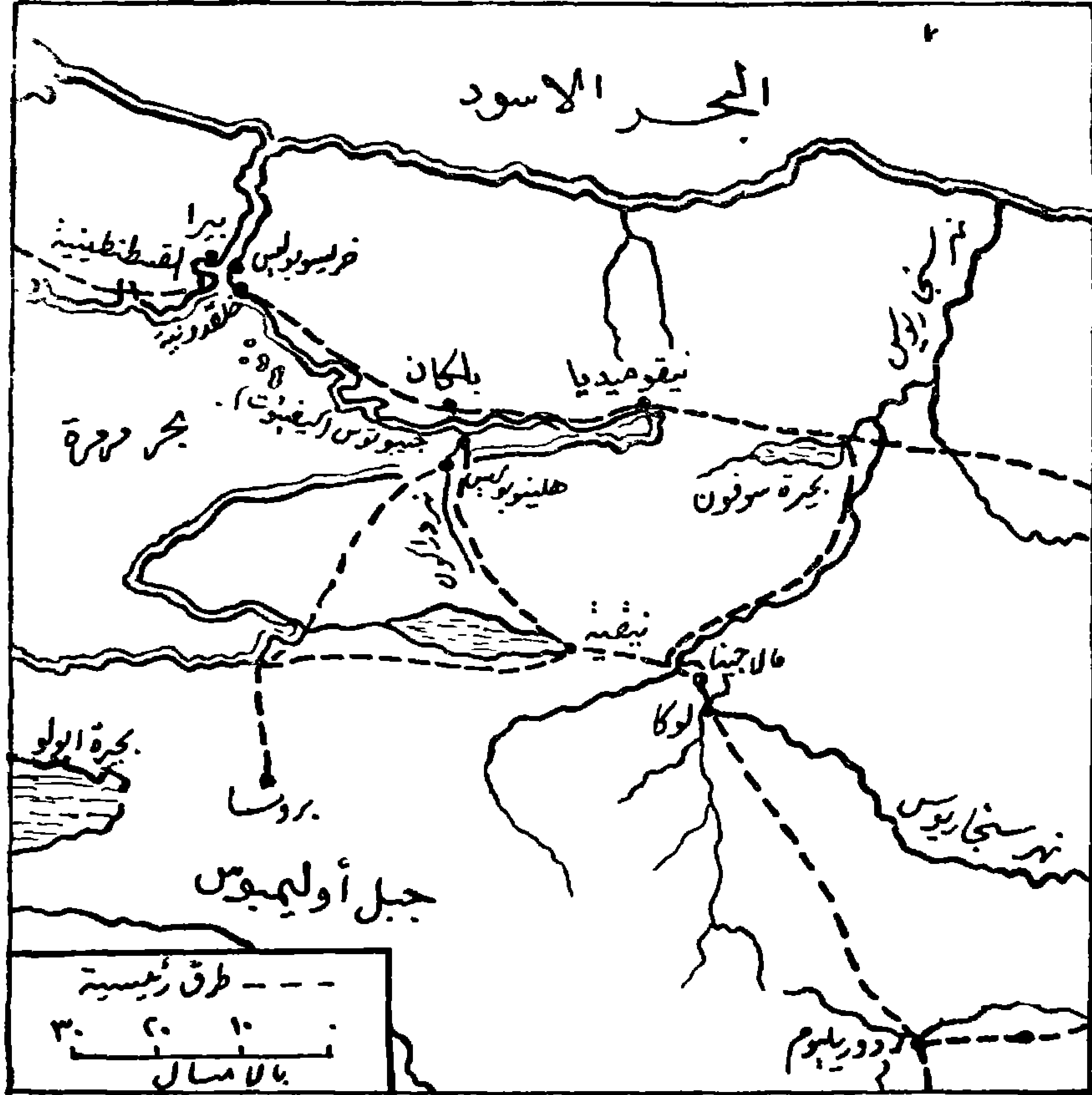
(١) جدير بالذكر أن المؤرخ فوشيه ده شارتر قد بهر بالنفائس والكنوز التى شاهدها فى العاصمة البيزنطية ، وسجل ذلك كله فى كتابه .
أنظر : Foucher de Chartres, R.H.C.-H. Occ., III, 331—2

(٢) Anonymi Gesta Francorum, 113.

وأمرهم الامبراطور أن يبقوا فى قلعة بلدة كيفيتوت Civitot الواقعة على الضفة الجنوبية لخليج نيقو ميديا ، وهى القلعة التى كان قد شيدها لإقامة جانب من حرسه الانجلونورماندى . ولكى تصل عصابات بطرس إلى كيفيتوت ، فقد سلكت الطريق المؤدية من خلقيدونية إلى خليج نيقوميديا فى الطرف الشرقى من بحرمرمرة . ثم عبرت ضفة الخليج الجنوبية إلى كيفيتوت . ويبدو أن هذه العصابات لم تعسكر كلها فى تلك الناحية . إذ يتضح من اشارة وردت فى كتاب المؤرخ المجهول ان الايطاليين والألمان لم يكونوا على وفاق مع الفرنسيين ، ولم يعترفوا بسلطة بطرس الناسك عليهم ، وانهم انفصلوا عنهم فى نيقوميديا بعد أن اختاروا لهم رئيسا جديدا اسمه رينوه . ويحتمل كذلك ان عصابات الفرنج لم تعسكر كلها فى كيفيتوت بسبب كثرتها العددية . ولهذا السبب أقام جانب منها فى جهات أخرى على ضفة خليج نيقوميديا .

وكان مسلك هؤلاء القوم ، وبخاصة النورمان ، ينم عن وحشية فاقت كل وصف . وتذكر الأميرة آن أنهم قطعوا أطراف بعض الأطفال ، وثبتوا البعض الآخر على الواح خشبية ثم قاموا بشيهم على النار ، وأنزلوا شتى صنوف العذاب بالأشخاص الطاعنين فى السن . ويستوى عندهم فى ذلك المسلمون والمسيحيون الشرقيون ، فقد كانوا فى نظرهم هراطقة لأنهم على غير مذهبهم . وعندما فاحت رائحة فعالهم ، وشاهد أهالى نيقية ما يدور حولهم ، فتحوا أبواب مدينتهم واندفعوا نحو الفرنج حيث التحموا معهم فى معركة حامية قفلوا بعدها عائدين إلى ديارهم ، بينما رجع اللاتين إلى معسكرهم محملين بالأسلاب التى أمكنهم الحصول عليها . فكان هذا مدعاة لانقسام عصابات بطرس على نفسها ، كل يريد ان يكون له النصيب الأوفى من الغنيمة . وكان من أثر ذلك ان انسحب النورمان المعروفون بجشعهم من جيش بطرس ، وزحفوا بمفردهم على إحدى المدن الخاضعة للأتراك واسمها كسريجوردوس Xerigordus واستولوا

خريطة رقم ١



ضواحي القسطنطينية ونيقية
زمن الحملة الصليبية الأولى

عليها . ولكن الترك بعثوا بقوة كبيرة تمكنت من استعادة المدينة ، وأعملت السيف فى رقاب عدد من أولئك النورمان وأسرت البعض الآخر (١) .

لقد كانت إقامة بطرس ورجاله فى كيفيتوت فترة تكاسل واسترخاء أطلقوا فيها العنان لأنفسهم وشهواتهم ضاربين بنصائح الكسيس وأوامره عرض الحائط ، فحددوا بذلك مصيرهم ومصير الحملات الشعبية بصفة عامة . وقد تركت حياة البطالة والكسل أسوأ الأثر فى نفوسهم ، وأضرت بالحملة ضررا بالغا ، تكشفت عواقبه بوضوح عندما التحمت تلك العصابات غير المنظمة بقوات السلاجقة المدربة أحسن تدريب بالقرب من نيقية .

وجدير بالذكر ان الكسيس لم يقصر البتة فى التزاماته حيالهم ، فكان يمدهم بالمؤن والزاد . وقد اعترف الصليبيون أنفسهم بأن سكان كيفيتوت كانوا يزودونهم بكل ماهم فى حاجة اليه ـ ولكنهم ، بالرغم من ذلك ، لم يكفوا عن إتيان العنف فى الجهات والضواحى المحيطة بمعسكرهم (٢) .

لم تكتف عصابات بطرس الناسك بهذا المسلك الشائن ، بل صممت على مهاجمة الأتراك السلاجقة فى عقر دارهم بالرغم من قصور اسلحتهم البدائية ، معتمدين على أن انتصارهم سيتم بمعجزة إلهية . وتفصيل ذلك أن الأتراك عندما تثبتوا من نوايا هذه الجماعات ، أخذوا يعدون العدة لملاقاتها وتأديبها . ووضعوا الخطط الكفيلة بالقضاء عليها ، بأن نصبوا الكمائن فى مواضع مختلفة على طول الطريق من المعسكر الفرنجى فى كيفيتوت إلى مدينة نيقية ، بقصد الايقاع

---

(١) Alexiad, 251; Tudebode, R. H. C. - H.Occ., III, 11—2.
وتطلق آن كومنين على القائد التركى الذى قاد المعركة اسم Elkhanes . ويرى المؤرخ رينيه جروسيه أن المقصود بالكلمة المذكورة هو لقب « ايلخان » «ilkhân» انظر :
Grousset, Crois., I, 8n. 2.

(٢) Chalandon, Première Crois., 78-80.

بالقادمين من الفرنج فى اتجاه عاصمتهم . ولما كان السلاجقة يعلمون بجشع الفرنج وحبهم الشديد للمال ، فقد بعثوا اليهم باثنين من رجالهم أوهما الفرنسيين من اتباع بطرس ان القوات النورماندية التى انسلخت عنهم قد سبقتهم واستولت على نيقية ، وانها مشغولة بتقسيم ما وجدته بها من كنوز على أفرادها . وصح ماتوقعه السلاجقة ، إذ أثار هذا النبأ ثائرتهم ، « فقد كان لكلمة المال رنين غريب فى آذانهم » ، وعز عليهم ان يستولى النورمان دونهم على المدينة وأسلابها . وهكذا أخذت جموعهم تتوغل فى غير نظام عبر آسيا الصغرى فى الطريق إلى نيقية ، دون أى تقدير لمقدرتهم العسكرية ، ودون ترتيب صفوفهم واعداد أنفسهم إعدادا سليما للمعركة المرتقبة. وكانت النتيجة الطبيعية أن وقعوا فى الكمائن التى نصبها الأتراك لهم بالقرب من نهر دراكون Dracon . وسرعان ما تلقفتهم الجيوش السلجوقية ، فأعملت فيهم السيوف بلا رحمة جزاء وفاقا على تهورهم واندفاعهم ، وهزمتهم شر هزيمة بالقرب من نيقية . وقد ذهبت أعداد كبيرة من الفرنسيين والنورمان ضحية سيوف السلاجقة ، حتى أن الفرنج عندما كوموا جثث القتلى الملقاة على جانبي النهر « لم تكون تلا كبيرا أو قمة عالية أو رابية مرتفعة فحسب ، وإنما جبلا شاهقا ذا غور واتساع عميقين ، وكانت عظام القتلى تشكل هرما هائلا . » ولم ينج من هذه المذبحة سوى بطرس ونفر قليل من اتباعه ، فلاذوا بالفرار وقفلوا عائدين إلى هلينوبوليس Helenopolis .

وعندما علم الامبراطور بما حل بهم ، خاف أن يقع بطرس فى أيدى الترك ، فأرسل مندوبا من قبله على رأس قوة كبيرة مسلحة لانقاذه ومن تبقى معه . وتمكنت القوة البيزنطية من انقاذهم وإعادتهم سالمين إلى الكسيس الذى رحب بهم وعاملهم بالحسنى واللين . ولكنه أخذ يذكر بطرس بطيشه وتهوره ، مبينا له أن الكوارث التى حلت به وبقواته إنما ترجع لعدم أخذه بنصيحته التى كان قد أسداها له من قبل . وقد انكر بطرس أنه السبب فيما

حدث ، والق بدوره اللوم على من معه ، متذرعا بأنهم لم يستمعوا اليه ، بل انقادوا وراء شهواتهم متهما إياهم بأنهم لصوص ومخربون (١) .

هذا ما ترويه الكاتبة آن كومنين بصدد حادثة نيقية . أما المؤرخ المجهول ، وهو أحد مؤرخى اللاتين الذين عاصروا الحملة الأولى وكتبوا عنها ، فيذكر ان الامبراطور عندما بلغه خبر فناء عصابات بطرس الناسك على أيدى التركمان فرح فرحا شديدا . ويستطرد قائلا ان الكسيس مكنهم من اجتياز البسفور ، ولكنه احتاط لنفسه فأمر بنزع سلاحهم ، وأنه كان يعلم بوجود الأتراك فى هذه الناحية فيكون فى ذلك نهايتهم (٢) .

---

(١) Alexiad, 251—2; cf. also : Tudebode, R.H.C.- H.Occ., III, 113. وفيما يلى نص البرت دكس حول انقاذ الكسيس كومنين لجماعة بطرس الناسك:

« . . . . Imperator, audito Petro de casu et obsidione suorum, misericordia motus est; et undique Turcopolis accitis, et cunctis nationibus regni sui, praecepit sub omni festinatione trans brachium maris fugitius et obsessis Christianis subvenire, et Turcos ob obsidione expugnatos effugare. Turci autem, Imperatoris edicto comperto, media nocte cum captivis Christianis et spoliis plurimis a praesidio moverunt; et sic inclusi et obsessi peregrini milites ab impiis liberati sunt.» cf. Albert d'Aix, R. H. C.—H. Occ., IV, 289,

(٢) Anonymi Gesta Francorum, 129—130. — ولقد أمدنا كل من المؤرخ المجهول والبرت دكس بصورة حية ناطقة عن المذبحة وفناء معظم قوات بطرس الناسك فيها ، مع بيان الظروف والملابسات التى أدت اليها . ويبدو أن المجهول قد استقى المعلومات التى أمدنا بها من أحد أولئك الذين شاهدوا المعركة ونجا منها ليقص عليه تفاصيلها عندما التقى به فى القسطنطينية . أما البرت دكس فنستشف من نصه العرفان بالجميل للامبراطور البيزنطى ، عندما تحدث عن كرمه وحسن معاملته لهم وتقديمه النصح اليهم ومبادرته بانقاذ من بقى منهم على قيد الحياة بعد المعركة . ولو أنه اتفق مع زميله مؤرخ حملة بوهيمند فيما ذهب اليه من أن الكسيس فرح عما حدث للفرنجة فى نيقية السلاجقة .

أنظر تفاصيل المعركة فى .Albert d'Aix, R.H.C.-H. Occ., IV, 284-9
راجع أيضا عن ذلك كتاب : .Grousset, Crois., I, p. 9 n. 1 . أنظر أيضا النص الأول من الملحق الخامس بآخر الكتاب .

وللسائل أن يقول : هل كان هدف الكسيس عندما ارسل الصليبيين إلى ضفة البسفور الأسيوية أن يلقى بهم إلى حتفهم ؟ أم أن السبب فى حادثة نيقية يعزى إلى بطرس وعصاباته ؟ أم أن المسئولية مشتركة بين الجانبين البيزنطى والصليبي ؟ أم أن هناك عوامل أخرى خارجة عن ارادة كل من الكسيس والفرنج أدت إلى وقوع المذبحة ؟ وما هى الآثار المترتبة عليها ؟

يرى بعض المؤرخين اللاتين ، وعلى رأسهم المؤرخ المجهول ، أن الامبراطور البيزنطى هو السبب فى ذلك . ويدعم هذا الفريق رأيه بقوله إن الكسيس عندما اضطربت الأمور فى دولته نتيجة لأعمال السلب التى أحدثتها جموع بطرس فى نيش وفى صوفيا وفى القسطنطينية نفسها ، اضطر إلى الجهاد فى سبيل الخلاص منهم ، قبل أن يفلت الزمام من يده ويصبح من المتعذر علاج الموقف . ولذلك عمل بقوة على نقلهم من عاصمته إلى آسيا الصغرى ، لكى يتقى شرهم ويلقى بهم إلى حتفهم أمام الأتراك السلاجقة . أما الفريق الثانى ، وعلى رأسه الأميرة آن كومنين البيزنطية . فيقول ان بطرس الناسك وعصاباته هم السبب المباشر فى هذه الكارثة . إذ انهم لم يستمعوا لنصيحة الامبراطور بالانتظار فى المكان الذى حدده لهم لحين وصول الجيوش النظامية ، بل تمادوا فى غيهم دون تقدير لعواقب الأمور .

والخلاصة أن هناك فريقان على طرفى نقيض فيما يتعلق بهذه المشكلة . الفريق الأول ، ويتكون من المؤرخين اللاتين الذين ناصروا بنى‌جلدتهم ضد البيزنطيين . أما الفريق الثانى فكان على رأسه الأميرة آن إبنة الامبراطور الكسيس ، وقد انتصرت لأبيها ضد الفرنج . ويلاحظ أن الفريقين اتفقا على بعض النقاط واختلفا حول البعض الآخر . فمن المسائل التى اتفقا عليها ، ذلك المسلك المشين الذى سلكه رجال بطرس الناسك فى آسيا الصغرى ، وعـــدم تقصير بيزنطة

وامبراطورها وسكانها فى مساعدتهم وتقديم النصح والارشاد لهم ، واضطرار بيزنطة آخر الأمر إلى نقلهم إلى الضفة الاسيوية للبسفور لحماية العاصمة من عبثهم. وأكد الجميع أيضا أن الكسيس عندما علم بمذبحة نيقية ، بادر بارسال نجدة لانقاذ من تبقى من رجال الحملة الشعبية على قيد الحياة . ومع ذلك فهناك بعض النقاط التى ثار حولها الخلاف بين المؤرخين ، منها ما ذكرته آن كومنين من أن بطرس اشترك فى المعركة ، وأن أباها الامبراطور انقذه وفلول قواته عندما علم بما حل بهم ، بينما أكد المؤرخ المجهول أن بطرس كان متغيبا فى القسطنطينية أثناء القتال . ويأخذ بهـــذا الرأى كثير من المؤرخين الغربيين المحدثين وعلى رأسهم رينيه جروسيه وستيفن رانسيمان (١). كذلك ذكر كل من البرت دكس ومؤرخ حملة بوهيمند أن الكسيس فرح عندما علم بأمر المذبحة ، بينما تؤكد آن كومنين أن أباها علته الكآبة عندما بلغه النبأ .

وبالمقارنة بين مختلف النصوص التاريخية والآراء المتضاربة فى هذا الشأن ، وبالتحليل الجامع الشامل ، يتضح أن السبب الحقيقى فى هذه المذبحة لا يرجع إلى الكسيس . ولا يرجع إلى بطرس الناسك نفسه ، وإنما يرجع أولا وقبل كل شىء إلى عصابات بطرس التى كان ينقصها النظام وحسن الإعداد والتوجيه والتى لم يكن لها أى علم بفن الحرب والقتـال ـ ومع ذلك فقد أقدمت على مهاجمة السلاجقة ، وهم قوم صناعتهم الحرب ، ولم تستمع إلى نصيحة الامبراطور بانتظار الجيوش الصليبية الأخرى النظامية ، حيث يمكنهم مجتمعين مواجهة جيش الاتراك والتغلب عليه . يضاف إلى ذلك أن امبراطور الروم عندما أمر بطرس ورجاله بعبور البسفور إلى آسيا الصغرى ، حذرهم من قوة السلاجقة وأحاطهم علما بطرقهم فى القتال ، كما يذكر كل من المؤرخ المجهول والكاتبة

---

(١) Grousset, Crois., I, 8; idem, L'épopée des Crois., 14; Runciman, Crus., I, 130, 132.

الاغريقية . وينفى المؤرخ شالندون تهمة القاء التبعة على الامبراطور ، ويقول إن الكسيس أمر جنود بطرس بعد أن عبروا البسفور بأن يبقوا فى قلعة كيفيتوت حيث كان يمدهم بالأقوات ، ولكنهم لم يستمعوا لنصيحته وضربوا بأوامره عرض الحائط ، وتوغلوا فى آسيا الصغرى حيث انتهى الأمر بكارثة نيقية وفناء غالبيتهم (١) . ومما يدل على حسن نية الامبراطور أنه بعد هزيمة بطرس وجماعته ، عمد إلى مساعدتهم فى الخلاص من موت محقق ، فأرسل شرذمة من جنوده للاشتراك مع بطرس فى استعادة فلول قواته إلى القسطنطينية حيث رحب بهم وأحسن معاملتهم . وان كان هذا يدل فى الوقت ذاته على دهائه وبعد نظره ، حتى يبدو أمام الصليبيين بمظهر المدافع عنهم الذى يهمه أمرهم .

وأما فيما يتعلق باشتراك بطرس من عدمه فى المعركة ، وعما إذا كان موجودا مع قواته أثناء القتال أم متغيبا بالقسطنطينية ، وعما إذا كان الكسيس قد فرح لهذه الكارثة أم اغتم لها ، فإن ذلك لن يغير من الحقيقة الواقعة شيئا . هذا وان كنا نميل إلى الأخذ برأى الكتاب اللاتين المعاصرين للحملة ، ومن أتى بعدهم من المؤرخين الغربيين القدامى والمحدثين ، من أن بطرس كان بالقسطنطينية عند حدوث المذبحة . ولعل آن كومنين قد التبس عليها الأمر عندما ذكرت أن أباها بادر بانقاذ بطرس وفلول قواته عندما علم بما جرى لهم . إذ كانت الكاتبة الوحيدة المعاصرة لأحداث تلك الفترة التى أكدت ذلك . فضلا عن أنها لم تدون مذكراتها عن تاريخ حياة أبيها إلا بعد حوالى نصف قرن من انتهاء الحملة .

وانصافا لهذا الامبراطور ، وتقريرا للحقيقة والواقع ، نقول إن الكسيس إنما ارسل عصابات بطرس الناسك إلى آسيا الصغرى لخوفه على امبراطوريته

---

(١) Chalandon, Alexis Comnène, 171-2.

من شرورها . ولكن ليس معنى ذلك أنه أبعد أولئك الفرنج من عاصمته ليلقى بهم جميعا عن عمد وسبق إصرار فى أحضان الموت . فهذه مسألة من الصعب البت فيها برأى حاسم .

ولا شك أن تلك المذبحة قد أثرت فى طبيعة العلاقات بين الصليبيين والبيزنطيين . إذ تأكدت مخاوف الامبراطور الكسيس أكثر فأكثر ، وأخذ يتوقع أسوأ الفروض والاحتمالات من قوم كان يعرفهم جيدا من قبل .

ولم تكن حملة بطرس هى آخر الحملات الشعبية التى وفدت من الغرب ، إذ قامت بعدها ثلاث عصابات من الجيوش الشعبية الالمانية بقيادة فولكمار Volkmar وجوتشالك Gottschalk وكونت اميك Comte Emich (١) . وان الجرائم التى اقترفتها هذه العصابات ، وان لم تتعد الحدود المجرية ، إلا انها نبهت الكسيس إلى الخطر الذى سوف تتعرض له بلاده من الصليبيين ، الأمر الذى جعله يتخذ كافة الاحتياطات لحماية رعاياه ودولته من عبثهم . وسيترك هذا كله أثره فى موقف الامبراطور البيزنطى من الجيوش النظامية الأخرى التى كانت فى طريقها إلى الأراضى البيزنطية .

وهكذا أخفقت أول جماعات صليبية شعبية فى تحقيق ما هدفت اليه . فلم تتمكن من الاستيلاء على بيت المقدس ، وتلقت ضربة شديدة على أيدى السلاجقة . كما أنها أخفقت فى إقامة علاقات طيبة مع المسيحيين الاغريق الذين ارتابوا فيها وفى حقيقة نواياها . وان من تبقى من القتل أو الأسر من جماعات بطرس ، فقد انتظروا قبالة العاصمة وفى ضواحيها لحين وصول القوات النظامية فى الربيع التالى . وهكذا يسدل الستار على فصل مثير فى تاريخ العلاقات العربية البيزنطية الصليبية ، ليبدأ مشهد جديد اكثر اثارة فى رواية لم تتم فصولها بعد .

---

(١) فيما يتعلق بالحملات الألمانية الشعبية ، أنظر : Runciman, Crus., I., 134—41; Grousset, Crois., I,9—10 & notes.

الفصل الخامس

الحملات النظامية فى بيزنطة

لقد خرج الكسيس كومنين من حملتى جوتيية المعدم وبطرس الناسك الشعبيتين بدرس لن ينساه . وليس من السهل عليه أن ينسى ما سببته له هذه العصابات من متاعب ومضايقات ، ولا تزال ذكرى الفظائع التى ارتكبتها فى أراضى دولته ماثلة أمام عينيه . وأحس بما سوف تتعرض له امبراطوريته وعاصمة ملكه بصفة خاصة من الجيوش الصليبية الأخرى التى كانت فى طريقها إلى القسطنطينية . لذا حدد الامبراطور موقفه منذ البداية حيال هذه القوات الصليبية المنتظر وصولها من حين لآخر . وتقوم سياسته بصفة عامة على أساس المحافظة على الامبراطورية من عدوان اولئك القوم ، والعمل على استمالتهم اليه ثم الانتفاع بهم قدر الاستطاعة فى تحقيق أغراضه . وقد أكد لهم بأنهم إذا التزموا الهدوء ولم يقوموا بأعمال العدوان التى لوثت اسماء بطرس وفولكمار وغيرهما ، فسوف يمدهم بكل ما يحتاجون اليه من أقوات ومال خلال مرورهم عبر أراضيه إلى أن يصلوا إلى حدود السلاجقة فى آسيا الصغرى . أما إذا تصرفوا كقطاع الطرق ، فسوف يشهر سلاحه ضدهم مستخدما القوة مانعا عنهم التموين .

وعلى أى حال ، بعد قيام الجيوش الشعبية ، كانت الاستعدادات فى غرب أوروبا قائمة على قدم وساق لسفر الجيوش الصليبية النظامية. وقد استغرق ذلك بعض الوقت بسبب الاعداد والتنظيم . (١) وقبل استعراض تاريخ هذه الحملات

---

(١) وجد البابا أربان الثانى أن الحاجة ماسة إلى معونة الدول البحرية فى الغرب لنقل الجند والعتاد عبر البحر إلى الشرق. ويبدو أن ذلك كان بناء على نصيحة ريمون ده سان =

فى بيزنطة ، وعلاقة اللاتين بالاغريق فى هذه المرحلة مع بيان الآثار التى ترتبت عليها ، يحسن أن نمهد لذلك بكلمة سريعة عن الموقف فى الغرب الاوروبى وقتذاك (١) ، عله يعطينا صورة واضحة عن الوضع العام السائد هناك ، مما هيأ الجو لقيام العدوان الصليبى المنظم .

كانت أوروبا حتى أواخر القرن العاشر مرتعا خصيباً للفوضى والفساد والاضطرابات ، وذلك منذ تفكك امبراطورية شارلمان وانقسامها بين خلفائه. فانحطت الزراعة والتجارة والصناعة انحطاطا كبيرا ، وتدهورت الحضارة والمثل والقيم الخلقية تدهورا لم يسبق له مثيل فى تاريخ تلك القارة . كما انتشرت الأمراض والأوبئة والمجاعات ، وعم الجهل واليأس . وشاع الفساد فى الجهاز الكنسى البابوى ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى الاصلاح . ولذلك كان موقف الغرب حتى ذلك الحين دفاعيا ، ولم يكن باستطاعته القيام بحرب الاستيلاء على الأراضى المقدسة ، أو العمل على استرداد البلاد التى استقر فيها العرب مثل اسبانيا وصقلية وجنوب ايطاليا . وهكذا كان موقف أهل الغرب منذ الفتح

= جيل كونت تولوز . فأوفد مندوبين من قبله إلى جمهورية جنوه، ومعهما خطابات يطلب فيها مساعدة الحملة . ووافقت جنوه على تزويد الجيش الصليبى باثنتى عشر سفينة . ولكنها أجلت فى حرص وحذر أمر إرسال السفن حتى تتأكد من جدية الحركة الصليبية المزمع قيامها . وفى يوليو من عام ١٠٩٧ فقط أبحر هذا الأسطول من جنوه ، بينما حمل كثير من الجنوية شارة الصليب . أنظر كتاب كافارو الجنوى :

Caffaro, De Liberatione Civitatum Orientis Liber, R. H. C. - H. Occ., V, pt. I, 49-50.

(١) تناول المؤرخ سيدنى بنتر Sidney Painter الموقف فى الغرب الأوروبى قبيل الحركة الصليبية بشىء من التفصيل والتحليل فى الجزء الأول من موسوعة تاريخ الحروب الصليبية التى تشرف على اخراجها جامعة بنسلفانيا بمدينة فيلادلفيا فى أمريكا . أنظر البحث المذكور فى : Setton, Hist. of the Crus., I, 3-29 أنظر أيضا :

Atiya, Crus., Commerce and Culture, 47-52.

حتى أخريات القرن العاشر هو موقف الدفاع عن أنفسهم فى معظم الأحيان ، وعن بلدانهم التى كانت تسقط الواحدة تلو الأخرى فى قبضة العرب الذين كانوا فى موقف القوة وكان مركز الثقل فى صالحهم . ومع ذلك ، فقد كان الغرب لا يزال ، ولو من الناحية الشكلية النظرية ، وحدة كبرى فى مجموعه ، له كنيسة واحدة هى كنيسة روما التى تدين بالمذهب الكاثوليكى ، وله عاصمة روحية واحدة هى روما ولغة رسمية واحدة هى اللغة اللاتينية ، وعلى رأسه بابا واحد هو البابا الرومانى يدين له الجميع بالولاء .

وفى نهاية القرن العاشر ظهرت اسطورة تقول ان العالم سينتهى بنهاية الألف الأولى بما تخللها من كوارث وأهـــوال ، وان المسيح سوف يظهر للمؤمنين به . فأدى هذا إلى ظهور موجة من الزهد والتقشف والتصوف والبعد عن ملذات الحياة ودنيويتها . وأخذ النـاس يتقربون إلى الله ويعملون على مرضاته بالتكفير عن ذنوبهم وخطاياهم . والأمر الذى لاخلاف فيه أن هذه الأسطورة لا تستحق الاعتبار لأنها لاتقوم على أساس علمى سليم ، وإن صادفت هوى فى النفوس وقتذاك فى وقت لقى فيه أدب الأساطير رواجا كبيرا بين مختلف طبقات الشعب . وهى وان امتازت بشىء ، فإنما تمتاز بقيمتها الرمزية فحسب باعتبارها من أسباب نهضة القرن الحادى عشر فى أوروبا (١) . فابتداء من ذلك التاريخ يحدث انقلاب فى ميزان القوى بين العالم العربى والغرب الأوروبى . فبينما كان الغرب يستعيد قوته ويسترد أنفاسه اللاهثة بعد فترة طويلة من الضعف والانحلال ، كانت القوى العربية فى تدهور مستمر وبخاصة فى منطقة غربى البحر

---

(١) Coulton, Med. Scene, 102—3. – أنظر أيضا ترجمته العربية : كولتون: عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ــ ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف ــ ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ــ ص ٢١٩ ــ ٢٢٠ .

المتوسط . وكان من أثر ذلك أن استولى النورمان على جنوبى ايطاليا خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر وعلى صقلية فى النصف الثانى منه ، مستغلين النزاع القائم بين العرب والروم لتحقيق أغراضهم . بل اتجهت أطماعهم إلى بيزنطة نفسها محاولين ابتلاعها فى أخريات هـذا القرن . واما فى اسبانيا فقد أخذت الامارات المسيحية فى الشمال ، وهى ليون وقشتالة وأرغونة ونافار ، تعمل على استعادة شبه الجزيرة الايبيرية من العرب ، وكانت تلقى المساعدة من البلاد المسيحية المجاورة لها وخاصة من فرنسا . وقد أحرزت فى ذلك بعض النجـــاح الذى ينحصر فى استيلائها على مدينة طليطلة سنة ١٠٨٥ م ، رغم الانتصارات العديدة التى حققها المرابطون ومن بعدهم الموحدون فى هـذه المنطقة (١) . ولم يأت عام ١٠٩٥ م حتى كانت شبه الجزيرة مقسمة بين الأسبان المسيحيين فى الشمال وبين العرب المسلمين فى الجنوب ، واضحى ميزان القوى متأرجحا بين الفريقين دون أن يتمكن أحدهما من إحراز نصر حاسم على الآخر (٢) . ولهذه الأسباب لم تكن اسبانيا فى حالة تسمح لها بالاشتراك الفعلى فى حروب خارج أراضيها (٣) .

وفى هذا الوقت كانت البابوية فى الغرب قد ثبتت دعائمها وتأصلت جذورها

---

(١) Halphen, L'Essor de l'Europe, 47 - 51, 55-62; Arnold, Legacy of Islam, 44-5; Mahmud, Story of Islam, 132—3; Oman, Art of war, I, 231; Pirenne, Med. Cities, 56—7. وللمزيد من المعلومات عن الصراع الدائر فى أسبانيا بين العرب والمسيحيين ، أنظر : بروفنسال : الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ١٢٠ وما بعدها ؛ عبد الحميـد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ، ص ١٧٢ وما بعدها ؛ سعد زغلول : العلاقة بين صلاح الدين وابى يوسف يعقوب المنصور ، مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلدان السادس والسابع ، ص ٨٤–٨٦ .

(٢) Setton, Hist. of the Crus., I, 39.

(٣) Setton, op. cit., I, 20—1; Lewis, Arabs in Hist., 125—6.

ولم يبق أمام البابوات إلا مواصلة السياسة التي كان قد رسمها لهم جريجوري الكبير في القرن السادس فيما يتعلق باستقلال البابوية دينيا وسياسيا على حساب الحكام والأمراء العلمانيين في الغرب ، وعلى حساب الدولة البيزنطية في الشرق أيضا . وكان هذا إيذانا ببداية الصراع العنيف بينها وبين القوى الزمنية في الغرب ، وعلى رأسها الامبراطورية ، على الأمور الدنيوية . وقد حدث هذا في عهد البابا جريجوري السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) ، وكان شخصا عريض الآمال ، حتى لقد اتهمه اعداؤه بالطموح وحب السيطرة . وفي نفس هذا الوقت كان يجلس على العرش الامبراطوري صبي صغير هو هنري الرابع . فكانت هذه فرصة ذهبية اهتبلها جريجوري لإعلاء شأن البابوية على منافستها الامبراطورية . وبدأ النزاع سافرا بين العاهلين سنه ١٠٧٥م ، فقام أتباع هنري بخلع جريجوري وتعيين بابا مناهض له ، بينما رد البابا على ذلك بحرمان هنري وأتباعه . وسرعان ما نشبت الحرب بينهما التي انتهت بانتصار البابوية وإذلال الامبراطورية في حادثة كانوسا الشهيرة في تاريخ الكنيسة والبابوية بخاصة وفي تاريخ أوروبا الوسيط بصفة عامة .

وبعد موت جريجوري خلفه رجل ضعيف الشخصية لم يحقق شيئا يذكر هو البابا فيكتور الثالث (١٠٨٥ - ١٠٨٧م) . وقد مات بعد ثلاث سنوات تاركا مشاكل البابوية لرجل لا يقل عن جريجوري قوة ونفوذا ، هو البابا اربان الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) الذي واصل سياسة سلفه في الافتئات على سلطان الامبراطورية. ولذلك لم تكن العلاقات طيبة بينه وبين خصمه الامبراطور. وكانت بينهما جولات وصولات انتهت بانتصار أربان الذي أصدر قرار الحرمان الكنسي ضد هنري . ولعل هذا يفسر لنا سبب عدم اشتراك هنري بشخصه في الحملة الصليبية الأولى التي دعا إليها هذا البابا في ختام القرن الحادي عشر ، تاركا

هذا الدور ليقوم به كبار رجال الاقطاع الألمان مثل جودفرى وشقيقه بلدوين .

وإذا انتقلنا إلى فرنسا وانجلترا ، نجد أن علاقة البابوية بملكيهما لم تكن بأحسن من علاقتها بالامبراطور الألمانى . فقد أصدر أربان قرار الحرمان الكنسى ضد فيليب الأول ملك فرنسا لعلاقته غير المشروعة مع خليلته برتراد ده منتفرت Bertrade de Montfort ، كما هدد وليم الثانى ملك انجلترا النورمانى بالحرمان لخروجه على تعاليم الكنيسة . ولهذا السبب لم يكن بوسعهما الاشتراك فى الحملة المزمع قيامها . وقد أناب فيليب شقيقه هيوج ده فيرماندوا للاشتراك فى الحملة ، التى أسهمت فيها أيضا قوات رمزية من انجلترا .

وفى نفس هذا الوقت كان النظام الاقطاعى فى الغرب قد بلغ ذروة نضجه واكتماله . فازداد نشاط الأمراء الاقطاعيين ومغامراتهم الجنونية زيادة ملموسة ، كما كثرت محاولاتهم لتوسيع اقطاعياتهم على حساب جيرانهم فى تلك الحروب الدامية التى كانت تعتبر منظرا عاديا وقتذاك ، والتى عرفت فى التاريخ باسم حروب الحدود (١) . وتكاثر عدد السكان بشكل ملحوظ ، سواء أكانت تلك الزيادة بين طبقة الشعب والعبيد أو بين طبقة النبلاء والسادة الاقطاعيين ، وازداد تبعا لذلك عدد الفرسان المحاربين الذين أضحوا لا يمتلكون أراض أو اقطاعيات مثل بوهيمند النورماندى ومن على شاكلته . ولما كانت حرفتهم الأولى التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الجرمان هى الحرب والقتال ، فلم يكن لديهم أى مانع من الخدمة لحساب أى أمير أو سيد إقطاعى ، إرضاء لهذه الرغبة الكامنة فى

---

(١) Halphen, op. cit., 3 ff. 23 ff.; Baldwin, Med. Church, 99; Setton, Hist. of the Crus., I, 10—6, 26—7.

راجع أيضا لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٢ ، ص ٦٩٨ .

نفوسهم من ناحية ، وطمعا فيما يغدق عليهم من أموال من ناحية أخرى . ولهذه الأسباب مجتمعة كانت الحرب الصليبية الأولى هى حرب كبار رجال الاقطاع ، بعكس الحملات التالية التى قادها ملوك الغرب فى وقت كانت فيه الظروف والأحوال تسمح لهم بالاشتراك بأشخاصهم فيها .

وهكذا بات أولئك النبلاء الذين لم يوفقوا إلى ميراث اقطاعى واسع فى بلادهم ينظرون إلى تلك الحملات كوسيلة ناجعة لتأسيس إمارات جديدة يحكمونها فى الشرق ، وقد سبق لهم أن اشتركوا فى حملات قريبة الشبه بها فى جنوب غربى أوروبا . وفى هذا أيضا فرصة طيبة تتخلص فيها البابوية من مضايقات أولئك القوم فيخلو لها الجو لبسط نفوذها الدينى والدنيوى ليس على الغرب المسيحى فحسب ، وإنما على الدولة البيزنطية والشرق العربى أيضا (١). أما طبقة الأقنان وعبيد الأرض ، وهى التى كانت تداس بالأقدام وتئن تحت عبء الالتزامات والقيود الثقيلة المفروضة عليها ، فقد وجدت فى تلك الدعوة المنفذ المحقق للافلات من أغلال الاقطاع ، تحميها فى ذلك الكنيسة والبابوية (٢) تحقيقا للأهداف الرئيسية الجوهرية للفكرة الصليبية ، والتى كشفنا عنها فى الفصل الثانى من هذا البحث .

تلك هى الحال التى كان عليها الغرب قبيل قيام الحملة الأولى . أباطرة وملوك محرومون كنسيا من البابا وليس بوسعهم الاشتراك فى الحملة ، ورجال إقطاع يتوقون لتوسيع نفوذهم وتأسيس مستعمرات جديدة لهم ، وفرسان محاربون يريدون إبراز مواهبهم الحربية فى ميدان القتال ، وأرقاء أذلاء يسعون

(١) Lewis, Arabs in Hist., 150; Mahmud, Story of Islam,132; Arnold, Legacy of Islam, 46 — 7; Pirenne, Med. Cities, 58.

(٢) Runciman, Crusades, I, 114.

بكل وسيلة للخلاص من عبودية الاقطاع . وأخيرا بابوية فرضت زعامتها الروحية والسياسية على سائر البلاد فى الغرب الأوروبى فى وقت كان فيه للدين تأثير كبير على الناس ، فأصبحت قوة مسموعة الكلمة مرهوبة الجانب . وقد هيأ ذلك للبابا أربان الثانى مركز الرئيس الأعلى الذى لا منازع لسلطانه فى الغرب ، فسعى بدون كلل ، يؤيده فى ذلك الجهاز الكنسى كله ومن ورائه سائر شعوب أوروبا بكافة طوائفها وطبقاتها ، إلى تحقيق أمنية كانت تجيش فى صدره ، وكان قد رسم خطوطها بدقة تامة ، تنفيذا لتلك الأغراض البعيدة المدى التى رمى إليها فى مد النفوذ الغربى إلى بيزنطة والعالم العربى (١) .

فى هذه الظروف أخذ الاقطاعيون النورمان والفرنسيون والألمان وغيرهم من بلدان الغرب الأوروبى فى الزحف فى ثلاث فرق صليبية كبيرة صوب القسطنطينية عاصمة الروم . فزحف اللوثارنجيون بقيادة جودفرى دوق اللورين السفلى وأخيه بلدوين عن طريق بلاد المجر ، بينما زحف الفرنسيون بقيادة اتين كونت بلوا ، والبروفنساليون بقيادة ريمون ده سان جيل والمندوب البابوى ادهيار ده مونتى ، عن طريق اقليم ايلليريا . أما النورمان فتحركوا برا وبحرا عن طريق دورازو برئاسة بوهيمند وابن اخته تنكريد . وبلغ عدد هؤلاء جميعاً حوالى ثلاثين ألف مقاتل (٢) .

وكان أول هذه الجيوش الصليبية هو جيش جودفرى ده بويون . وقد

---

(١) أنظر مقالى « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٩٨ — ٢٠٥ .

(٢) أنظر لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٢ ، ص ٦٩٩ ؛ باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٩ . ويقول رانسيمان إن عدد الجيوش الصليبية التى وفدت من الغرب ونزلت فى الامبراطورية البيزنطية فى الفترة الواقعة بين صيف ١٠٩٦ م وربيع ١٠٩٧ م ، كان يتراوح بين ستين الفا ومائة الف مقاتل . أنظر : Runciman, Crusades, I,169& Appendix II, 336—41; cf. also Heer, Med. World,103—4.

اشترك معه أخوه بلدوين الذى سيكون له شأن كبير فى الحملة الأولى . وجاء معه أيضا أحد أقاربه واسمه بودان ده بورج Boudouin de Bourg الذى سيلمع اسمه هو الآخر فى هذه الحملة ، وسيصبح فيما بعد ملكا على المستعمرة اللاتينية التى أسسها الفرنج فى الأراضى المقدسة .

وجودفرى هذا من كبار رجال الاقطاع التابعين للامبراطورية الرومانية الألمانية ، ودوقيته هى منطقة اللورين السفلى ، وهى تقع على ضفة نهر الراين ؛ وتدخل فى نطاقها مناطق أردن Ardennes وهانو Hainaut وبرابان Brabant على الشاطىء الغربى ، وكولونيا Cologne واكس لاشابل على الشاطىء الشرقى . وأغلب هذه البلاد يتكلم الفرنسية ، ولو أنها تقع داخل ألمانيا نفسها . وقام الامبراطور هنرى الرابع بتنصيب جودفرى على هذا الاقطاع عام ١٠٨٩ م . وكان جودفرى من المؤيدين لسياسة الامبراطور فى نزاعه مع البابوية . ولكنه لم يذهب إلى أبعد من التأييد المعنوى ، ولم يقم بأى عمل حاسم فى هذا الصدد مما قد يثير حفيظة البابوية عليه . وكان يشغل معظم وقته قبل اشتراكه فى الحملة الصليبية فى حروب صغيرة محدودة ضد رجال الاقطاع المجاورين له . وهو يعتبر صورة كاملة للفارس الاقطاعى فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى . كان طويل القامة ، مفتول العضلات ، عريض المنكبين . كما كان محاربا شجاعا ، ومع ذلك فقد اشتهر بالورع والتقوى ، وبحسن سجاياه ودماثة خلقه (١) .

وتناول شخصية جودفرى بالدراسة والتحليل كثير من الكتاب اللاتين القدامى والمؤرخين الغربيين المحدثين . فمنهم من رماه بضعف الشخصية ، ومنهم

---

(١) أنظر : Grousset, Crois., I, 12; Daniel - Rops, 550. – وقد تناول شخصية جودفرى وصفاته الجثمانية بالدراسة كل من جيبرت ده نوجان ووليم الصورى . أنظر : Guibert de Nogent, R. H. C. — H. Occ., IV, 229 — 30; Guillaume de Tyr, R. H. C. — H. Occ., I, lep., 371.

من أشار إلى الأساطير التى رويت عنه ، ومنهم من اتخذ موقفا وسطا فوصفه بالاتزان والاعتدال . فمن الفريق الأول المؤرخ شالندون الذى يرى أن جودفرى لم يكن قوى الشخصية والإرادة ، وأنه رغم شجاعته التى اشتهر بها فى الغرب ، لم يظهر براعة ملموسة فى فن قيادة الجيش الصليبى فى الشرق ، وأنه رغم مركزه المرموق فقد كان نفوذه ضعيفا إذا ما قورن بزملائه من رؤساء الحملة الأولى أمثال بوهيمند وسان جيل وشقيقه بلدوين . ويعتقد شالندون أنه انتخب أول حاكم دنيوى لدولة الصليبيين المغتصبة فى بيت المقدس لنفس هذه الأسباب التى تنحصر فى ضعف شخصيته وعدم طموحه ، وحتى لا يثير النزاع بين باقى رؤساء الفرنج (١) . أما شارل ديل فيقول إنه نشأت حول شخصية جودفرى أسطورة يشوبها التهويل والمبالغة ، جعلت منه محرك الحروب الصليبية وبطلها (٢). ولكن المؤرخ رينيه جروسيه يرى أن اعتدال هذا الرجل ودعة أخلاقه كانا عاملين هامين فى تقريب وجهات النظر المختلفة المتضاربة بين رؤساء الجيوش الصليبية (٣) :

سافر مع جودفرى شقيقه بلدوين حسبما أسلفنا ، والذى أصبح بعد موته الحاكم الثانى على مملكة أورشليم اللاتينية . وقد ظهر طموحه وقوة شخصيته عندما استقل بإمارة الرها ، وعندما أصبح ملكا على القدس المحتلة فيما بعد. وكان هو الآخر طويل القامة ، قوى البنية ، مفتول العضلات . إلا أنه يختلف عن أخيه فى أنه

---

(١) Chalandon, Première Crois., 291.

(٢) Diehl, L' Europe Orientale, 19. — وفيما يتعلق بالأسطورة التى نشأت حول شخصية جودفرى ، والتى ذكرها البرت دكس ، ونقلها عنه وليم الصورى ، انظر مقالى : « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٩٧ — ١٩٨ والحواشى .

(٣) Grousset, Crois., I, 13.

كان صارما حازما متعجرفا صلفا متكبراً ، يمثل الخلق اللاتيني أصدق تمثيل . كما كان واسع الثقافة ، إذ أعد لأن يصبح من رجال الدين وليس من رجال الحرب . ولكن لأسباب غير معروفة تماما، تحول عن سلك الرهبنة إلى سلك الفروسية . ومما يذكر عنه أنه أظهر مواهب ممتازة في ميدان القتال . كما اتضح فيما بعد أن من أهم صفاته الجشع والأنانية والطموح الذي لا يقف عند حد ، ومع ذلك فقد كان من رجال الإدارة والتنظيم . ويقترن هذا كله بالأعمال الضخمة في النظم الادارية التي أدخلها على مملكة الصليبيين في الأراضي المقدسة .

ومؤرخ هذه الحملة هو البرت دكس الذي اشترك فيها ودون مشاهداته عنها في كتاب وصل الينا مجد فيه جودفرى ونسب اليه الدور الأول في قيادة الجيوش الصليبية . والحق أنه كان متحيزا لسيده ، كما هي العادة بالنسبة لمؤرخي الغرب في القرون الوسطى ، إذ أن الدور الذي لعبه جودفرى كان أقل بكثير مما قام به باقي رؤساء الفرنج .

على أية حال ، قامت الحملة (١) حوالى ١٥ اغسطس سنة ١٠٩٦ م ، أي في نفس التاريخ الذي حدده البابا أربان الثاني لسفر الجيوش الفرنجية المتجهة إلى الشرق . ومرت بأراضي الدولة المجرية (٢) ، ثم نزلت على الدولة البيزنطية . ولما علم الكسيس (٣) بقرب وصول جودفرى وقواته، ارسل مندوبين من قبله قابلوا

(١) ذكرت آن كومنين أن جيش جودفرى كان يتألف من عشرة آلاف من الفرسان وسبعين ألفا من المشاه . أنظر : Alexiad, 257. — ولا شك أن هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد كبير .

(٢) كان المجريون قد اعتنقوا المسيحية في ذلك الحين ، ولذلك سمحوا الجيوش الصليبية بالمرور عبر أراضيهم إلى البلقان فأراضي الدولة البيزنطية ، ومنها إلى آسيا الصغرى فالأراضي المقدسة . أنظر : Trevelyan, 149.

(٣) يلاحظ أن المؤرخ اللوناردجي يطلق على الكسيس كومنين في كتابه لفظ «ملك =

الزعيم اللوثارنجي في مكان ما بين بلغراد ونيش ، وطلبوا اليه أن يمنع جنده من إحداث الشغب ، وعقدوا معه معاهدة بهذا المعنى . وقد بر الامبراطور البيزنطي بوعده للفرنج ، فأمد جودفري بما يحتاج اليه من المؤن في مدينة نيش. ثم واصل دوق لوثارنجيا السفلي وجنوده السير ، فمروا بأدرنة ومنها إلى سيليفري Silivry الواقعة على بحر مرمرة (حوالى ١٢ ديسمبر ١٠٩٦) . وهناك أطلقوا لأنفسهم العنان في أعمال العنف . وينتحل البرت دكس الأعذار لجودفري ، فيقول إن جنوده أقدموا على ذلك انتقاما من الامبراطور الكسيوس الذى كان قد أسر أحد زعماء الصليبيين وهو هيوج ده فيرماندوا أخو فيليب الأول ملك فرنسا ، ورفض اطلاق سراحه (١) . وبالمقارنة بين ماترويه إبنة الكسيوس وما يقوله البرت دكس ، يتضح لنا أن هيوج لم يكن أسيرا ، وأن الاضطرابات التى حدثت في سيليفري إنما تعزى إلى قوات جودفري التي لم تكن تعرف النظام ، والتى جبلت على الفوضى (٢) . ويؤيد شالندون أقوال آن كومنين ، ويذكر أن هيوج لم يكن معتقلا ، بدليل أنه عندما ذهب بعد ذلك لمقابلة جودفري ، حدثه عن كرم الامبراطور وسخائه وحسن معاملته له وترحيبه به ، وأعرب له عن رغبته في العودة ثانية اليه . ويستطرد شالندون فيقول إنه ليس من المعقول أن تصدر

= الأغريق » Rex Graeciae « ويعبر عن كلمة « باسيليوس » Basileus اليونانية بلفظ « ملك » وليس « امبراطور » أنظر :

Albert d'Aix, R. H. C. — H. Occ., IV, 304, 305.

أما باقي المؤرخين اللاتين ، فيطلقون عليه عادة اسم « امبراطور الاغريق » Imperator Graecorum أو « الامبراطور الكسيوس » Imperator Alexius . أنظر عن ذلك : Guibert de Nogent, R. H. C. — H. Occ., IV, 131; Tudebodus, R. H. C. — H. Occ., III, 11 etc.

(١) Albert d'Aix, IV, 304-5; cf. Guillaume de Tyr, I, lep., 78-80.

(٢) أنظر : Grousset, Crois., I, 15.

هذه الرغبة عن أسير ، وإن قوات جودفرى تذرعت بهذه الحجة الواهية بقصد السلب فحسب ، أو لتغطية موقفها لما بدر منها (١).

كيفما كان الأمر ، عندما علم الكسيس بما حدث فى سيليفرى ، أرسل مندوبين (٢) من قبله إلى جودفرى ، طالبا منه المبادرة بوضع حد لأعمال التخريب ونهب الأهلين ، ومواصلة الطريق إلى القسطنطينية . فتوجه إلى العاصمة التى وصلها فى ٢٣ ديسمبر ١٠٩٦ م حيث أقام هو وقواده وقواته قبالة أسوارها .

لقد شاب الغموض موقف جودفرى حيال الكسيس أثناء وجوده فى العاصمة البيزنطية ، الأمر الذى يجعل منه لغزا يصعب حله . وكان الكسيس حتى ذلك الوقت غير راض بالمرة عن تصرفات اللاتين الغربيين الذين اتصل بهم . كما كان وصول القوات الفرنجية النظامية بمثابة خطر حقيقى يهدد دولته . ثم أن ذكريات الماضى القريب والبعيد جعلت امبراطور الروم يخشى من هجوم صليبى كبير على عاصمته التى اشتهرت بثرائها الفاحش وذخائرها المقدسة . وكان هذا هو شغله الشاغل فى ذلك الحين (٣) .

لقد كان هدف الصليبيين الذى قاموا من أجله بحركتهم هو انتزاع الأراضى المقدسة من قبضة العرب والأتراك السلاجقة . ورأى الامبراطور البيزنطى ببصيرته النافذة الا يدىء إلى هذه القوات الهائلة التى وضعها الغرب تحت إمرته ،

---

(١) Chalandon, Première Crois., 118.

(٢) هما فرنسيان كانا يعملان فى خدمة الكسيس ، أحدهما يسمى رول بيليديلو Roul Peeledelau والثانى روجر Roger . أنظر : Chalandon, op. cit., 119.

(٣) Chalandon, op. cit., 119-20.

خريطة رقم ٢

البحر الأسود
القسطنطينية
آسيا الصغرى
البحر الابيض المتوسط
كريت
قبرص
دمشق
بيت المقدس
مصر
دولة الفاطميين
برقة
بلاد المغرب
صقلية
سردينيا
قورسيقه
ليون
راتزبون
فينا
نهر الدانوب
بلغراد
صوفيا
ادرنة
دورازو
راجوزا
حملة جودفرى
بوهيمند
ريمون
روبرت
حدود بيزنطة قبل ١٠٩٦م

طريق الجيوش الصليبية النظامية فى أراضى الدولة البيزنطية

وأن يستخدمها لخدمة مصالح امبراطوريته فيما يتعلق باسترداد املاكه التى كان الأتراك قد استولوا عليها منذ عهد قريب . وبالاختصار رأى الامبراطور أن يستغل التعصب الدينى عند الصليبيين لخدمة أغراضه السياسية فى إعادة مجد بيزنطة القديم . وكان هدف الكسيس هو إقناع جودفرى بوجهة نظره ، وأن يتم ذلك فى أقرب وقت حتى يتفرغ لباقى الزعماء اللاتين الذين كانوا فى طريقهم إلى العاصمة . ولتنفيذ هذه السياسة أرسل اليه هيوج الفرنسى الذى طلب منه مقابلة الامبراطور وحلف يمين الولاء له . ولكن جودفرى رفض مقابلة الكسيس وتقديم فروض الطاعة اليه ، وأخذ يعنف هيوج قائلا له فى سخرية : «أنت الذى قدمت من بلادك باعتبارك سيدا تملك ثروة هائلة وجيشا كبيرا ، أراك تنحدر بنفسك من هذه المكانة السامية التى كنت تتمتع بها إلى مصاف العبيد والأقنان . والآن تشير على بأن أفعل نفس الشىء الذى أقدمت أنت عليه ، كما لو كنت قد أحرزت نصرا عظيما ! » فأجابه هيوج : «كان يجب علينا إذن البقاء فى ديارنا ، وألا نتدخل فى شئون غيرنا . ولكن طالما بلغ بنا الأمر إلى هذا الحد ، فقد أمسينا فى حاجة ملحة إلى حماية الامبراطور لنا . وسوف تتطور الأمور فى غير صالحنا إذا لم نرضخ لمطالبه . » ومع ذلك فقد أصر جودفرى على موقفه ، وصرف هيوج دون أن يصلا إلى نتيجة مرضية .

هكذا انتهت المحادثة بين الرجلين ، بينما آثر الأمير اللوثارنجى الانتظار أمام العاصمة إلى أن تصل الجيوش الصليبية الأخرى ، وحينئذ يمكنه بمساعدة باقى زعماء الفرنج تحدى الامبراطور ومضايقته ، فيضطر هذا الأخير إلى الاستسلام والتنازل عن مطالبه حتى لا يعرض عاصمته لخطر الجيوش الصليبية المتجمعة أمام أسوارها (١) .

---

(١) Alexiad, 261; cf. Grousset, Crois., I, 15-6. — أنظر رواية آن كومنين كاملة فى الملحق الثالث بآخر الكتاب .

ويذكر شالندون أن خطة الكسيس كانت تتلخص فى منع الفرنج من التجمع أمام أسوار العاصمة بأى ثمن ، وأنه فهم الغرض الخفى الذى كان يرمى اليه جودفرى . ولذا رأى أن يحسم المسألة بسرعة قبل وصول عدوه القديم بوهيمند، وحاول حمل جودفرى على أداء يمين الإخلاص والتبعية له قبل أن يجتاز البحر إلى آسيا الصغرى لمقاتلة الترکان . ولكن الدوق العنيد كان قد أظهر منذ البداية العناد والعداء للامبراطور، ورفض اقتراح هيوج بالذهاب لمقابلته وحلف اليمين. ومنذ ذلك الحين توترت العلاقات بينهما حتى أن الكسيس اضطر إلى استخدام سلاحه الوحيد تمشيا مع سياسته التى اتبعها حيال الفرنج جميعا ، فقطع التموين عن جودفرى وجنوده لحملهم على الخضوع لإرادته . وعندما رأى بلدوين أخو جودفرى ذلك ثارت ثائرته ، وهاجم البيزنطيين وعاث فسادا فى ضواحى العاصمة ، فاضطر الامبراطور إلى نقلهم إلى مدينة بيرا Pera الواقعة على القرن الذهبى ليعسكروا فيها ، وحيث تسهل عليه مراقبتهم (١) .

حدث كل هذا فى أوائل يناير من عام ١٠٩٧ م وقد أقام جودفرى وجيشه فى بيرا طيلة الشهور الثلاثة الأولى من ذلك العـــام ، رافضا بإصرار مقابلة الامبراطور وحلف يمين الولاء له ، ذلك لأنه من وجهة نظره من كبار رجال الاقطاع التابعين للدولة الألمانية ، وكان يعتبر الحركة الصليبية ذات صبغة دينية بحتة وليست مسألة سياسية(٢). ولهذه الأسباب رفض الدوق اللوثارنجى أن يقسم يمين التبعية الامبراطور البيزنطى ، وأرسل وفداً من قبله ليخبره بذلك . وكان

---

(١) Chalandon, Alexis Comnène, 178.

(٢) Albert d'Aix, IV, 306; Guillaume de Tyr, I, lep., 83.
وقد أوضحنا فى الفصل الثانى أن الحركة الصليبيــة كانت على العـكس من ذلك ، وأثبتنا انها اتخذت من عامل الدين ستارا تخفى وراءه أطماعها السياسية العدوانية التوسعية فى الشرق .

جودفرى ينتظر بفارغ الصبر وصول الجيش النورماندى بقيادة بوهيمند ، حتى يستطيع متى اجتمعت قواتهما أن يفعل مايشاء ، وحينئذ يضطر الامبراطور إلى التنازل عن مطالبه والاذعان لرغبات جودفرى وباقى زعماء الفرنج . ولنفس هذا السبب جدد الكسيس الأمر لقواته بفرض رقابة شديدة على اللوثارنجيين ، كما ضرب الحصار حول معسكرهم لمنعهم من الاتصال بغيرهم من الفرنج ، خصوصا وأن بوهيمند كان فى طريقه فعلا إلى العاصمة . وخاف الامبراطور مغبة الأمور ، وعزم على التخلص من جودفرى والعمل على ايجاد تسوية سريعة للمسألة ، ولكن دون جدوى . فقد أصر الأخير على موقفه رافضا الاذعان لمطالب الامبراطور . حينئذ قطع الكسيس عنهم كل ما كان يرسله اليهم من تموين ، وشدد الرقابة عليهم . وترتب على ذلك حدوث مناوشات بين البيزنطيين والصليبيين سرعان ما تحولت إلى قتال مكشوف . فحاصر البيزنطيون الجيش اللوثارنجى فى مدينة بيرا ، ولكن جودفرى وبلدوين تخلصا من الحصار وتركا المدينة بعد أن نهباها وأشعلا النيران فيها ، ثم توجها بقواتهما ثانية إلى الضفة الأخرى من القرن الذهبى وهاجما أسوار القسطنطينية بشدة وعنف . وأخذ الفرنج يتعقبون البيزنطيين حتى بلغوا أحد أبواب العاصمة ويسمى باب بلاكرنيس Blakhernes فأحرقوه وشرعوا فى نهب ضواحى العاصمة ، كما شرع عدد منهم فى مهاجمة باب جيروليمن Gyrolimne وأشعلوا النيران فيه (١) .

وقد أخذ البيزنطيون على غفلة من هذا الهجوم المفاجىء الذى قام به جيش جودفرى ، ولم يكونوا قد احتاطوا له أو أعدوا العدة لمواجهته . لذا ساد الهرج والمرج فى اللحظات الاولى من المعركة ، ليس بين السكان فحسب وإنما بين القواد

---

(١) Grousset, Crois., I, 17.

العسكريين أيضا . ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى وضعت خطط الدفاع ، وأخذ الامبراطور بنفسه يلهب حماس الجند ، بينما شرع الجيش البيزنطى فى الرد على ضربات الفرنجة بمثلها . واستمر القتال بينهما إلى أن حل الليل . والظاهر ان المعركة لم تكن بالغة الأهمية ، إذ يقدر المؤرخ المجهول خسائر البيزنطيين بسبعة من القتلى فقط . ويذكر المؤرخون اللاتين ان الصليبيين أحرزوا نصرا فى هذه الليلة . أما ابنة الكسيس فتقول إن البيزنطيين هم الذين انتصروا والحقوا الهزيمة بأعدائهم . ويقول شالندون انه لا يمكن تفضيل إحدى الروايتين على الأخرى . ولكن يتضح من سير مجرى الحوادث أن النصر لم يكن فى جانب الفرنج لأكثر من سبب . فقد أخفقوا فى الاستيلاء على القسطنطينية وهى الهدف الذى قاموا من أجله بهجومهم . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم تكن لديهم المعدات الكافية والآلات اللازمة لضرب حصار منظم حول العاصمة . يضاف إلى ذلك انهم كانوا فى الواقع تحت رحمة الامبراطور فيما يتعلق بمسألة التموين ، ذلك السلاح الفعال الذى كان يشهره فى وجوههم كلما دعت الضرورة إليه ، حتى انهم اضطروا فى النهاية إلى نهب ضواحى العاصمة ليحصلوا على القوت اللازم .(١) ونلاحظ أيضا أن اذعان جودفرى فى آخر الأمر لمطالب الكسيس وموافقته على حلف اليمين ، دليل على أن النصر لم يكن فى جانبه .

واستمر الوضع بين شد وجذب لمدة خمسة أيام أو ستة ، وأخذت حال الفرنج تزداد سوءا على مر الأيام ، إذ لم يكن هناك من سبيل للاستعاضة عن المؤن التى قطعت عنهم . وتوالت الغارات التى كانت تقوم بها القوات الفرنجية من أجل الحصول على الطعام . وقد لجأ الكسيس مرة أخرى إلى أصدقائه من

---

(١) Chalandon, Première Crois., 126-7.

الصليبيين الذين سبق أن حلفوا له يمين التبعية ، ومنهم هيوج ده فيرماندوا ، بقصد إقناع جودفرى لأداء هذا اليمين وأوضح هيوج لدوق اللورين السفلى الحالة على حقيقتها ، وأبان له أنه ليس بوسعه إلا الرضوخ لرغبة الامبراطور طالما هو فى حاجة اليه وتحت رحمته (١).

وللمرة الأخيرة توجه هيوج إلى جودفرى يطلب منه مقابلة الكسيس ، فرفض الدوق وظل متشبثا بموقفه السابق . وأمام هذا الرفض المتكرر من جانب جودفرى وطد الكسيس عزمه على استخدام القوة العسكرية . فأمر جنوده بمهاجمة الجيش اللوثارنجى وتأديبه ، ووقعت بين الفريقين معركة شديدة انهزم فيها جودفرى ، واضطر فى نهاية الأمر إلى رفع راية الاستسلام والاذعان لمطالب الامبراطور .

توجه جودفرى وبصحبته كبار البارونات إلى قصر البلاكرن الامبراطورى ليقدموا لألكسيس فروض الطاعة ، بينما بقى بلدوين على رأس الجيش قبالة العاصمة . وسجد أمام الامبراطور الجالس على عرشه ، وحلف يمين الولاء والتبعية بين يديه متعهدا أن يكون « رجل الامبراطور » . وقد نجح الكسيس فى اقناع الدوق بوجهة نظره ، وتم الاتفاق بينهما (ابريل ١٠٩٧) على أن يرد الصليبيون جميع الأقاليم والمدن التى كانت فى حوزة الدولة البيزنطية قبل موقعة ملاذكرد ، وذلك بعد إخراج الأتراك منها . وعلى ذلك فإن هذا القسم لا يتناول مدن الأناضول كنيقية ودوريليوم فحسب ، وإنما يشمل أيضا المدن السورية مثل انطاكية والرها التى كانت تحت حكم بيزنطة إلى وقت قريب . وبعد أن أقسم جودفرى اليمين احتفى الكسيس وقبله طبقا للتقاليد الاقطاعية . وقد أقسم

(١) Chalandon, op. cit., 127-8.

الرؤساء الذين كانوا فى صحبته يمينا مماثلة . (١) وسيكون لذلك الاتفاق أثره فيما بعد فى تطور العلاقات بين الصليبيين والدولة البيزنطية طيلة قرن من الزمان .

وقد رحب الامبراطور بجودفرى ومن كان معه خـــلال إقامتهم فى القسطنطينية ، وغمرهم بالهدايا والمنح من ذهب وفضة ، وأمر بأن توزع عليهم الأقمشة والملابس الثمينة والخيول والبغال ، وغيرذلك من النفائس التى اشتهرت بها العاصمة . كما سهل لهم مسألة التموين ، وأمر بصرف رواتب لكل فرد منهم ، مما يدل على أنه كان يعتبرهم جندا مرتزقة فى خدمته . وفى اليوم التالى لتوقيع الاتفاق رحل جيش جودفرى إلى آسيا الصغرى ، وأقام بمدينة بلكان Pelekan انتظاراً لوصول الجيش النورماندى بقيادة بوهيمند بن روبرت جويسكار (٢) .

من استعراضنا للحوادث السابقة يتضح لنا أن الكسيس قد أفسح صدره فى بادىء الأمر لجودفرى وجيشه ، وحاول أن يستميله اليه بكافة الطرق والوسائل . ولكن الدوق لم يكن يرغب فى الاتفاق مع الامبراطور ، ورفض أكثر من مرة مقابلته وحلف يمين الولاء له ، وأصر على موقفه هذا ، ولم تنفع

---

(١) Alexiad, 261; Albert d'Aix, IV, 310-1; Guillaume de Tyr, I, lep., 87-8. — وفيما يلى اليمين الذى أداه جودفرى وباقى النبلاء ، حسبما ورد فى كتاب البرت دكس : « Audivi de te quoniam miles et princeps potentissimus sis in terra tua, et vir prudentissimus ac perfectae fidei. Quapropter te in filium adoptium suscipio; et universa quae possideo in tua potestate constituo, ut per imperium meum et terra a facie praesentis et affuturae multitudinis liberari ac salvari possit. »

(٢) Alexiad, 261; cf. Grousset. Crois., I, 17-9; Chalandon, op. cit., 129.

معه وساطة الوسطاء ولا شفاعة الشفعاء . كما أن قواته لم تكف عن التحرش به ، حتى لقد انتهى بها الأمر إلى مهاجمة العاصمة نفسها محاولة الاستيلاء عليها . وأخيرا ضاق الامبراطور ذرعا بهذا الدوق ، خصوصا وأن جيش بوهيمند كان فى طريقه إلى العاصمة ، وكانت خطته هى أن يحول دون تقابل الزعيمين أمام أسوارها ، حتى لا يقوما بحركة عدائية ضده . وكان على حق فى هذا ، إذ اتجهت نوايا جودفرى إلى التمهل واضاعة الوقت لحين وصول باقى الجيوش الفرنجية . وكان الكسيس يعرف تماما من هـو بوهيمند وما هى أطماعه . لذا اضطر مكرها إلى استخـدام القوة وقطع التموين ، وانهزم الجيش اللوثارنجى ، وأذعن الدوق مرغما لمطالب الكسيس . وقدم إلى العاصمة حيث حلف يمين الاخلاص بين يديه ، ووافق على الرحيل إلى آسيا الصغرى (حوالى ٩ أو ١٠ أبريل سنة ١٠٩٧) فى انتظار وصول القوات النورماندية . ولا نعرف على وجه التحديد الظروف التى تم فيها نقل قوات جودفرى إلى الضفة الآسيوية للبسفور .

بعد أن أذعن جودفرى لمطالب الكسيس ، وبعد أن عبر البسفور إلى آسيا الصغرى ، كان على الامبراطور مواجهة المشكل الأكبر فى الحرب الصليبية الأولى ، ألا وهو الأمير بوهيمند النورماندى[١] ابن روبرت جويسكار الذى مازال اسمه عالقاً بأذهانه . وكيف لا وهو الذى عرض حياة دولته للخطر منذ بضع سنوات خلت فى الهجوم الذى شنه النورمانديون على الدولة البيزنطية فيما بين

---

(١) لعب النورمان دورا كبيرا فى الحرب الصليبية الأولى؛ فقد اشترك فى مؤتمر كليرمون ثلاثة أساقفة نورمان ، وحملوا معهم عند عودتهم إلى بلادهم قرارات المجلس وأخبار الحرب المقدسة المزمع قيامها . ولكن يبدو أن الحملة الصليبية لم يكن لها دعاة فى مقاطعة نورمانديا ، بعكس الحال فى باقى دول الغرب الأوروبى . أنظر :
Haskins, The Normans in European History, 211, 217.

عامى ١٠٨١ و ١٠٨٥ . وكان من الجائز جدا وقتئذ أن يفقد الامبراطور عرشه ودولته ، لولا أن انتهت الحرب بانتصار الكسيس واندحار النورمانديين (١) . وقد خرج بوهيمند من هذه الحرب بنتيجة تتلخص فى أنه ليس بوسعه مهاجمة الدولة البيزنطية فى أوروبا لقوتها وبأسها . ولذلك فقد عول منذ تلك اللحظة على تجربة حظه فى ميدان جديد عله ينجح فيما أخفق فيه سابقا ، ويستوى عنده إن كان ذلك على حساب العرب أو على حساب بيزنطة نفسها .

ويحدثنا المؤرخ المجهول عن أسباب اشتراك بوهيمند فى الحركة الصليبية . فقد كان هذا الأخير يساعد عمه الكونت روجر الأول صاحب صقلية فى حصار مدينة أمالفى Amalfi الثائرة ، وسمع حينئذ أن جيوشا كثيرة من فرنسا ولوثارنجيا وألمانيا تتجه نحو الشرق لغزو الأراضى المقدسة . وبعد أن سألهم عن شعارهم ووجهتهم والهدف الذى ينشدونه من حركتهم ، سرعان ما ترك المدينة المحاصرة وتوجه بجيوشه صوب بيت المقدس (٢) . فقد وجد فى الفكرة الصليبية فرصة ذهبية للظهور بمظهر المسيحى الورع التقى الذى يترك بلاده للدفاع عن المسيحية وتحرير قبر المسيح . ولكنه فى قرارة نفسه كان يفكر فى مصالحه الخاصة وأطماعه الذاتية التى ستكشف عنها الأيام .

ويفسر شالندون سياسة بوهيمند فيقول إن إيطاليا ضاقت بمطامعه ، بعد

(١) ويرجع الفضل فى ذلك إلى البنادقة الذين وقفوا إلى جانب الامبراطور البيزنطى فى حربه ضد النورمان ، إذ قام أسطولهم بقطع طرق مواصلات النورمان ، مقابل الامتيازات التجارية الواسعة التى منحها لهم الامبراطور فى دولته . أنظر :
Setton, Hist. of the Normans, 19 - 20; Pirenne, Economic and Social Hist. of Med. Europe, 20.

(٢) أنظر رواية المؤرخ المجهول فى كتابى جروسيه وهاسكينز :
Grousset, Crois., I, 20; Haskins, The Normans, 213.

أن وجد فيها مسرحا لم يعد يصلح لتحقيق أغراضه السياسية . لذا تحمس لفكرة الحرب الصليبية تحمسا كبيرا حيث يمكنه تحقيق آماله العريضة . ومما لاشك فيه أن بوهيمند كان على دراية تامة بالسياسة البيزنطية وبالمسائل الشرقية ، وكان يعرف مدى قوة بيزنطة ومبلغ ثروتها ومواطن الضعف فيها ، لأنه كان على صلة بها - كما رأينا - فى الحروب التوسعية النورماندية (١) . وكان هذا السيد الطموح يهدف إلى إنشاء إمارة له فى الشرق ، خاصة وأن أباه عين قبل موته ابنه الأصغر المسمى روجر بورسا Roger Borsa ليخلفه فى الحكم . وهكذا بعد وفاة جويسكار وجد بوهيمند نفسه بدون أى ممتلكات فى الغرب بعد أن آل كل شيء إلى أخيه الأصغر ، اللهم إلا من بعض الأملاك البسيطة التى أمكنه انتزاعها بالقوة فى جنوب إيطاليا . لذا وجد فى الحملة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق أطماعه الواسعة (٢) . ويثبت تاريخ بوهيمند نفسه ، وما كتبته عنه آن كومنين ، أنه قد فكر فعلا فى الاستعانة بالدولة البيزنطية لتحقيق هذا الغرض (٣) . ويزيد أحد المؤرخين الغربيين المحدثين ، وهو شارل هومر هاسكنز ، الأمر وضوحا ، فيقول إن بوهيمند لم تكن تعنيه مصالح بيزنطة أو مسألة تحرير القبر المقدس ، وإن أهدافه اتجهت منذ البداية نحو تأسيس إمارة له فى سورية ، مثلما فعل غيره من أفراد أسرته عندما كونوا ممالك لهم فى إيطاليا وصقلية (٤) .

هذا عن بوهيمند وسياسته ، وأما عن صفاته الشخصية فتذكر المراجع أنه

---

(١) Chalandon, Première Crois., 132.

(٢) Chalandon, Alexis Comnène, 184; Haskins, Normans, 213.

(٣) Alexiad, 267.

(٤) Haskins, The Normans, 214. —انظر أيضا باركر : الحروب الصليبية ، ص ٣١ .

كان خارق الذكاء ، لبقا مرنا ، سياسيا محنكا . وليس أدل على ذلك من مواقفه حيال الامبراطور البيزنطى وباقى زعماء الفرنج فى الحملة الأولى . ولم تكن تنقصه الصفات التى يتحلى بها الفارس الاقطاعى . وهو يعتبر بدون شك أبرز شخصية فى الحرب الصليبية الأولى ، ومن أمهر قادة الجيوش الصليبية على الإطلاق . وكان هو الرجل الذى تتجه إليه الأنظار فى المواقف الدقيقة الحرجة . ولم يكن هدفه هذه المرة القسطنطينية وإنما الشرق العربى ، إذ سبق أن خبر قوة الدولة البيزنطية فى حروبه ضدها . ولم يكن على استعداد للدخول فى جولة ثانية معها قد يفقد فيها كل شىء . وقد أفاده وجوده فى جنوب إيطاليا حيث كان البيزنطيون قد ثبتوا أقدامهم فيها لفترة طويلة ، وطبعوها بطابعهم الخاص إلى أن طردهم منها النورمان . كما كان على اتصال دائم بالعرب فى شمال افريقية ، وكان على علم بطباعهم وطرقهم فى الحرب والقتال .

ويقارن رينيه جروسيه (١) بين بوهيمند وأحد قواد الجيش البيزنطى من المرتزقة الغربيين واسمه روسيل (٢) Roussel de Bailleul ، وكان هذا الأخير قد اشترك فى موقعة ملاذكرد ضد السلاجقة ، ثم ثار بعد ذلك على الامبراطور البيزنطى ، وحاول تأسيس دولة نورماندية فى آسيا الصغرى مثلما حاول بوهيمند فى البلقان . ولكن الكسيس لم يمكنه من بغيته ، وألحق به الهزيمة ، وقضى على مطامعه وهى لا تزال فى مهدها . وطمع بوهيمند فى تحقيق نفس الشىء الذى كان يصبو إليه روسيل (٣). لقد تأكد بوهيمند من قوة الدولة البيزنطية فى البلقان ،

---

(١) Grousset, Hist. des Croisades, I, 21; cf. also Runciman, Hist. of the Crusades, I, 62-3, 66-7.

(٢) للمزيد من المعلومات عن روسيل هذا ، أنظر :
Runciman, Hist. of the Crusades, I, 67 & n. 1.

(٣) Diehl, L' Europe Orientale, 20; Chalandon, Première Crois., 133.

وأنه لن يمكنه تحقيق مطالبه فى القطاع الأوروبى منها . ولذلك عول على تأسيس إمارة له فى آسيا ، ولا مانع لديه إن كان ذلك بمعاونة خصمه القديم الامبراطور البيزنطى أم لا . ولذلك كان لزاما عليه أن يعمل على اكتساب ثقته، وأن يتظاهر له بالولاء والإخلاص إلى أن يتم له تحقيق أمله . ولكنه مع كل هذا لم يتمكن من إزالة شكوك الامبراطور حياله (١) .

هذا عن بوهيمند ، أما عن الكسيس فقد كان بطبيعة الحال يتوجس خيفة من عدوه القديم . ولم ينس المضايقات التى سببها له النورمان فى الحملة التى شنوها على الدولة البيزنطية قبل ذلك التاريخ ببضع سنوات . ولذلك كان يشك دائما فى نوايا هذا الأمير النورماندى ، وإن تظاهر له بالمودة السطحية التى تخفى من ورائها الحيطة والحذر(٢). وهذا ماستكشف عنه أحداث السنوات التالية.

لقد أكدت تلك الأحداث فى ذهن الكسيس أنه مهما كانت الدوافع الرسمية للحملة ، فان الهدف الحقيقى الذى كان الصليبيون يسعون اليه هو أن يضمنوا لأنفسهم إمارات يحكمونها فى الشرق . ولم يعترض امبراطور البيزنطيين على ذلك طالما أن دولته ستسترد كل الأراضى التى كانت تدخل فى نطاقها قبل غزوات السلاجقة . وعلى هذا تحددت سياسته حيال الجيش النورمانى بقيادة بوهيمند صديقه اللدود . (٣)

ومن الشخصيات البارزة التى اشتركت مع بوهيمند فى هذه الحملة أخته المسماه إما Emma ، وابنها تنكريد(٤) الذى كان يشبه خاله فى كثير من صفاته،

---

(١) Alexiad, 264.

(٢) Chalandon, Première Crois., 132.

(٣) Runciman, op. cit., I, 145.

(٤) للمزيد من البيانات عن إما وتنكريد، أنظر: Grousset, Crois., 20 n. 2

وقد سافر هو الآخر إلى الشرق وفى نيته تأسيس إمارة له هناك. وكذلك مؤرخ الحملة المعروف بالمؤرخ المجهول الذى شاهد أحداثها وسجلها لنا فى كتاب لا يمكن إغفاله عند التعرض لتاريخ هذه الحقبة من الزمن . ويقدر عدد من ساهم فى الحملة بخمسمائة فارس عدا المشاة .

وبعد إتمام الاستعدادات ، أبحر جيش بوهيمند من مدينة بارى Bari ، ومر بأترانت Otrante وبرنديزى Brindisi ، وكان ذلك فى أوائل نوفمبر من سنة ١٠٩٦ م [١]. ثم نزل فى فالونا Valona ، ودورازو Durazzo ، وكانت الخيرات كثيرة متوفرة طوال الطريق . وبعد ذلك جمع بوهيمند جنوده فى وادى دروبولى Dropoli ، وأمرهم بألا يعيثوا فسادا فى الأراضى البيزنطية ، وألا يسلكوا مسلكا شائنا فيها ، وهدفه من ذلك ، بطبيعة الحال ، هو كسب ود الكسيس تمشيا مع سياسته التى اختطها وسار عليها . ثم واصل الدوق سفره إلى كستوريا Castoria احدى بلاد مقدونية (٢٥ ديسمبر) ، وأقام هناك بضعة أيام . وقد حاول النورمان الحصول على ما يلزمهم من الطعام ، ولكن السكان ـ وكانت ذكرى حرب ١٠٨١ لا تزال باقية فى أذهانهم ـ رفضوا أن يبيعوهم أو يعطوهم شيئا . فاستولى الفرنج عنوة على كل ما يلزمهم . ثم شدوا رحالهم من كستوريا إلى بيلاجونيا Pelagonia ، وفى أثناء الطريق أشعلوا النيران فى بلدة بمن كان فيها من الهراطقة الاغريق . وبعد أن أمضى الجيش بضعة أيام فى بيلاجونيا وصل الى نهر الفردار Verdar ، وهناك هاجم جيش الامبراطور المكون من الأتراك المكلفين بمراقبة الفرنج ، مؤخرة الجيش

---

(١) تحدثنا الكاتبة آن كومنين عن اشتباكات وقعت بين الاسطولين البيزنطى والنورماندى عند بداية الرحلة . ويعتقد شالندون أن هذه الرواية من نسج خيالها ، وليس لها أى نصيب من الصحة . أنظر : Chalandon, op. cit., 134.

النورماندى . ويقول شالندون إن هذا الاعتـداء إنما كان انتقاما للبلدة التى أحرقها النورمان بالقرب من بيلاجونيا . وعندما علم تنكريد بما حدث ، وكان قد عبر نهر الفردار ، ثارت ثائرته وارتد على أعقابه ، وشتت شمـل القوات البيزنطية . ويرى كل من المؤرخ المجهول وراؤول ده كان أن تنكريد محق فى ذلك. وفيما يتعلق بالأسرى الاغريق الذين وقعوا فى قبضة الجيش النورماندى خلال هذه المناوشة ، فقد أطلق بوهيمند سراحهم وتركهم لحال سبيلهم حتى لا يوغر صدر الامبراطور عليه ، وحتى يكسب رضائه وتأييده له فى تحقيق رغباته ؛ وحدث ذلك فى ١٨ فبراير سنة ١٠٩٧ م (١) .

وفى تلك الأثناء أوفد الـكسيس رسلا من قبله إلى بوهيمند طلبوا منه أن يمنع جنده من إحداث الشغب فى الأراضى البيزنطية . وقام فى ذلك الحين نزاع بين بوهيمند وابن أخته تنكريد ، لأن هذا الأخير كان قد عزم على مهاجمة إحدى المدن البيزنطية ، بينما كان بوهيمند يرى عكس ذلك حتى لا تسوء العلاقات بينه وبين الامبراطور تنفيذا لخطته المرسومة . وهكذا بينما كان تنكريد يرى اتخاذ الشدة حيال البيزنطيين ، كان خاله يرى اصطناع السياسة واللين لحاجته إلى الـكسيس ولحاجة فى نفسه .

وعندما وصل بوهيمند وجيشه إلى سيرا Serra فى تراقية قابله مندوبين من قبل الـكسيس ووعدوه بالهدايا النفيسة إذا استبق جيشه وذهب إلى القسطنطينية للمثول بين يدى الامبراطور. وفى أول أبريل من سنة ١٠٩٧ م وصل بوهيمند إلى روسا Rossa بتراقية ، وقد قبل الذهاب إلى العاصمة تاركا جيشه بقيادة تنكريد ، آملا أن ينال تأييد الامبراطور بالنزول عند إرادته .

---

(١) Raoul de Caen, R.H.C.-H.Occ., III, 607-10;cf. Chalandon, op. cit., 135.

وعندما وصل الأمير النورماندى إلى القسطنطينية رحب به الكسيس واستقبله استقبالا لائقاً ، إذ أمر بإعداد الطنافس الجميلة والشىء الكثير من الذهب والفضة ، وغير هذا وذاك مما يبهر شخصا مثل بوهيمند . وتصف آن كومنين قصة اللقاء الذى تم بين بوهيمند وأبيها وصفا ممتعا شيقا ، يكشف فى صراحة عن حقيقة العلاقات بين الرجلين بصفة خاصة ، ويلقى ضوءا كافياً على موقف كل من اللاتين والاغريق حيال الآخر بصفة عامة . ويبدو من سياق حديثها أنها كانت شاهدة عيان لهذا اللقاء العجيب . تقول إن أباها استقبل الأمير النورماندى مرحباً محييا ، وان الابتسامة لم تكن تفارق وجهه ، وانه أخذ يسأله عن أحواله وعن رحلته ، والمكان الذى ترك فيه باقى النبلاء الذين جاءوا معه من الغرب . وكان بوهيمند صريحا واضحاً فى إجابته على الأسئلة التى وجهها إليه الكسيس . فلم يحاول إخفاء أى شىء حتى يسترد ثقة الامبراطور فيه . وعندما أخذ الكسيس يذكره مازحا بعدائه القديم له ، أجابه بوهيمند قائلا : « بالرغم من أننى كنت وقتذاك خصمك وعدوك ، إلا أننى قادم الآن بمحض إرادتى كصديق مخلص وفىّ لجلالتك » . وكأنه يريد أن ينتزع من رأس الامبراطور تلك الفكرة السيئة التى يعرفها عنه . وهكذا يبدو من سياق الحادثة أن كلا من الرجلين كان يرتاب فى صاحبه ، ويحاول قدر الاستطاعة معرفة حقيقة نواياه وإزالة شكوكه حياله ، بالتظاهر بالود السطحى وتناسى الماضى المزعج . وتذكر الكاتبة الاغريقية أن الامبراطور لم يشأ أن يطيل الحديث مع غريمه القديم فى أول لقاء بينهما ، وبعد أن اطمأن إلى أنه لن يتردد فى أداء يمين الإخلاص صرفه قائلا : « لا بد أنك متعب من رحلتك ، ويحسن بك أن تذهب لتنال قسطا من الراحة . ويمكننا التحدث غداة اليوم فى كل مايعنينا من أمور » .

لقد دل الكسيس على حكمة وبعد نظر فى موقفه من بوهيمند . وأدركته

ابنته آن ذلك ، فكتبت عن أبيها تقول : « لقد اشتهر الامبراطور بقدرته التي تدعو إلى الاعجاب في الحكم على أى فرد ، وفى الغوص إلى قرارة نفسه وكشف خبيئة نواياه . وكان على حق فى موقفه من بوهيمند ، لعلمه بما كانت تنطوى عليه نفسه من حقد وخبث ودهاء » .

وتذكر الكاتبة أن الكسيس ، رغبة منه فى الاحتفاء بصديقه اللدود ، أمر بإعداد وليمة فاخرة له . ولكن بوهيمند رفض تناول الطعام خشية أن يكون الامبراطور قد دس له السم فيه ليتخلص منه ويتقى شره . ولم يفصح عن شعوره هذا ، بل قام بتوزيع الطعام على رجال الامبراطور ، كما لو كان ذلك تصدقا منه عليهم . وبعد ذلك أمر باعداد طعام خاص له بمعرفة رجاله الذين أحضرهم معه. ولم يترك الحادث يمر بسلام ، بل أخذ يستفسر فى اليوم التالى عن حال أولئك الذين تناولوا من طعام الامبراطور ، اعتقادا منه أنهم أصبحوا فى عداد الأموات . وعندما تيقن أنهم أصحاء معافون وأحياء يرزقون ، أبدى اعتذاره وتأسفه متعللا أنه عندما شاهد المائدة الملكية وعليها مختلف ألوان الطعام ، رجع بذاكرته إلى أيام حروبه ضد الامبراطور ، وخشى أن يكون قد دس له السم لقتله . وتعقب آن كومنين على تصرف الأمير النورماندى بأنه لا يصدر إلا عن رجل خبيث شرير . وهكذا كان الكسيس يشك دائما فى نوايا بوهيمند بن جويسكار ويتوجس خيفة منه ، وكان بوهيمند نفسه ينظر بعين الريبة إلى الامبراطور البيزنطى (١) .

وتحدثنا ابنة الكسيس عن جشع بوهيمند وأطماعه ، فتقول إن أباها خصص له غرفة فاخرة فى قصره ، وملأها بمختلف أنواع التحف والنفائس حتى أنه كان

---

(١) Alexiad, 265-6; cf. Chalandon, Première Crois., 133-6.

يتعذر على المرء أن يجد شبرا من الأرض يسير عليه . وكلف رجاله بمراقبة الأمير عند تقديم تلك الهدايا اليه ، للتعرف على نواياه . وتقول الكاتبة إن بوهيمند عندما رأى كل هذه الكنوز لم يتمالك نفسه وصاح قائلا : « لو كنت أملك كل هذا لأصبحت منذ زمن بعيد سيداً على كثير من البلاد . » فأجاب رسل الكسيس ان سيدهم أمر بارسال هذه الهدايا الفاخرة اليه دون مقابل . وابتسم بوهيمند راضيا شاكراً . ولكنه لم يلبث أن غير رأيه ولم تمض لحظات على موافقته بقبول الهدايا ، وأمر بإعادتها ثانية إلى الكسيس ، موجها الحديث إلى الرسل فى نغمة جافة غاضبة : « لم أكن أتصور أبداً أن يلحق بى الامبراطور مثل هذا العار . خذوا هذه الأشياء وأعيدوها إلى ذاك الذى أرسلها . » وتذكر الرواية أن بوهيمند عندما أبصر الرجال يستعدون لحمل الكنوز ، عز عليه أن تضيع منه ، وعدل عن رأيه السابق بسرعة مبديا سروره واغتباطه بتقبلها ، ولعله أقدم على ذلك حتى لا يشك الامبراطور فى حقيقة نواياه إذا ما رفض هداياه . أو لعل الطمع أعماه وخشى أن تضيع عليه هذه الفرصة .

ولهذه الحادثة البسيطة مغزاها ودلالتها فى الكشف عن حقيقة دوافع الأمير النورماندى بخاصة ، وعن طباع اللاتين بصفة عامة . وفى ذلك تقول الأميرة آن كومنين « إن اللاتين قوم متقلبون لا يثبتون على رأى ولا يقفون على حال ... » وتخص بوهيمند بكلمات لاذعة ، فتقول إنه « تغير فى لحظات كما تغير الحرباء لونها ، فقد كان فى طباعه خبث ولؤم . كما كان على استعداد لتكييف نفسه لكافة الاحتمالات ، وقد فاق جميع اللاتين جرأة وخداعا ، وإن كان دونهم عفة ومالا ... » وتزيد الكاتبة الأمر وضوحا ، فتروى أنه عندما غادر بلاده إلى الشرق لم يكن يملك من حطام الدنيا شيئا . فتظاهر بالرغبة فى زيارة القبر المقدس ، وإن كان فى قرارة نفسه يسعى سعيا حثيثا لتأسيس مملكة له ، أو اقتفاء خطى أبيه

جويسكار فى محاولة هدفها الاستيلاء على بيزنطة إن استطاع إلى ذلك سبيلا (١).

على أى حال ، حاول بوهيمند قدر الاستطاعة إخفاء حقيقته ، والتصرف فى حدود الخطة التى رسمها لنفسه ، والتى تتلخص فى العمل على كسب الكسيس إلى صفه لتحقيق أغراضه وتبديد شكوكه حياله ، ولو أدى الأمر إلى مناصرته له ضد باقى زعماء الفرنج ، على أن يتنكر له فى الوقت المناسب ومتى دعت الضرورة إلى ذلك كما سيحدث فى مسألة انطاكية . (٢) وتأكيدا لهذه الخطة أقسم بوهيمند بين يدى الكسيس يمين التبعية والولاء دون أى معارضة أو تردد . وجاد عليه الامبراطور بكثير من الذهب والفضة والأحجار الكريمة . ويتضح مما سبق أن هذا الأمير حاول إرضاء الكسيس قدر الاستطاعة وبكافة الطرق والوسائل ، وأن يتظاهر له بالود حتى يتمكن من تحقيق أغراضه فى الشرق . وفعلا ظهرت حقيقة نواياه حينما طلب من الامبراطور أن يمنحه وظيفة « خادم الشرق الأكبر » . ولهذه الوظيفة أهميتها بالنسبة لبيزنطة ، إذ تعنى أن يكون صاحبها سيدا على أنطاكية وضواحيها . ولما تبين الامبراطور مايرمى اليه بوهيمند ، لم يعطه ردا صريحا قاطعا ، وظل يراوغه ويمنيه بالرجاء حتى لايخيب أمله فينقلب ضده . وأخيرا وعده باقطاعه أرضا فى منطقة انطاكية طولها ١٥ يوما وعرضها ثمانية أيام . وأقسم له الامبراطور أنه سوف لايحنث بيمينه إذا ما بر هو بقسمه الذى قطعه على نفسه (٣) . ويعلل شالندون موقف الكسيس بقوله : « اعتقد أن الكسيس حينما وعد بوهيمند باقطاعه اقليما فى منطقة انطاكية ، إنما اضطر إلى ذلك رغما عنه لإرضاء الأمير النورماندى حتى لاتسوء العلاقات بينهما . » (٤)

---

(١) Alexiad, 266; Diehl, L'Europe Orientale, 20. — أنظر التفاصيل فى الملحق الثالث بآخر الكتاب .

(٢) Chalandon, Première Crois., 133.

(٣) Alexiad, 267; cf. Grousset, Crois., I, 22—3.

(٤) Chalandon, Alexis Comnène, 186.

ويذكر المؤرخ المجهول أن الامبراطور وعد بوهيمند زيادة على ذلك بالمحافظة على سلامته وسلامة جارله . كما تعهد بإرسال جيش بيزنطى لحراسة الفرنج برا وبحرا ، وبإمدادهم بما يلزمهم من مؤونة . وقال إنه لن يسمح لأحد بأن يتعرض لجيش بوهيمند بسوء وهو فى طريقه إلى القبر المقدس (١) .

أما عن تنكريد فقد استاء من سياسة خاله ، وعبر البسفور دون أن يمر بالقسطنطينية حتى لايؤدى القسم المطلوب ، ولحق بالجيوش الصليبية الأخرى المتجهة صوب نيقية . هذا فى الوقت الذى قام فيه بوهيمند بدور الوسيط الشفيع بين الكسيس وباقى زعماء الفرنج تنفيذا لخطته وحرصا على حسن صلته بالامبراطور (٢) . ولعل أوضح دليل على ذلك موقفه من الخلاف الذى نشب بين الكسيس وريمون ده سان جيل أحد زعماء الحملة الأولى . إذ يذكر المؤرخ المجهول أن ريمون أقام فى ضاحية من ضواحى العاصمة ، رافضا بعناد الذهاب إلى القسطنطينية لحلف اليمين . وبلغ به الأمر أن أخذ يفكر فى وسيلة ينتقم بها من جيش الامبراطور . وقد أوضح بعض كبار الفرنج ، وعلى رأسهم جودفرى وروبرت كونت نورمانديا ، لريمون ده سان جيل أنه لايجدر بالمسيحيين أن يقاتلوا بعضهم بعضا ، وأنه من الأفضل التفاهم مع الامبراطور . أما بوهيمند فكان أكثر صراحة ، إذ أكد لكونت تولوز أنه سيقف إلى جانب الامبراطور إذا تعرض له بأذى أو سوء . وعندما استشار ريمون كبار قومه ، أجابوه أن من مصلحته الرضوخ لرغبة الكسيس . حينئذ أقسم باحترام حياة الامبراطور وشرفه ، متعهدا بعدم التعرض له . ولكن عندما دعى لحلف يمين

---

(١) Anonymi Gesta Francorum, 173.

(٢) Raoul de Caen, R.H.C.-H.Occ., III, 612-4; cf. Chalandon, Première Crois., 137.

التبعية ، رفض ذلك رفضا باتا . ويهمنا من هذا الموضوع أن موقف بوهيمند من كونت تولوز يوضح بجلاء أنه كان قد اتفق مع الامبراطور البيزنطى اتفاقا ثنائيا مستقلا ، وذلك بخلاف الاتفاق العام الذى عقد بين الكسيس وزعماء الفرنج (١) .

نستخلص مما سبق ذكره أن البيزنطيين كانوا بلاشك يرهبون جانب بوهيمند أكثر من أى رئيس آخر من رؤساء الفرنج . ولهم فى ذلك عذرهم . فقد خاف الكسيس أن يعمل بوهيمند على تحقيق مشاريع أبيه روبرت جويسكار فى الدولة البيزنطية ، مع أن الأمير النورماندى كان مقبـــلا وكله استعداد للاتفاق مع البيزنطيين ، بل أفصح عن رغبته لحلف اليمين آملا أن يكسب بذلك تأييد الامبراطور له فى تحقيق مشاريعه السياسية فى الشرق ، تلك المشاريع التى أخفق فى تنفيذها فى القطاع الغربى من الامبراطورية . ولا شك أن ثقته بالاغريق لم تخل من التحفظ . وقد ساد التفاهم فى الظاهر بينه وبين البلاط البيزنطى منذ البداية ، وإن كانت عوامل الريبة بادية متوفرة بين الجانبين ، خاصة وأنه كانت لها مهدات سبقت قيام الحملة ، كما أعقبتها أحداث أكدتها وعمقتها .

ومما ينبغى ذكره أن هذا الأمير ترك فى ذاكرة الأميرة الاغريقية آن كومنين أثرا لايمحى . فقد وصفته فى كتابها بأنه « عملاق ، احمر الشعر ، عريض المنكبين ، ذو عينين براقتين زرقاوين ، له ضحكة عالية رنانة ، جميل الصورة ، أديب لبق بارع حلو الحديث . » ثم تستطرد فى وصفه فتقول : « ويبدو أنه كان يحمل بين جوانحه البطولة والحب ، ولم يكن يفوقه سوى والدى الامبراطور فى الثراء والبلاغة وباقى الصفات الحميدة التى حبته بها الطبيعة . » ومن العجيب

---

(١) سنتناول هذا الاتفاق بشىء من التفصيل فى الفصل التالى من الكتاب . أنظر أيضا رواية كل من آن كومنين والمؤرخ المجهول فى الملحقين الثالث والخامس بآخر الكتاب .

حقا أن آن كومنين التى كانت تبغض اللاتين بغضا شديدا كتبت عن بوهيمند تقول : « لايوجد فى الامبراطورية الرومانية قاطبة رجل له مثل شخصية بوهيمند وصفاته . » (١)

بماذا نفسر امتداح الكاتبة الاغريقية للأمير النورماندى ؟ لعل ذلك يرجع إلى مالمسته الأميرة الصغيرة من نواحى البطولة والشجاعة التى اتصف بها هذا الرجل الطموح ، ثم ما سمعته من ابيها عن مغامراته السابقة فى أراضى الدولة البيزنطية .

على أى حال ، كان الوفاق تاما بين الكسيس وبوهيمند ، وستستمر العلاقة بينهما فى جو يسوده التفاهم حتى سنة ١٠٩٨ م عندما تظهر فى الأفق مشكلة انطاكية . وهنا يقلب بوهيمند للامبراطور ظهر المجن ، وتظهر شخصيته على حقيقتها دون أى رتوش ، ويكشف عن خبيئة نواياه ، ويقوم النزاع سافرا بينه وبين الامبراطور ، ذلك النزاع الذى سيؤثر تأثيرا بالغا فى تطور العلاقات بين الصليبيين والبيزنطيين طيلة القرن الثانى عشر .

وقامت بعد ذلك الحملة البروفانسالية ، ورئيسها هو ريمون الرابع ده سان جيل كونت تولوز ومركيز بروفانس (١٠٨٨ - ١١٠٥ م) . وقد عين البابا أربان الثانى ادهيار ده مونتى أسقف مدينة بوى رئيسا روحيا لتلك الحملة التى اشترك فيها كثير من الفرسان ورجال الاقطاع من مقاطعه لانجويدوق Languedoc بجنوب فرنسا . ويعتبر ريمون هذا من أقوى قادة الحملة الصليبية الأولى ، إن لم يكن أقواهم على الاطلاق .

(١) أنظر رأى آن كومنين فى بوهيمند والنورمان فى كتابى شارل ديل :
Diehl, L'Europe Orientale, 20; idem, Figures Byzantines, 2ème Série, 35.

ونعرف عن هـذا الرجل أنه كان مسنا وقت قيام الحملة ، كما اشتهر بالورع والتقوى . وقد عرف بتأييده المطلق للبابوية ، سواء فى نزاعها المعروف مع الامبراطورية والقوى الزمنية الأخرى ، أو فيما كانت تدعو اليه من حروب مقدسة ضد العرب فى اسبانيا . وكان ريمون هـو الآخر على علم كاف بأحوال العالم العربى لاتصاله به عن طريق الحرب فى اسبانيا (١) . كما كان شجاعا مقداما ، صريحا فى رأيه لايخشى المجاهرة به ، صلبا حازما إلى حد التعنت ، ويتضح هذا بجلاء فى موقفه من الكسيس عندما رفض بإصرار حلف اليمين له . وهو أول من تطوع من رجال الاقطاع فى سلك الحرب الصليبية ، وتم ذلك بعد بضعة أيام من انتهاء مؤتمر كليرمون ، مما يحملنا على الاعتقاد أنه كان على اتفاق مع البابا فى هـذا الشأن قبل انعقاد المؤتمر المذكور . ويحتمل أيضا أن أربان قد فكر فى تعيينه قائدا حربيا للحملة المزمع قيامها ، وأن يكون ذلك تحت إشراف البابوية ، مثلما عين الأسقف أدهيمار رئيسا روحيا لها . وكان الاتفاق تاما بين ريمون وأدهيمار ، إذ ترجع العلاقات بينهما إلى عهد بعيد ، كما كانت أسرة الأسقف تعمل فى تبعية الكونت .

كان المفروض أن هذا الجيش هو الذى أعد ليكون الجيش الصليبى الموحد . ولكن قامت جيوش أخرى ، وتعقدت المسألة تعقيدا كبيرا كما رأينا . ويلاحظ أن هذا الكونت كان ينزع دائما إلى الرئاسة والسيطرة ، وإلى فرض ارادته على باقى الفرنج . ومما لاشك فيـه أن وجود الأسقف فى جيشه كان عاملا هاما على التخفيف من غلوائه والتوفيق بينه وبين الآخرين ، حتى أنه بعد موت أدهيمار سرعان ما نشب النزاع بين سان جيل وبوهيمند حول انطاكية ، ولم يوجد من يتوسط بينهما .

---

(١) Grousset, Crois., I, 4.

وماضى سان جيل يدلنا على أنه قدم إلى الشرق مدفوعا بعامل التقوى على عكس زميله بوهيمند، وذلك استجابة لنداء البابوية وفقا لرواية المؤرخ الفرنسى شالندون. ويقول ميخائيل السورى انه سبق له الحج إلى الأراضى المقدسة قبل قيام الحملة الصليبية الأولى (١). كما أن مسلكه فى الطريق أثناء الحملة، وبالنسبة للأحداث التى وقعت حتى قيام مسألة انطاكية يؤيد ذلك. فكثيرا ما كان يعرض نفسه للخطر فى سبيل رجاله وأفراد جيشه. ثم أن موقفه من الامبراطور البيزنطى ورفضه أداء يمين التبعية له يدل على عناده وكبريائه، وانه كان مدفوعا ولو ظاهريا بالعامل الدينى. وحتى قبل سفره إلى الشرق. قطع على نفسه عهدا بعدم العودة إلى بلاده والبقاء فى الأراضى المقدسة حتى يموت فيها. ولكن أحداث السنوات التالية أكدت أن هذا الورع الذى اتصف به سان جيل لم يكن عميقا متأصلا حسبما كان يبدو من مواقفه فى المراحل الأولى من الحركة، كما أكدت أن هذا الرجل لم يكن يقل عن زملائه اللاتين طمعا وجشعا وحبا للسلطان، الأمر الذى يكشف عن أهداف الحركة الصليبية من بدايتها. فقد انتهى به الأمر إلى أن أصبحت له أطماع مادية، شأنه شأن غيره من زعماء هذه الحملة، أو لعل هذه الأطماع كانت كامنة فى قرارة نفسه، ولم يكشف عنها إلا فى الوقت المناسب. وقد سعى فى ذلك سعيا حثيثا حتى نجح آخر الأمر فى الحصول على منطقة طرابلس الشام لنفسه ولأسرته من بعده.

لقد اشترك مع ريمون كثير من الفرسان ورجال الاقطاع، وكذلك مؤرخ الحملة المسمى ريمون داجيل، وهو خادم كنيسته الخاصة الذى ترك لنا كتابا

---

(١) « ... Dans ce temps, et tandis que les Turks dominaient à jérusalem et sur tout le littoral, un chef nommé Saint — Gilles vint visiter la Cité sainte ... » Cf. Michel le Syrien, R.H.C. - Doc. Arm., I, 327.

عن الحملة لا يقل فى قيمته عن تآليف زملائه ممن اشتركوا فيها وسجلوا أحداثها.
وأخيرا فى خريف عام ١٠٩٦ قامت الحملة من جنوب فرنسا ، ومرت بشمال إيطاليا وباستريا وكرواتيا ودلماشيا والبانيا ومنها إلى مقدونية . ولم يقع أثناء الطريق حادث ما ، إذا استثنينا موقف الكرواتيين العدائى ، حتى لقد اضطر الكونت أن يدافع عن نفسه ضد اعتداء السكان عليه وعلى رجاله . ثم واصل الجيش سيره إلى دورازو عن طريق راجوزا Raguse وسكوتارى Scutari.
وأقام كونت تولوز علاقات ودية مع يوحنا كومنين حاكم منطقة دورازو ، وهو ابن الامبراطور الكسيس كومنين . وكان الامبراطور قد كلف جيشه المكون من البجاناكية والكومان والترك والبلغار (١) ، بمراقبة القوات

---

(١) الواقع أن أباطرة بيزنطة تعلموا من مصير الامبراطورية الرومانية القديمة درسا مفيدا، وذلك فيما يتعلق بتكوين جيوشهم. فالمعروف أن أباطرة الرومان الغربيين تركوا أبناء جلدتهم فى الكتائب الرومانية ينغمسون فى حياة اللهو والترف ، بينما استخدموا الجرمان كجند مرتزقة لحماية دولتهم والعمل على حفظ الأمن والنظام فيها . ولكن تلك الكتائب التيوتونية التى استخدموها للمحافظة على ملكهم كانت هى المعول الذى هدم تلك الامبراطورية . والسبب فى ذلك أن أولئك الجند المرتزقة كانوا من جيش واحد وأصل واحد ، وكان من السهل تجميع كلمتهم تحت إمرة قائد واحد يوجههم إلى قلب الامبراطورية . وهذا ماحدث بالفعل فى أخريات عهدها. أما الأباطرة الشرقيون — ومن بينهم الكسيس كومنين — فقد لجأوا إلى طريقة أخرى يمكن بها علاج المساوىء التى نجمت عن وحدة الجنس فى صفوف الجيش الغربى. فلم يقتصروا فى استخدام المرتزقة على الجند الجرمان وغيرهم من المتبربرين الذين جعلوا منهم عدة كتائب . ولكن استخدموا أيضا الجند المرتزقة من أجناس أخرى مختلفة وميول مختلفة وفى بعض الأحيان من أديان مختلفة ، وبذلك يضمنون عدم توحيد كلمة الجيش المتشعب فى الأصل والاتجاه والجنس والدين والعادات والتقاليد تحت إمرة رجل واحد . فلا يمكن جمع كلمتهم وتوجيهها ضد الامبراطورية أو الجالس على العرش الامبراطورى. ولذلك نجد إلى جانب كتائب الجرمان كتائب من الفرنجة والنورمان والمغول والروس ، وعناصر من الأتراك كالبجاناكية والكومان والتركوبول وغيرهم . وكان هذا — بلا شك — من بين العوامل التى أدت إلى بقاء الامبراطورية الرومانية الشرقية حوالى عشرة قرون بعد زوال الدولة الرومانية القديمة . أنظر عن ذلك المراجع التالية :

=

البروفانسالية أثناء اجتيازها لأراضى امبراطوريته ، وذلك على نحو مافعله مع الجيوش الصليبية الأخرى ، وتنفيذا لسياسته العامة حيال الصليبيين (١) .

وبينما كانت قوات سان جيل تعبر نهر بيلا جونيا ، حدث اشتباك بينها وبين الجيش البيزنطى . وتفصيل ذلك أن الأسقف أدهيار ابتعد قليلا عن معسكر رفاقه ، فهاجمه الترك وأوقعوه على الأرض فأصيب بجرح فى رأسه ، ثم سلبوه مامعه . ولولا نزاع نشب بين مهاجميه فى أيهم له الفضل فى أسر الأسقف والقبض عليه ، لقضى عليه ولأصبح فى عداد الأموات . وبعد أن أنقذ كونت تولوز الأسقف ، أتم هو ورجاله سيرهم إلى أن وصلوا إلى قلعة تسمى بوكينات Bucinat ، وكان الخطر محدقا بهم من جميع الجهات . وعلم الكونت أن الأتراك يريدون مهاجمة جيشه فى هذه المنطقة ، فتمكن لهم بمساعدة بعض الفرسان . ثم انقض عليهم وقتل عددا كبيرا منهم ، ولاذ الباقون بالفرار خوفا على حياتهم . وفى تلك الأثناء وصل خطاب من الامبراطور البيزنطى يؤمن فيه سان جيل وجماعته على حياتهم ، ثم واصل الجيش البروفانسالى السير إلى سالونيكا ؛ وقد اضطر الأسقف إلى التخلف نظرا لمرضه ، وبقى معه نفر قليل من الجيش (٢).

بعد ذلك واصل الجيش تقدمه حتى بلغ مدينة روسكوى ، وقد أظهر سكانها العداء للصليبيين الذين اضطروا إلى استخدام القوة ، فهاجموا المدينة واستولوا على

Runciman, Byzantine Civilisation, 15-6; Ostrogorsky, Hist. = of the Byzantine State, 304, 319 ff., 328 n. 3, 348; Diehl, Byzance: Grandeur et Décadence, 38, 41; Hussey, The Byzantine World, 15, 52, 97; Oman, The Art of War in the Middle Ages, 11-2.

(١) Grousset, Crois., I, 23 - 4.

(٢) Raimond d'Agiles, R.H.C.-H. Occ., III, 237.

استحكاماتها وعاثوا فيها فسادا . ولم يلبث البيزنطيون أن قابلوا هذا العدوان بمثله عندما مر اللاتين بمدينة رودستو Rodosto . ولكن الفرنجة نجحوا فى صد هجمات الترك والبجاناكية الذين كانوا جندا مرتزقة فى الجيش البيزنطى. وفى تلك الأثناء قابل سان جيل سفراءه الذين كان قد أوفدهم إلى الامبراطور الكسيس ، وكان بصحبتهم رسل من قبل الامبراطور طلبوا إليه أن يستبق قواته إلى القسطنطينية لمقابلة سيدهم. وكان الامبراطور البيزنطى قد أحسن استقبال سفراء كونت تولوز، وغمرهم بهداياه واستمالهم إليه بسياسته ولباقته . وترك هذا أثره فى نفوسهم ، فأخبروا سيدهم الكونت أن جودفرى وبوهيمند وكونت ده فلاندرز يرجونه التوجه توا إلى العاصمة لمقابلة الامبراطور ، وحثه على الاشتراك مع الصليبيين فى صراعهم المرتقب ضد الأتراك . ويتهم مؤرخ الحملة ريمون داجيل سفراء كونت تولوز بأنهم استجابوا لمطالب الكسيس ، وانصاعوا له بفضل هداياه وسياسته الماكرة وحسن معاملته لهم (١) .

على أى حال قبل سان جيل هذه الدعوة ، وترك جيشه وواصل سيره مع جماعة قليلة صوب العاصمة لمقابلة الامبراطور. ويعتقد مؤرخ الحملة أن الكسيس أراد بهذه الحيلة إبعاد الكونت عن رجاله ، حتى يتمكن الجيش البيزنطى من مهاجمة القوات البروفانسالية والتغلب عليها بسهولة . وهكذا نراه يلقى اللوم والتبعة على البيزنطيين ، شأنه فى ذلك شأن باقى المؤرخين اللاتين مثل فوشيه ده شارتر والمؤرخ المجهول . ويفند شالندون هذه التهمة قائلا إنها تهمة باطلة ، وإن الهدف الذى كان يرمى إليه الكسيس هو إقناع كونت تولوز بوجهة

---

(١) انظر ميخائيل السورى : نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

نظره أسوة بما فعله مع باقى رؤساء الفرنج الذين توافدوا تباعا على القسطنطينية

وبعد سفر سان جيل بقليل نشبت معركة بين قواته وبين الجيش البيزنطى فى ظروف يشوبها الغموض ، ولم نعرف منها من كان البادىء بالعدوان . وقد منى الفرنج بهزيمة شديدة ، إذ تشتت شملهم وسلبوا أسلحتهم وعتادهم إلى الجيش البيزنطى . ويذكر شالندون أن هذه المعركة حدثت على اثر تعدى الفرنج على مدينة روسكوى وغيرها . (١) ولما علم كونت تولوز بالكارثة التى لحقت بقواته ، وكان قد وصل إلى القسطنطينية ، استاء كثيرا واستبد به الغضب . وقد ترك هذا الحادث أثره فى نفس سان جيل وفى موقفه من الامبراطور عند مقابلته إياه ، أو لعله اتخذه ذريعة للتشدد فى موقفه من الكسيس .

عندما وصل الكونت إلى القسطنطينية أحسن الامبراطور استقباله ، وطلب منه أداء اليمين كما فعل باقى رؤساء الفرنج . وهنا نلاحظ أن الكسيس كان مستمرا فى تنفيذ سياسته التى رسمها لنفسه بدقة تامة . وقد رفض الكونت رفضا باتا إجابة الامبراطور إلى طلبه ، لأنه كان يعتبر نفسه تابعا لسيد آخر غير الكسيس وهو البابا أربان الثانى . إلا أنه أفهم الامبراطور بأنه إذا وعده بالاشتراك فى الحملة ضد السلاجقة لغزو بيت المقدس ، فإنه سوف يضع نفسه وأملاكه وذويه تحت تصرفه. ولكن الكسيس رفض التعهد بذلك، متذرعا بأنه لا يمكنه ترك دولته معرضة لخطر جيرانه من الألمان والهنغار والكومان ، الذين

(١) Chalandon, Première Crois., 144-5.

كانوا يغيرون عليها من وقت لآخر(١). وهكذا نرى أنه فى الوقت الذى تمكن فيه الكسيس من إقناع هيوج وجود فرى وبوهيمند وغيرهم من كبار الفرنج بحلف اليمين ، رفض سان جيل بعناد أداء القسم المطلوب .

لم ينته الامبراطور وكونت تولوز إلى اتفاق ودى ، وكانت الأنباء الخاصة بهزيمة البروفانساليين قد وصلت القسطنطينية . وأبدى ريمون استياءه الإهانة التى لحقت به وبقواته على أيدى رجال الامبراطور ، وأصر على الانتقام لنفسه . ولعله وجد فى هذه الحادثة فرصة طيبة للتشبث بموقفه ، فأوعز لعدد من فرسانه باتهام الكسيس بالتقصير من جانبه فى حماية قواته . وأجاب الامبراطور بأنه علم أن قوات ريمون عاثت فسادا فى بلاده وأساءت معاملة الأهالين ، وأنه الأجدر بالكونت ألا يجأر بالشكوى أو يتحدث فى هذا الموضوع . ولما كان الكسيس يرغب فى حسم الموضوع ، فقد وافق على أن يجرى تحقيق لمعرفة من البادىء بالعدوان . ولم تكن نتيجة التحقيق فى صالح كونت تولوز بعد أن ثبت عدم صحة دعواه .

---

(١) Respondit comes : “ Se ideo non venisse, ut dominum alium faceret aut alii militerat, nisi illi propter quem patriam et bona patriae suae dimiserat. Et tamen fore, si imperator cum exercitu iret Iherosolimam, quod se et suos et sua omnia illi committeret.” Sed imperator excusat iter, dicens: “Praemetuere se Alemannos et Ungaros et Comanos, aliasque feras gentes, quae imperium suum depopularentur, si ipse transitum cum peregrinis faceret . .. ” Cf. Raimond d’Agiles, R. H. C. — H. Occ., III, 238.

ومهما كان الأمر ، فقد أصر ريمون على موقفه ؛ ولكنه وجد فى النهاية أن تشبثه سوف يضر بالهدف الصليبى الذى جند اللاتين له كل امكانياتهم . وفى هذه الأثناء وصل إلى العاصمة بقية الجيش البروفانسالى وعلى رأسه الأسقف أدهمار . وقد حاول الأسقف التوفيق بين الامبراطور وسان جيل ، وأخذ كل من جودفرى وكونت ده فلاندرز على عاتقيهما إفهام سان جيل أن عناده سيؤثر تأثيرا سيئا على الحرب الصليبية ، وقد يؤدى إلى فشلها فى نهاية الأمر . وأوضحوا له أنه ليس من الصالح العام أن يتقاتل المسيحيون ، والأتراك السلاجقة واقفون لهم بالمرصاد فى نيقية على بعد بضعة كيلو مترات من معسكرهم . كما حاول كل من هيوج وجودفرى اقناع سان جيل بحلف اليمين المطلوبة . أما بوهيمند فقد انحاز صراحة إلى جانب الامبراطور فى موقفه ضد البروفانساليين ليحافظ على حسن صلته به تنفيذا لسياسته التى اتبعها حياله .

واخيرا قبل ريمون ده سان جيل تحت إلحاح زملائه وضغط الظروف وخشية انقسام الصفوف ، أن يقسم هو ورجاله باحترام حياة الامبراطور وشرفه ، ولكنه رفض حتى النهاية حلف يمين التبعية والولاء بالمعنى المعروف من هذا اليمين فى الغرب الأوروبى . وعندما ترك كونت تولوز الامبراطور كانت العلاقة بينهما متوترة بعض الشىء ، حتى أن الكسيس لم يغدق عليه من المنح والهدايا مثلما فعل مع باقى رؤساء الفرنج (١) .

تلك هى أخبار الجيوش اللوثارنجية والنورماندية والبروفانسالية ، أما الجيش

---

(١) Raimond d'Agiles, R. H. C. — H. Occ., III, 238; cf. Chalandon, Première Crois., 146—7.

الفرنسى الرئيسى بقيادة روبرت كونت نورماندیا واتين كونت بلوا ، فقد استبقه هيوج ده فيرماندوا المعروف بهيوج العظيم أخو فيليب الأول ملك فرنسا، وكان أول من وصل من زعماء الفرنج إلى القسطنطينية . ولم يستطع فيليب الاشتراك بشخصه فى الحملة بسبب قرار الحرمان الذى أصدره البابا ضده ، ولكنه شجع أتباعه على حمل شارة الصليب والذهاب إلى الأراضى المقدسة ، وعين أخاه قائداً للحملة .

كان هيوج شديد الكبرياء ، متعجرفا ، لم يكن يتمتع بخصال القادة الكبار أو كفاءاتهم، ولم يقم بأى دور هام فى الحملة اللهم إلا دور الوسيط بين الكسيس وباقى الزعماء الفرنج كما رأينا آنفا . وقد أرسل خطابا إلى الامبراطور قبل وصوله قال فيه : « ليكن فى علمك أنى أعظم من أنجبتهم السماء ... » ، وبذلك كشف عن جانب من طباع اللاتين . ثم طلب منه أن يستقبله بما يليق بشخصه العظيم من ترحاب وتكريم . وعندما استلم الامبراطور رسالة الكونت أرسل إلى عماله فى الأقاليم طالبا منهم استقباله استقبالا لائقا عند وصوله ، مع إحاطته علما بحركاته وسكناته. وهذا دليل على ذكاء الكسيس ودبلوماسيته وبعد نظره.

ابتدأ هيوج العظيم رحلته من الغرب ، ولكن عاصفة عاتية هبت فى الطريق فدفعت به ومن كان معه على ساحل ابيروس ، ووقع فى أيدى البيزنطيين . وقد أكرم الحاكم البيزنطى وفادته تنفيذا لتعليمات الامبراطور ؛ ثم أرسله معززا إلى القسطنطينية حيث استقبله الكسيس بحفاوة بالغة كان لها أجمل الأثر فى نفسه (١) .

---

(١) Alexiad, 253—4.

وكان هيوج موضع رقابة من وراء الستار . وقد تبين الكسيس أن لديه رهينة ثمينة فى شخص هذا الرجل ، ورأى ببصيرته النافذة أن يستخدمه فى مفاوضاته مع باقى زعماء الفرنج . لذا نراه يعامله بالحسنى واللين ، ولم يجد أدنى صعوبة فى الحصول على موافقته على أداء يمين التبعية والولاء له (١). وغمره بالهدايا النفيسة ، وإن كان قد واصل سياسته بقصد الحد من حريته (٢) .

ومما يجدر ذكره أن الامبراطور قد استخدم هيوج فى تذليل الصعاب التى قامت بينه وبين زعماء الفرنج الآخرين ، وفى محاولة إقناعهم بوجهة نظره . وقد رأينا مثلا لذلك فى توسطه لدى كل من جودفرى وريمون ده سان جيل. والواقع أن الدور الذى لعبه هيوج سهل على الكسيس مهمته إلى حد كبير .

وبعد ذلك بفترة من الزمن وصلت الحملة الفرنسية الرئيسية بقيادة روبرت كورتهيز أمير نورمانديا (٣) Robert Courteheuse ، وصهره اتين كونت

---

(١) Diehl, L'Europe Orientale, 19.

(٢) Runciman, Crusades, I, 144. - وقد ذكرت آن كومنين أن الحاكم البيزنطى حنا كومنين لم يطلق هيوج مطلق الحرية . بينما أوضحت المصادر الغربية — وبخاصة المؤرخ المجهول والبرت دكس — أنه احتجز كأسير غير مرغوب فيه . أنظر :
Gesta Francorum, 14; Albert d'Aix, 304.
ولكن مسلك هيوج حيال الأحداث التى وقعت فيما بعد ، وبخاصة علاقته الطيبة بالامبراطور البيزنطى وقيامه بدور الوسيط بين الكسيس وباقى زعماء الفرنج تؤكد خلاف ذلك . أنظر تحليل رانسيان لموقف البيزنطيين من هيوج Runciman, op. cit., I, 144 n. 2.

(٣) هو الابن الأكبر لوليم الفاتح ، ويطلق عليه معاصروه اسم « الدوق الطيب » لطيبة قلبه وحسن سجاياه. وقد قام برهن دوقيته لأخيه المسمى وليم روفوس William Rufus ، حتى يتسنى له جمع المبالغ اللازمة للانفاق على الحملة . ويبدو أنه لم يكن عضوا فعالا فى الجيش الصليبى ، بالرغم من أنه قاتل جنبا إلى جنب مع باقى الزعماء الفرنج فى نيقية وانطاكية ، كما ساهم معهم فى الاستيلاء على القدس . أنظر :
Haskins, The Normans, 212; Runciman, Hist. of the Crus., I,165.

بلوا وشارتر(١)، وروبرت الثانى أميرالأراضى الواطئة(٢). واشترك فى هذه الحملة أيضا ارنولف Arnulf الخادم الخاص لكنيسة الدوق، والذى لمع إسمه فيما بعد عندما أصبح بطريقا لبيت المقدس. وكذلك المؤرخ فوشيه ده شارترالذى سجل لنا أحداثها فىحواية له باللاتينية باسم «أعمال الفرنجة الحاجين إلى بيت المقدس».

مر روبرت واتين بايطاليا حيث باركهما البابا اربان الثانى فى روما، ثم واصلا سيرهما برفقة الجيش إلى مدينة بوى. وبعد ذلك أبحرا من برنديزى إلى البلقان (١٥ ابريل سنة ١٠٩٧)، ونزلا فى دورازو، ومنها إلى سالونيكا التى أقاما فيها أربعة أيام، ثم واصلا السير صوب القسطنطينية (٣) .

---

(١) اشتهر اتين هذا بسعة علمه واطلاعه. وكان فارسا بارزا، وشاعرا رقيقا، وعرف عنه الجرأة والكرم. وقد تزوج من ابنة وليم الفاتح ملك انجلترا المساه أديل Adèle. ويكاد يكون الوحيد من بين الفرنج الذى امتدح بصدق واخلاص الكسيس والبيزنطيين؛ فقد اثنى على الامبراطور وقومه بدون تحفظ. ونستدل على ذلك من خطابيه اللذين أرسلهما من الشرق إلى زوجته فى أوروبا. وقد انتخب رئيسا للجيش الصليبى بعد استيلاء اللاتين على مدينة نيقية، واشترك فى موقعة دوريليوم وحصار انطاكية. ولكنه لم يحتمل شدة القتال وقسوة الحياة وانتشار المجاعة والوباء، فهرب من الميدان عائدا إلى الغرب. وهناك أخذ الجميع يعيرونه لفراره من ساحة القتال، وكان على رأس هؤلاء زوجته أديل. ولذلك انتهز أول فرصة مواتية، واشترك فى الجيش الصليبى الذى قام من الغرب سنة ١١٠١ م بقيادة وليم كونت بواتييه ولكنه قتل فىموقعة الرملةالثانية سنة١١٠٢م على أيدى القاطميين.
أنظر عن ذلك : Runciman, op. cit., 165, 232 sqq.; Setton, Hist. of the Crus., I, 276—7, 349—65.

(٢) هو روبرت الثانى ده فلاندرز أمير الأراضى الواطئة، وابن روبرت الأول الذى زعم بعض المؤرخين أن الامبراطور البيزنطى الكسيس كومنين أرسل يستنجد به سنة ١٠٨٨م ضد الأتراك السلاجقة. راجع عن ذلك : - Guibert de Nogent, R.H.C. H.Occ., IV, 131; Runciman, op. cit,. I, 166; Setton, op. cit., I,275.

(٣) Chalandon, Première Crois., 148.

ويظهر أن الامبراطور الكسيس لم يلق أية صعوبة فى إقناع رؤساء هذه الحملة بحلف يمين التبعية والولاء . وقد بهر فوشيه ده شارتر بما حوته القسطنطينية من النفائس والجواهر الثمينة النادرة . ويذكر هذا المؤرخ أنه لم يحدث أى احتكاك أو تصادم بين الجيش الفرنسى والبيزنطيين ، وأن الامبراطور كان يمدهم بما يلزمهم من المؤن ، كما سمح لهم بالتوجه للصلاة فى كنائس العاصمة ، ولكن فى جماعات قليلة وفى ساعات معينة ، حفظا على النظام ومنعا من حدوث الشغب. وقد قبل كل من كونت نورماندیا وكونت بلوا أداء يمين التبعية والإخلاص الذى طلبه الامبراطور دون أى اعتراض . وبعد ذلك أغدق عليهم الأموال والهبات والجواهر (١) .

وجدير بالذكر أن الكونت اتين كتب عندما كان مقيما بقلعة كيفيتوت بالقرب من نيقية خطابا إلى زوجته أديل بأوروبا يمتدح فيه الامبراطور البيزنطى، ويقول إنه استقبل بالحفاوة الزائدة والإكرام البالغ، وان الامبراطور أحسن إليه وأغدق عليه المال، وغمره بالهدايا النادرة ، وعامله كما لو كان إبنا له . ويستمر فى الثناء على الكسيس قائلا : « حقا يا عزيزتى لقد ألح على جلالته ومازال يصر على أن يتولى رعاية أحد أبنائنا وأن يتبناه ... ولا يوجد تحت قبة السماء من هو أعظم من هذا الرجل ، فقد غمر كل رؤسائنا بالمنح والهدايا ، وكذلك فعل مع كل فرساننا ، كما أطعم جميع الفقراء ... » ثم يستطرد فيذكر أن سفن الامبراطور كانت تحمل إليهم الطعام من القسطنطينية إلى قلعة كيفيتوت

(١) Foucher de Chartres, R.H.C.—H. Occ., III, 332-3; cf. Grousset, Crois., I, 27.

حيث كانوا يعسكرون انتظاراً لمهاجمة الأتراك . واختتم الكونت اتين خطابه بقـــوله : « لا أعتقد أنه يوجد فى زماننا رئيس أو زعيم له مثل شخصية الامبراطور وصيته الذائع . حقا أن أباك يا عزيزتى أعطانا الكثير من الهدايا النفيسة ، ولكن ذلك لا يقاس بالنسبة لما أضفاه علينا الامبراطور »[١] . وإن دل هذا على شىء فانما يدل على شعور بعض اللاتين نحو الكسيس ، وعلى الأثر الحسن الذى تركه فى نفوسهم فى هذه الفترة من التاريخ .

ولعلنا نلحظ من استعراضنا للوقائع السالفة أن هذه الحملة الصليبية الأخيرة لم تصطدم بالعقبات التى واجهت الحملات السابقة لها ؛ ذلك لأن الجيوش الصليبية

---

(١) Hagenmeyer, Epistolae et Chartae, 138—40; cf. Diehl, L'Europe Orientale, 22. ـ وفيما يلى مقتطفات من الخطاب المذكور :

« Imperator vero digne et honestissime, et quasi filium suum me diligentissime suscepit, et amplissimis ac pretiosissimis donis dotavit ... Vero, mihi dilecta, ejus imperialis dignitas me persaepe monuit et monet, ut unum ex filiis nostris ei commendemus ... In veritate tibi dico, hodie talis vivens homo non est sub coelo. Ipse enim omnes principes nostros largissime ditat, milites cunctos donis relevat, pauperes omnes dapibus recreat ... Nostris quoque temporibus, ut nobis videtur, non fuit princeps universa morum honestate adeo praeclarus. Pater, mi dilecta, tuus, multa et magna tradidit, sed ad hunc pene nihil fuit ... " Cf. Stephani, comitis Carnotensis ad Adelem, uxorem suam, Epistola, R. H. C. — H. Occ., III, 885 — 6.

أنظر أيضا الترجمة العربية للخطاب فى الملحق الرابع بآخر الكتاب نقلا عن طبعة هاجنماير .

التى سبقتها إلى القسطنطينية كانت قد مهدت لها الطريق إلى حد كبير ، كما أزيلت العقبات والعراقيل، وذللت الصعاب، وساد التفاهم بين البيزنطيين وزعماء الفرنج قبل وصول الجيش الفرنسى . ولذلك عندما مر هذا الجيش بأراضى دولة الروم الشرقية ، لم يحدث أى احتكاك بينه وبين الإغريق ، وكانت علاقات رؤسائه مع الامبراطور على أحسن ما يكون .

الفصل السادس

اتفاقية القسطنطينية ومشكلة انطاكية

أخذ الصليبيون يتوافدون على القسطنطينية واحدا فى إثر الآخر . وقد عمل الامبراطور الكسيس جاهدا على استمالتهم إليه ، واكتسابهم إلى جانبه ، وإخضاعهم لسيطرته، واستخدامهم لمصلحته ، مستعينا فى ذلك بالسياسة والمال وحسن المعاملة والدهاء حينا ، وباستخدام القوة وفرض الرقابة المشددة والتلويح فى وجههم بمسألة التموين حينا آخر . ووفق الامبراطور إلى حد كبير فى تحقيق الهدف الذى كان يصبو إليه . ويكفى أن قالت عنه ابنته آن إنه كان ماهراً فى إعداد نفسه لكافة الاحتمالات ، وقد اشتهر بلباقته وحسن تصرفه فى الوقت المناسب (١) .

وكان هيوج أخو فيليب الأول ملك فرنسا هو أول من وصل من زعماء الفرنج إلى عاصمة الامبراطورية ، وقد مثل بين يدى الامبراطور الذى لم يجد صعوبة فى إقناعه بحلف يمين التبعية والولاء (٢). وقد أصبح من أخلص أعوانه ،

---

(١) Alexiad ,262.

(٢) يرتبط هذا اليمين بنظام الاقطاع الذى كان سائدا فى الغرب الأوروبى وقتذاك . وقد مر بعدة تطورات تاريخية اعتبارا من القرن السابع ، إلى أن بلغ ذروة نضجه واكتماله خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر . والاقطاع هذا يرتبط بالأرض ارتباطا وثيقا ، فكان الامبراطور يهبها للملوك ، وهؤلاء يهبونها النبلاء ، والنبلاء لمن دونهم إلى أن تصل إلى رقيق الأرض فى أسفل السلم الاقطاعى . وكان التابع يتعهد القيام بواجباته الاقطاعية لسيده المتبوع بعد أن يحلف بين يديه يمين الطاعة والولاء قائلا مامعناه : « اننى أصبح تابعك ياسيدى، وأنت ولى نعمتى عن اقطاع كذا وكذا. وانى أعدك بحمايتك والدفاع عنك فى الحياة وحتى =

واستغله الامبراطور فى محاولة إقناع باقى الزعماء اللاتين بوجهة نظره . ثم تبعه جودفرى ، ونعرف أنه تردد فى بادىء الأمر فى موقفه من الامبراطور، وأنه رفض مقابلته وتقديم فروض الطاعة له ، إلا أن الظروف الملحة القاسية ووساطة هيوج دفعته فى النهاية إلى الإذعان لرغبة الكسيس وأداء يمين الولاء . أما بوهيمند فقد أبدى رغبته منذ البداية فى الاتفاق مع الكسيس وإقامة علاقات ودية معه ، ولم يتردد فى حلف اليمين تنفيذا لخطته التى سار عليها ، وهى المحافظة بشتى السبل على حسن صلته بالامبراطور حتى يساعده فى تحقيق مطامعه السياسية

= الموت». ومن أهم الواجبات المفروضة على التابع الاقطاعى هى الطاعة والولاء التام لمتبوعه، ومساعدته بالقتال فى صفوفه ، والاجتماع به من وقت لآخر للتشاور معه فى كل مايهم السيد أمره من الشئون العامة ، مثل اعلان الحرب أو السلم أو عقد المعاهدات . فضلا عن الالتزامات والقيود والواجبات الثقيلة التى الزم التابع بأدائها لسيده المتبوع مثل الرسوم والعشور والاحتكارات وما إلى ذلك . أنظر كوبلاند وفينو جرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا – ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ص ٦ ومابعدها و ٦٤ ومابعدها ؛ كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (الترجمة العربية) ط . ثانية – ص ٣٨–٤٤ و ٧٣ وما بعدها .
Stephenson, Med. Feudalism, 18 - 9; Downs, Basic Doc., 48 - 53.
ولعل هذا يفسر لنا سر إصرار الكسيس على أن يؤدى له هؤلاء اللاتين يمين التبعية والولاء بمعناه المعروف فى الغرب وقتذاك ، مع مايرتبط به من قيود والتزامات وواجبات لم يكن من السهل الفكاك منها ، إلا إذا نكث التابع يمينه مثلما فعل بوهيمند عندما استأثر بانطاكية رافضا اعادتها إلى بيزنطة . وجدير بالذكر أن هذا النوع من الاقطاع الغربى لم يكن سائدا فى الدولة الرومانية الشرقية حيث كانت السلطة كلها تتركز فى شخص الامبراطور باعتباره ممثل الله على الأرض . وكانت بيزنطة على علم بهذا النوع من الاقطاع عن طريق صلاتها بالغرب قبل قيام الحملة الصليبية نفسها بوقت غير قصير ، وعن طريق استخدام الغربيين فى جيوشها كمرتزقة ، وعن طريق حروب الاتساع الاقطاعى التى قام بها النورمان فى القطاع الغربى من بيزنطة . ولذا أراد الكسيس بدهائه أن يربط الفرنج بنظمهم وقوانينهم التى ألفوها ودرجوا عليها فى بلادهم، حتى يضمن ولاءهم له ويستخدمهم لتحقيق مصالحه . وحول الاقطاع البيزنطى ، أنظر هارتمان وباراكلاف : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى (الترجمة العربية) ، ص ١٠–١١ والحواشى وص ٩١–٩٦ والحواشى .

فى الشرق . وكذلك لم يجد الامبراطور البيزنطى صعوبة فى حث كل من روبرت كونت نورماندیا واتين كونت بلوا على حلف اليمين . ولكن ليس معنى ذلك أن الطريق كان ممهدا أمام الكسيس على طول الخط ، فقد اعترضته بعض الصعاب فى سبيل إقناع عدد من كبار الفرنج بالانضواء تحت لوائه . فقد رفض ريمون ده سان جيل كونت تولوز رفضا باتا أن يقسم يمين التبعية للامبراطور ، مما أدى إلى توتر العلاقات بينهما ولو إلى حين . وقد قبل هذا الكونت بعد توسط بوهيمند وغيره من زعماء اللاتين أن يحلف بالمحافظة على حياة الامبراطور وشرفه وعدم التعرض له . وعلى أى حال ، فقد أصبحت العلاقات بين الرجلين فيما بعد على أحسن ما يكون ، وبات كونت تولوز من أخلص أعوان الامبراطور ، الأمر الذى حدا بالاميرة آن كومنين أن تكتب عنه قائلة : « كان الكسيس يقدره بنوع خاص ليقظته وإخلاصه وحسن سيرته ، ولعله أنه ما كان ليضع شيئا فوق الحق . وكان سان جيل يبز الجميع كتفوق الشمس على النجوم »(١). وكما رفض كونت تولوز أداء اليمين ، كذلك رفض تنكريد ابن أخت بوهيمند الذهاب إلى القسطنطينية وتقديم فروض الطاعة لشخص الامبراطور . ولكن موقف هذين الرجلين لم يؤثرا تأثيرا كبيرا على العلاقات بين الصليبيين والدولة البيزنطية بصفة عامة على الأقل فى هذه المرحلة من تاريخ الحملة .

لقد تذرع الكسيس بالصبر المقترن بالحزم والدهاء خلال مرور الجيوش الصليبية بأراضى امبراطوريته وبعاصمة ملكه . وكان لسياسته التى استنها أثرا ملموساً فى انضمام كثير من الفرنج إلى جانبه ، وعلى رأسهم هيوج واتين كونت بلوا ، وفى امتداح بعض مؤرخى الحملة من اللاتين له ، مثل البرت دكس وفوشيه

---

(١) Alexiad, 267; cf. Diehl, L'Europe Orientale, 21.

ده شارتر . كما وجد رؤساء الفرنج أنه من الأفضل أن يحل الوفاق محل الشقاق بينهم وبين الامبراطور حتى ينالوا عطفه ويكسبوا تعضيده ، ويتفرغوا للمهمة التى تركوا أوطانهم وبلادهم من أجلها ، ألا وهى محاولة الاستيلاء على الأراضى المقدسة وتأسيس إمارات لهم بها .

لقد كانت الظروف إذن تستدعى ضرورة الاتفاق بين الكسيس والفرنج ، على الرغم من تضارب المطامع واختلاف الأهداف . فكان زعماء الفرنج أنفسهم يشعرون بوجوب تأييد البيزنطيين لهم لمواصلة حملتهم التوسعية حتى تصل إلى الهدف الذى ينشدونه ، بالاستيلاء على أراض جديدة يحكمونها فى الشرق . أما بيزنطة فقد رأت استخدام هذه الجيوش الصليبية لمصلحتها وتحقيق أهدافها السياسية ، كما كانت تقدر ما قد يقدمه لها جيش الصليبيين من خدمات لاسترداد أملاكها القديمة فى آسيا الصغرى من الأتراك السلاجقة الذين كانوا قد استولوا عليها منذ عهد قريب . وفى مايو سنة ١٠٩٧ م عقدت بالقسطنطينية اتفاقية بين الكسيس وزعماء الفرنج ، نصت على شروط خاصة تعهد بها الطرفان.

تعهد الصليبيون بأن يعيدوا إلى حظيرة الامبراطورية الأراضى والأقاليم التى كانت تابعة لها فيما مضى وذلك بعد تخليصها من قبضة السلاجقة ، كما تعهدوا بأن يقسموا للامبراطور يمين التبعية والإخلاص، وأن يصبحوا أتباعا له وجندا مرتزقة فى خدمته . أما الكسيس فقد تعهد فى مقابل ذلك بمساعدة الصليبيين والمحافظة على سلامتهم خلال مرورهم عبر أراضى دولته . كما وعدهم بأن يسهل لهم مسألة التموين ، وأن يضع فرقة من الجيش البيزنطى تحت تصرف زعماء الفرنج عند ابتداء الحملة (١) . هذا ما رواه المؤرخ شارل ديل عن الاتفاقية ،

---

(١) Diehl, L'Europe Orientale, 22; Baldwin, Med.Church, 102. =

ويذكر شالندون أن الكسيس تعهد أيضا بالاشتراك فى الحرب الصليبية ، وأن يكون على رأس الجيش المتجه صوب بيت المقدس ، وأنه سلم ابنه وصهره كرهائن على احترام تنفيذ المعاهدة . ويستطرد نفس المؤرخ قائلا إن بوهيمند كانت له اليد الطولى فى عقد هذه المعاهدة . ويعلل شالندون ذلك بقوله إن تاريخ إبرامها هو مايو سنة ١٠٩٧ م ، أى عقب وصول بوهيمند إلى القسطنطينية مباشرة (١) .

لقد كانت الاتفاقية بصفة عامة محددة واضحة ، وتركت آثارها البالغة فى تطور العلاقات بين الافرنج والبيزنطيين خلال القرن الثانى عشر . فعندما وضع اللاتين أيديهم على انطاكية ، نكثوا عهدهم وبدوا على حقيقتهم وكشفوا عن أهداف حركتهم . ولو أن بيزنطة لم تيأس فى المطالبة بتسليم انطاكية إليها تنفيذا للاتفاقية . كذلك ثار الخلاف بين المؤرخين حول البلاد التى نصت المعاهدة على

= ويذكر نورمان بينز أن الدولة البيزنطية لم تجد صعوبة فى معرفة تكتيكات الغربيين والتعرف على نفسيتهم ، وأن الكسيس تمكن بسياسته ودبلوماسيته من الانتفاع بفكرة اليمين الاقطاعى المعروف عند أولئك القوم فى تثبيت حقوق دولته على كثير من الأراضى التى تم غزوها .

أنظر Baynes & Moss, Byzantium, 30.

(١) Chalandon, Alexis Comnène, 188; cf. Ostrogorsky, 322.

وقد أشارت آن كومنين إلى مضمون الاتفاقية فى صدد حديثها عن القسم الذى أداه جودفرى إلى الامبراطور البيزنطى ، فكتبت تقول :

« ... He went to the Emperor and swore the oath which was required from him, namely, that whatever towns, countries or forts he managed to take which had formerly belonged to the Roman Empire, he would deliver up to the Governer expressly sent by the Fmperor for this purpose » Cf. Alexiad, 261.

وهذا هو نفس القسم الذى أداه باقى زعماء الفرنج عندما اجتمعوا بألكسيس فى عاصمة دولته . أنظر نفس المصدر ، ص ٢٦٣ .

إعادتها إلى بيزنطة ، وهـل هى تلك التى كانت تدخل فى نطـاق الامبراطورية فى أوائل القرن الحادى عشر ، أى قبل موقعة ملاذكرد سنة ١٠٧١ م ، وعلى وجه التحديد أيام بازيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥)، أم شملت أيضا المقاطعات القديمة للامبراطورية الرومانية الشرقية فى عهد هرقل (٦١٠ - ٦٤١) أوجستنيان مثلا (٥٢٧ - ٥٦٥) ؟ وإن سريان المعاهدة على تلك المناطق كان يعنى ليس فقط إعادة انطاكية والرها إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية ، وإنما إعادةالبيت المقدس أيضا . وهذا أمر بعيد الاحتمال . ويبدو أن مزاعم بيزنطة بصدد هذه النقطة بالذات لم تـكن واضحة تمام الوضوح ، ولم تشر إليها آن كومنين فى كتابها الألـكسياد ، خاصة إذا عرفنا أن بيزنطة فقدت سلطانها على القدس منذ فترة طويلة باستيلاء العرب عليها سنة ١٦ هـ / ٦٣٧م أيام الامبراطور هرقل . ثم أن أسرة كومنين لم تتوان عن المطالبة بالسيادة على كل من أنطاكية والرها ، فى حين أنها لم تفكر فى المطالبة بالقدس أو طرابلس الشام ، وهما مدينتان لم تمتد اليهما الفتوحات البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى(١) .

ويدلى جورج استروجورسكى بدلوه فى هذا الموضوع . يقول فى كـتابه

---

(١) أنظر : Grousset, L'épopée des crois., 18.

ويعلق المؤرخ شارل أومان على هذه الاتفاقية قائلا إنه لوكان بوسع الـكسيس كومنين توجيه الجيش الصليبى لتحقيق مصالحه فحسب ، لـكان قد استخدمه فى اجلاء السلاجقة عن بيثينيـة وليدية وفريجية ، وهى مناطق فى المرتبة الأولى من الاهمية بالنسبة لبيزنطة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لوكان الفرنجة سادة أنفسهم وبوسعهم التصرف كما يحلو لهم دون ضغط أو تدخل من جانب بيزنطة ، لاتجهوا رأسا إلى كيليـكية عبر آسيا الصغرى ، ولـكانت انطاكية — وليست بلدان آسيا الصغرى — هى أول هدف لهم . ولما لم يـكن بوسع أى فريق التغاضى عن مطالب الفريق الآخر بسبب تشابك المصالح وتداخلها ، فقد عقدت اتفاقية ترضى كليهما ؛ وخلاصتها أن يستولى الفرنجة على نيقية ويعيدونها إلى البيزنطيين ، ثم يواصلون بعد ذلك حملتهم ضد فلسطين . أنظر : Oman, Art of War, I, 238.

« تاريخ الدولة البيزنطية » إن الحركة الصليبية كما تصورها الغرب اللاتيني ، كانت بالنسبة للامبراطورية البيزنطية شيئا مختلفا تمام الاختلاف . ذلك أنه لم يجد جديد فى الحرب القائمة بين البيزنطيين وجيرانهم العرب أو السلاجقة . لقد كانت بالنسبة للبيزنطيين حصيلة ضرورة سياسية ملحة . ولقد اعتبروا غزو الأراضى المقدسة ، التى كانت فى وقت ما أرضا بيزنطية ، من واجب الدولة وليست فرضا واجبا على المسيحية جمعاء . كانت هذه هى نقطة الخلاف الأولى بين وجهتى النظر اللاتينية والبيزنطية . ثم أن الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية جعل من غير المستحب، أكثر من أى وقت مضى ، وجود أساس لعمل مشترك بينهم وبين أهل الغرب . وكان كل ما تطمع فيه بيزنطة هو قوات مرتزقة تعمل فى خدمتها بأجر وليس قوات صليبية بالمعنى المفهوم (١) . وفى موضع آخر يقول استرجورسكى إنه على الرغم من أن مجىء الصليبيين الى أراضى الدولة البيزنطية قد قلب خطط الكسيس ومشاريعه رأسا على عقب وكان تهديدا إيجابيا لدولته ، إلا أنه عمل على الاستفادة بهم لخدمة مصـــالحه الخاصة ومصالح بلاده قدر الاستطاعة ، وذلك عندما طلب من اللاتين أداء يمين التبعيـة والولاء له وأن يتعهدوا بأن يعيدوا إليه كل المدن والبلدان التى يستولون عليها والتى كانت تتبع فى الماضى الامبراطورية البيزنطية ، وذلك مقابل الوعود التى بذلها لهم . وعلى هذا الأساس عقدت اتفاقية ١٠٩٧ بينه وبينهم (٢) .

ويضيف جون هاسى John Hussey الى ما تقدم قائلا إن الكسيس عندما طلب جندا مرتزقة من الغرب لم يهدف من وراء ذلك التوجه إلى البيت المقدس مباشرة للاستيلاء عليه . فقد كانت هناك أمور أخرى أكثر أهمية والحاحا من

(١) Ostrogorsky, op. cit., 320.

(٢) Ostrogorsky, op. cit., 322.

البيت المقدس ، وتمس أمن الدولة مباشرة . ولقد جعلت التقاليد الامبراطورية والحاجيات الملحة لبيزنطة من المستحيل على أى امبراطور بيزنطى أن يتصور حركة صليبية بمفهومها الغربى . لقد كان مفهوم الحملة التى يريدها الكسيس يختلف عما يقصده اللاتين فى أمرين رئيسيين على أقل تقدير . لقد كانت الحـــرب بين بيزنطة والمسلمين أمراً عادياً مألوفاً وليست شيئاً جديداً أو مستجداً . وعلى هذا يجب ـ من وجهة النظر البيزنطية ـ تدبير مثل هذه الحرب بروح واقعية تدخل فى حسابها كافة خصائص ومميزات السياسة البيزنطية . لذا كان من العبث التوجه الى مدينة بيت المقدس مباشرة للاستيلاء عليها ، لأن مثل هذا التصرف كان يعنى ترك المؤخرة فى آسيا الصغرى غير محمية بما فيه الكفاية . وقد يكون من الضرورى الاتفاق مع المسلمين إذا كانت الظروف فى غير هذه الجبهة تستلزم ذلك ، كأن تقوم ثورات فى البلقان أو هجوم غادر يشنه النورمان . ويتفق هاسى مع زميله استروجورسكى أنه من وجهة نظر جغرافية يبدو أن الحرب مع المسلمين فى آسيا الصغرى وسورية وفلسطين هى من اختصاص الامبراطورية الرومانية الشرقية بخاصة ، وليست مسئولية العالم المسيحى كله بصفة عامة (١) .

وكيفما كان الأمر فقد وجد الكسيس كومنين أنه مضطر أمام الأمر الواقع إلى عقد الاتفاق الذى أشرنا إليه حماية لدولته ، مع العمل فى نفس الوقت على الاستفادة إلى أقصى حد ممكن من القوات الصليبية التى قذف بها الغرب إلى الشرق .

وهنا يجدر بنا أن نذكر أن هذا الاتفاق ما كان ليتم أو يخرج إلى حيز التنفيذ لولا مجهودات الكسيس كومنين الذى رسم لنفسه سياسة خاصة محبوكة محكمة الأطراف ، اتبعها بدقة تامة ، ونفذها بحذافيرها مع جميع رؤساء الفرنج الذين

---

(١) Hussey, The Byzantine World, 56-7.

توافدوا تباعا على عاصمة امبراطوريته . وقد نجح الامبراطور إلى حد كبير فيما كان يرمى إليه حتى الوقت الذى تم فيه عقد الاتفاقية ، وهو حماية دولته من اللاتين ، ثم الحصول على موافقتهم بالانضمام إليه والدخول فى خدمته كجند مرتزقة ، والتعهد برد ممتلكاته إليه بعد الاستيلاء عليها . وسنحاول فيما بعد أن نتبين مدى محافظة واحترام كل من زعماء الفرنج والامبراطور الكسيس لتعهداتهم التى نصت عليها اتفاقية القسطنطينية ، والآثار التى ترتبت عليها وانعكست نتائجها على العلاقات بين اللاتين والإغريق من ناحية وبين اللاتين والعرب من ناحية أخرى .

وكيفما كان الأمر ، فلم ينس الامبراطور الكسيس أن يزود الجيوش الفرنجية المختلفة قبل رحيلها عن العاصمة والتوجه لمحاربة السلاجقة ، بإرشاداته ونصائحه . فحذرهم من التركمان وأحاطهم علما بطرق محاربتهم ، لأن كان أعلم منهم بهذا العنصر وبوسائله فى الحرب والقتال (١) . وبعد ذلك سافر الفرنج وعبروا البسفور إلى آسيا الصغرى حيث التحقوا بالقوات الصليبية الأخرى المتجمعة هناك .

وتقول آن كومنين فى صراحة إن أباها الامبراطور تنفس الصعداء بعد رحيل القوات اللاتينية عن عاصمة ملكه نتيجة لأعمال التخريب التى تسببت فى حدوثها . وتذكر أن الكسيس أبقى ريمون ده سان جيل إلى جانبه بعض الوقت ، وأنه كثيرا ما كشف له عن شكوكه فى نوايا الفرنج وما يتوقع أن يحدث لهم خلال الطريق . وتستطرد الكاتبة البيزنطية قائلة : « ولطالما ردد الامبراطور هذه الأقوال على مسامعه ، وفتح له مغاليق نفسه » . ولما كان الامبراطور يثق

---

(١) Alexiad, 264. — وهذا مايؤكده أيضا الكتاب اللاتين الذين عاصروا الحملة وشاهدوا أحداثها ، مثل المؤرخ المجهول ، وريمون داجيل ، والبرت دكس ، وفوشيه ده شارتر ، واتين ده بلوا ، ومن أتى بعدهم من المحدثين كريفيه جروسيه ورانسيمان .

فى سان جيل ثقة كبيرة ، فقد طلب منه مراقبة عدوه القديم بوهيمند ، والعمل على ردعه إذا حنث بقسمه ، مــــع إحباط مشاريعه العدوانية بكل الطرق والوسائل . وهذا يؤكد أن الامبراطور كان لا يزال يشك فى نوايا الأمير النورماندى ، ويتوقع إخلاله باليمين الذى أداه له . وقد عزز كونت تولوز مخاوف الكسيس عندما ذكره بأن بوهيمند «قد ورث الغدر ونكث العهود عن آبائه وأجداده ، وأنها ستكون معجزة حقاً إذا ما حافظ على قسمه ». وبعد أن وعد سان جيل الامبراطور ببذل قصارى جهده لتنفيذ تعلياته فى هذا الصدد ، استودعه وأسرع لينضم إلى الجيش الفرنجى فى آسيا الصغرى (١) .

وسرعان ما توجهت هذه الجموع الهائلة من اللاتين المتعطشين للغزو وسفك الدماء صوب حدود السلاجقة ، ووصلوا عاصمتهم نيقية فى ٦ مايو سنة ١٠٩٧ م . وتقع هذه المدينة على مسافة يسيرة من خليج نيقوميديا ، وقد اشتهرت بمناعتها وحصانتها ، نظراً لمتانة أسوارها والبحيرة الكائنة فى جنوبها (٢) . وهناك أقام الفرنج خيامهم استعدادا للحرب . وسرعان ما ضربوا الحصار حول المدينة تمهيداً للاستيلاء عليها ، وكان يساعدهم فى هــــذه المهمة جيش بيزنطى أرسله الكسيس بقيادة تاتيكيوس Tatikios . كما كان الامبراطور يرسل إليهم تباعاً الإمدادات من المؤن والأقوات عن طريق البر والبحر تنفيذا للاتفاقية . ولما كان يوجد فى جنوب المدينة بحيرة واسعة لها أهمية كبيرة بالنسبة للأتراك حيث كانوا يضعون فيها سفنهم ، فقد بعث زعماء الصليبيين إلى الامبراطور يطلبون منه إرسال قوارب لمنع الترك من استخدام هذه البحيرة . فأرسل لهم الكسيس

---

(١) Alexiad, 267-8. — انظر التفاصيل فى الملحق الثالث بآخر الكتاب .

(٢) انظر خريطة خط سير الصليبيين فى آسيا الصغرى وشمال الشام ، ص ٢٣٠ من هذا الكتاب .

عددا من القوارب بها جماعة من رجاله المدججين بالسلاح لمساعدتهم فى عملية الحصار . وقد صعق الأتراك عند مرأى هذه القوات المسلحة وتلك الاستعدادات الهائلة ، فأرسلوا وفداً من قبلهم إلى الامبراطور يخبره باستعدادهم لتسليم المدينة له على شريطة أن يتعهد بالمحافظة على حياتهم وسلامتهم . وقد وافق الامبراطور على ذلك حتى لا يعرض المدينة للخطر . وفى أواخر يونيو سنة ١٠٩٧ م سلمت المدينة لألكسيس ، وكان فرحه عظيما بعودتها إلى حظيرة امبراطوريته ، وأمر بتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ابتهاجا بهذا النصر (١) . ويقول المؤرخ اللاتينى ريمون داجيل إن الامبراطور وعد الفرنجة وكبار رجالهم بإعطائهم كل مافى نيقية من ذهب وفضة وخيول ومتاع . كما وعدهم بأن ينشىء فى المدينة ديرا للاتين على مذهبهم الكاثوليكى وملجأ للفقراء من الصليبيين . وأغدق المال على جميع رجال الجيش حتى يحاربوا فى صفوفه (٢) .

وإن الباحث المدقق فى تآليف المؤرخين اللاتين يجد أن الوسيلة التى لجأ إليها ألكسيس للاستيلاء على المدينة لم ترق لهم كثيرا . وهم يعللون ذلك بقولهم إن

---

(١) Anonymi Gesta Francorum, 177-94; cf. Foucher de Chartres, R. H. C.—H. Occ., III, 494. ؛ ولم يخف هذا الأمر على الكتاب العرب ، فنجد ابن القلانسى فى كتابه ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ، يقول إن « الافرنج عند ظهورهم عاهدوا ملك الروم ووعدوه بأن يسلموا اليه أول بلد يفتحونه ، ففتحوا نيقية وهى أول مكان فتحوه . »

(٢) « ... Promiserat Alexius principibus et genti Francorum, quod totum aurum et argentum, et equos, et omnem suppellectilem quae intus erat eis redderet; et monasterium Latinum, et hospitium pauperibus Francorum ibi faceret; praeterea tantum da propriis unicuique pe exercitu daret, ut illi semper militare velint ... » Cf. Raimond d'Agiles, R. H. C. — H. Occ., III, 239-40.

خريطة رقم ٣



خط سير الصليبيين فى آسيا الصغرى وشمال الشام

الامبراطور عندما وجد الفرنج يستعدون لأخذ نيقية عنوة ، خشى أن تقع فى أيديهم ويرفضوا تسليمها إليه طبقاً للإتفاقية . ولما كان هدفه هو العمل بكافة الوسائل على إعادتها إلى حظيرة بيزنطة ، ورغبة منه فى ألا تصاب المدينة بسوء على أيدى أولئك القوم ، فقد بادر بمفاوضة الأتراك لتسليمها اليه دون قتال أو سفك للدماء . ولهذا السبب وافق على شروطهم فى أن يخرجوا من المدينة سالمين مقابل ذلك .

ويبدو أن اللاتين كانوا على حق فيما ذهبوا إليه . إذ ذكرت آن كومنين أن الامبراطور كان يود الاشتراك بشخصه مع الافرنج فى قتال الأتراك لولا خشيته من أعدادهم الغفيرة التى كانت مصدر قلق دائم بالنسبة له . لذلك وجد أنه من الأفضل الإقامة فى مدينة بلكان القريبة من نيقية انتظاراً لما قد تسفر عنه الأحداث ، وحتى يكون على علم بمجريات الأمور والأحوال أولا بأول . وتستطرد الكاتبة فتقول إنه أدرك بثاقب نظره أنها سوف تكون ضربة قاسية إذا أخفق فى احراز أى نصر عسكرى فى مثل هذه الظروف المواتية . وهى لا تخفى أن أباها كان يود استعادة مدينة نيقية بدون أى مساعدة من قبل الفرنج ، وذلك حتى لا يتسلمها منهم بعد امتلاكها تنفيذاً لتعهداتهم له ، ومن يدرى فربما يخلون بهذه التعهدات . ولهذا أخفى نواياه طى الكتمان ، وأرسل أحد خواصه واسمه بوتومايت Butumites إلى المدينة لإقناع أهلها بتسليمها له مقابل تأمينهم على حياتهم ، وكلف رسوله أن يعمل فى ذات الوقت على اثارة مخاوف الأهالى من الفرنج ، وما سوف يتعرضون له من الويلات على أيديهم إذا وقعت المدينة فى قبضتهم (١) . وقد نجحت هذه الخطة المزدوجة فى عودة نيقية إلى بيزنطة .

---

(١) Alexiad, 268.

وتكشف هذه الرواية أن الكسيس كان يرتاب دائما فى نوايا ضيوفه اللاتين ، وكان يتوقع إخلالهم بعهودهم إذا ما انفردوا دونه بامتلاك حاضرة السلاجقة ، وأنهم قد يمتنعون عن إعادتها إليه ضاربين باتفاقية مايو ١٠٩٧ عرض الحائط . وقد رأينا كيف أماط حديثه مع كونت سان جيل اللثام عن مخاوفه . وربما يكون الكسيس على حق فى موقفه من اللاتين ، خاصة وأن أحداث الشهور التالية أثبتت صدق هذه المخاوف . ولا شك أن أهل الغرب كانوا يعملون هم أيضا لحسابهم الخاص دون أن يعيروا مصالح بيزنطة أى اهتمام . ويصح القول أيضا أن هذا الموقف من جانب الكسيس ـ على الرغم من الحجج التى تعلل بها ـ فيه خروج على الاتفاقية .

وكيفما كان الأمر ، فقد أعيدت نيقية إلى حكومة الامبراطورية (٢٦ يونيو ١٠٩٧) بعد أن استمرت تحت حكم السلاجقة ١٦ عاما . وأصبح بوسع القسطنطينية التنفس بحرية بعد إجلاء الترکان عن هذا المعقل الأمامى الحصين (١) . وبالرغم من تلك الاتصالات الخفية التى جرت بين البيزنطيين والسلاجقة حول مدينة نيقية ، فمن الثابت أن تسليم المدينة إلى بيزنطة كان مطابقا للاتفاق المبرم بين الكسيس ورؤساء الصليبيين . ويقول بعض المؤرخين إن البيزنطيين عندما تسلموا المدينة لم يسمحوا للفرنج بزيارتها إلا فى جماعات قليلة . والواقع أن الجيش البيزنطى لم يقدم على ذلك إلا منعا للسلب وإحداث الشغب . أما الكسيس فقد جند حامية من بين أولئك الصليبيين الذين انضووا تحت لوائه وقبلوا الدخول فى طاعته . ويقول المؤرخ جروسيه إن الكسيس وفى بكل تعهداته التى نص عليها الاتفاق ، حتى أن رؤساء اللاتين ذهبوا إليه فى اليوم التالى للاستيلاء

---

(١) Oman, Art of War, I, 239.

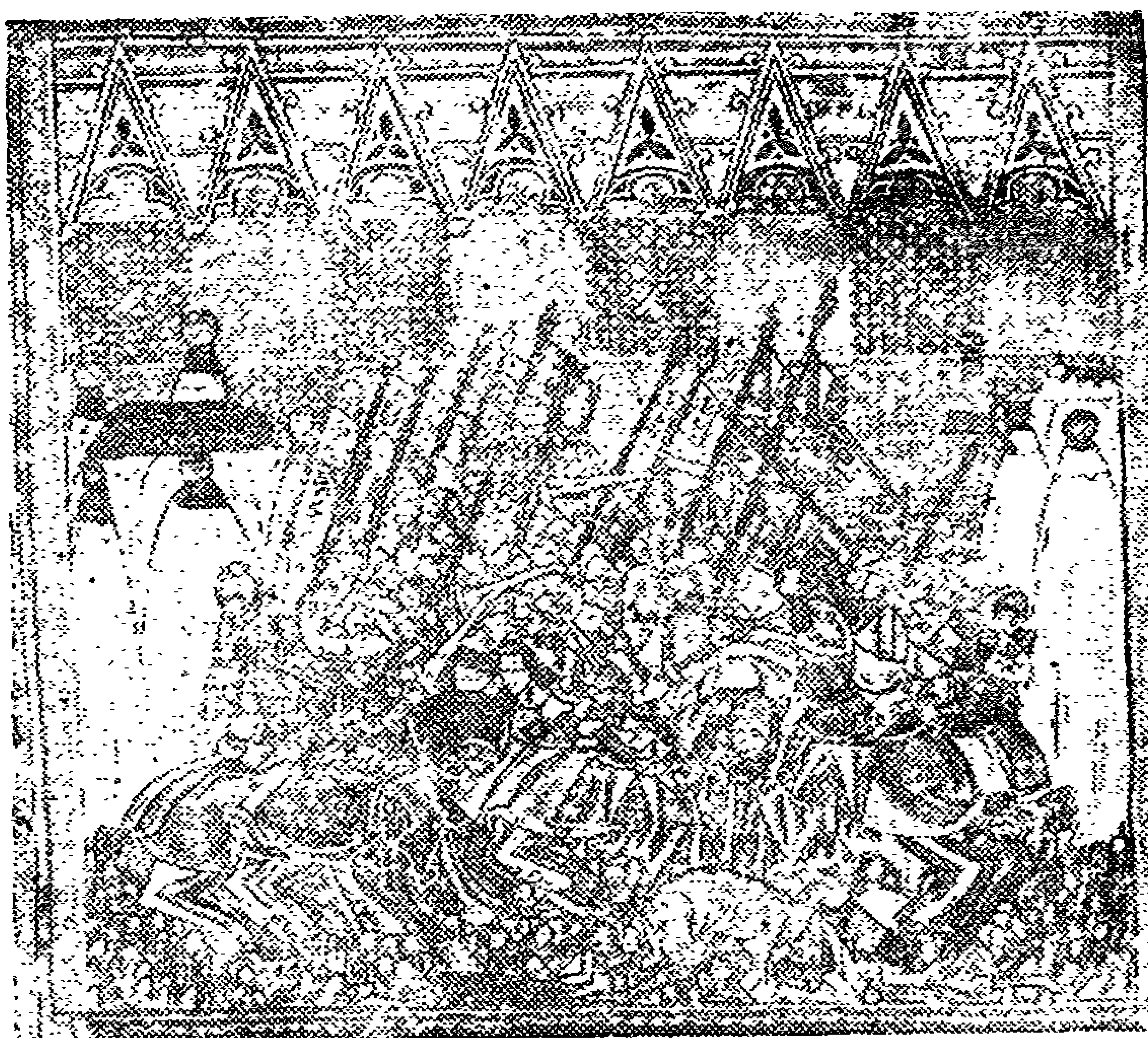
على نيقية لشكره وتهنئته قبل أن يتوغلوا فى آسيا الصغرى . وقد وافق الصليبيون الامبراطور فى الموعد الذى ضربه لهم ، ولم يعارض أحد منهم فى تسليم المدينة إليه ، وجددوا له القسم ماعدا تنكريد وسان جيل اللذان أصرا منذ البداية على عدم التعهد بأى قسم للامبراطور (١) . كذلك تخلف اتين كونت بلوا عن الذهاب مع بقية الزعماء الفرنج لتهنئة الامبراطور ، حتى يتسنى له المحافظة على المدينة والدفاع عنها ضد أى هجوم مفاجىء .

لقد كانت نيقية هى أول مدينة طبق عليها الاتفاق بدقة تامة، وذلك بصرف النظر عما قيل حول الكيفية التى سلمت بها إلى الكسيس . فقد نفذ كلا الطرفين تعهداته التى نصت عليها الاتفاقية ، فسهل لهم الامبراطور من ناحيته مسألة التموين وساعدهم عسكريا وزودهم بنصائحه وإرشاداته ولم يبخل عليهم بشىء . وغير ذلك فإنه كافأ أولئك الفرنج وأحسن إليهم بعد الاستيلاء عليها . وكذلك سلم الفرنج من ناحيتهم المدينة لألكسيس تنفيذا لتعهداتهم التى أقسموا على احترامها . وقد عارض كل من تنكريد وسان جيل ، ولكن موقفهما لم يؤثر تأثيراً كبيراً فى العلاقات بين اللاتين والدولة البيزنطية .

غادر الجيش الصليبى نيقية فى الأيام الأخيرة من شهر يونيو سنة ١٠٩٧م ، وعلى وجه التحديد فى الفترة الممتدة من ٢٦ إلى ٢٩ من ذاك الشهر ، ويحتمل أنهم تركوها على دفعات . وأخذوا يتوغلون فى آسيا الصغرى متجهين صوب الجنوب الشرقى . وفى أول يوليو اصطدموا بجيش الأتراك بقيادة قلج أرسلان فى مدينة دوريليوم (اسكى شهر) ، حيث قامت معركة حامية بين الفريقين أثبت فيها الفرنج عدم درايتهم بفن التكتيكات الحربية . وكادت أن تلحق بهم هزيمة كبيرة لولا أنهم تمكنوا فى النهاية من التغلب على الترك نظراً لكثرتهم العددية

(١) Grousset, Crois., I, 30—1.

لوحة رقم ٢



موقعة دوريليوم

من ناحية وتنازع الأتراك فيما بينهم من ناحية أخرى . وتم لهم الاستيلاء على المدينة على الرغم من الشجاعة الفائقة التي أبداها الترك في القتال (١) . ولهذا النصر أهمية خاصة ، إذ فتح لهم الطريق إلى الأراضي المقدسة . وينظر المؤرخون إلى معركة دوريليوم باعتبارها من المعارك الفاصلة في التاريخ ، شأنها شأن موقعه ملاذكرد قبل ذلك الوقت بحوالى ربع قرن . ففيها تمكن اللاتين من القضاء على سلطان السلاجقة لعدة أجيال قادمة في وقت كانت فيه القوى العربية في المنطقة ضعيفة منقسمة على نفسها ، مما هيأ للدخيل الأجنبي فرصة إحراز هذه المكاسب السريعة الخاطفة .

واصل الصليبيون بعد ذلك تقدمهم نحو الجنوب ، فاستولوا على قونية وهرقلية بعد أن قاسوا الأمرين من شدة الحر والعطش ومن هجمات التركمان الفجائية . وعندما وصلوا منطقة أرمينية في جبال طرسوس تغيرت الأحوال لصالحهم ، إذ مد لهم سكانها من الأرمن المسيحيين يد المساعدة ، وأحسنوا استقبالهم ومعاملتهم ، وزودوهم بكل ما كانوا يحتاجون إليه من مؤن وأقوات . ولولا ذلك لربما أخفق الفرنج في مواصلة الزحف ، ولألحق بهم السلاجقة هزيمة منكرة ، ولعادوا إلى ديارهم بخفي حنين دون أن يقضوا لبانتهم . ولكن هذه المساعدات التي تلقوها من الأرمن هيأت لهم الجو لمواصلة العدوان المسلح والتوغل في الشرق العربي . فبعد أن عبروا جبال طرسوس بلغوا مدينة انطاكية ، وكان ذلك في أكتوبر من عام ١٠٩٧ ، وسرعان ماضربوا الحصار حولها (٢) .

(١) أنظر : Oman, Art of War (A. D. 378—1515), 71.

(٢) Grousset, Crois., I, 31-43; Oman, Art of War, I, 272-8; Mahmud, Story of Islam, 134.

وفيما يتعلق بتعاون الأرمن مع الصليبيين ضد العرب خلال الحركة الصليبية ، أنظر كتابي « الوحدة وحركات اليقظة العربية » ، ص ٤١ و ح ١ .

وفى تلك الأثناء انفصل كل من بلدوين شقيق جودفرى وتنكريد ابن أخت بوهيمند عن الجيش الصليبى الرئيسى بحثاً وراء أطماعهما ، واتجها نحو منطقة كيليكية فى آسيا الصغرى . ولما كان كل منهما يعمل لحسابه الخاص ، فقد تعارضت مصالحهما واصطدما أكثر من مرة ودب الخلاف بينهما ، ولم يعيرا مصالح بيزنطة واتفاقية القسطنطينية أى اهتمام . وقد اضطر بلدوين آخر الأمر إلى ترك المنطقة لتنكريد باحثاً عن صيد جديد فى تلك الرقعة من العالم التى تفيض لبنا وعسلا بنص قول البابا أربان نفسه . ووجد ضالته فى مدينة الرها التى توجه إليها حيث تبناه صاحبها الأرمنى المسن المسمى ثورس [١] Thoros ، وأشركه معه فى الحكم . ولم تمض فترة طويلة حتى اغتال الأرمن حاكمهم هذا . ويتهم بعض المؤرخين ، ومن بينهم متى الأرمينى ، بلدوين قائلين إن له يد فى مصرعه ، وإنه اشترك مع زوجة ثورس فى تدبير المؤامرة ليخلو له الجو ، ثم تزوج منها بعد ذلك لكى يضفى على حكمه فى البلاد صبغة شرعية . وكانت الرها هذه هى أول مستعمرة لاتينية يؤسسها الفرنج فى الشرق العربى فى أعالى الفرات ، وكان بلدوين شقيق جوفردى هو أول من تولى أمرها . وقد تمت هذه الأحداث فى أوائل عام ١٠٩٨م [٢].

---

(١) فيما يتعلق بثورس أنظر :
Matt. d'Edesse, R. H. C.-Doc. Arm., I, 30 n. l; Grousset, L'Empire du Levant, 183-4, 297.

(٢) Matt. d'Edesse, I, 37-8 & 38 n. 4; Michel le Syrien, R. H. C. - Doc. Arm., I, 328; Foucher de Chartres, R. H.C. — H. Occ., III, 496-7. راجع أيضا: Grousset, Crois., I, 43-68 & notes
وكما كانت الرها هى أول إمارة يؤسسها الفرنج بالشام فى الحملة الأولى ، كذلك كانت أول إمارة يستردها العرب بعد ذلك التاريخ بحوالى نصف قرن من الزمان عندما استولى عليها عماد الدين زنكى سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م من جوسلين الثانى . انظر عن ذلك : ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ ؛ ابن الأثير : أتابكة الموصل ، ص ١١٨ - ١٢٥ ؛ أبو شامه : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٣٦ - ٣٧ . راجع أيضا كتاب :
Grégoire le Prêtre, R. H. C.-Doc. Arm., I, 157.

وهكذا نجد أنه بعد الاستيلاء على نيقية يواصل الصليبيون سيرهم فى آسيا الصغرى ، وكانوا كلما يستولون على مدينة من الأتراك يردونها إلى بيزنطة ، بينما كان الامبراطور يمدهم من جانبه بكل ما هم فى حاجة اليه . وبذلك يمكن القول بأن الاتفاق بين اللاتين والبيزنطيين قد نفذ خلال مرور الجيش الصليبى بآسيا الصغرى ، إذا استثنينا مدن كيليكية التى لم يطبق عليها الاتفاق ، إذ رفض تنكريد وبلدوين - بعد الاستيلاء عليها - إعادتها إلى الامبراطور ، ذلك لأن أولهما لم يكن مقيدا بأى قسم مع الكسيس ، أما بلدوين وإن كان قد حلف له فيما بعد يمين الولاء ، الا أنه لم يقم أى وزن لهذا القسم وكان على استعداد لخرقه متى دعت الظروف إلى ذلك . ولهذا السبب رفض بلدوين رد الرها إلى الامبراطور بعد أن سلمها الأرمن له دون حرب أو قتال . ومع ذلك لم تؤد مسألتى كيليكية والرها إلى إثارة المشاكل أو توتر العلاقات بين الفريقين ، وترك لمسألة انطاكية القيام بهذا الدور (١) .

لقد ظل الاتفاق قائما بين الفرنج والبيزنطيين خلال عبور الجيوش الغربية فى آسيا الصغرى ، ولكن لم تلبث أن تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال عندما أصبح الفرنج أمام انطاكية فى أكتوبر سنة ١٠٩٧م . وما أن وصل الجيش إلى هذه المدينة حتى ضرب الحصار حولها ، وقد استمر ذلك بضعة أشهر (أكتوبر ١٠٩٧ - يونيو ١٠٩٨) . وكانت مدينة حصينة غاية الحصانة ، فالجبال تحيط بها من الشرق والجنوب ، والأنهار من الشمال والغرب ، الأمر الذى أكسبها قوة

(١) Ostrogorsky, 322-3. ويذكر المؤرخ المذكور (نفس المرجع ، ص٣٢٢) أن الكسيس تمكن فعلا بمساعدة الفرنج من استعادة النفوذ البيزنطى على الجزء الغربى من آسيا الصغرى .

هائلة ومناعة طبيعية (١) . وكان يحكمها آنذاك ياغى سيان التركمانى ، وهو رجل عرف بشجاعته وشدة بأسه ،كما كان سياسياً محنكا وقائدا ممتازا . وما أن علم بحركة الفرنج حتى استعد لمنازلتهم وقتالهم ، وزود المدينة بالمؤن التى تكفيها لمدة أشهر . ولكن انقسام الأتراك وقتذاك حال دون تحقيق النصر على الصليبيين . وكما أن انقسام اللاحقة أدى إلى هزيمتهم فى انطاكية ، كذلك أدت مسألة انطاكية إلى إثارة النزاع بين بوهيمند والكسيس بصفة خاصة وإلى توتر العلاقات بين اللاتين والروم الاغريق بصفة عامة .

ذكرنا أن بوهيمند النورماندى كان طموحا إلى حدكبير، وله مطامع سياسية بعيدة كان يصبو إلى تحقيقها . وعرفنا أنه اشترك فى الحرب الصليبية على أمل أن يؤسس له إمارة لاتينية فى الشرق . وكان هدفه هو الاستيلاء على انطاكية لنفسه، إذ ادرك أنها تفضل بيت المقدس نفسها من الناحيتين التجارية والاستراتيجية(٢). ولقد حاول تحقيق هذا الهدف فى أول الأمر بمساعدة الدولة البيزنطية وتعضيد الكسيس ، ولذلك كانت خطته التى رسمها لنفسه منذ أن حل فى بيزنطة هى أن يعمل على تخدير أعصاب الامبراطور بذكائه ودهائه وسياسته الماكرة ، وأن يتظاهر له بالود والولاء . وفعلا نراه يجمع جنده فى وادى دروبولى Dropoli وينصحهم بالتزام الهدوء فى بداية رحلته من الغرب ، وبألا يسيئوا إلى إخوانهم الإغريق خلال مرورهم عبر الأراضى البيزنطية . ونراه فى مناسبة أخرى يطلق سراح بعض الأسرى البيزنطيين الذين كانوا فى حوزته إثر مناوشة وقعت بين

---

(١) أشاد الرحالة والجغرافيون العرب بذكر أهمية انطاكية وحصانتها . راجع التفاصيل فى : القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢٩؛ أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٥٧؛ ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ٢٠١ ـ٢٠٢ .

(٢) Haskins, The Normans, 214.

النورمانديين وجيش الكسيس حتى يكسب بذلك رضاء الامبراطور. وأخيرا نراه لا يتردد فى حلف يمين التبعية بين يدى الكسيس، وقام بدور الوسيط بينه وبين رؤساء الفرنج ، كما كان أول الداعين للاتفاق معه . وبالاختصار حاول بوهيمند إرضاء الامبراطور البيزنطى بكافة الطرق حتى لا تسوء العلاقات بينهما ، ولكى يحصل على تأييده له ومساعدته إياه فى تحقيق مطامعه فى الشرق . ولقد أبان بوهيمند عن حقيقة نواياه عندما طلب من الكسيس أن يسند اليه منصب « خادم الشرق الأكبر » ، أو بكلمة أخرى أن يجعله حاكما على منطقة انطاكية والأقاليم المجاورة لها . ولما كان الامبراطور يشعر فى قرارة نفسه بحقيقة مايهدف اليه هذا الأمير النورماندى ، فقد رفض إجابته إلى طلبه ، معللا إياه بالأمل حتى لا تسوء العلاقات بينهما .

على أى حال ظل بوهيمند على حسن صلته بالامبراطور ،ولم يظهر له العداء عساه أن يظفر منه بحلمه المنشود . ولكن بعد أن يئس من تحقيق أمنيته بمساعدة الامبراطور، وبعد أن وجد أن سياسته لم تأت بالثمرة المرجوة ،غير خطته وقلب لالكسيس ظهر المجن ، وبعد أن كان من أكبر أعوانه ومناصريه أصبح من ألد أعدائه ومعارضيه. ومنذ تلك اللحظة عمل على الاستيلاء على انطاكية دون مواربة ورغم إرادة آل كومنين ، ومهما كلفه هذا من ثمن . ورسم لنفسه خطة جديدة مزدوجة تدل على بعد نظره وسعة حيلته . فكان عليه أن يتخلص أولا وقبل كل شىء من الجيش البيزنطى بقيادة تاتيكيوس الذى كان يعاون الجيش الصليبى فى حصار انطاكية . وبعد ذلك كان عليه أن يحصل من رؤساء الفرنج على وعد صريح بالتنازل له عن إمارة انطاكية بعد غزوها . وقد عمل فوراً وبدون إبطاء على تنفيذ خطته بما عرف عنه من حكمة ودهاء .

لقد رأى بوهيمند بفراسته أنه اذا استمر جيش تاتيكيوس يعاون الفرنج

إلى أن يتم الاستيلاء على المدينة ، فان هذا القائد سيطالب بردها الى حظيرة الامبراطورية تنفيذاً لمعاهدة القسطنطينية التى كان بوهيمند نفسه أول الهاتفين لها الداعين اليها . وكان الموقف يحتاج الى شيء من الحيلة ،وهذا مالم يكن ينقص الأمير النورماندى . فقد أوهم تاتيكيوس أن باقى زعماء الصليبيين يتهمونه بخياناتهم وبالاتفاق مع الأتراك ضدهم ، وأنهم يدبرون مؤامرة لاغتياله . وقد نجحت الخطة ، إذ خاف القائد البيزنطى على حياته ، وترك المعسكر الصليبى(يناير أو فبراير ١٠٩٨) متذرعا بالذهاب لإرسال إمدادات ونجدات جديدة من بيزنطة للجيوش الصليبية (١). ولكن المؤرخ المجهول يدافع عن سيده بوهيمند قائلا إن تاتيكيوس هرب فى أثناء عملية الحصار عندما أصبح الجيش الصليبى فى مركز حرج ، وعندما علم بأن جيشاً تركياً كبيراً فى طريقه الى انطاكية لتطويق الفرنج . ولذا تملكه الخوف ، واعتقد أن الجيش التركى سوف يفتك بالجيوش الفرنجية ففر هارباً حتى لا يعرض حياته للخطر (٢) .

وبعد أن تخلص بوهيمند من الجيش البيزنطى المساعد بقيادة تاتيكيوس ، وسواء أكان فرار هذا القائد خوفا من أن يبطش به الفرنج نتيجة لخدعة بوهيمند أم خشية من الجيوش التركية التى كانت فى طريقها إلى انطاكية ، فقد عمل الأمير النورماندى على تنفيذ الشق الثانى من خطته ، وهو التخلص من منافسة باقى زعماء الفرنج له . ويقول المؤرخ المجهول إن بوهيمند بعد أن اتفق مع أحد ضباط حامية انطاكية المسمى فيروز على أن يسهل له الدخول الى المدينة ، وبعد أن وثق أنها ستسلم له ، تقدم الى باقى رؤساء الفرنج وطلب منهم أن يملكوه المدينة بعد الاستيلاء عليها . ولكنهم لم يوافقوا على طلبه فى أول الأمر ،

(١) Grousset, Crois., I, 80-1.

(٢) Anonymi Gesta Francorum, 261-2.

خريطة رقم ٤

رسم تخطيطي لمدينة أنطاكية
(عام ١٠٩٨)

قائلين له انهم سيتقاسمونها فيما بينهم بعد امتلاكها لأنهم اشتركوا جميعاً فى عملية الحصار . وقد ابتسم بوهيمند عندما سمع هذا الكلام ، وانسحب فى الحال دون أن ينبس بحرف واحد . ولكن سرعان ما تغير الموقف ، وبات الجيش الصليبي مهدداً بالخطر ، وكان جيشاً تركيا بقيادة كربوغا حاكم الموصل فى طريقه الى المدينة . فاستغل بوهيمند ـ وكان مسيطراً على الموقف ـ هذه الفرصة السانحة لتحقيق أهدافه . وعقد زعماء الفرنج مجلساً قرروا فيه استعدادهم للتنازل عن المدينة لبوهيمند حالما يتم الاستيلاء عليها . أما ريمون كونت سان جيل فقد رفض التعهد بذلك ، وسيكون هذا سبباً لإثارة النزاع والتخاصم بين الرجلين فيما بعد (١) .

بعد أن نجح بوهيمند فى تنفيذ خطته بشقيها ، وبعد أن استوثق من أن المدينة المحاصرة ستؤول إليه فور امتلاكها ، أخذ يحارب بكل ما أوتى من قوة ، وأظهر شجاعة فائقة فى أثناء الحصار ، غير مبال بالصعاب التى واجهته حتى انتهى الأمر بسقوطها واستيلاء الفرنج عليها فى ٣ يونيو ١٠٩٨ م .

وفى هذه الأثناء وصل الجيش التركى بقيادة كربوغا إلى انطاكية وضرب الحصار حولها ، وتحرج موقف الفرنج فى الداخل تحرجا كبيرا ، وعمت المجاعة وانتشر الوباء وتعذرت الأقوات ومات عدد كبير منهم ، وكانت حياة الباقين قاب قوسين أو أدنى . وضيق كربوغا عليهم الخناق ، حتى أن الكونت اتين الذى كان زعماء الفرنج قد انتخبوه قائدا على الجيش ، تظاهر بالمرض وهرب من المعسكر إلى بلاده خشية الموت . وفى طريقه قابل الامبراطور الكسيس الذى كان متجها صوب انطاكية بجيش كبير ، وأخبره أن الترك قد ضيقوا الحصار على

---

(١) Anonymi Gesta Francorum, 296—8.

الفرنج الذين أصبحوا مهددين بالفناء داخـــل المدينة . فاستولى الرعب على الامبراطور ، وتراجع بسرعة حتى لا يصيبه ما أصاب الجيش الصليبي المحاصر داخل انطاكية .

وهكذا كانت الأمور تسير بالنسبة للصليبيين المحاصرين من سيء إلى أسوأ ، رغم ما أبداه بوهيمند من شجاعة وحـــزم . وظهرت فى تلك الأثناء التى بدا فيها التخاذل واضحاً بين الفرنج ، بعض الأساطير والرؤيات التى كانت تهدف إلى إثارة الحماس الدينى وتقوية الروح المعنوية المنهارة بينهم . ظهرت هذه الأساطير لتؤدى دورها على مسرح الأحداث وقتذاك . ومنها ما تروى أن أحد اللاتين شاهد فى منامه قديساً من القديسين ، بينما ادعى البعض أنهم رأوا المسيح أوالعذراء . وهناك من يقول بأن الخطاب الذى زعم فريق من المؤرخين أن الكسيس كومنين أرسله إلى روبرت أمير الأراضى الواطئة لم يصدر عن الامبراطور البيزنطى، وإنما وضع فى غرب أوروبا فى تلك الفترة بالذات بقصد حث الغربيين على ارسال النجدات إلى اخوانهم الفرنج المحاصرين داخل المدينة . ولعل أهم هذه الأساطير أسطورة افرنجى يدعى بطرس برثوليماوس زعم إثر رؤيا ظهرت له فى المنام أنه اكتشف الحربة المقدسة التى طعن بها المسيح فى جنبه . ولا شك أن الهدف من أمثال هـذه الرؤيات التى ظهرت وقتذاك ، هو العمل على رفع الروح المعنوية بين أفراد الجيش الفرنجى حتى يواصلوا القتال إلى أن يحققوا غايتهم من حملتهم . كما أنها تبين بجلاء كيف استغل أهل الغرب العامل الدينى لتحقيق أطماعهم ومآربهم فى رقعة الشرق العربى . وكان من أثر هذه الخزعبلات أن تبدل الحال ، وألهب بوهيمند حماس الجند وكان اليأس قد استولى عليهم وكادوا أن يستسلموا ، فهبوا هبة واحدة وقاموا فى وجه الأتراك

والحقوا بهم الهزيمة ، ولاذ كربوغا وجماعته بالفرار (٢٨ يونيو ١٠٩٨)(١).

وبعد أن تم النصر للفرنج استولوا على قلعة المدينة . وكانت الابراج العليا في حوزة بوهيمند ، ولكنه سرعان ما التجأ إلى القوة ، وطرد قوات سان جيل وروبرت وجودفري من القلعة ووضع يده عليها. ولم ينس الأمير النورماندي أن رؤساء الفرنج قد وعدوه بمنحه انطاكية بعد الاستيلاء عليها ، لا سيما وأن الفضل الأول في ذلك يرجع إليه . لذا طلب منهم في أواخر يونيو من سنة ١٠٩٨م أن يملكوه المدينة ، وأن يسلموه أبوابها وحصونها التي كانت لا تزال في قبضتهم . وقد استجاب الكل إلى طلبه ما عدا سان جيل الذي كان يطمع مثله في إمارة انطاكية . لذلك رفض التنازل عن المراكز التي كان يحتلها ، وأخذ في تحصينها . وعلى هذا أصبح يتنازع المدينة – بعد أن تنازل جودفري وروبرت عن حقوقهما فيها – كل من بوهيمند وسان جيل . وكان الأول يحتل الأجزاء الشمالية والشرقية والوسطى مما في ذلك القلعة ، بينما كانت المنطقة الجنوبية الغربية من نصيب سان جيل وهي مدينة انطاكية الحالية (٢) . ويذكر المؤرخ المجهول أن سان جيل رفض تسليم المدينة إلى الأمير النورماندي حتى لا يحنث بقسمه الذي أداه للامبراطور . وقد عقد زعماء الفرنج عدة اجتماعات في كنيسة القديس بطرس بالمدينة لحسم النزاع القائم بين الرجلين . فعرض بوهيمند على المجتمعين الاتفاق الذي أبرمه معهم والذي ينص على تنازلهم عن انطاكية له ،

---

(١) Raimond d'Agiles, 253-7; Anonymi Gesta Francorum,353-380; Matt. d'Edesse, 39-43; cf. Hitti, Hist. of Syria, 593 & notes.
أنظر أيضا رواية أبي المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٧ – ١٤٨ ، عن قصة الحربة المقدسة .

(٢) Grousset, Crois., 108—10

بينما أطلعهم سان جيل على نص اليمين الذى أقسمه بين يدى الكسيس بناء على نصيحة بوهيمند نفسه ، ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة حاسمة مرضية (١) . وليس من السهل تفسير موقف سان جيل ، وهل كان ذلك رغبة صادقة منه فى المحافظة على اليمين الذى أداه للامبراطور البيزنطى ، أم طمعاً فى الاستحواذ على المدينة لنفسه ، أم استجابة لطلب الكسيس الذى كلفه بمراقبة بوهيمند والسعى دون تحقيق أطماعه على حساب بيزنطة قبل مغادرته القسطنطينية إلى آسيا الصغرى . فهذه مجرد احتمالات لا تزال فى حاجة إلى مزيد من البحث والاستقصاء للوصول إلى رأى نهائى بشأنها . هذا ولو أن أحداث السنوات التالية تعزز الرأى القائل بأن سان جيل كان يطمع مثل بوهيمند فى تأسيس إمارة له ولأسرته من بعده .

وإذا انتقلنا إلى حق بيزنطة فى انطاكية نرى أن معاهدة القسطنطينية كانت تنص على اعادة المدينة وجميع الممتلكات التى كانت فى حوزة الدولة البيزنطية قبل موقعة ملاذكرد إلى حظيرة الامبراطورية بعد الاستيلاء عليها ، وقد أقسم زعماء الفرنج بذلك . كما اشترك الامبراطور الكسيس فى الحرب الصليبية على هذا الأساس .

ويذكر جروسيه أن جودفرى ، وروبرت ده فلاندرز ، وروبرت ده نورماندیا ، قد بروا بقسمهم وصمموا على إعادة انطاكية إلى الامبراطور بعد

---

(١) Anonymi Gesta Francorum, 394-5. — وجدير بالذكر أن امبرواز مؤرخ حملة ريتشارد قلب الأسد امتدح فى كتابه الذى وضعه شعراً عن تلك الحملة ، كلا من بوهيمند وابن اخته تنكريد ، قائلا إن النصر الذى أحرزاه هما وباقى الفرنج بالاستيلاء على انطاكية يعتبر من الأمور التى تروى فى التاريخ . ويهمنا أن نوضح أن نغمة التعصب ووجهة النظر الغربية حيال تلك الأحداث تظهران بجلاء فى شعر امبرواز . أنظر :
Ambroise, Crusade of Richard Lion-Heart, 393-4.

أن تم لهم فتحها ، بينما كان كل من بوهيمند وسان جيل يعمل لحسابه الخاص كما رأينا سابقا . وبناء على ذلك عقد زعماء الفرنج اجتماعا آخر فى أوائل يوليو ١٠٩٨ م حضره ريمون ده سان جيل وبوهيمند ، وقرروا إرسال هيوج ده فيرماندوا وبلدوين ده هانو إلى الامبراطور يطلبون اليه الحضور لتسلم المدينة تنفيذاً للاتفاقية المبرمة بينهما . وقد قتل بلدوين فى الطريق على أيدى جماعة من الترك فى خدمة الجيش البيزنطى . أما هيوج فواصل سيره إلى القسطنطينية ، ولكنه لم يعد إلى رفاقه ثانية .

لقد كان الصليبيون على استعداد لإعادة انطاكية إلى الامبراطور على شريطة أن يشترك معهم فى الحملة ضد بيت المقدس ، وأن يمدهم بما يحتاجون إليه من أقوات . ولكن الكسيس ترك هذه الفرصة تمر دون أن يستغلها لمصلحته ، ولم يعطهم رأياً صريحا قاطعا فى هذا الشأن . هذا باستثناء موقف بعض كبار اللاتين من أمثال بوهيمند وسان جيل وبلدوين وتنكريد الذين كانوا يعملون منفردين عن باقى زملائهم وعن الامبراطور الكسيس نفسه . ويجب ألا يغرب عن البال أن جميع الأطراف المعنية من لاتين واغريق على السواء كانت تسعى لتحقيق مصالحها الذاتية فحسب دون نظر إلى أى اعتبار آخر . وأنه لهذا السبب تداخلت المصالح ، وتضاربت الأهواء ، وثارت الخلافات ، واصطدم اللاتين بعضهم ببعض ، كما اشتبكوا مع البيزنطيين . ويعتبر هذا انعكاسا للخلافات العميقة ، الحضارية واللغوية والسياسية والمذهبية ، التى كانت قائمة بين اللاتين والاغريق منذ قرون عديدة سبقت الحركة الصليبية نفسها .

وأخيرا فى ابريل سنة ١٠٩٩ م قرر الصليبيون السير بجحافلهم صوب بيت المقدس . وفى هذه الأثناء وصلهم خطاب من الكسيس يفصح فيه عن استعداده

للاشتراك معهم فى الحملة على أن يردوا اليه انطاكية وأن ينتظروه حتى شهر يوليو من تلك السنة . وقد وصلت عروض الامبراطور بعد أن فات الوقت وبعد أن أفلت الزمام ، إذ قرر الزعماء ألا ينتظروه ، وأن يواصلوا السير بقواتهم الجرارة صوب أورشليم . هذا فى الوقت الذى عزز فيه بوهيمند مركزه فى انطاكية رافضا تسليمها إلى بيزنطة ، مما أدى إلى قيام النزاع ونشوب الحرب بينهما لمدة طويلة . ولعل هذا هو الذى حدا بالامبراطور الكسيس إلى تغيير موقفه من الصليبيين بصفة عامة ، وإلى ازدياد روح العداء والبغضاء بين الفريقين .

وفى الوقت الذى تعهد فيه الكسيس بالاشتراك مع الصليبيين فى حركتهم ، يقال إنه كان على اتصال بأعدائهم الفاطميين فى مصر ، وانه عقد معهم اتفاقا سريا (١) . وان دل هذا على شىء فإنما يدل على أن الكسيس لم يكن صادق الرغبة فى مساعدة اللاتين فى هذه المرحلة من الحملة . أو لعله بعد أن تكشفت له نواياهم، أراد أن يحمى ظهره من عدوانهم فاتفق مع جيرانه الفاطميين ضدهم . ويقول شالندون إن اغتصاب بوهيمند لمدينة انطاكية أثار غضب الامبراطور وسخطه على الصليبيين مما دفعه على الاتفاق ضدهم مع الفاطميين ، بينما يعزو جروسيه ضياع المدينة من قبضة الكسيس إلى تردده وعدم مطالبته بها ، وأنه لو كان قد أصر على إعادتها إلى حظيرة امبراطوريته لتم له ذلك .

ومما يدل على حسن نية الصليبيين حيال البيزنطيين انهم بعد الاستيلاء على انطاكية أحسنوا معاملة سكانها والبطريق البيزنطى يوحنا الرابع وأعادوا تنصيبه على الكرسى البطريركى فى احتفال عظيم ، ولم يفرقوا بين الطقوس اللاتينية

---

(١) جدير بالذكر أن أمر هذا الاتفاق السرى الذى عقد بين الكسيس والفاطميين ورد ذكره فى المصادر الغربية فقط ، بينما لم تتعرض له الأصول العربية بكلمة واحدة . ولهذا يجب عند تناوله توخى الحيطة والحذر .

والطقوس الإغريقية . ولكن بعد أن اتفق مع الفاطميين ضد الصليبيين ، إن صحت الرواية الغربية فى هذا الصدد ، تغير الموقف وأخذوا يتحولون عنه . وكان بوهيمند فى ذلك الحين قد ثبت قدمه نهائياً فى انطاكية وتخلص من منافسة سان جيل له ، ثم عزل البطريق البيزنطى وعين محله بطريقا لاتينياً هو برنولد ده فالانس Bernold de Valance . فكان هذا إيذانا بتحول انطاكية إلى مستعمرة لاتينية (١) ، وستستمر هكذا لمدة مائة وسبعين سنة تقريباً (١٠٩٨-١٢٦٨) عندما استعادها العرب نهائيا فى مايو من عام ١٢٦٨ (٦٥٨ هـ) أيام السلطان الظاهر بيبرس(٢). ولعل هذا الموقف من جانب بوهيمند يكشف كيف اصطنع اللاتين فى بادىء الأمر سياسة اللين والدهاء حيال الاغريق وشعائرهم ، ولما استتبت لهم الأمور ظهروا على حقيقتهم ، فأزالوا الطقوس الأرثوذكسية وأحلوا محلها طقوسهم الكاثوليكية . وهذا يعزز ماسبق أن أوضحناه فيما يتعلق بموقف اللاتين من بيوت الله من مساجد وكنائس شرقية ، ويلقى ضوءاً على حقيقة اتجاهات العدوان الصليبى (٣) .

وإذا كان بعض المؤرخين الغربيين المحدثين أمثال جروسيه قد وقفوا إلى جانب اللاتين فى نزاعهم مع الكسيس كومنين والبيزنطيين فيما يتعلق بمشكلة انطاكية ، فقد وجد فريق آخر ألقى اللوم على الصليبيين وعلى رأسه شارل ديل . يقول هذا المؤرخ إن الفرنج لم تكن لديهم رغبة صادقة فى مواجهة الامبراطور

---

(١) Grousset, Crois., I, 110—5, 137—40.

(٢) راجع التفاصيل فى : النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، لوحة ٩٤-٩٦ ؛ الكتبى : فوات الوفيات ، جـ١ ، ص ٨٧و٨٩ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ قسم ٢ ، ص ٥٦٧-٥٦٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ١٨٦ .

(٣) أنظر ماسبق ، ص ٦٩ — ٧٠ من هذا الكتاب .

البيزنطى والتفاهم معه للوصول إلى حل يرضى الطرفين . وكان من أثر ذلك أن العلاقات بينهما آلت إلى شبه انفصام . ويستطرد ديل فيذكر أنه ليست هناك قرائن تثبت أن الكسيس لم يرحب بأولئك القوم ولم يغمرهم بالمال ، وأنه بما وزعه عليهم من مبالغ طائلة كان بوسعه تخصيصها لمحاربة الأتراك والتغلب عليهم ، وأن الكسيس قد وفى بتعهداته قبلهم . وهذا لا يمكن أن يقال عن الصليبيين بعد أن نكثوا العهد برفضهم إعادة انطاكية إلى بيزنطة . ويختتم دفاعه بأن هذا يكفى للحكم بما يقرب من الصحة على حقيقة العلاقات بين الكسيس والفرنج خلال الحرب الصليبية الأولى (١) .

وبالطبع بعد أن تباينت آراء المؤرخين فيما يتعلق بموقف كل من اللاتين والاغريق حيال الآخر حول مشكلة أنطاكية ، لنا أن نتساءل : هل حافظ كل من الكسيس والصليبيين على تعهداتهم التى نصت عليها اتفاقية القسطنطينية فيما يختص بهذه المسألة ؟ وعلى كتف من تقع مسئولية المضاعفات الخطيرة التى نتجت عن تأزمها ؟

يرى البعض أنه كان يجب على الصليبيين إعادة أنطاكية إلى بيزنطة تنفيذاً للاتفاق المبرم مع الكسيس ، وأن اغتصابهم المدينة على هذا الوجه يعتبر تجاهلا فاضحاً للاتفاق ونكثاً بالوعد المقطوع ، وأن ذلك كان ايذانا بوقوع أحداث جسام فى السنوات التالية . وفعلا لم يتنازل البيزنطيون عن حقوقهم فى أنطاكية ، مما أدى إلى اشتعال نيران الحرب بين بوهيمند والكسيس . وكانت هذه المسألة فى القرن الثانى عشر على رأس المسائل الشائكة فى سياسة بيزنطة فى سورية ، واليها أيضاً يرجع السبب فيما بذله خلفاء الكسيس من مجهودات للتسلط على

(١) Diehl, L'Europe Orientale, 23—4.

خلفاء بوهيمند (١) . هذا بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن الكسيس هو المسئول الأول عن ضياع حق بيزنطة فى أنطاكية . ويعزون ذلك إلى تردده وتهاونه وعدم تنفيذه لبعض الشروط التى نصت عليها معاهدة مايو ١٠٩٧م ، فى حين أن الفرنج بادروا بارسال مندوب عنهم يطالب الامبراطور البيزنطى بالحضور لاستلام المدينة ، وأنه لم يعر هذا النداء أى التفات فى الوقت الذى أخذ يتفاوض فيه مع دولة الفاطميين بمصر لتكوين جبهة مشتركة ضد بوهيمند واللاتين .

ولكن بالمقارنة بين مختلف النصوص يتضح أن هذه الأقوال مبالغ فيها إلى حد كبير . حقيقة إن معاهدة القسطنطينية تنص على إعادة أنطاكية إلى الكسيس بعد الاستيلاء عليها ، ولكنها نصت أيضا على تعهد الامبراطور بالاشتراك مع الصليبيين فى حروبهم ضد السلاجقة ، ومساعدتهم حربياً وامدادهم بالمؤونة . فهل ساعد الكسيس الفرنج ، أو بر بتعهداته لهم فى هذه المرحلة من الحملة ؟ يرى الباحث المدقق أن الامبراطور أخل بوعوده . حقيقة أن جيشا بيزنطيا بقيادة تاتيكيوس كان يعاون الصليبيين عند حصار أنطاكية ، ولكن هذا القائد هرب فى أثناء الحصار قبل أن يتم الاستيلاء على المدينة . ومهما كانت البواعث التى دفعته إلى ذلك ، فإن فراره قبل سقوط أنطاكية يعتبر تجاهلا الاتفاق . وهذا ما يمكن أن يقال أيضاً بالنسبة لألكسيس نفسه عندما قابله اتين ده بلوا وهو فى طريقه إلى أنطاكية ، وأخبره بالحال التى وصل اليها الفرنج المحاصرون داخل المدينة ، وكيف أنهم باتوا مهددين بالخطر أثناء حصار كربوغا لها ، فآثر السلامة ورجع بقواته من حيث أتى . بمعنى أن الامبراطور وقائده تركا الفرنج بدون

---

(١) Diehl, op. cit., 23; cf. Grousset, Sum of Hist., 174.

أى مساعدة فى هذه المرحلة من حملتهم . حقيقة لقد بر الكسيس بتعهداته للصليبيين خلال مرورهم فى آسيا الصغرى ، ولكننا لا نجد مصدراً يؤيد الرأى القائل بأنه أمدهم بما كانوا فى حاجة اليه فى أثناء عملية حصار أنطاكية ، وهذا يعتبر إخلالا لشرط أساسى فى المعاهدة . يضاف إلى ما تقدم أن الكسيس رفض الاشتراك فى الحملة ضد بيت المقدس، أو على الأقل لم يعطهم وعداً صريحاً بذلك ، هذا فى الوقت الذى كان فيه على صلة بالفاطميين . وإن صح هذا فإنه يكفى لهدم حق بيزنطة فى المطالبة بملكية أنطاكية. وعلى أى حال ، فقد سنحت الفرصة لألكسيس لاسترداد المدينة والظهور بمظهر الزعيم الدينى ، ولكنه تركها تمر دون أن يستغلها . وأخيراً فإن اغتصاب اللاتين لأنطاكية ما كان ليتم لولا ضعف الامبراطور وتردده فى المطالبة بها. وقد وجد بوهيمند الطموح فى تردد الكسيس وإخلاله بتعهداته فرصة ذهبية لتحقيق حلمه المنشود .

وكيفما كان الأمر ، فلقد كان استيلاء اللاتين على أنطاكية يعتبر من أكبر إنتصاراتهم الحربية منذ أن قاموا بحركتهم فى أخريات القرن الحادى عشر . وإذا قرأنا ما كتبه المؤرخون الغربيون عن هذا الحدث ، نلمس الأثر الذى تركه فى نفوسهم وفى نفوس مواطنيهم فى غرب أوروبا . لقد تغنى أهل الغرب بهذا النصر لأجيال طويلة ، إذ أنه فتح أمامهم الطريق إلى الأراضى المقدسة .

ويعتبر الاستيلاء على تلك المدينة ومن بعدها بيت المقدس ، دعاية للحركة الصليبية لا تقل بحال عن نداء البابا اربان الثانى أو دعاية بطرس الناسك وغيره من الوعاظ والمبشرين . وكانت هذه الانتصارات السريعة المتلاحقة التى أحرزها أولئك القوم فى غفلة من الزمن هى المحرك الضخم لذلك المجهود الذى بذلته أوروبا خلال ثلاثة قرون من الزمان لكى تحتفظ بسيطرتها على هذه البقعة المقدسة التى اغتصبتها من أصحابها العرب مدعية أنها كانت ترى فيها مهدها الروحى .

لقد غالى الكتاب اللاتين المعاصرون للحملة فى حكمهم على الكسيس بسبب علاقاته بالصليبيين . كما كانت يمين التبعية التى طلبها من رؤسائهم باعثة على استيائهم الشديد . ويبدو ذلك واضحا فى كتبهم وتآليفهم . وحاول أولئك المؤرخون انتحال مختلف الأعذار للفرنج لما حسبوه نوعا من الإذلال المتعمد من جانب البيزنطيين . وصرح أحدهم بأن مثل أولئك الجنود البواسل لم يفعلوا ما فعلوه إلا بعد أن وجدوا أنفسهم مدفوعين إلى ذلك بحكم الضرورة ، إذ لم يكن بوسعهم مقاتلة المسيحيين الإغريق. ويقول مؤرخ آخر إن أولئك القوم رفضوا أن يعودوا إلى بلادهم قبل أن يتمموا ما قدموا من أجله ، وانهم لهذا السبب إستاءوا من الكسيس وتصرفاته . ولم يترددوا فى اتهامه بالمكر والخداع والخيانة ، كما نسبوا إلى رعاياه الكذب والجبن ، واتهموا الإغريق بصفة عامة بأنهم السبب فى الهزائم العديدة التى حلت بالصليبيين فيما بعد . مع أنه من الإنصاف القول بأن عدم كفاءة القادة اللاتين ، وتنافسهم ، وتنازعهم فيما بينهم ، ثم ما كانوا يتميزون به من عدم التبصر وانعدام الإرادة - كل هذا كان السبب فيما حل بهم من كوارث وويلات .

وإذا أمعنا النظر فى مجريات الأمور وجدنا أن الاختلافات بين العنصرين تجعل التفاهم بينهما يكاد أن يكون مستحيلا . ويحتمل أيضاً أن الاتفاق بين الاغريق واللاتين لم يكن فى منتهى الإخلاص . فكان الامبراطور البيزنطى يريد الانتفاع بالفرنج لصالحه ؛ بينما هم من ناحيتهم لم يفكروا فى الغزو والفتح إلا لحسابهم الخاص . ولعل هذا هو أقرب الآراء إلى الحقيقة والواقع .

ورغما عن الأخطاء والنزاع والانشقاقات بين الصليبيين أنفسهم وبينهم وبين البيزنطيين ، فقد كانت نتائج عام ١٠٩٩ لاشك فيها . إذ ثبتت أقدام البيزنطيين فى آسيا الصغرى ، وتم تأسيس مستعمرات لاتينية فى سورية . وقد

كان من الممكن لو اتفق الصليبيون والبيزنطيون وقتذاك على مهاجمة الأتراك ، أن يحرزوا نصراً حاسماً عليهم . ولكن مسألة أنطاكية والخلافات السابقة حالت دون ذلك .

كان بوهيمند يهدف بعد أن أصبح سيداً على أنطاكية إلى توسيع رقعة إمارته. وقد حاول عام ١٠٩٩ بمعاونة البيازنة انتزاع اللاذقية من قبضة البيزنطيين ، وهاجم عام ١١٠٠ مدينتي حلب وافامية ، وكانت الأخيرة قد ردت إلى دولة الروم. ومع أنه وقع فى أيدى الأتراك فى نفس العام، إلا أن ابن أخته تنكريد الذى تولى شئون أنطاكية فى فترة غيابه فى الأسر ، كان يتابع سياسة خاله فى التوسع على حساب بيزنطة . وكان من مصلحته ألا يطلق سراح بوهيمند فى وقت قريب . لذلك لم يحاول التفاوض لإطلاق سراحه .

قام تنكريد بتولى شئون أنطاكية نيابة عن خاله خير قيام ، دالا بذلك على بعد نظره . فهو لم يحمل لقب أمير أنطاكية . وعلى الرغم من أنه سك عملة باسمه ، إلا أن هناك أسطورة دينية مكتوبة بلغة يونانية رديئة أطلقت عليه إسم « خادم الله » . وكان يطلق على نفسه فى بعض الأحيان لقب « الأمير الجليل» Grand Emir . وكان أمراً محتملا ومتوقعا أن الرأى العام الأنطاكى سوف يقف حائلا أمامه إذا تمادى فى مطامعه . وكان النورمان لا يزالون يعتبرون بوهيمند قائدهم. وكان لبوهيمند صديق مخلص فى شخص البطريرك اللاتينى المدعو برنارد ده فالانس ، الذى كان قد عينه قبل وقوعه فى الأسر مباشرة . ومن أجله أيضاً طرد الأمير الأسير البطريرك الاغريقى يوحنا الرابع John the Oxite . وكان تنكريد يسير على نفس سياسة خاله . فنى الداخل عمل على تثبيت الإدارة فى الإمارة ، وتحويل الكنيسة الشرقية إلى المذهب اللاتينى الكاثوليكى . أما فى

الخارج فقد سعى إلى الإثراء على حساب البيزنطيين والأمراء المسلمين المجاورين. ومع ذلك فقد كانت مطامعه محلية أكثر منها عالمية، وذلك على العكس من خاله .

على أية حال ، بادر تنكريد بالهجوم على اللاذقية واستولى عليها فى عام ١١٠٣ . وكان امتلاك هذه المدينة ذا أهمية كبيرة ، إذ أنها تفتح للإمارة منفذا إلى البحر وإلى الغرب . وقد شغلت هـــذه السياسة المعادية بال الامبراطور البيزنطى ، مما حمله على الاتفاق مع ريمون ده سان جيل ضد النورمانديين . بل إنه فى سبيل مضايقة النورمانديين ، عاون سان جيل على تثبيت أقدامـه فى طرابلس الشام عام ١١٠٢ (١) . ولما عاد بوهيمند من أسره إلى أنطاكية فى ربيع عام ١١٠٣ طالبه الامبراطور البيزنطى بحزم بإرجاع المدينة اليه . ولكن بوهيمند رفض اجابته إلى طلبه وقامت الحرب بينهما . واتخذ البيزنطيون هـذه المرة موقف الهجوم ضد بوهيمند ، واستولوا على كيليكية وأدنه Adana ومامیسترا Mamistra . ثم ضربوا الحصار حول اللاذقية ، واستولوا على بعض المراكز الاستراتيجية الهامة على الساحل . وفى نفس الوقت كان الأتراك من الجهة الأخرى يهاجمون الصليبيين ، وأنزلوا بهم هزيمة نكراء عام ١١٠٤ عند مدينة حران ، وحاصروا الرها بعد ذلك بفترة وجيزة .

ولما وجد بوهيمند أنه ليس بمقدرته فى مثل هذه الظروف قتال البيزنطيين بمفرده ، اعتزم التوجه إلى الغرب بغية التبشير بحرب صليبية جديدة ، ولكنها ليست ضد العرب هذه المرة ، وانما ضد امبراطور الدولة البيزنطية . وقد أفلح بحيلة بارعة من اختراق صفوف البيزنطيين التى كانت تراقب الساحل السورى .

---

(١) حول طرابلس الشام وتأسيس إمارة صليبية بها ، أنظر السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى (الاسكندرية ١٩٦٧) — ص ١٣٥ ومابعدها .

ووصل إلى كورفو ، ومن هناك أرسل كتابا إلى الكسيس يتحداه فيه تحديا صريحا . ويشير فى هـذا الخطاب الذى احتفظت بنصه الأميرة آن كومنين إلى الحروب التى قادها والده روبرت جويسكار ضد الامبراطورية، ويختتمه بقوله : «وحالما أصل إلى القارة (يعنى أوروبا) سأجمع من حولى اللومبارديين والصليبيين والألمان وكافة المواطنين الأفرنج ، وكلهم مشهود لهم بالشجاعة الفائقة . وسأثير الاضطرابات فى الامبراطورية الرومانية التى تحكمها . وبمساعدة هؤلاء الرجال ، سأجعل الدماء تسيل أنهاراً فى المدن والبلدان التى تحت إمرتك ، حتى يحين الوقت المناسب لأثبت قدماى فى بيزنطة » .

وفى يناير سنة ١١٠٥ بلغ بوهيمند مدينة بوى ، وكان موضع الحفاوة فى كل مكان حل به . وضم اليه البابا أحد رجال الدين للدعاية للحرب الصليبية التى كان يزمع القيام بها . واستقبله بعد ذلك فيليب الأول ملك فرنسا وزوجه من ابنته ، وقدم له كافة التسهيلات اللازمة . وقد نسب الأمير النورماندى فشل الحملات التى قام بها الفرنج ضد العرب فى الشرق فى أعوام ١١٠١ و ١١٠٢ و ١١٠٣ إلى الكسيس والبيزنطيين . ونجح فى اثارة الرأى العـــام فى الغرب الأوروبى ضد البيزنطيين متهما إياهم بخيانة اللاتين وتوجيه الطعنات لهم من وراء ظهورهم . ولم يكلفه جمع الجيوش لحملته الجديدة أى مجهود . وفى خريف عام ١١٠٧ كان قد حشد حوالى ٣٤ ألف مقاتل . وهبط بهذا الجيش فى مدينة أفلونا Avlona ، وضرب الحصار حول مدينة دورازو . وهكذا تعيد حملة ١٠٨١ نفسها بعد مضى ما يقرب من ربع قرن ، مع فارق أساسى وهو أن الكسيس كانت تحت إمرته هذه المرة قوات كبيرة لمحاربة خصمه العنيد ، كما كان أسطوله يسيطر على البحر . وسرعان ما هاجم الجيش البيزنطى بوهيمند براً وبحراً ، واشتد فى قتاله حتى وجد نفسه محاصراً داخل معسكره . ولم تلبث قواته أن تملكها اليأس ،

وولت الادبار بعد أن أضناها الجوع وبعد أن أثر عليها وسل الامبراطور . ولم يجد بوهيمند بدا من طلب المفاوضة وايقاف القتال . وسمح الكسيس لخصمه القديم بمقابلته بشروط تمس كرامته وكبريائه ، الا أنه كان مضطراً لقبول هذه الشروط المهنية . وذهب إلى المعسكر البيزنطى حيث نوقشت بنود المعاهدة الجديدة التى عرفت باسم معاهدة ديفول Treaty of Devol والتى نصت على اعتراف الأمير النورماندى بتبعيته للامبراطور ولنجله من بعده ، وحلف يمين التبعية والولاء بين يديه . كما تعهد بألا يحمل السلاح ضده مرة أخرى ، وألا يقوم بهجوم جديد على أراضى الدولة البيزنطية مما يعرض سلامتها للخطر ، وأن يقاتل فى سبيله مهما كانت الظروف ، وان يكتفى بالأراضى المنصوص عليها فى المعاهدة وهى التى تنازل له عنها الكسيس . كما وعد بوهيمند أن يعيد إلى بيزنطة جميع البلدان التى فتحها والتى كانت من أملاكها من قبل . وتنفيذاً للاتفاقية أعاد بوهيمند كيليكية واللاذقية إلى حظيرة الامبراطورية ، وذلك خلاف مواقع أخرى على الساحل . وفيما يتعلق بانطاكية فقد تسلمها بوهيمند اقطاعا من الكسيس الذى بادر بممارسة سلطاته فيها ، فأمر الا تتبع بطريركية انطاكية الطقوس اللاتينية الغربية ، وأن يكون بطريقها ارثوذكسيا يختاره الكسيس من بين هيئة رجال الدين بكنيسة سانت صوفيا البيزنطية . وفى شروط أخرى نصت عليها الاتفاقية يبدو مدى ما لحق بالأمير النورماندى من المذلة بعد انكماش إمارته . وقد غمر الامبراطور الأمير بوهيمند بالخلع كعادته ، وأسبغ عليه لقب «Sebaste» أى المحترم ، وتم توقيع المعاهدة سنة ١١٠٨ .

وللمعاهدة ديفول سنة ١١٠٨ أهمية لا تقل بحال عن معاهدة القسطنطينية سنة ١٠٩٧ . فهى تسلط الضوء على الحل الذى كان الكسيس كومنين يفكر فيه للمشكلة الصليبية . لقد كان مستعدا للسماح لأى أمير لاتينى بأن يتولى إدارة

المناطق الواقعة على الحدود بما فى ذلك انطاكية ، طالما أن هذا الأمير مرتبط به بموجب واجبات التبعية الاقطاعية وفقا للتقاليد اللاتينية الغربية ، وطالما أن بيزنطة تمارس نفوذها وسلطاتها بطريقة غير مباشرة بواسطة الكنيسة الشرقية . بالإضافة إلى أن الكسيس كان يدرك بحكم منصبه أنه مسئول عن سلامة المسيحيين الشرقيين .

ومع ذلك فقد ظلت المعاهدة حبرا على ورق . ولكنها قضت على بوهيمند الذى لم يجسر بالمرة على استعراض عضلاته أو حتى بمجرد الظهور مرة أخرى فى الشرق . فإنه بعد أن تحطمت آماله على هذا الوجه أبحر إلى ايطاليا تاركا وراءه كل شىء ، ونزل فى لومبارديا حيث وافته منيته عام ١١١١ م دون أن يتسنى له العودة إلى انطاكية ثانية ومواصلة كفاحه ضد الامبراطور . وقد ترك طفلين قاصرين من زيجته الفرنسية ليرثا حقوقه فى انطاكية .

وكان هذا نصراً عظيما لالكسيس بعد أن باشر بنفسه العمليات الحربية والمفاوضات الدبلوماسية . إذ تمكن من أن يلحق الهزيمة بخصمه الذى وقف عقبة كأداء فى طريقه منذ أن تولى العرش ، والذى كان بدون شك أبرز شخصية فى الحرب الصليبية الأولى . وقد كان هذا النجاح من دواعى الفخر والسرور فى القسطنطينية ، ويمكننا التثبت من ذلك مما كتبته آن كومنين فى هذا الصدد . على أن هذا الفرح لم يدم طويلا ، إذ رفض تنكريد الذى خلف خاله فى أنطاكية رفضاً باتا تنفيذ شروط المعاهدة ، وواصل سياسة بوهيمند وفتوحاته ، فاستولى على اللاذقية فى عام ١١٠٨ ، وعلى جانب من اقليم كيليكية عام ١١٠٩ . ولم يكن من السهل إيقافه عند حده بدون استخدام القوة . ولم تؤت المفاوضات التى أجراها البيزنطيون فى طرابلس وبيت المقدس لهذا الغرض النتيجة المرجوة . وفى

عام ١١١٢ توفى تنكريد ، ورغم ذلك لم يطرأ أى تغيير جوهرى على الموقف المتأزم ، ولم يكن الكسيس نفسه فى مركز يسمح له بالتدخل العسكرى لتسوية هذه التركة المثقلة بالمشاكل . وعلى ذلك فقد ظلت مسألة انطاكية على ما هى عليه . وكانت هذه المشكلة جديرة بأن تحتل مكانة هامة فى التاريخ البيزنطى فى القرن الثانى عشر (١) .

---

(١) Diehl, L'Europe Orientale, 24-7; Ostrogorsky, 323-4; Runciman, Crusades, II, 32-6, 39-55.

ويلاحظ أن بيزنطة لم تتهاون فى العمل على تثبيت حقوقها فى انطاكية طبقا لمعاهدتى ١٠٩٧ و١١٠٨ ، متخذة سياسة اللين أو الحرب تارة وسياسة التزاوج السياسى تارة أخرى . وقد واصل كل من يوحنا كومنين (١١١٨ - ١١٤٣) ومانويل الأول (١١٤٣ ـ ١١٨٠) سياسة الكسيس فى هذا الشأن. بل ان مانويل ـ فى سبيل تدعيم النفوذ البيزنطى فى انطاكية ـ تزوج من الأميرة مارى الانطاكية . كما استغل الحملة الصليبية الثانية لتثبيت السيادة البيزنطية على تلك الامارة . فبعث إلى لويس السابع وهو فى طريقه بقواته من أوروبا إلى الشرق ، يعرض عليه تموين الجيش الفرنسى مقابل اعتراف لويس بسلطان بيزنطة على انطاكية . ولكن هذا العرض لم يلق قبولا من لويس مما أدى إلى غضب مانويل وقيام النزاع بينه وبين قادة الحملة الصليبية ، بل والاتفاق مع مسعود سلطان قونية ضدهم . وقد سر بيت كومنين لفشل الحملة الصليبية . ولم ييأس أباطرة بيزنطة فى المطالبة بحقهم فى انطاكية ، إلى أن جاءت الحملة الرابعة سنة ١٢٠٤ وأسست لها إمارة لاتينية فى القسطنطينية نفسها . فكان هذا مما شغل البيزنطيين فى المنفى عن المطالبة بانطاكية إلى العمل على تحرير بلادهم من ربقة اللاتين . أنظر :

Diehl, LEmpire Byzantin, 147-50; Chalandon, Comnènes, II, 289-90; Runciman, Crusades, II, 359-60.

راجع أيضا حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٥١ .

وللمزيد من المعلومات والتفاصيل عن أحداث السنوات التى تلت عودة بوهيمند من الأسر إلى امارته فى انطاكية سنة ١١٠٣ إلى حين وفاته سنة ١١١١ ، أنظر من المصادر العربية مؤلفات ابن الأثير (الكامل فى التاريخ) ، وابن القلانسى (ذيل تاريخ دمشق) ، وابن العديم (منتخبات من تاريخ حلب) ، وابن الجوزى (مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان). ومن المصادر الأجنبية راجع تآليف البرت دكس ، وراءول ده كان ، وفوشيه ده شارتر ، ومتى الرهاوى ، وميخائيل السورى ، وآن كومنين .

الفصــــل السابع

حركة اليقظة العربية

فى القرن الثانى عشر

ان الاسترسال فى تتبع مشكلة انطاكية وما أثارته من خلافات حادة بين اللاتين الكاثوليك والروم الأرثوذكس كان لها أثرها فى تطور العلاقات بينهما فى الأحقاب التالية ، لا يبعدنا عن مواصلة الحديث عن تقدم الغزاة الأجانب فى المشرق العربى ، وهو الهدف الرئيسى من حركتهم العدوانية .

لقد وقعت انطاكية فى قبضة اللاتين كما وقعت من قبلها نيقية ودوريليوم وغيرهما من البلدان التى كانت فى حوزة السلاجقة . والواقع أن السبب الرئيسى فى نجاح الفرنج فى الاستيلاء عليها لا يرجع إلى صفات خاصة تميزوا بها دون خصومهم كالجرأة أو الشجاعة ، وإنما يرجع أولا وقبل كل شىء إلى انقسام السلاجقة على أنفسهم . وهو ما أوضحه المؤرخ شارل أومان فى كتابه « تاريخ فن الحرب والقتال فى العصور الوسطى » . فلو كان رضوان صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق قد اتفقا وقتذاك لألحقا بالعدو الدخيل شر هزيمة ، ولحالا بينه وبين التوغل فى آسيا الصغرى وشمال الشام . ولكنهما على الرغم من الخطر الداهم الذى كان يهددهما ، وبدلا من الاتحاد لمواجهة هذا العدو المشترك ، لم يبذلا أى مجهود فى سبيل وقف التقدم الصليبى فى الشرق العربى (١) .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ١٢٨-١٢٩ ؛ السيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ، ص ٦ ؛ عبد الرحمن زكى : معركة المنصورة ، ص ٩ — ١١ .

وكما أن الخلافات التى نشبت بين الصليبيين وبعضهم البعض من جهة ، وبينهم وبين بيزنطة من جهة أخرى ، ستؤدى فى النهاية إلى استحالة القضاء على القوى العربية الواعية فى منطقة الشرق الأوسط ، فإن الخلاف المستحكم بين ملوك العرب وأمرائهم سيؤدى أيضاً إلى تحقيق حلم اللاتين ، ولو إلى حين ، وهو الاستيلاء على أورشليم والأراضى المقدسة وتأسيس مستعمرات لاتينية بها . فقد كان العالم العربى آنذاك منقسما على نفسه سياسيا ومذهبيا . ففى مصر خلافة الفاطميين الشيعية على غير وفاق مع خلافة العباسيين السنية فى بغداد ، وقد دب فى أوصالها الضعف والانحلال . فالانقسام بينهما سياسى ودينى ، والتناحر على أشده . وهكذا نجد أن كلا الفريقين كان آخذا فى التدهور ، بينما القبائل التركانية ومن بينها السلاجقة تختطف من أملاك الفاطميين أو العباسيين على السواء ما يمكن اختطافه من الأقاليم كما حدث مثلا عند استيلائهم على بلاد الشام من الفاطميين . وكانت سلطنة السلاجقة قد انقسمت هى الأخرى إلى دويلات صغرى يحكم كل منها أمير مثلما حدث فى حلب وانطاكية ودمشق (١) . يحدث كل هذا والعدو الفرنجى واقف يتربص بالعرب الدوائر ، وهو مغتبط أشد الاغتباط لهذا الانقسام الواضح فى صفوفهم . وإذن لا عجب إذ كانت هذه هى حال العرب فى الشرق من أن ينتصر عليهم الصليبيون بعد وصولهم إلى القسطنطينية واختراقهم الأناضول واستيلائهم على المعاقل الأمامية فى آسيا الصغرى وشمال الشام . ولا عجب أيضا أن يتم هذا كله فى سنوات معدودات (٢) .

---

(١) راجع عن ذلك : Grousset, Sum of Hist., 173-4; Lane-Poole, Hist. of Egypt, 163; Mahmud, Story of Islam, 83, 133, 134; Setton, Hist. of the Crus., I, 96-7. راجع أيضا : المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٨٧ — ٢٩١ .

(٢) Oman, Art of War, I, 233. ويذكر أومان (نفس المرجع والصفحة) =

على أية حال ، كان غزو انطاكية تجربة حية كشفت عن حقيقة نوايا أولئك القوم ، وأن هدفهم الحقيقى لم يكن تحرير قبر المسيح حسبما كانوا يدعون ، وإنما تحقيق المطامع الذاتية والرغبة الكامنة فى نفوسهم فى التوسع والسيطرة وبسط النفوذ والسلطان والعمل أولا وقبل كل شىء على تصفية الوجود العربى والقضاء على الحضارة العربية . فبعد أن فرغوا من انطاكية ، واصلوا الزحف بقيادة ريمون ده سان جيل إلى بيت المقدس ، متجنبين الاحتكاك بالمدن الحصينة . وأخيراً فى ٧ يونيو سنة ١٠٩٩ م بلغوا المدينة المقدسة (١) ، وكانت إذ ذاك فى قبضة الفاطميين الذين استغلوا انشغال السلاجقة فى الشمال ضد الفرنج ، وقاموا بانتزاعها منهم فى أخريات أغسطس سنة ١٠٩٨ م . وكان حاكمها من قبل مصر يدعى الأمير فخر الدولة . وفى الحال ضربوا الحصار حولها الذى استمر من ٧ يونيو إلى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م . وقد قاسى الغزاة الأمرين بسبب نقص الذخيرة وقلة المياه وحرارة الجو فى مثل هذا الوقت من العام ، فضلا عن الدور الباسل الذى قامت به الحامية العربية داخل المدينة فى سبيل دفع اللاتين عنها .

= أنه لم يكن من السهل على القوات الصليبية إحراز أى نصر عسكرى فى الشرق بسبب ضعفها من الوجهة الحربية . فلم تكن هناك قيادة موحدة يدين لها الجميع بالولاء ، بل وجدت عدة جيوش اقطاعية مشتتة متفرقة وفدت من شتى انحاء الغرب الأوروبى ، وكان ينقصها النظام وحسن الاعداد والترتيب والالمام الكافى بالتكتيكات الحربية السليمة . ومع ذلك فقد أفلحت فى الاستيلاء على انطاكية وبيت المقدس وغيرها من البلدان بسبب انقسام العرب وقيام العداء والبغضاء والتنازع بينهم وتخاذلهم . ولولا ذلك لما أمكن الفرنج إحراز أى نصر عسكرى على قوات كانت تفوقهم اعدادا وترتيبا وتنظيما وتدريبا .

(١) كان الاتراك قد انتزعوا هذه المدينة من الفاطميين سنة ١٠٧٠ منتهزين فرصة ضعفهم ، وظلت بأيديهم حتى سنة ١٠٩٨ عندما استردها الفاطميون بقيادة الأفضل بن بدر الجمالى أمير الجيوش مستغلين انقسام الاتراك على أنفسهم وتخاذلهم وانشغالهم مع الصليبيين فى الشمال، وعينوا الأمير فخر الدولة حاكما عليها من قبلهم . انظر عن ذلك : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١١ .

لوحة رقم ٣



بيت المقدس من جبل الزيتون

وتظهر فى الصورة قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى اليسار ، وكنيسة القيامة خلف قبة الصخرة إلى اليمين

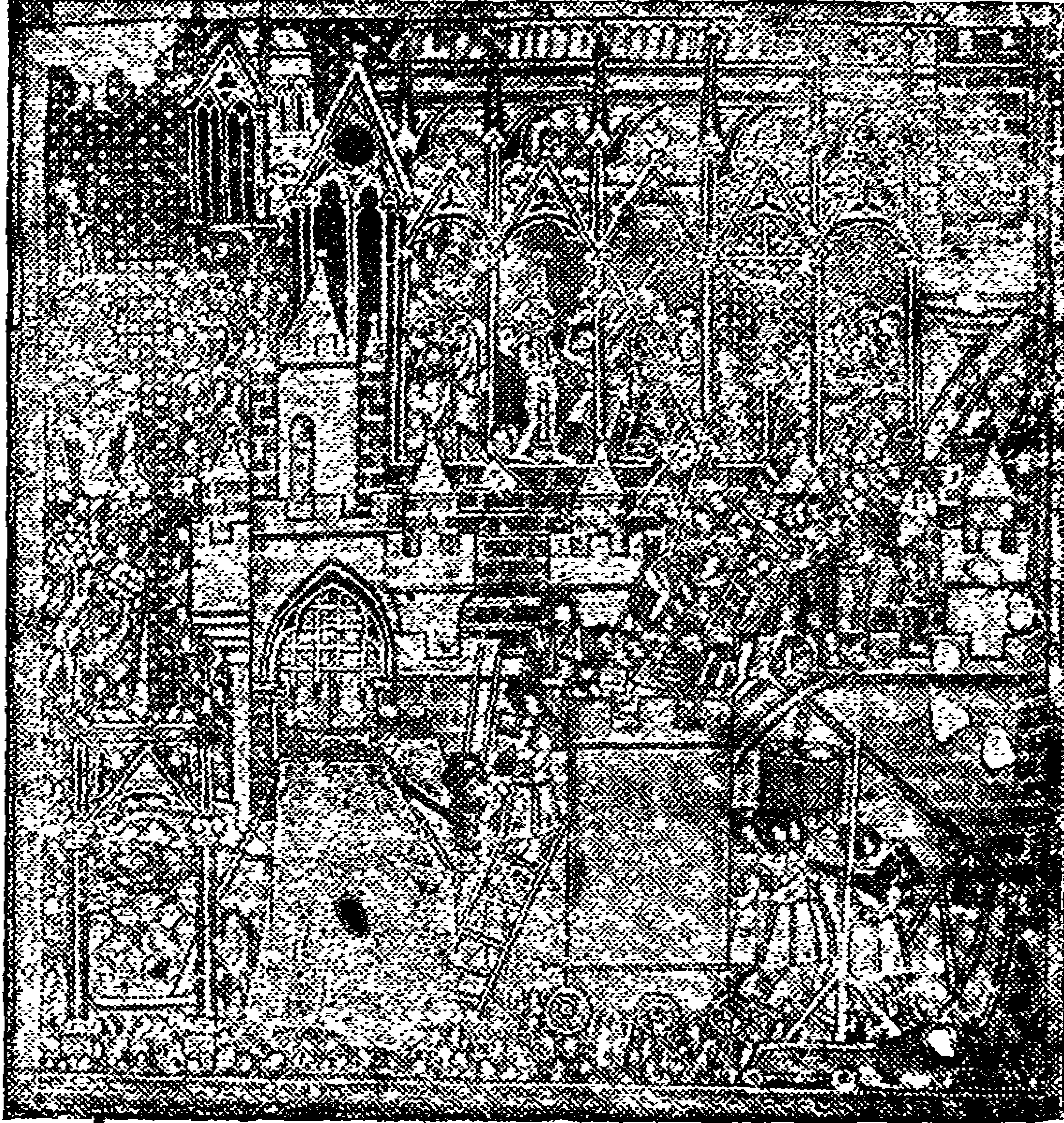
وكان هذا أمرا طبيعيا . فكما كانت القدس من الأماكن المقدسة عند المسيحيين . كذلك كانت تعتبر من الأماكن المقدسة عند المسلمين حيث أسرى الله برسوله ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . وأخذ الفرنج يشتدون فى قتال المدينة إلى أن وجدوا منفذاً فى ناحية منها لم يهتم العرب بتحصينها ، فدخلوا منه بجيوشهم وخيلهم ، وأخذوا يتعقبون الأهالى الآمنين الذين وجدوا أنفسهم وقد أحاط بهم العدو الماكر من كل جانب ، فالتجأوا إلى قبة الصخرة والمسجد الأقصى للاعتصام بهما ، إيماناً صادقا منهم أنهم سيجدون فيهما أمنا وسلاما من بطش الفرنج وغدرهم ، وأنه مهما بلغ تعطش أولئك القوم لسفك الدماء ، فلن يجرؤا على اقتحام الأماكن المقدسة وإتيان المنكر فيها . ولكن الفرنج لم يرعوا حرمة بيوت الله ، وأخذوا يعملون فيهم سيوفهم دون رحمة أو هوادة ودون مراعاة لعامل السن أو الجنس، حتى سالت الدماء أنهاراً وخاض فيها الغزاة إلى ركبهم (١) .

ولم يكتف المغيرون بذلك ، بل كشفوا عن تعصبهم وحقدهم على العروبة والعرب فى موقفهم من بيوت الله ، عندما حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة لاتينية سموها « معبد السيد » « Templum Domini » ، كما استخدموا المسجد الأقصى لمصالحهم ، وأطلقوا عليه اسم « معبد سليمان » « Templum Solomonis » . وقسموه إلى ثلاثة أقسام ، فجعلوا القسم الأول كنيسة والثانى مسكنا للفرسان الداوية والقسم الأخير مستودعاً لذخائرهم . ثم اتخذوا بعد ذلك السراديب التى تحت المسجد اسطبلا لحيواناتهم . وهذا يكشف فى ذات الوقت عن أحد دوافع

---

(١) Raimond d'Agiles, 291 sqq., Albert d'Aix, 470 sqq., cf. Lane-Poole, Hist. of Egypt, 164. – أنظر أيضا ابن القلانسى: الذيل ، ص١٣٦ وما بعدها . وتناول الدكتور حسن حبشى تفاصيل استيلاء الفرنج على القدس فى كتابه : [الحملة الصليبية الأولى ، ص ٨١ وما بعدها .

لوحة رقم ٤



استيلاء الصليبيين على بيت المقدس

الحركة الصليبية ، وهو العمل على جعل العــالم العربى أرضا لاتينية تدين بالكاثوليكية على مذهب روما ، والقضاء على الإسلام وثقافته من المنطقة ، وعلى المسيحية الشرقية وديانتها الأرثوذكسية (١) .

تلك هى وحشية الأوروبيين التى تميزت بها أعمالهم واعتبرت وصمة عار فى جبين المسيحية الغربية . وهى وحشية تحدث عنها الـكتاب الغربيون الذين عاصروا أحداث تلك الحركة وكانوا شهود عيان لها ، أمثال ريمون داجيل وفوشيه ده شارتر ووليم الصورى ، وعنهم نقــل المحدثون مثل جروسيه ورانسيمان وغيرهما من المتخصصين فى تاريخ الحركة الصليبية . فكانوا إذا ما حلوا ببلد عربى يأتون على الأخضر واليابس ، ويقترفون الفحشاء ، ويسيلون الدماء أنهاراً ، ويرتـكبون من الجرائم البشعة ما تقشعر من هوله الأبدان وتشمئز من ذكره النفوس . كما كانوا فى حملاتهم لا يفرقون بين المحاربين والنساء والشيوخ والأطفال . فالـكل عندهم سواء ، يقتلون وينهبون من يصادفونه منهم ، ويعيثون فساداً فى القرى والبلاد التى يحلون بها . ثم يقومون بعد ذلك بصبغ الجهات التى يغتصبونها ويؤسسون إمارات لهم بها بصبغة لاتينية كاثوليكية بحتة ، بعد أن يزيلوا منها الشعائر الإسلامية والمسيحية الشرقية (٢) . ولا شك

---

(١) أنظر عارف باشا العارف : تاريخ القدس ، ص ٧١ - ٧٢ و٧٤ . وجدير بالذكر أن هذه كانت نفس السياسة التى ساروا عليها عندما أغاروا على الديار المصرية فى حملتى جان ده برين ولويس التاسع ؛ إذ أحالوا مسجد دمياط إلى كنيسة لاتينية وعملوا على تثبيت شعائرهم وطقوسهم بالمدينة . أنظر : ابن واصل : مفرج الـكروب ، ج ١ ، لوحة ٨٧ ا ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٨ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٨ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٣٧ . راجع أيضا :

Joinville, (ed. Wailly), 98; Rothelin, R. H. C.-H. Occ., II,594.

(٢) من المراجع العربية التى تحدثت عن وحشية العدوان الصليبى فى الشرق العربى يجب أن نذكر المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٢ ؛ ابن العماد : شــذرات الذهب ، ج ٥ ، =

أنهم وجدوا فى ضعف العرب وانقسامهم فى بداية العدوان الصليبي فرصة ذهبية لارتكاب تلك الشرور والآثام .

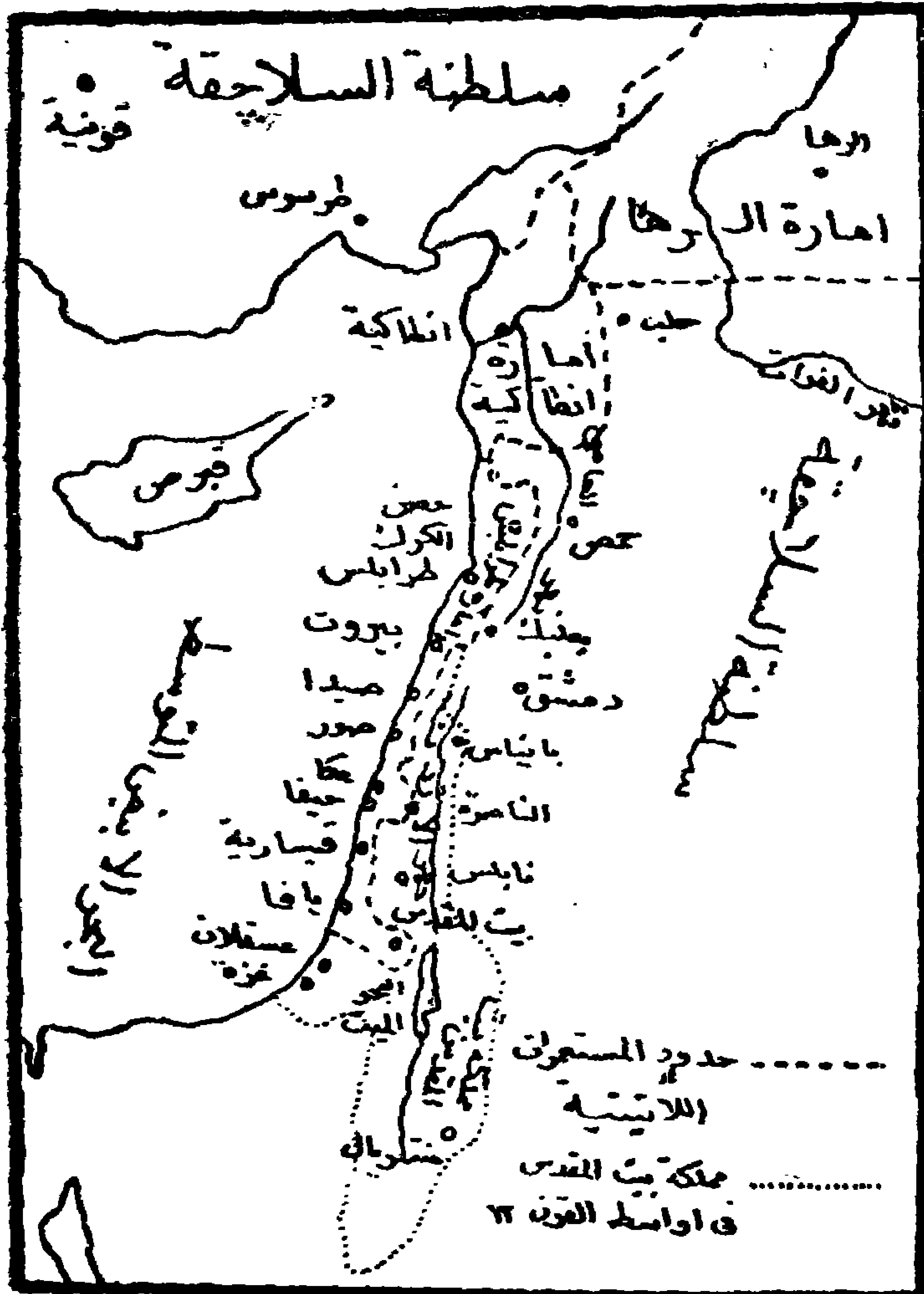
وهكذا انتهى الأمر باستسلام المدينة المقدسة ووقوعها فى قبضة الغربيين فى منتصف يوليو من عام ١٠٩٩ (١) . وبذلك تتحقق لهم أحلام كانت تداعب خيالهم فى يوم ما ، ويؤسسون مملكتهم الصليبية فى تلك الأرض العربية ، ويجعلون على رأسها أحد زعمائهم وهو جودفرى دوق اللورين السفلى الذى قسمها إلى إمارات إقطاعية (٢) وزعها بين زملائه ، وكأنها تركة آبائهم وأجدادهم يتقاسمونها فيما بينهم ، وليست أرضاً عربية اغتصبوها من أهلها مستغلين فى ذلك فرصة تفككهم وانقسامهم . وفى ذلك يقول مارشال بلدوين انه على ضوء تجارب الغرب المعروفة فى التوسع والاستعمار ، يمكن اعتبار الإمارات

= ص ٦٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٨٣-٨٤ ؛ أبوالفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٨ و١٢٩ ؛ ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٣٧ . راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ١٥ — ١٩ .

(١) يذكر ابن القلانسى (الذيل ، ص١٣٧) أن العساكر المصرية بقيادة الأفضل قامت لنجدة المدينة ولكن بعد فوات الوقت. فنزل الأفضل بظاهر عسقلان انتظارا لوصول الأسطول المصرى فى البحر . وقد انتهز الفرنج هذه الفرصة ، فهجموا عليه وهم فى نشوة انتصارهم والحقوا به الهزيمة ، وأعملوا سيوفهم فى القوات العربية . ويقال إن عدد القتلى من الفرسان والمتطوعة بلغ زهاء عشرة آلاف نفس ، وكان ذلك فى ١٢ أغسطس سنة ١٠٩٩ . أنظر أيضا أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٩ .

(٢) يذكر الاستاذ كوبلاند انه لم تكن توجد حكومة اقطاعية نموذجية فى دولة من الدول الأوروبية فى العصور الوسطى نظرا لاختلاف ظروف هذه الدول ، وأننا لانجد مثالا نموذجيا للحكم الاقطاعى إلا ماحمله الأوروبيون معهم من بلادهم إلى الشرق أيام الحروب الصليبية ، حيث أسسوا مملكتهم فى أرض أجنبية عنهم وعلى نمط اقطاعى أوروبى الذى لم يكونوا يفهمون نظاما غيره للحكم . أنظر كوبلاند : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ، ص ٢٤ (ترجمة الدكتور زيادة) .

خريطة رقم ٥



دولة الغزاة فى الشرق العربى إبان العدوان الصليبى

الصليبية التى تم تأسيسها فى شرق البحر الأبيض المتوسط هى الفصل الأول فى تاريخ أوروبا الطويل فيما وراء البحار (١) .

يتضح مما سبق أن الدور الأول من الحركة الصليبية قد تميز برجحان كفة الصليبيين الغزاة على العرب أصحاب البلاد . ويمكن تحديد هذا الدور زمنياً ببداية الحرب الصليبية الأولى وتحقيق هدفها بتأسيس المستعمرات اللاتينية الأربع فى الأراضى المقدسة ، وما أعقب ذلك من الاستيلاء على بعض المعاقل والقلاع والمدن الساحلية بالشام فى السنوات القليلة التى تلت قيام هذه الحرب (٢). وقد تم هذا فى وقت كان فيه الشرق العربى منقسما على نفسه ، مما أعجزه عن مواجهة العدوان الغربى ، ومما هيأ للاتين فرصة تحقيق اتجاهاتهم الاستعمارية فى هذه المنطقة من العالم باسم الدين وتحت قناعه (٣) .

وليس من العسير أن ندرك أن أهل الغرب كانوا يعلمون تماما ، ومنذ اللحظة الأولى ، أنه بوسع العرب فى مصر والشام وشمال العراق ، إذا اتحدت جهودهم واتفقت كلمتهم وتكتلت قواهم فى صدق وإخلاص ، أن يدفعوا عنهم الخطر

---

(١) Baldwin, Med. Church, 103.

(٢) جدير بالذكر فى هذا المقام أن المؤرخ رينيه جروسيه قسم الحروب الصليبية إلى ثلاثة أدوار رئيسية ، وهى التى جعلها أساسا لمؤلفه الكبير وكتابه المختصر عن تلك الحروب. الدور الأول وهو الذى رجحت فيه كفة الصليبيين على العرب ،والدور الثانى وهو فترة التوازن بين الفريقين المتحاربين ، والدور الثالث والأخير وهو دور انتصار العرب على الصليبيين الذى انتهى بطردهم من الأراضى المقدسة باستخلاص عكا من قبضتهم سنة ١٢٩١. أنظر نقد الدكتور عزيز سوريال عطيه لمؤلف جروسيه الكبير فى تاريخ الحروب الصليبية فى المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الاول ، ص ٣١٦ — ٣٢٧ .

(٣) حسن حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٢٠ وما بعدها . أنظر أيضا كتاب : Mahmud, Story of Islam, 134.

الصليبي ، وأن يعملوا على القضاء على الفرنج بشتى الطرق والوسائل . ثم أن العرب أنفسهم لم ينسوا بعد أن ما أحرزه أولئك الدخلاء من نجاح سريع فى بداية حركتهم العدوانية ، إنما كان بسبب ضعف القوى العربية وانقسامها . وأنهم كلما اتحدوا كلما كان ذلك بشيراً بحركة بعث عربى ووثبة مباركة وانتفاضة عملاقة تعقبها حملات مضادة على الغزاة وإماراتهم فى الشرق . ففى اتحادهم وقوتهم قضاء على اللاتين المعتدين وعلى كل أثر لهم ، وفى ضعفهم وانقسامهم خذلان لهم وتمكين لنفوذ أعدائهم فى المنطقة (١) . وليس أدل على ذلك من أن الفتوحات العربية شرقا وغربا فى القرن السابع ما كانت لتتم لولا اتحاد العرب واتفاق كلمتهم على صعيد واحد ، فى وقت نزل فيه القرآن الكريم بالوحى على رسول الله يدعو فيه العرب جميعا إلى الاتحاد والتآلف والمحبة ونبذ الفرقة والخلاف . وقد أكدت الانتصارات العربية الحاسمة فى القرنين الثامن والتاسع أنه بوسع العرب إذا اتحدوا أن يأتوا بالمعجزات . ففى خلال هذه الفترة القصيرة من عمر الزمن ، تمكنوا من امتلاك بلاد الشام وشرقى آسيا الصغرى ومصر وشمال أفريقية ، وأصبحت قواتهم على أبواب القسطنطينية عاصمة دولة الروم الشرقية التى باتت عاجزة تماما عن الوقوف أمام هذا التقدم . كما استولى العرب على بعض الجزر فى البحر المتوسط ومن أهمها قبرص وردس . هذا فى الجبهة الشرقية ، أما فى الجبهة الغربية فقد امتدت الفتوحات العربية حتى أسبانيا ،

(١) جوزيف نسيم يوسف : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، ص ٢٣ — ٢٤ ، ولويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ١٦٧ ومابعدها . وقد تناولت هذه الفكرة بالدراسة فى كتابى « لويس التاسع فى الشرق الأوسط » ، وبخاصة فى الفصلين الثالث والرابع ، ص ١١٦ — ٢٠٣ ، عندما أشرت إلى المحاولات المتكررة التى قام بها الملك الفرنسى لويس التاسع لتحقيق الاطماع الصليبية فى الشرق ، مستغلا فى ذلك انقسام العرب ومنازعاتهم الطارئة وقتذاك ، وكيف أن العرب عندما اتحدوا تمكنوا من توجيه الضربة القاصمة إلى قلب القوى الصليبية فى المنطقة .

ومنها عبروا جبال البرانس ووصلوا إلى فرنسا نفسها ، وإن لم تساعد الظروف على بقائهم هناك . كما استولوا على جزيرة كريت ووقعت صقلية وجنوبى إيطاليا فى قبضتهم . (١)

ولعل من أهم نتائج قيام الدولة العربية الفتية وحركة الفتح فى الجهتين الشرقية والغربية ، ما أكده المؤرخون ، القدامى والمحدثون ، من أن البحر الأبيض المتوسط الذى كان فيما مضى بحراً رومانياً غربيا ، أصبح الآن بحراً عربيا تنتشر على طول شواطئه مدن وبلدان عربية ذات حضارة عربية وتتكلم اللسان العربى (٢) .

ولكن الموقف تغير عندما بدأ الضعف يدب فى أوصال هذا العالم العربى الكبير . وكانت انتصارات الروم فى القرن العاشر أيام الأسرة المقدونية على حساب ضعف القوى العربية عندما دب الانحلال السياسى فى كيان الدولة العباسية وقتذاك . وهذا ما يمكن أن يقال أيضا بالنسبة لانتصارات أهل الغرب فى الحملة الصليبية الأولى فى ختام القرن الحادى عشر . إذ أفلحوا فى تحقيق أطماعهم ، وتأسيس مستعمرات لهم فى الشرق لتكون شوكة فى جنبات الدول العربية، وكان ذلك أيضا على حساب العالم العربى ، الأمر الذى سهل على الغزاة مهمتهم فى بلاد غريبة عنهم ، وفى أرض غير أرضهم وملك غير ملكهم . فقد انصرف الحكام العرب والسلاجقة بسبب الانقسام والمنازعات والحروب التى قامت بينهم، وحالة الضعف التى استشرت فى أوصالهم ، عن الجهاد ضد الغزاة القادمين من الغرب

---

(١) أنظر ماسبق ، ص ٧٧ ح ١ و ١٤١-١٤٢ من هذا الكتاب .

(٢) أنظر عن ذلك : Pirenne, Economic and Social Hist. of Med. Europe, 2-3; idem, Med. Cities I5-16.

راجع أيضا كتابى : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ١ - ٥ .

ووقف تيارهم الجارف (١) .

وغير خاف أنه لو كان قد قدر للقوى العربية الاتحاد عند قيام الحملة الصليبية الأولى ، لما تمكن اللاتين إطلاقا من إحراز أى نصر عسكرى أو سياسى فى الشرق العربى ، ولقضى العرب عليهم قبل أن يصلوا إلى فلسطين ويؤسسوا مستعمراتهم بها . ولو قدر لهم الاتحاد عندما حل الصليبيون بأراضيهم ، ونسوا ما بينهم من خلافات ، وغلبوا الصالح العربى العام على المصالح الشخصية ، لما أتاحوا للدخلاء فرصة العمل على تثبيت دعائم دولتهم، ولاستطاعوا أن يحفظوا فلسطين من عبث الطارق الدخيل .

ومع ذلك فبالرغم من النجاح المصطنع السريع الذى حققه الفرنج خلال سنوات قلائل نتيجة لظروف طارئة تتعلق بالمنطقة ، فاننا نلمس بوضوح أن كيانهم بالشرق بدأ متداعيا متهالكا منهارا . ذلك أن دولتهم ولدت ضعيفة هزيلة لا تقوى على الوقوف على قدميها ، ولا تتوافر فيها مقومات الدول والحكومات الشرعية ، وكانت عوامل الضعف تنخر كالسوس فى مجتمعهم الصليبى منذ اليوم الأول، نذكر منها ضآلة مواردهم المالية ، وقلة المحاربين الذين كانوا تحت إمرتهم، وتضارب مصالحهم وتباين مشاربهم ، واختلاف أجناسهم ، وانحلالهم الخلقى ، وفتور الحماس الدينى عندهم بشكل ملحوظ . فضلا عن الخلافات المستمرة بين الفرنج الجدد الوافدين من الغرب والفرنج القدامى المستوطنين فى الشرق ،

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤-١٣٥ ؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢ ، ص ١٦-١٧ . وفى هذا المعنى يقول الكاتب الفرنسى دانيال روبس :

« La désunion de l'Islam devait aider grandement l'entreprise chrétienne. » cf. Daniel—Rops, La Cathédrale et la Croisade,543.

أنظر أيضا : باركر : الحروب الصليبية ، ص ٣٨ (الترجمة العربية) .

حول المصالح الذاتية وامتلاك الأراضى (١). وأخيرا شعورهم بأنهم يعيشون بين أصحاب البلاد الأصليين الذين يتطلعون إلى اليوم الذى تتحد فيه صفوفهم توطئة لتوجيه ضربتهم القاضية واسترداد أراضيهم المسلوبة .

وكان يقابل ذلك من الجانب الآخر إحساس العرب بالعدو الجاثم المحدق بهم ، وشعورهم أن وجود إمارات اللاتين بين ظهرانيهم كان يشكل خطرا جسيما يجب عليهم القضاء عليه قبل أن يستفحل ويسرى فى بقية أجزاء الوطن العربى ، الأمر الذى أدى إلى ظهور بوادر البعث العربى ضد اللاتين الغرباء اعتبارا من السنوات الأولى من القرن الثانى عشر (٢) . وعلى هذا يمكن القول بأن الضعف الذى انتاب العالم العربى فى أخريات القرن الحادى عشر ، كان هو نفسه مصدر يقظته وقوته فى القرن الثانى عشر . وشاءت الظروف السيئة ألا يظهر على المسرح العربى عند بداية العدوان زعيم يستطيع تكوين جبهة عربية قوية متحدة ضد أولئك القوم . وكان الفرنج يواجهون فى هذه الفترة المبكرة أمراء متفرقين متخاصمين حسبما أسلفنا . فاستغلوا هذه الظروف إلى أقصى حد ممكن ، وعملوا على الإيقاع بين الحكام العرب تمكينا لنفوذهم (٣) .

---

(١) أنظر فشر : أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٨٣و١٨٥ .

(٢) تناول الدكتور حسن حبشى فى كتابه « نور الدين والصليبيون ،ص١٣ ومابعدها» ، المراحل التى مرت بها حركة الإفاقة والتجمع العربى فى القرن الثانى عشر ، وأثرها فى تكوين جبهة قوية لمقاومة الفرنج الدخلاء وطردهم من أرض العروبة .

(٣) يذكر جروسيه أن الصليبيين عندما بلغوا شمال الشام لم يترددوا لحظة واحدة فى التحالف مع الفاطميين بمصر ضد السلاجقة ، مستغلين الخلافات السياسية والمذهبية القائمة بينهما ، وبذلك يخلو لهم الجو لتحقيق مآربهم العدوانية . وهكذا بينما كان الأتراك مشغولين مع الفرنج فى شمال الشام ، تمكن الفاطميون من استعادة بيت المقدس . ولكن ما أن استولى اللاتين على انطاكية وألحقوا الهزيمة بالتركمان ، حتى انقلبوا على الفاطميين وانتزعوا البيت المقدس منهم فى سنة ١٠٩٩ أنظر عن ذلك مؤلف كل من رينيه جروسيه وستانلى لين بول : =

ولكن العرب عندما استشعروا بهذا الخطر الداهم المحدق بهم ، بادروا إلى توحيد صفوفهم ولم شملهم لمقاومة الفرنج وطردهم من ديارهم . وقد ظهرت بوادر هذا البعث بشكل خاص فى مصر والشام وشمال العراق، بظهور بعض القوى الإسلامية الفتية التى أخذت على عاتقها مهمة توحيد العرب لمقاومة الفرنج ودرء خطرهم (١) . وهنا بدأ اللاتين يحسون بالخطر الماثل ، وأن مقامهم إلى زوال إن آجلا أو عاجلا (٢) ، وكانت دولتهم آنذاك فى طور التدهور والانحلال(٣) . وأصبحت المسألة مسألة زمن فحسب .

كل هذا أوجد حالة من التوازن بين الفريقين : العـــرب أصحاب الديار والفرنج الدخلاء ، بحيث لم يتمكن أى منهما فى هذا الدور الثانى من الكفاح من إحراز نصر حاسم على خصمه (٤) . وقد وجدت عدة ظروف ساعدت الغزاة فى

Grousset, Sum of Hist., 174 - 5; Lane - Poole, Hist. of = Egypt, 164.

وجدير بالذكر أن سياسة الايقاع والتفريق بين العرب كانت سياسة عامة اتبعها حكام مملكة بيت المقدس اللاتين كلما سنحت لهم الفرصة بذلك . ولكنها منيت بالفشل آخر الأمر بعد أن تكشف أمرها ، وبعد أن تكتل العرب لدفع العدوان عن ديارهم .

(١) أنظر ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨١ ؛ ابن الأثير : اتابكة الموصل (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية) ج ٢ قسم ٢ ، ص ٣٣ ؛ Albert d'Aix, R. H. C. - H. Occ., IV, 670; Matt. d' Edesse, R. H. C. - Doc. Arm., I, 91-4, 96-7.

(٢) ابن القلانسى : الذيل ، ص ٣٣٣ و ٣٣٩ — ٣٤٢ ؛ ابن الأثير : اتابكة الموصل ، ص ١٩٤ و ٢٠٧ و ٢١٩ — ٢٢٤ و ٢٣٣ — ٢٣٦ ؛ ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ٢١٩ ؛ راجع كذلك : Guillaume de Tyr, I, 2e. p., 895-7.

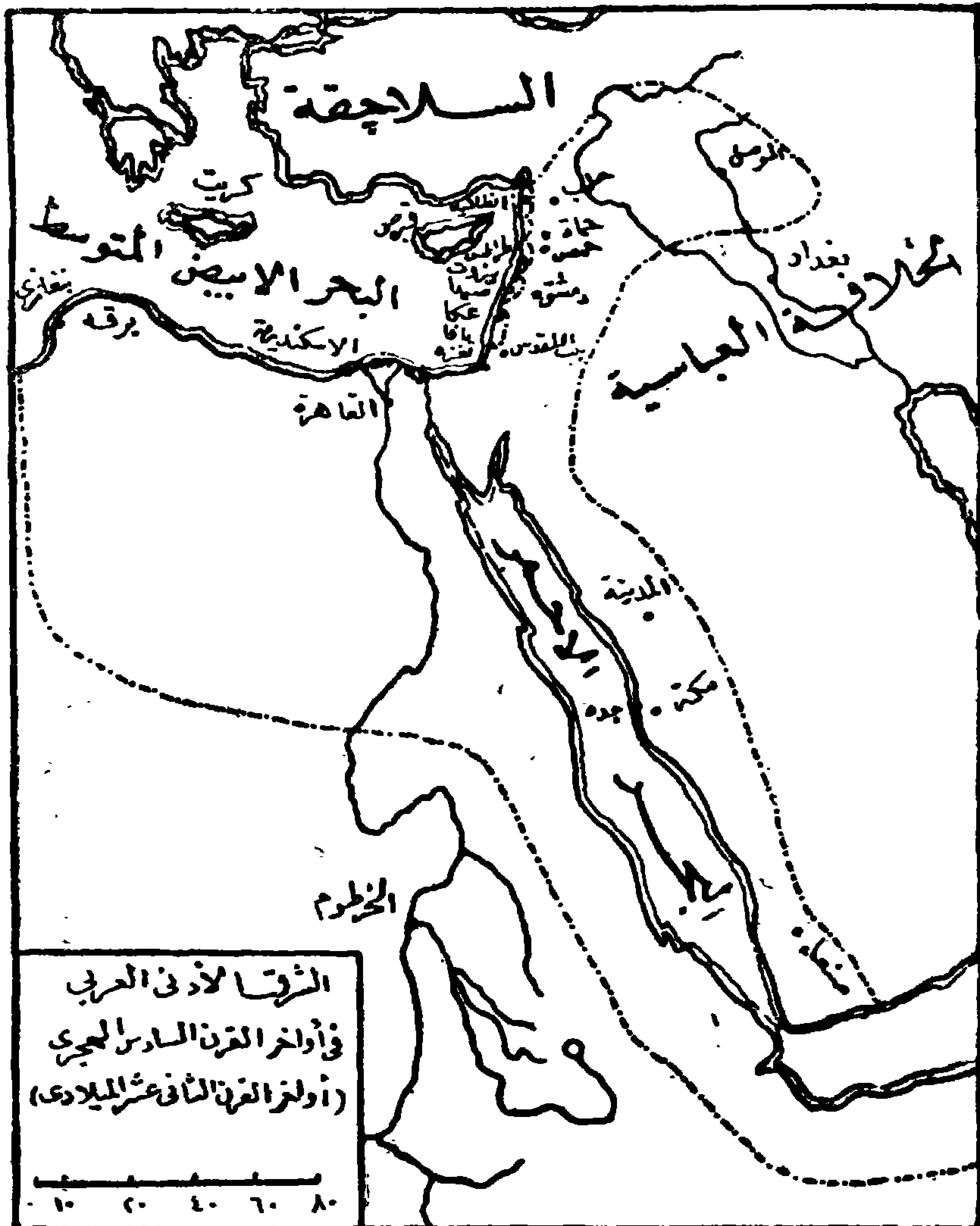
(٣) أنظر نظير سعداوى: الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى، ص ١٢ — ١٣ . وكذلك: Mahmud, Story of Islam, 136.

(٤) تناول جروسيه بالدراسة المركزة الدور الذى تعادلت فيه كفة كل من العرب والصليبيين فى كتابه المختصر عن الحروب الصليبية . أنظر :

Grousset, L'épopée des crois., 136-61.

أنظر أيضا كتابى : الوحدة وحركات اليقظة العربية ، ص ٢١ — ٢٦ .

خريطة رقم ٦



السلاجقة
كريت
البحر الابيض المتوسط
الإسكندرية
برقه
القاهرة
حلب
حماة
حمص
دمشق
عكا
يافا
بيت المقدس
الموصل
بغداد
الخلافة العباسية
المدينة
مكة
جدة
البحر الاحمر
الخرطوم
الشرق الأدنى العربي
في أواخر القرن السادس الهجري
(أواخر القرن الثاني عشر الميلادي)
٨٠ ٦٠ ٤٠ ٢٠ ١٠ ٠

هذا الدور من المحافظة على كيانهم المتداعى ، منها سياسة بناء الاستحكامات والقلاع وتحصين المدن الساحلية ، واستغلالهم أى انقسام بين العرب والعمل على بذر بذور الشقاق بينهم ، ثم قدوم نجدات أوجماعات من الحجاج الأوروبيين المسلحين ، وإن كان ذلك بصفة غير منتظمة وبأعداد غير كافية . فضلا عن سياسة التزاوج التى درجوا عليها للربط بين مختلف الامارات اللاتينية المتنازعة ، والعمل على توحيد صفوفها قدر الاستطاعة . وأخيراً استعانة أولئك القوم بالجماعات الرهبانية العسكرية ، وبأساطيل الجاليات الإيطالية التجارية فى الاستيلاء على الموانى العربية بالساحل الشامى ، نظير اتفاقيات يتقاسم فيها الطرفان المكاسب والأسلاب . ولولا ذلك لانتهى الأمر فى هذا الدور بتفوق العرب على الصليبيين الذين كانوا محاطين من الشمال والشرق والجنوب الغربى بقوات اعدائهم التى كانت تنتظر الفرصة المواتية للقيام بدورها الإيجابى فى المنطقة . وقد انحصر أفرنج الشام فى شريط ضيق على الحوض الشرقى للبحر المتوسط (١)، وباتوا يعلمون جيدا أنهم هالكون لا محالة . ولم يكن أمامهم إلا أحد أمرين كلاهما مر . إما أن ينجوا بحياتهم عن طريق البحر عائدين إلى بلادهم، وإما أن يقذفوا فى البحر بواسطة قوات أعدائهم القوية المتربصة لهم وفى الوقت المناسب .

هذا عن اللاتين ، اما العرب فلم يكن أمامهم فى هذه المرحلة من الكفاح سوى طريقين لا ثالث لهما . إما أن يسدوا على اللاتين الطريق الساحلى شرق البحر المتوسط ، ولم يكن هذا بالأمر المستطاع وقتذاك ، نظرا للقلاع والموانى التى كان العدو يتحصن بها على طول الساحل . وحتى إحراز النصر النهائى عن هذا الطريق لم يكن مضمون النتائج بسبب الظروف التى شرحناها . فضلا عن الخوف

---

(١) Grousset, Sum of Hist., 175.

من حدوث نكسات أو ثغرات فى الداخل قد ينفذ منها العدو ، وبذلك يفوت الفرصة على الشعوب العربية فى طرده من ديارها ، أو على الأقل تأخير إتمام هذه العملية . أما الحل الثانى فهو أن يبادر العرب بتكوين جبهة متحدة متماسكة من أقصى الشمال فى الشام والعراق إلى أقصى الجنوب فى مصر ، بحيث تطبق على دولة الغزاة من جميع الجبهات ، وتدفعها بقوة وعنف نحو البحر حتى تنكمش وتتقلص شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهى الأمر بزوالها . وهذا ماحدث بالفعل فى الدور الثالث والأخير من هذه الحروب .

وفى هذا الدور برزت أسماء إسلامية لامعة مثل عماد الدين زنكى ، وابنه نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبى مؤسس أسرة الأيوبيين بمصر ، والذى تمكن من تكتيل الصفوف والعمل على نبذ الفرقة والانقسام لتحل محلهما عوامل القوة والمنعة(١) . وانتهى الأمر بتوحيد الجبهة العربية المفككة بالشرق الأوسط من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، من العراق إلى القاهرة . ومن الفرات إلى النيل ، فى دولة عربية واحدة مسموعة الكلمة مرهوبة الجانب يعمل لها العدو الدخيل ألف حساب . وقد أمكنها فى فترة قصيرة تطويق ممتلكات اللاتين بعد أن قضت على كل أمل لهم فى الامتداد والتوسع (٢) . وبعد أن اطمأن صلاح الدين

---

(١) من المصادر العربية الهامة عن جهاد هؤلاء الزعماء المسلمين الثلاثة فى سبيل توحيد الجبهة العربية توطئة لتوجيه الضربات الأخيرة ضد المستعمرين نذكر ابن العديم : تاريخ حلب (مجموعة الحروب الصليبية ـ المؤرخون الشرقيون ، ج٣، ص٦٥٨) ؛ ابن الأثير : اتابكة الموصل (نفس المجموعة السابقة ، ج ٢ قسم ٢ ، ص ٦١ ـ ٦٥و١١٨ ـ ١٢٥) ؛ أبو شامه : الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٢ و٣٤ و٣٦ ـ ٣٧ . ومن المراجع الحديثة انظر كتاب : الباز العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ، ص ١٤ ومابعدها ؛ جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ـ ج ٢ (الاسكندرية ١٩٦٧) ، ص ١٢ ـ ٢٠ ، ٦٣ ـ ٧٨ .

(٢) Baldwin, Med.Church, 104; Grousset, Sum of Hist., 176, 179-80; Lewis, Arabs in Hist., 152-3.

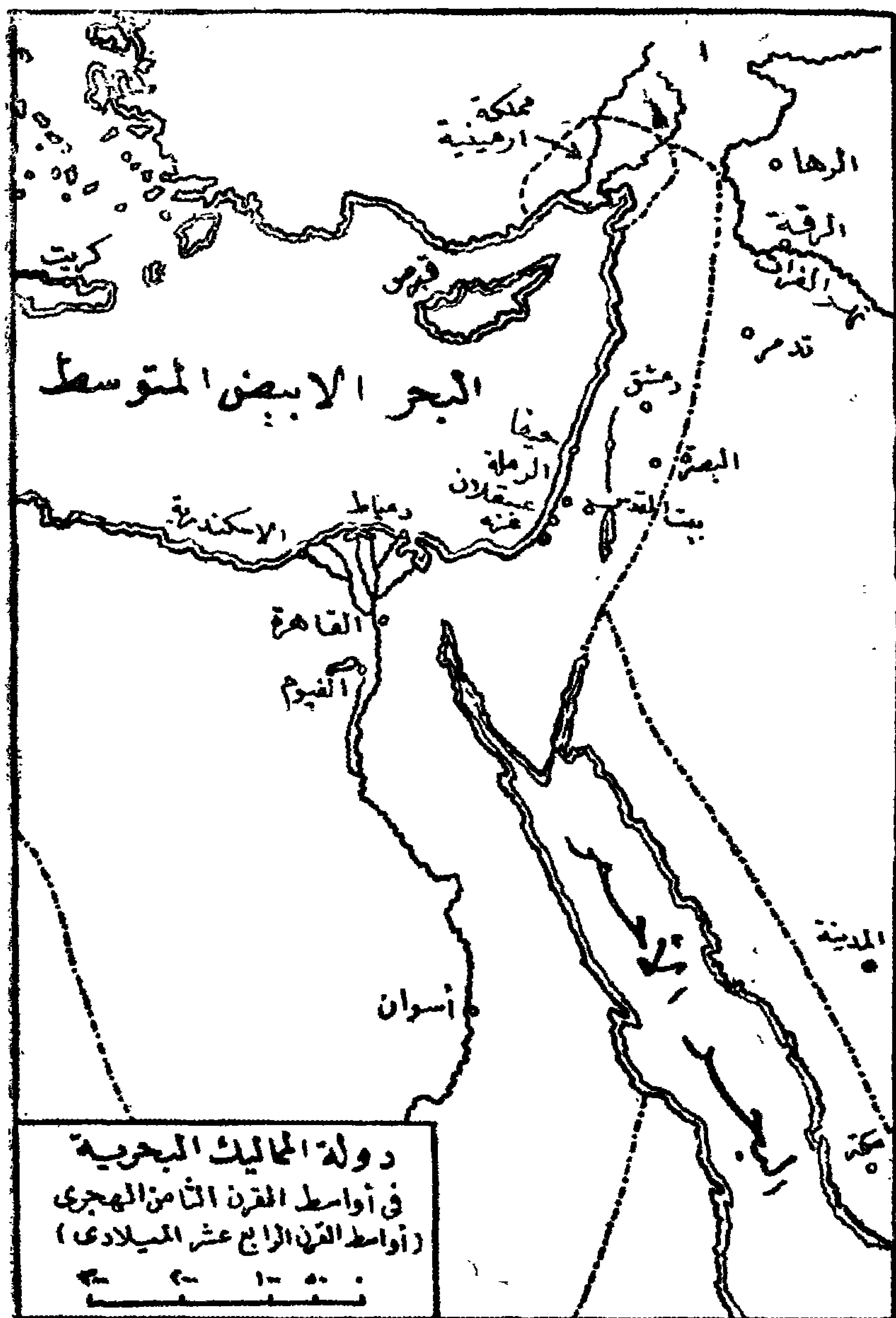
إلى سلامة الكيان العربى الواحد ، قام بجهاده المعروف ضد الفرنج الغزاة الذى انتهى بهزيمتهم شر هزيمة فى موقعة حطين سنة ١١٨٧ م ، وطردهم من البيت المقدس فى أكتوبر من نفس العام ليعود إلى أهله وأصحابه . وبذلك كان قد تحدد بصفة نهائية مصير دولة اللاتين التى خلقوها فى قلب العالم العربى ، واعتدل ميزان القوى فى المنطقة لصالح العرب . وترك لخلفاء صلاح الدين من الأيوبيين والمماليك ، تؤازرهم القوى الشعبية المتفجرة فى المنطقة ، مهمة إتمام هذا الجهاد المقدس ، إلى أن انتهى الأمر بطرد الفرنج من أرض العروبة فى أخريات القرن الثالث عشر ، عندما استرد السلطان الأشرف خليل آخر معاقلهم الحصينة بالساحل الشامى وهى عكا فى سنة ١٢٩١ م . وبقيت بعد ذلك بضعة معاقل ساحلية سقطت فى قبضة العرب تباعا فى نفس العام (١) . وكانت محاولات الأوروبيين إحياء الروح الصليبية البغيضة فى القرن الرابع عشر مجرد فكرة هزيلة عفا عليها الزمن ، ولم يقدر لها النجاح بعد أن شهد العالم بشقيه تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة ، كان لها أثرها فى سير مجرى الأحداث .

وبتدهور سلطان الكنيسة والبابوية فى الغرب فى أخريات العصور الوسطى ، وظهور عصر النهضة ، أدرك الأوروبيون أن الفكرة الصليبية بمعناها المألوف لم تعد تصلح قناعا لإخفاء أطماعهم القديمة فى العالم العربى ، بل أصبحت مجرد ذكرى لماض بغيض . وأخذ العالم يتجه نحو مثل ومبادىء مغايرة لما كان معروفا فى العصور الوسطى . وأخذت عجلة التاريخ تشق طريقها فى سرعة مذهلة وسط أحداث وتقلبات هامة شهدها عصرنا الحديث . وقامت حربان عالميتان قلبتا الأوضاع وميزان القوى فى العالم رأسا على عقب . وظلت أطماع أهل الغرب

---

(١) فيما يتعلق بجهاد المماليك ضد الصليبيين ونتائجه ، أنظر : سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٥١ — ٦٩ ؛ جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٢٠١ ومابعدها و ٢٣٥ ومابعدها .

خريطة رقم ٧


مملكة ارمينية
الرها
الرقة
نهر الفرات
تدمر
كريت
قبرص
البحر الابيض المتوسط
دمشق
حيفا
الرملة
البصرة
عسقلان
غزة
بيت المقدس
دمياط
الاسكندرية
القاهرة
الفيوم
المدينة
أسوان
مكة
دولة المماليك البحرية
فى أواسط القرن الثامن الهجرى
(أواسط القرن الرابع عشر الميلادى)

اللاتيني في منطقتنا كما هي دون تغيير ، بالرغم من التغير الجوهري الذي طرأ على كافة الظروف من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وعسكرية وغيرها. لم تزل الأطماع الاستعمارية ولم تتغير ، وإنما الشيء الوحيد الذي زال هو الرداء الذي ألبسوه هذه الأطماع . فبعد أن كان رداء صليبياً في عصر يقبل مثل هذه الأوضاع ولا يفهم شيئا سواها ، خلع اليوم رداءه ، وكشف عن حقيقته البغيضة التي لا سند لها إلا الظلم والطغيان .

مما سبق يمكن أن نستخلص عدة حقائق هامة تتعلق بدور الشعب العربي في صد المستعمرين الاوروبيين أيام الحروب الصليبية . (١) وأولها أن مصر كانت خلال الكفاح الدامي المرير عبر القرون المتعاقبة ، قلب العروبة النابض بالحياة ، ومعقلها المنيع ، ومركز إمدادها بالرجال والمال والميرة والسلاح (٢). ومنها كانت تنبعث دائماً صيحة الجهاد الحقة ضد الغزاة الصليبيين ومن أتى بعدهم (٣) . كما تحمل شعبها وحده العبء الأكبر في مواجهة الحملات الصليبية وصدها . وكم شهد الجامع الأزهر من خطب كانت تلقى من فوق منبره أمام الآلاف المؤلفة من ابناء الشعب العربي الذين قامت على أكتافهم مهمة الحفاظ على أرض العروبة من أطماع الطامعين والنهازين للفرص . لقد حملت مصر في صدق وإخلاص لواء

---

(١) تعرضت في كتابي « الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي » ص ٤٥ — ٦٤ ، لأهم الآراء والاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من العدوان الصليبي على العالم العربي والدروس المستفادة منه ، وذلك في شيء من التفصيل والتحليل .

(٢) أنظر عن ذلك جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط (الاسكندرية ١٩٤٩) ، ص ٢٠ ؛ St. Lane-Poole, A Hist. of Egypt in the Middle Ages, 218; idem, The Story of Cairo, 193.

(٣) حول الجهاد المقدس ضد الصليبيين الغزاة ، وفضائل بيت المقدس والشام ، أنظر ص ٩٤—٩٦ والحواشي من هذا الكتاب .

الزعامة ، وإليها بلا شك يرجع الفضل الأول فى تكتيل القوى العربية وإجلاء الفرنج الدخلاء عن العالم العربى (١) . وهى وإن كانت قد حملت هذا اللواء فى الماضى أيام الفرنج والمغول وغيرهما من الغزاة ، فلا زالت تحمله عن جدارة واستحقاق حتى اليوم ممثلة فى جمهوريتنا العربية الفتية .

وإن الحديث عن الوثبات العربية ودور مصر الإيجابى فيها إبان العدوان الصليبى، يقودنا إلى مسألة جوهرية بالغة الأهمية تؤكدها الأحداث التى تعرضت لها المنطقة ، وهى أن فكرة توحيد الجبهة العربية فى كيان متكامل غير منفصم ووحدة واحدة لا تتجزأ ، تعتبر مرحلة هامة أساسية من مراحل جهاد العروبة ضد الدخلاء . ذلك أن الوطن العربى عندما كان منقسما على نفسه ، لم يكن بوسعه إطلاقاً الوقوف فى وجه الغزاة الصليبيين ، أو إحراز أى نصر حاسم عليهم . وان كل الحملات التى قامت ضد المغيرين كانت حملات ضعيفة لم يقدر لها النجاح بسبب الخلف والانشقاقات . وكان أعداؤه يعلمون ذلك تمام العلم ، ويستغلون سياسة الفرقة والتمزيق لتحقيق مآربهم . ولكن عندما تكتل العرب ، كان بوسعهم مواجهة خصومهم صفاً واحداً وجيشاً واحداً ، واخيراً وطناً كبيراً واحداً . وكانت هذه خطوة أولى فى طريق النصر على العدو الرابض فى فلسطين. وهذه ظاهرة دورية عامة فى تاريخ العروبة والعرب منذ القدم وحتى يومنا هذا . وقد رأينا شواهد لها فى العصور الوسطى عقب حركة الفتح وفى أيام صلاح الدين . أما اليوم فإننا نعيش فعلا فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا . وقد أثبتت الأحداث أنه ضمانا للنصر الحاسم الأكيد ، يجب أن تسبق عملية الجهاد الأكبر عملية لا تقل عنها خطراً وشأنا ، ألا وهى عملية توحيد الجبهة

(١) أنظر ص ٤٢—٤٣ من كتاب فلسفة الثورة للرئيس جمال عبد الناصر؛ راجع أيضا:
Lewis, Arabs in Hist., 153.

العربية . فهى مرحلة أولى ضرورية من مراحل هذا الجهاد المقدس (١) .

أما الحقيقة الثالثة التى نود الإشارة إليها ، فهى أن الأزمات التى تعرض لها الوطن العربى أيام العدوان الصليبى ، أوضحت بما لايدع مجالا للشك أن الشعوب العربية لم تكن بمعزل عن تلك الأحداث . فقد أثبتت وعياً كبيراً وفهما عميقاً لمجريات الأمور والأحوال ، وأكدت وجودها وعروبتها حتى فى أوقات الضعف والتفكك . والمصادر العربية والافرنجية غنية بالأمثلة الدالة على ذلك . فعندما كان اللاتين الدخلاء يهاجمون إحدى الدول العربية ، كانت الشعوب العربية تهب من كل مكان للانتقام منهم والإغارة على ممتلكاتهم . ونلمس هذا بوضوح فى شتى مراحل الحركة الصليبية . ولنضرب مثلا بالحملة الصليبية السابعة . فعندما هاجم لويس التاسع ملك فرنسا مدينة دمياط واستولى عليها ، بادر الشعب السورى بالهجوم على معاقل اللاتين المتبقية لهم بالساحل الشامى ، وذلك بقصد مضايقتهم ومحاولة صرفهم عما هم قادمون عليه (٢). وكان هذا هو نفس ما يحدث عندما تتعرض بلاد الشام لعدوان غربى ، فيبادر إخوانهم فى الجنوب إلى مساندتهم ضد العدو المشترك . وللمقاومة الشعبية دور مجيد فى دفع الخطر الغربى عن الوطن العربى . نذكر منها موقف أهالى المنصورة من حملة لويس التاسع (٣) ،

(١) أوضح المؤرخ وليم ستيفنسون أن السياسة العامة التى سار عليها الزعماء والحكام العرب إبان العدوان الصليبى،هى الامتناع قدر الاستطاعة عن مهاجمة الامارات اللاتينية بالشرق، أو المغامرة فى حرب خطيرة مع اللاتين فى الوقت الذى كانوا يؤسسون فيه دولتهم .أنظر :
Stevenson, Crusaders in the East, 723-4.

(٢) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢، لوحة ٣٥٧ ب ؛ المقريزى: السلوك ، جـ ١ ، قسم ٢، ص ٣٣٧ ؛ وكذلك كتابى: هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ، ص ٢٣ وما بعدها .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، لوحة ٣٦٦ ا ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ قسم ٢ ، ص ٣٥٠ ؛ انظر كذلك :
Joinville, (ed. Wailly), 120; Rothelin, R. H. C.-H. Occ., II, 605.

وموقف أهل الشام من الحملات التى تعرضت لها بلادهم . كذلك وجد ارتباط روحى وثيق بين أهل المشرق والمغرب ، فبينما كان الأولون يجاهدون ضد الفرنج فى شرقى البحر المتوسط ، كان إخوانهم المغاربة يجاهدون هم أيضا ضد الأوروبيين فى غربى ذلك البحر (١). فكل هذا يعبر عن وحدة متينة ربطت بين العرب جميعا من المحيط إلى الخليج ضد العدو المشترك .

وثمة مسألة أخرى ترتبط بسابقتها وتتعلق بفكرة القومية العربية التى هى أساس الوحدة العربية الشاملة ، وعما إذا كانت مثل هذه الهزات العنيفة التى كان العالم العربى يتعرض لها من حين لآخر هى السبب فى خلقها ، أم كانت هذه الهزات مجرد عامل ساعد على إيقاظها وبعثها من مرقدها . لقد تناول هذه المسألة بالبحث بعض الكتاب المحدثين ، نذكر منهم جوستاف فون جرونيباوم الألمانى Gustave von Grunebaum (٢) ، وكلود كاهن الفرنسى Claude Cahen (٣). وخلاصة أقوالهما أن الخطر الصليبى لم يكن الدافع الاساسى لحركة الوحدة العربية التى يمكن إرجاع أصولها إلى ماقبل قيام الحركة الصليبية نفسها بفترة طويلة . كما ذكرا أن الاستعمار الغربى لم يهدد إطلاقا قلب العالم العربى ، ولم يستطع بالرغم من كل شىء أن ينفذ إلى صميمه ويستقر فيه . ولكن العالمين المذكورين لم يوضحا لنا صراحة أصول الوحدة العربية وجذورها العميقة .

---

(١) انظر سعد زغلول : العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب ، ص ٨٤ وما يليها ، وكذلك كتابى « الوحدة وحركات اليقظة العربية » ، ص ٦٠ — ٦١ والحواشى ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص ٢٨٩—٢٩١و٣٣١—٣٣٢، والمغرب الكبير — ج ٢ (العصر الاسلامى) ، ص ٧١٨—٧٣٨و٧٩٨—٨٠١ و ٨٠٥ — ٨١٥ و ٨١٩ — ٨٢٨ .

(٢) انظر : جرونيباوم : حضارة الاسلام ، ص ٥٠و٥٢ (الترجمة العربية) .

(٣) Cahen, La Syrie du Nord, 374-7. أنظر عن ذلك أيضا كتاب الدكتور عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ١٤١ — ١٤٣ .

وهما وإن لم يبتا برأى نهائى قاطع فى هذه المسألة ، إلا أن أحدث البحوث التاريخية والأثرية التى قام بها أستاذنا الكبير الدكتور أحمد فكرى فى كل من المدخل والجزء الأول من موسوعته «مساجد القاهرة ومدارسها»، أثبتت وجود نظرية الوحدة العربية منذ أن وجد العرب ، وذلك فى ناحية هامة من نواحى الحضارة العربية ، ونعنى بها الفنون التى تعتبر مرآة صادقة تنعكس عليها آمال الشعوب ومثلهم ومبادئهم وأفكارهم ومنهاجهم فى الحياة (١) . وإذا تتبعنا هذه النظرية فى شتى مناحى الحضارة والحياة عند العرب من المحيط إلى الخليج ، نجد أنها نظرية أصيلة متأصلة ، تعبر عن وحدة عضوية شاملة كاملة ، ثابتة متمكنة ، راسخة الدعائم ، متينة البنيان . وحدة لها أصولها وجذورها وعناصرها منذ أقدم عصور التاريخ . وحدة فى اللغة وفى الأصل وفى الجنس وفى الأرض وفى التاريخ ، فضلا عن وحدة فى التقاليد والعادات والثقافة والفكر والنظم الاجتماعية والتراث الحضارى العريق (٢) . وحدة كانت تبعثها وتوقظها من غفوتها أحداث الزمان

---

(١) أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ، ص ٤٣ــ ٤٩ ؛ مساجد القاهرة ومدارسها ــ ج ١ (العصر الفاطمى) ، ص ٢١٠ ــ وقد أكد الدكتور فكرى هذه النظرية فى أكثر من موضع فى الكتابين .

(٢) من حسن الحظ أن المكتبة العربية أصبحت الآن عامرة بعشرات الكتب العربية والمعربة التى تتناول فكرة القومية والوحدة العربية بالدراسة الجادة والبحث العميق ، مع بيان عناصر هذه الوحدة وتتبع أصولها وجذورها منذ أقدم عصور التاريخ حتى يومنا هذا . انظر: الخربوطلى : القومية العربية ، ص ٢٠ وما بعدها ؛ وص ١١٨ وما بعدها . ويعدد اللواء ا . ح محمد فوزى والاستاذ محمود حافظ فى كتابهما : القومية العربية ، ص ٣٣و٥٣و٩٠ و ١١٢ و ١٣١ عناصر القومية فى الأمة العربية ، وهى وحدة اللغة ، والأصل ، والدين ، والتاريخ ، والوحدة الجغرافية ، مما جعل الأمم العربية وحدة واحدة متميزة عن غيرها من الأمم . ويضيف الدكتور الخربوطلى فى مؤلفه : القومية العربية ، ص ٢٢ ومابعدها ، إلى المقومات السالف الاشارة اليها ، وحدة التقاليد والعادات والثقافة والنظم الاجتماعية التى تعتبر المقياس الحقيقى فى تحديد العربى من غيره. أنظر أيضا: Lewis, Arabs in Hist., 9-13. ==

للوقوف فى وجه العدوان الأجنبي ، فى شتى صوره ومظاهره ، وفى مختلف عصوره ، وأيا كان مصدره [١] .

وعلى هـذا يجب أن نفرق بين فـكرة الوحدة العربية كحقيقة واقعة من المكابرة إنـكارها ، وبين حركات اليقظة والإفاقة التى كانت تنبعث من وقت لآخر عندما يستشعر العرب بالخطر ويفيقون من غفوتهم ، فـكان هذا بطبيعة الحال مما يذكى تلك الوحدة ويؤكد وجودها . وللعروبة تاريخ طويل مع الاستعمار حافل بألوان التضحية والجهاد والاستشهاد فى سبيلها .

ولقد استمرت هـذه الرابطة العربية المقدسة تؤدى دورها بنجاح تام ، وتدفع عن العروبة غائلة المعتدين . وكثيرا ما أثار هذا ذعر المستعمر وأوقع الخبل والاضطراب فى صفوفه . فـكان يتحين الفرص للنيل منها والتشكيك فيها كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، تحقيقا لمصالحه بطبيعة الحال . ولم يعدم أن يجد فى مختلف العصور بعض الضعفاء المتخاذلين الذين كانوا يتعاونون معه فى سبيل

= ويوضح الدكتور ابراهيم جمعه فى كتابه : ايديولوجية القومية العربية ، ص٤١ وما بعدها و ص ٩٢ وما بعدها ، أن القومية العربية هى حركة أصيلة غير مستعارة ، وأنها حقيقة تاريخية ثابتـة لامجال لانـكارها . أما جاك بولين ، فيحاول فى كتابه المسمى « مع القومية العربية » ، ص ١٥ وما بعدها التعريف بهـذه القومية ، مع شرح لنشأتها وتطورها منذ العهد العثمانى ، والدور الذى قامت به فى محاربة الاستعمار لتحرير الوطن العربى . ونهج هذا النهج ساطع الحصرى فى كتابه : نشوء الفـكرة القومية ، ص ١٨٧ وما بعدها و ص ٢٢٨ وما بعدها وص ٢٦٠ وما بعدها . ومن الـكتب القيمة التى ظهرت أخيرا فى السوق العربية مؤلف الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى : الـكيان العربى بين القوميات والامكانيات — بيروت ١٩٦٥ . وقد تناول فيه بالبحث والدراسة والتعريف الـكيان القوى العربى وأسسه ومقوماته ، أنظـر بخاصة صفحات ٢١٣ وما بعدها و ٢٢١ وما بعدها و ٢٥٢ وما بعدها .

(١) أنظر عن ذلك جمال الدين الشيال: وحدة مصر وسورية فى العصر الاسلامى، ص٣.

مصالحهم الخاصة ، ولكن أمثال هؤلاء لم يكونوا أكثر من قش لا يلبث أن تذروه رياح الحرية المتمثلة فى تجمع الشعوب العربية الواعيــة المتحررة ، وائتلافها حول المخلصين من أبنائها وقادتهـا ، والأمثلة على ذلك فى تاريخ العروبة - قديما وحديثا - عديدة لا تحصى .

وهـكذا ظل الاستعمار يعمل جاهداً مستميتاً على إعاقة أى نهضة عربية شاملة أو وثبة عربية مباركة ، وعلى أن يفتت وحدة العرب كلما بدت فى الأفق بادرة توحى بإبرازها . وكما قامت الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر للاستيلاء على فلسطين باسم الدين وتحت قناعه الزائف ، كذلك خلق الاستعمار اسرائيل - وليدة وعد بلفور - بعد ذلك التاريخ بثمانية قرون أو يزيد لتكون عينا له ومخلب قط فى البلاد العربية المجاورة . وكما جهد الصليبيون فى تحقيق أهدافهم العدوانية بسبب تفكك العرب وتنذاك ، كذلك نجح أحفادهم فى انشاء وطن قوى لليهود فى فلسطين المغتصبة سنة ١٩٤٨ نتيجة لانقسام الحكام العرب وتبعثر قواهم . وكان هذا بداية الحرب التى قامت بين الدول العربية وبين اسرائيل والتى استمرت حتى يناير ١٩٤٩ (١). وكلنا يعرف نكبة العرب فى هذه الحرب ، وما تخللها من مآس وغدر وخيانات عجلت بتلك النهاية الأليمة . وكما أفاق العرب فى القرن الثانى عشر إلى وحدتهم لمواجهة العدوان الصليبى إلى أن انتهى الأمر بالقضاء عليه تماما فى أخريات القرن الرابع عشر ، كذلك بدأ أهل العروبة يفيقون بعـد ثورة ٢٣ يوليو المبـاركة ليؤدوا دورهم الـكبير على مسرح الأحداث ، وهم يعلمون تماما أن أمامهم طريقاً شاقا طويلا وعراً . وكما تطلب هذا جهاد الآباء والأجداد فى الماضى الغابر السحيق ، كذلك يتطلب منا اليوم

(١) Thomson, World Hist., 208—9.

جهاد الأبناء والأحفاد لتحقيق مجد العروبة ، وحتى تحتل الأمة العربية مكانها الصحيح اللائق بها بين أمم العالم .

وان أفضل وأصدق ما يمكن أن نختتم به هذه الدراسة عن الوحدة واليقظة العربية ، هو أحد الأقوال المأثورة للسيد الرئيس جمـــال عبد الناصر « العرب أمة واحدة ، ذلك أول الطريق وآخره ، ووسيلة المجد وغايته » . ففى هذا القول من العبر البينة والمعانى العميقة والدروس الخـالدة ، ما يغنى عن أى شرح أو إفاضة أو تعليق .

خاتمــــة

يتضح من دراساتنا السابقة أن الحركة الصليبية تعتبر مرحلة هامة رئيسية من مراحل الصراع الطويل بين الشرق والغرب الذى يمتد منذ عهد اليونان والرومان القدماء حتى وقتنا هذا . وهى فى الوقت ذاته حركة لها كيانها ومقوماتها الخاصة بها . ثم أنها فوق هذا وذاك تعتبر فصلا هاماً فى تاريخ الاستعمار . وإن الباحث المدقق فى تاريخ الاستعمار الحديث فى العالم العربى سيجد أن جذوره تمتد إلى زمن الحروب الصليبية فى العصور الوسطى . فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الحملات الصليبية هى حملات استعمارية توسعية تحت قناع الدين . ويمكن القول دون مغالاة إن الاستعمار الذى تعرض ولا يزال يتعرض له العالم العربى فى المشرق والمغرب فى العصر الحديث هو نوع من الحروب الصليبية ، أو هو امتداد لها بصورة جديدة وفى ثوب مغاير .

لقد سارع أهل الغرب الأوروبى إلى الشرق العربى منذ أخريات القرن الحادى عشر ، وهم يتحرقون شوقا للاستيلاء على الأراضى وتأسيس الممالك والإمارات لحسابهم الخاص ، ولكنهم تستروا تحت اسم الدين والرغبة فى انقاذ قبر المسيح لتحقيق غاياتهم ، فى وقت كان فيه للدين مكانته التى لا تخفى على أحد ، حتى أنهم كانوا عندما يفكرون فى إعداد عدوان جديد يلجأون إلى الناحية الدينية ضماناً لنجاحه . فنزلوا أول ما نزلوا فى الأراضى المقدسة بحجة تحرير كنيسة القيامة ، وتهيئة طريق آمن للحجاج الغربيين إلى أرض فلسطين . ثم أسسوا مستعمراتهم فى الأراضى المقدسة . ولكن صلاح الدين بعد أن وحد الجبهة العربية استعاد القدس منهم فى أخريات القرن الثانى عشر . وتوالت بعد ذلك هجماتهم على مصر خلال القرن الثالث عشر . ولكى يخفوا أغراضهم التوسعية ، ادعوا أنه لابد

من القضاء على مصر أولا باعتبارها زعيمة العالم العربى حتى يسهل عليهم امتلاك أورشليم . ثم اتجهت أطماعهم آخر الأمر نحو الشمال الافريقى ، عندما أغار لويس التاسع على تونس سنة ١٢٧٠ م ، وعندما كرر نفس المحاولة لويس الثانى دوق بوربون بهجومه على المهدية سنة ١٣٩٠ م . وكانت حجتهم فى العدوان على شمال افريقية أن الاستيلاء عليها سوف يسهل لهم الوصول إلى الديار المصرية عبر الصحراء الغربية ، ومنها يمكنهم مواصلة الزحف شمالا إلى الأراضى المقدسة .

وهكذا نرى أنه باسم الدين وتحت شارة الصليب هاجم اللاتين الشعوب العربية فى مصر والشام وشمال افريقية . وباسم الدين وتحت شارة الصليب أيضاً تعددت حملاتهم الاستعمارية على العالم العربى منذ أخريات القرن الحادى عشر إلى أخريات القرن الرابع عشر ، تلك الحملات التى لم يقدر لها النجاح ، والتى كان فشلها بمثابة نهاية حلم كبير للاوروبيين الغربيين . ولقد صدق الأستاذ برنارد لويس عندما قال ان المرحلة الأولى من العدوان الصليبى التى تتميز باستقرار الغزاة فى سورية ، كانت عبارة عن نوع من الاستعمار الاستيطانى ، أعقبته عملية التمثيل والهضم (١) . ومع ذلك فقد اصطبغت آراء كثير من المؤرخين الغربيين المحدثين بصبغة قومية بحتة تبدو فيها نغمة التعصب واضحة ، بما يعد بها وبهم عن الحق والأمانة العلمية . ومن هؤلاء دانيال روبس الذى قال ان المسيحية الغربية افتتحت بالحروب الصليبية صفحة مجيدة فى تاريخها (٢) .

ويمكن القول بناء على ما تقدم إن الحركة الصليبية لا زالت قائمة إلى يومنا

(١) Lewis, Arabs in Hist., 150 sqq.

(٢) "Une page admirable de son histoire s'ouvrit" Cf. Daniel — Rops, 547,602.

هذا (١)، وأنها لم تصل إلى نهايتها الحتمية بعد طالما ان الاستعمار الغربى لا زال ينظر إلى العالم العربى من المحيط إلى الخليج بأعين ملؤها الحقد والكراهية والشره والأطماع .

على أية حال ، لقد أدى قيام الحركة الصليبية إلى احتكاك القوى الثلاث التى كانت موجودة على مسرح الأحداث فى ذاك الحين ، و نعنى بها العالم العربى والغرب الأوروبى وبيزنطة . فقد ارتبطت هذه القوى ببعضها أشد الارتباط ، وتفاعلت فيما بينها ، واشتبكت مصالحها ، بحيث لا يمكن للتصدى للعدوان الصليبى فصل احداها عن الأخرى أو غض الطرف عنها . ويمكن تقسيم الصراع بين هذه القوى الثلاث قبل قيام الحركة نفسها الى مرحلتين رئيسيتين : المرحلة الأولى وتبدأ بالفتح العربى منذ أوائل القرن السابع وتمتد حتى القرن التاسع الميلادى تقريباً . وفيها التزمت أوروبا فى الجبهتين الشرقية والغربية جانب الدفاع عن نفسها بسبب الضعف الذى أصاب أوصالها ، فى وقت كانت تتقدم فيه الأمة العربية الفتية دفاعا صادقا عن عقيدة تؤمن بها وحفظاً على كيانها وتأميناً لمجتمعها الجديد . ولذلك كان ميزان القوى فى هذا الدور فى صالح العرب الذين أحرزوا انتصارات سريعة ضخمة شرقا وغربا حتى أصبح البحر المتوسط بحق بحراً عربياً خالصاً بعد أن كان فيما مضى رومانيا . أما المرحلة الثانية من الصراع فهى تمتد من القرن العاشر حتى قيام الحركة الصليبية . وفيها ينقلب ميزان القوى لصالح الروم واللاتين الذين أخذوا يستعيدون قوتهم وتماسكهم ، فاستردوا الكثير من البلاد التى كانت فى قبضة العرب ، فى وقت أصاب فيه العالم العربى بعض التفكك والوهن . ولذلك عندما قام العدوان الصليبى كانت الظروف موانية لأن يحقق

---

(١) Mahmud, Story of Islam, 132.

الغرب الأوروبي تلك الانتصارات السريعة التي لم يكن يحلم بها في يوم ما ، وان كان قد فقدها فيما بعد بنفس السرعة التي تمت بها .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان أول احتكاك مع بداية العدوان بين الكاثوليك الغربيين والروم الأرثوذكس . وقد رأينا أن العلاقات بينهما لم يكن يسودها الاخلاص التام المتبادل والتفاهم الودى والرغبة الصادقة في حل ما أشكل بالطرق الودية . فكان البيزنطيون يريدون الانتفاع بالفرنج لخدمة أغراضهم السياسية ، بينما هم من جانبهم لم يفكروا في الغزو والفتح إلا لمصلحتهم الخاصة . وكانت العلاقات بينهما في أثناء الحملة الأولى مزيجاً من المتناقضات، اختلط فيها سوء النية من جانب الفريقين بحسن المعاملة في بعض الأحيان . وكان الوازع الأكبر على ذلك هو شعور الطرفين بما قد يجنيه من المنفعة بالتعاون مع أخيه . فإذا تعارضت المصالح ظهر كل فريق على حقيقته ، وأوضح مثل لدينا موقف بوهيمند من الكسيس عندما ثارت في الأفق مشكلة انطاكية . وكانت هذه العلاقات نموذجا لما ستكون عليه الصلات بين اللاتين والاغريق في الحملات التالية . وقد ساعدت أوجه الخلاف العديدة بينهما ، لا سيا في الأمور المذهبية ، في أوقات كثيرة إلى ازدياد سوء التفاهم . فلم ينس الغربيون الكاثوليك أن البيزنطيين الأرثوذكس كانوا ضالين عن جادة الدين الحقيقي في نظر الكنيسة الرومانية ، مما جعلهم مكروهين في الأوساط اللاتينية . ويرجع هذا العداء إلى ما قبل قيام الحركة الصليبية بقرون عديدة ، وعلى وجه التحديد إلى أوائل القرن الرابع عندما انتقل قسطنطين الكبير إلى القسطنطينية واعترف بالمسيحية كدين رسمي للدولة . ومنذ ذلك الحين والخلافات قائمة بين شقى العالم المسيحى إلى أن وصلت ذروتها بقطيعة سنة ١٠٥٤ م . ولذلك عندما قامت الحرب الصليبية الأولى لم تجد أرضاً صالحة للتفاهم بين مسيحي الشرق والغرب . وقد كشفت كتابات

المؤرخين اللاتين وآراؤهم فى البيزنطيين ، عن العداء القديم المتأصل بين الطرفين . وبالمثل نجد الكاتبة الاغريقية آن كومنين تتناول فى كتابها العنصر اللاتينى بالقدح والذم الشديدين . لقد كان كل منهما يحقد على الآخر ويعتبره مهرطقاً لأنه على غير مذهبه .

ولا شك أنه واجهت بيزنطة الكثير من المتاعب بسبب احتكاكها بالغربيين فى الحملة الأولى . وقد وصلت سيطرة الدوافع الدنيوية مداها ونهايتها المنطقية فى الحملة الرابعة عندما أصبحت الحركة الصليبية أداة للغزو استخدمها اللاتين ضد المسيحيين فى الشرق . (١) وكانت النتيجة أن فتت هذا الغزو وحدة الدولة البيزنطية التى عاشت منذ ذلك الحين شبه محتضرة إلى أن انتهى الأمر بسقوطها فى قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣م (٢) .

وإذا عدنا إلى أهداف اللاتين فى اعادة بيزنطة إلى حظيرة الكاثوليك ، نجد أنهم أخفقوا فى ذلك ايما إخفاق . فقد كانت الخلافات المذهبية قائمة فعلا قبل الحركة ، وزادت الحملات الصليبية من حدتها . ولذلك فشلت جميع المحاولات التى بذلت فى القرون التالية للتوحيد بين الكنيستين الشرقية والغربية . (٣) ولا زالت بابوية روما تسعى حتى اليوم لتحقيق هذا الاتحاد . ورأب الصدع الذى ترجع جذوره إلى أعماق التاريخ ، والذى زادته القرون المتعاقبة شدة وعمقاً وتعقيداً .

---

(١) أنظر : Ostrogorsky, Byzantine State, 368.

(٢) عندما وصل الإفرنج فى الحمله الاولى إلى البسفور كانت ازمير ونيقية فى قبضة السلاجقة . وكانت النتيجة السريعة هى ابعاد السلاجقة حتى قلب اناتوليا ، مما ترتب عليه تأجيل استيلاء العرب على القسطنطينية حتى أواسط القرن الخامس عشر . وكان هذا الأمر باديا للعيان فى اخريات القرن الحادى عشر . أنظر Grousset, Sum of Hist. ,191.

(٣) أنظر : Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 261-8; Heer, Med. World, 98-9.

وجدير بالذكر أن الدعوة التي وجهتها بابوية روما من الفاتيكان إلى عقد مجلس الكنائس العالمي المسكوني في أكتوبر ١٩٦٢ ماهي إلا استمرار لنفس السياسة التقليدية القديمة التي سارت عليها بابوية القرون الوسطى، لاسيما بعد الانشقاقات المذهبية المعروفة داخل الكنيسة المسيحية . ولن يكون هذا المجمع المسكوني في نظر الباحث المدقق في وقتنا هذا أكثر من محاولة طلية في شكلها ومظهرها، تعود به وبذاكرته إلى قرون طويلة مضت وذهبت بمثلها ومبادئها إلى غير رجعة . إذ ترك العداء التقليدي القديم بين شقي العالم المسيحي آثاره الوخيمة حتى هذا اليوم بالنسبة لأتباع الكنيستين الشرقية والغربية (١) .

وإذا كانت العلاقات بين مسيحيي الشرق والغرب في الحملة الأولى وما تلاها من حملات قد اتخذت هذه الصبغة العدائية في أغلب الأحيان، فقد كان هذا أيضاً هو الطابع المسيطر على العلاقات بين العرب واللاتين . وقد حدد طبيعة هذه العلاقات منذ البداية فكرة نزول الغزاة الأوروبيين في قلب الوطن العربي للعمل على استعماره واستغلال خيراته وتفتيت وحدته . ولا يجب أن ننسى أن أهل الغرب كانوا يعتبرون العربي ـ مسلماً كان أم مسيحياً شرقياً ـ غير مؤمن لأنه على غير مذهبهم . ولذلك امتدت أحلامهم إلى محاولة صبغ العالم العربي بالصبغة الكاثوليكية عن طريق البعثات التبشيرية التي تعتبر في الواقع جزءاً متمماً للفكرة الصليبية نفسها .

ولكن هذه كلها كانت أضغاث أحلام . فلم تحقق الحركة الصليبية شيئاً مما استهدفه الغرب، سواء بالنسبة لانهاء الشقاق الديني بين المسيحيين، أو فيما يتعلق بالفكرة التبشيرية أو تحقيق الأطماع الاستعمارية التوسعية في المنطقة

(١) أنظر Heer, Med. World, 96, 98.

العربية (١). ولقد أدى فشل الحركة إلى تراجع المسيحية الغربية مؤقتاً عما ادعته لنفسها من حقوق لا وجود لها فى فلسطين. ووقع هذا الفشل على الأوروبين وقع الصاعقة، وأعقبته كوارث اقتصادية أطاحت بآمالهم. إذا اضطر الفرنج إلى ترك مخازنهم ومستودعاتهم التى كانوا يمتلكونها فى الشرق العربى، ورفعوا راية الاستسلام للماليك الذين احتكروا التجارة مع الشرق الأقصى، فتجمعت لديهم ثروات طائلة، بينما ارتفعت أثمان البضائع التى كان الغرب فى حاجة ماسة إليها من الشرقين الأوسط والأقصى. ولذلك لم تكد تمضى خمسون سنة على رحيل آخر جندى صليبي عن الأراضى المقدسة، حتى كان عرب آسيا يهاجمون أوروبا من أضعف نقطة فيها وقتذاك، ونعنى بها الامبراطورية البيزنطية (٢).

وإذا ضربنا صفحا عن نتائج العدوان الصليبي التى جاءت مخيبة لآمال الغربيين على طول الخط، فلا يجب أن نغفل أن هذا العدوان أكد تأكيداً قاطعا وجود فكرة الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج، تلك الفكرة التى امتدت جذورها إلى مئات السنين. ولقد أدرك العرب بعد سنوات قلائل من انتهاء الحملة الصليبية الأولى وتأسيس المستعمرات الفرنجية فى فلسطين، أنه لن يتأتى لهم تصفية حسابهم مع الاستعمار إلا إذا تمت وحدتهم، تلك الوحدة التى يؤكدها شعورهم العميق المتأصل بقوميتهم وعروبتهم. ولذلك كانت حركة التكتل والافاقة أيام عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود والبطل صلاح الدين الأيوبى، رد فعل طبيعى للسيطرة الصليبية التى رزحت تحتها بلدان الشرق العربى وقتذاك. وكان تحقيقها كافيا للقضاء على النفوذ اللاتينى فى المنطقة وضياع مصالح الغرب فيها، لاسيما فرنسا التى فقدت زهرة شبابها وفرسانها فى حروب خارجية لم تعد عليها بأية

(١) أنظر: Trevelyan, Shortened Hist. of England, 142.

(٢) أنظر: Grousset, Sum of Hist., 192.

فائدة . وقد أدرك ذلك أحد المؤرخين المحدثين ، إذ قال إنه كان الأجدر بفرنسا أن تحتفظ بقواها ومواردها لمشروعات تتصل بشئونها الحيوية اتصالا مباشراً مما يعود عليها بالنفع والفائدة ، أو لعلاج مشاكلها واضطراباتها الداخلية (١) .

ولو تركنا جانب أحداث الماضى ، وأمعنا النظر فى أحداث الحاضر ، نجد التشابه العجيب فى أهداف الاستعمار وغاياته وإن اختلفت الأساليب والوسائل. ونجد كذلك التشابه الكبير بين عرب الأمس والعرب اليوم ، فالشعوب العربية هى هى لم تتغير . إذ سرعان ماتتكتل وتتجمع إذا ما أحاق بها خطر أو أصابها مكروه ، وذلك دفاعا عن وحدة كيانها ومصيرها ووجودها . لقد حدث هذا فى القرون الوسطى عقب ظهور الاسلام وإبان العدوان الصليبى ، ونراه يحدث اليوم فى وقت خلق فيه الاستعمار اسرائيل فى قلب المنطقة العربية لتكون رأس جسر له، ولتعمل على تفتيت وحدتها واعاقة توحيدها . وتعتبر ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ حدا فاصلا فى تاريخ العرب الحديث ، بين عهد كانوا فيه منقسمين مشتتين يرزحون تحت نيرالاستعمارالظاهر أوالمقنع، وبين عهد بدأوا يستشعرون فيه بالخطر ويهبون من كل مكان فى الوطن العربى لتجميع قواهم وتوحيد جهودهم حتى يصل جهادهم إلى تحقيق الهدف المنشود .

---

(١) أنظر : Waugh, Hist. of Europe, 27·

الملاحق

تمهيـــــد

يستهدف هذا البحث تسليط الضوء على الفكرة الصليبية بما تنطوى عليه من اتجاهات عدوانية توسعية استعمارية ضد كل من العالم العربى ودولة الروم . كما يكشف عن العلاقات المتشابكة المعقدة المتداخلة فى بعضها بين كل من العرب واللاتين الغربيين والروم البيزنطيين إبان الحملة الصليبية الأولى ، والآثار المترتبة على تلك العلاقات ومضاعفاتها فى الأحقاب التالية وحتى اليوم .

والملاحق السبعة التالية لها صلة مباشرة بموضوع البحث ، فضلا عن أهميتها التاريخية . فهى تتضمن نصوصا ووثائق مستقاة من مصادر أصلية وضعت زمن العدوان الصليبى ، ومؤلفوها كتاب موثوق بهم ، شهد خمسة منهم بداية العدوان ، بينما عاصر اثنان العدوان فى مرحلة احتضاره . وبعض هذه النصوص والوثائق لايزال بلغته الأصلية التى دون بها ، مثل خطاب كل من الكسيس كومنين واتين ده بلوا ونص فوشيه ده شارتر . وبعضها مترجم إلى اللغات الحديثة ، مثل كتاب الألكسياد الذى نقلته اليزابيث داوس من اليونانية القديمة إلى الانجليزية ، وكذلك كتاب « تاريخ انجلترا » لمؤلفه متى الباريزى الذى نقله ج. ا. جيل من اللاتينية إلى الإنجليزية ، وقصيدة الشاعر الفرنسى وليم رتبف المترجمة من الفرنسية القديمة إلى الانجليزية والتى نشرها ج. ماسون فى مؤلفه « فرنسا فى العصور الوسطى من عهد هيوج كابيه حتى بداية القرن السادس عشر » .

ويتضمن أحد هذه الملاحق مقتطفات من كتاب الألكسياد للأميرة آن كومنين ، وهى تعبر عن الأحداث من وجهة نظر بيزنطية . وقد وضعنا عناوين

جانبية لهذه المقتطفات توضيحا لها . ويصور ملحقان آخران الأحداث من وجهة نظر غربية بحتة ، وهما يتضمنان نصوصا مأخوذة من كتابي المؤرخ المجهول وفوشيه ده شارتر . ويمثل ملحق رابع وجهة نظر محايدة ، ونعني بذلك خطاب اتين ده بلوا أحد زعماء الحملة الأولى . وثمة ملحقان أحدهما للكاهن متى الباريزي والثاني للشاعر وليم رتبف ، يشتملان على مقتطفات تعبر عن وجهة نظر متحررة متعقلة في تلك العصور التي تميز فيها الغرب بالتزمت الديني. وهناك ملحق يتضمن وثيقة مشكوك في صحتها وضعت في الغرب الأوروبي عند بداية الحركة الصليبية لتحقيق أغراضها العدوانية ، ونقصد بذلك الخطاب المنسوب إلى الامبراطور البيزنطي الكسيس كومنين . وقد ذيلنا الترجمة العربية للوثائق والنصوص المشار إليها بعدد من التعليقات والايضاحات في الحواشي .

يتضمن الملحق الأول ترجمة مقتطفات من الخطاب الذي يقال إن الامبراطور البيزنطي الكسيس الأول كومنين بعث به إلى روبرت الأول أمير الأراضي الواطئة حوالى عام ١٠٨٨ ، يستحثه فيه هو وأهل الغرب على القدوم لنجدة الدولة البيزنطية ثم التوجه للاستيلاء على الأراضي المقدسة . وقد ثارت حول هذا الخطاب كثير من الشكوك ، وقامت حوله كثير من النظريات بعضها يعتقد في صحته وينسبه إلى الكسيس والبعض الآخر ينادي بزيفه وبأنه مدسوس عليه . ولكل فريق حججه التي يرتكز عليها . والشيء الثابت أنه لاتوجد تحت أيدينا ، حتى الآن ، أدلة قاطعة حاسمة تثبت صحة الخطاب أو تنفي صدوره عن امبراطور البيزنطيين (١).

(١) تعرضت للخطاب في شيء من التركيز والايجاز في الفصل الثاني من هـذا الكتاب (أنظر ص ٥٢ – ٥٤) . وتناولته بالتفصيل والنقد والتحليل في مقالي « الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية » – مجلة كلية الآداب – جامعة الاسكندرية – العدد ١٦ – الاسكندرية ١٩٦٣ – ص ١٨٨ – ١٩٥ .

يبدأ الخطاب بمقدمة قصيرة تتضمن التحية والسلام من الامبراطور البيزنطى إلى أمير الأراضى الواطئة والمسئولين فى الغرب . وينتقل واضع الخطاب بعد ذلك مباشرة إلى الحديث عن تهديد الأتراك السلاجقة للدولة البيزنطية واستيلائهم على جانب كبير من أملاكها فى آسيا الصغرى حتى أصبحت القسطنطينية معرضة للسقوط فى قبضتهم بين وقت وآخر . وبعد أن تعرض الخطاب للحالة السيئة التى وصلت إليها دولة الروم وقتذاك ، يلتمس مرسله العون والمساعدة من الأمير الفلمنكى روبرت الأول . وحتى يستحثه هو وأهل الغرب لنجدة بيزنطة ، نراه يحذرهم بأن القسطنطينية سوف تقع غنيمة باردة فى قبضة الأتراك إذا لم يبادروا بإنقاذها . وفى سبيل ذلك يضرب واضع الخطاب ، فى خبث ومكر ودهاء ، على الوتر الدينى ، وهو يعلم مدى تأثيره فى نفوس الغربيين فى وقت اتسم فيه الغرب بالتعصب الأعمى فى هذه الناحية . إذ أعلن أنه توجد فى العاصمة البيزنطية أثمن آثار ومخلفات السيد المسيح وكثير من الذخائر الدينية وبقايا أجساد القديسين التى سيفوز بها الأتراك إذا لم يسرع الغربيون بوضع أيديهم عليها . وإذا كان للعامل الدينى أهميته فى إثارة النعرة الدينية لدى أهل الغرب ضد المسلمين فى الشرق ، فلم ينس واضع الخطاب تقديم المغريات المادية وهو على علم بجشع اللاتين وحبهم الزائد للمال ، الأمر الذى أكدته آن كومنين أكثر من مرة فى كتابها « الألكسياد » . فنراه يحدثنا عن ثراء القسطنطينية وما تحويه من نفائس وكنوز لا توجد فى أى مكان آخر فى العالم ، والتى ستكون من نصيب اللاتين إذا بادروا بالحضـــور لانقاذ بيزنطة من خطر السلاجقة . وفى خاتمة الخطاب دعوة صريحة موجهة إلى الغربيين لإرسال النجدات لمساعدة الدولة البيزنطية ، ثم التوجه للاستيلاء على الأراضى المقدسة وتخليص قبر المسيح .

تلك هى محتويات الرسالة التى يجب تناولها فى شىء من الحيطة والحذر، والتى يزعم المؤرخ اللاتينى جيبرت ده نوجان أنه أعطانا نصها ، والتى يرى الكاتب بول ريان أن واضعها هو روبرت الراهب . كما يجب اعتبارها محرفة رغم استنادها على حقيقة واقعة . ذلك أن روبرت الأول أمير الأراضى الواطئة كان قد ذهب للحج إلى الأراضى المقدسة، وعند عودته حوالى عام ١٠٨٧ مر بأراضى الامبراطور البيزنطى ، ووعد الكسيس كومنين بإرسال خمسمائة فارس اليه لحماية دولته من خطر السلاجقة . وحوالى عام ١٠٨٨ أو عام ١٠٨٩ ، أرسل الكسيس يذكر روبرت بوعده له . وكان الأمر لايعدو أكثر من طلب جند مرتزقة يعملون فى خدمة الدولة البيزنطية مقابل أجر يتقاضونه على ذلك . ولهذا السبب اتجه الكسيس إلى البابا اربان الثانى يرجوه تسهيل إرسال الجند المرتزقة للعمل فى خدمته . وقد دعم المؤرخ فرديناند شالندون هذه النظرية فى كتابه عن الكسيس كومنين (١) .

والواقع أنه يوجد فارق كبير بين فكرة إرسال جند مرتزقة كطلب الكسيس كومنين ، وبين إرسال حملة لاتينية غربية كبيرة تعمل لحسابها الخاص مستقلة فى ذلك عن بيزنطة . وإن مسألة قيام حملة صليبية بالمعنى المفهوم من الفكرة الصليبية فى الغرب ، لا يجب إرجاعها إلى طلب الكسيس كومنين وإنما إلى الدور الذى قام به الجهاز الكنسى البابوى فى أوروبا وعلى رأسه بابا روما اربان الثانى فى أواخر القرن الحادى عشر (٢) .

---

(١) أنظر مقالى « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٨٨ وما بعدها وص ٢٠٠ . وفيما يتعلق باستخدام بيزنطة الجند المرتزقة ، أنظر ص ١٤٦ و٢٠٧ ح ١ من هذا الكتاب ، وقد وردت الاشارة إلى ذلك فى أكثر من موضع من الكتاب .

(٢) أنظر ما سبق ص ٥٦–٥٧ من هذا الكتاب ؛ راجع أيضا كتاب :
Zoé Oldenburg, Croisades, 75.

وهـذا يقودنا إلى الملحق الثانى ، وهو يشتمل على نص منقول من كتاب المؤرخ اللاتينى فوشيه ده شارتر يتحدث فيه عن الأحوال السائدة فى الغرب الأوروبى عندما دعا البابا أربان الثانى إلى عقد مؤتمر كليرمون الكنسى فى نوفمبر ١٠٩٥ . وإن نظرة سريعة إلى هذا النص تعطينا فكرة واضحة عن الظروف والأوضاع فى الغرب قبيل قيام الحرب الصليبية الأولى ، من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية . وقد تعرض المؤرخ بعد ذلك ، فى جمل قصيرة سريعة ، للخطر الذى يواجهه الحجاج الغربيون وهم فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة بسبب مضايقات الأتراك السلاجقة ، فضلا عن تهديدهم لبيزنطة . وتحدث آخر الأمر عن عقد مؤتمر لمعالجة هذه المسائل ، وهو مؤتمر كليرمون نسبة إلى المدينة التى عقد فيها .

ويلقى المؤرخ ميخائيل السورى ، الذى كانت ظروف إقامته فى الشرق تؤهله لمعرفة أسباب التدخل اللاتينى فى شئون فلسطين ، ضوءا واضحا على ماتقدم ، عندما تحدث عن السلاجقة ومضايقتهم للحجاج الغربيين الذين يذهبون لزيارة بيت المقدس وكنيسة القيامة . وكانت هذه هى الركيزة التى ارتكز عليها البابا أربان لتحقيق مشروعه الصليبى ضد كل من العالم العربى والدولة البيزنطية ، والذى يبدو أنه قد احتفظ بسريته مدة طويلة قبل أن يعلنه على الملأ . وقد أوضح شالندون أن فكرة إرسال حملة صليبية إلى الشرق لم تختمر فى ذهن البابا الرومانى إلا فى وقت متأخر ، وأنه لم يكشف عنها إلا بعد أن نضجت تماما وبعد أن استعد لها الاستعداد الكافى (١) .

---

(١) أنظـــر التفاصيل فى مقالى « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ، ص ١٩٨ وما بعدهـا .

ويشتمل الملحق الثالث على مقتطفات من كتاب « الألكسياد » للأميرة آن كومنين عن الحملة الصليبية الأولى بشقيها الشعبي والنظامي. وهى تعبر عن وجهة نظر البيزنطيين حيال الأحداث التى كانت أراضى بيزنطة والشرق العربى مسرحا لها فى بداية العدوان الصليبى. كما تكشف بوضوح عن سوء التفاهم الذى كان قائما بين اللاتين والبيزنطيين أو بين أهـــل الغرب الكاثوليكى وأهل الشرق الأرثوذكسى ، والذى كانت جذوره العميقة ترجع إلى ما قبل قيام الحركة الصليبية بقرون عديدة. وهى تكشف أيضا فى أسلوب لاذع عن الصفات التى يتميز بها أهل الغرب ، وأهمها الجشع والطمع وحب المال والغطرسة والصلف والتعالى ، فضلا عن حقدهم وكراهيتهم للمسلمين والمسيحيين الشرقيين. وهى تؤكد فى أكثر من مناسبة تخوف بيزنطة من اللاتين الغربيين الذين لم يستدعهم الكسيس، وإنما علم بوصولهم إلى أراضى دولته عن طريق الإشاعات والأقاويل. لقد أثار قدوم هذه الجيوش الجرارة مخاوف بيزنطة ، وتعتبر أحداث الحملة الصليبية الرابعة خير دليل على ذلك. ويكفى أن اللاتين - حسبما يتضح من كتابات آن - كانوا مصدر قلق ومتاعب لبيزنطة أكثر من السلاجقة المحدقين بها المطبقين عليها (١).

وفى صراحة وبساطة تتحدث الكاتبة الإغريقية عن حقيقة دوافع العدوان الصليبى على كل من العالم العربى ودولة الروم ، فتقول إن الطامعين أمكنهم التأثير على السذج وبسطاء العقول الذين كانت تدفعهم الرغبة الحقيقية للحج إلى الأراضى المقدسة. أما أصحاب الأهواء والمصالح فقد كان هدفهم الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية وإقامة إمارة لاتينية بها ، ثم التوجه

---

(١) للمزيد من المعلومات عن وجهة نظر آن كومنين فى اللاتين ، أنظر :
Zoé Oldenbourg, Les Croisades (1965), 82 ff.

للاستيلاء على الأراضى التى كانت وقتذاك فى قبضة السلاجقة وإتمام الزحف إلى الأراضى المقدسة . وتستشهد آن بموقف بوهيمند النورماندى من أبيها أثناء الحملة الأولى وبعد انتهائها عندما برزت إلى الوجود مشكلة انطاكية ، كما تشير إلى أطماع أبيه روبرت جويسكار فى بيزنطة قبيل قيام الحملة الأولى بسنوات معدودات ، الأمر الذى سبب لدولة الروم جرحا عميقا لايلتئم . وهى توضح كيف استغل أصحاب الأطماع شخصا مثل بطرس الناسك الذى كان يدعو للحركة فى الغرب ، فى القيام بحملتهم لتحقيق أغراضهم فى الشرق . وهكذا يظهرون بمظهر الورع والتقوى ، وإن كانوا فى الحقيقة أبعد ما يكون عن ذلك .

هذا ، وتعتقد آن كومنين أن بطرس الناسك هو الذى قام بتنظيم الحركة الصليبية . ولعل ذلك يرجع إلى أن أول أحتكاك حدث بين البيزنطيين واللاتين الصليبيين كان بمقدم بطرس الناسك ومن معه من الرعاع (١) . وقد ثبت بعد الدراسة أن أسطورة بطرس هذه ليس لها نصيب من الصحة ، ويجب حذفها نهائيا من سجل التاريخ (٢). وجدير بالملاحظة أيضا أن الكاتبة الاغريقية عندما كانت تتعرض لأبيها الكسيس ولمظهره وشخصيته ، كانت تتناوله فى عبارات يبدو فيها التملق والإطراء . فهو ، فى نظرها ، ملك الملوك ، وأعظم من أنجبتهم السماء ، وأشجع الشجعان ، وأغنى الأغنياء . ويبدو هذا بوضوح فى المقارنة التى عقدتها بينه وبين عدوه اللدود بوهيمند النورماندى (٣) .

أما الملحق الرابع فهو يشتمل على ترجمة فقرات من الخطاب الذى أرسله

---

(١) أنظر عن ذلك Runciman, Crusades, I, 117 n. 1.

(٢) أنظر مقالى « الدافع الشخصى » ، ص ١٩٥-١٩٧ .

(٣) أنظر Runciman, op. cit., I, 71 n. 1. - ونجد تحليلا دقيقا مركزا لشخصية الكسيس كومنين فى كتاب شالندون .

Chalandon, Essai sur le Règne d'Alexis Comnène, 51-2.

إتين كونت بلوا وشارتر إلى زوجته أديل فى الغرب. والخطاب محرر من معسكر الجيش الصليبى بالقرب من مدينة نيقية فى ٢٤ يونيه من سنة ١٠٩٧ . وكان إتين قد أرسل قبل ذلك خطابا آخر إلى زوجته ، بعث به إليها من مدينة القسطنطينية ، ووصف فيه رحلته إلى العاصمة البيزنطية . ولكن هذا الخطاب ـ لسوء الحظ ـ فقد ولم يصلنا (١) . وتكمن أهمية الخطاب الذى تحت أيدينا فى أن كاتبه لاتينى غربى أثنى على الكسيس والبيزنطيين ، بينما وقف زملاؤه اللاتين أمثال المجهول وفوشيه ده شارتر وريمون داجيل موقف العداء الصريح من بيزنطة وامبراطورها ، بسبب العداء القديم المستحكم بين شقى العالم المسيحى نتيجة الاختلافات الحضارية واللغوية والثقافية والجنسية والجغرافيـة ـ تلك الاختلافات التى ساعدت على قيام سوء التفاهم بين اللاتين والبيزنطيين عندما تقابلا وجها لوجه فى الحملة الصليبية الأولى . وعلى هذا يعبر إتين فى رسالته عن وجهة نظر محايدة غير متعنتة تضفى على أقواله أهمية خاصة .

ويتضمن الملحق الخامس ثلاثة نصوص من كتاب المؤرخ المجهـول (٢) عن الحمـلة الأولى : النص الأول ويتحدث عن وصول بطـرس الناسك إلى القسطنطينية ومذبحة نيقية التى قضى فيها قضاء تاماً تقريبا على الحملة الشعبية . ويلقى المجهول اللوم صراحة على الكسيس متهما إياه بأنه السبب فيما حـدث لبطرس ورجاله معبرا بذلك عن وجهة نظر غالبية اللاتين . ويتعلق النص الثانى بوصول جودفرى دوق اللورين السفلى وجيشه إلى العاصمة البيزنطية ، ويكشف المؤلف فيه عن حقيقة العلاقات بين جودفرى وبين امبراطور البيزنطيين . أما النص الثالث فهو خاص بيمين التبعية والولاء الذى أداه زعماء الفرنج بين يدى

---

(١) أنظر عن ذلك Runciman, op. cit., I, 169 n. 1.

(٢) قام الدكتور حسن حبشى بترجمة كتاب المجهول إلى العربية تحت اسم « تاريخ الفرنجة وحجاج بيت المقدس – القاهرة (دار الفكر العربى) ١٩٥٨ (الطبعة الثانية) .

الكسيس بناء على طلبه ، مع تحليل الأسباب التى دعت اللاتين لأداء هذا القسم. وتكشف هذه النصوص الثلاثة كيف كان الغربيون يصورون الأحداث ويتصورونها ، وكيف كانوا يتصرفون ، وفيما كانوا يفكرون ، وماذا كانت مواقفهم حيال الأحداث التى مروا بها ومرت بهم ، وحقيقة مشاعرهم وأحاسيسهم ، وماذا كانوا يخبئون فى دخيلة نفوسهم .

ويحتوى الملحق السادس على ترجمة مقاطع من القصيدة التى كتبها باللغة الفرنسية الوسيطة الشاعر وليم رتبف (١٢٤٥-١٢٨٥) الذى عاش عصر احتضار الفكرة الصليبية . وفيها يسخر من الجهاز الكنسى البابوى ومن رجال الدين فى الغرب ، كما يندد بالفكرة الصليبية التى لم تعد تلقى القبول والرواج فى أوروبا بعد أن انفض الناس من حولها ، وبعد أن زال الحماس المصطنع الذى صاحب بدايتها ، وبعد أن بدأ كل فرد فى الغرب يتجه إلى مصالحه الخاصة والدول إلى مشاكلها الداخلية .

وقد تناول رتبف ذلك كله فى أسلوب ساخر تهكمى عبر فيه تعبيرا صادقا عن موقف ذوى التعقل من الرجال الأحرار فى الغرب وقتذاك من أمثال الامبراطور الألمانى فردريك الثانى (١٢١٥ - ١٢٥٠) والكاهن الانجليزى متى البارزى (المتوفى سنة ١٢٥٩) ، والذى يحتوى الملحق السابع والأخير على مقتطفات من كتابه المعنون « تاريخ انجلترا » . وفيها يتهكم تهكما لاذعا مريرا على الجهاز الكنسى البابوى فى الغرب ابتداء من البابا حتى أصغر قس . كما يهاجم الفكرة الصليبية هجوما عنيفا وصريحا . ولهذه التصريحات دلالتها وأهميتها ووزنها . فقد صدرت عن أحد رجال الدين اللاتين الأحرار لتعبر - فى بساطة - عن موقف ذوى البصيرة والتعقل والنظرة البعيدة الواقعية ، فى وقت

كانت فيه الكنيسة اللاتينية تسير بخطى سريعة نحو التدهور والانحلال بسبب الفساد الذى تغلغل فى كيانها .

وجدير بالذكر أن المصادر التاريخية والأدبية الغربية التى عاصرت العدوان الصليبي وكتبت عنه ، فضلا عن الآداب الشعبية ، قد تناولت العدوان بالنقد والسخرية والتهكم. وهى تكشف عن وجود شعور شعبي فى الغرب ضد الفكرة الصليبية وغير متحمس لها . كما تكشف عن تطور الحالة النفسية للجماهير فى الغرب وقتذاك. وهذا أمر له أهمية كبرى فى تفهم الرأى العام الغربى ومعارضته للعدوان الصليبي ضد العرب، وتنديده بهذا العدوان، وشكه وتشككه فيه وفى قيمته وجدواه ونتائجه . وسواء أكانت هذه المعارضة وذلك الشك فى الفكرة الصليبية من جانب الغربيين لأسباب تتعلق بشئونهم الخاصة ومصالحهم الذاتية ، أم لعدم إيمانهم أساسا بفكرة الحرب والعدوان ـ فانها تكشف عن وجود رأى عام معاد للحرب ضد العرب كان يسرى كالتيار فى الغرب . وغير خاف أن هذا كان سندا قويا لموقف العرب ولقضيتهم العادلة لا يمكن التهوين من شأنه . كما كان عاملا له أثره فى تقويض دولة الغزاة فى الشرق العربى فى عصر العدوان الصليبي فى وقت كان فيه ميزان القوى قد اعتدل لصالح العرب [١] .

(١) جدير بالذكر أن المراجع الغربية الحديثة التى تناولت الحركة الصليبية بالنقد ، والتى كشفت فى أسلوب علمى عن معارضة الرأى العام الغربى للعدوان الصليبي ضد العرب ، قليلة جدا . ولايزال هذا الموضوع فى حاجة إلى مزيد من البحث والدراسة . ومن أهم الكتب التى تعرضت له نذكر :

Lenient, Satire en France au moyen âge; P. Throop, Criticism of the Crusade, Amsterdam, 1940.

الملحق الأول

مقتطفات من خطاب الامبراطور البيزنطى الكسيس الأول كومنين الى روبرت الأول أمير الأراضى الواطئة (حوالى عام ١٠٨٨). (١)

من امبراطور القسطنطينية إلى السيد الأجل اللورد روبرت أمير الأراضى الواطئة ، وإلى جميع كبار رجال المملكة المؤمنين بالعقيدة المسيحية ، وإلى رجال الدين والدنيا ـ تحية وسلاما ...

أيها السيد العظيم حامى العقيدة المسيحية . . أود أن أحيطك علماً بما وصل إليه تهديد البجاناكية (٢) والأتراك (٣) للامبراطورية الاغريقيــــة المسيحية المقدسة (٤) . فهم يعملون فيها السلب والتخريب كل يوم ، ويتوغلون فى أراضيها دون انقطاع . وكم من مذابح وتقتيل وجرائم تفوق حد الوصف يقترفونها ضد المسيحيين الاغريق (٥) ، فضلا عن السخرية والتحقير ... ... فانهم يذبحون الأطفال والشباب داخل أماكن التعميد ، حيث يريقون دماء القتلى محتقرين بذلك المسيح .

---

(١) هذه هى الترجمة العربية للنص اللاتينى للخطاب نقلا عن طبعة هاجينماير .
أنظــر : Epistola Alexii I komneni imperatoris ad Robertum I comitem Flandrensem (circa annum 1088); cf. Hagenmeyer, H. (ed.), Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes, Heidelberg, 1901 (pp. 129-136).

(٢) أنظر ماسبق ، ص ١٢٨ ح ١ من هذا الكتاب .

(٣) المقصود السلاجقة .

(٤) المقصود بذلك الدولة البيزنطية . ويلاحظ أن الخطاب يشير إلى البيزنطيين بلفظ « الاغريق المسيحيين » .

(٥) أى البيزنطيون .

لقد استولى أولئك القوم على كل البلاد الواقعـــة بين بيت المقدس وبلاد الاغريق . إذ امتلـكوا بلاد اليونان كلها ، بما فى ذلك أجزاؤها العليا ، وهى : كبادوكية الصغرى ، وكبادوكية الـكبرى ، وفريجية ، وبيثينية ، وفريجية الصغرى أى طرواده ، وكذلك بنطش ، وغلاطية ، وليدية ، وبمفيلية ، وأيسورية ، وليكية ، وجزائر خيوس وميتيلينا الرئيسية . كما وضعوا أيديهم على مناطق وجزائر أخرى حتى تراقية ، وغير هذا وذاك مما لا يقع تحت عد أو حصر . ولم يبق الآن تقريبا سوى القسطنطينية .

لذا استحلفك بمحبة الله ، وباسم جميـع المسيحيين الاغريق ، أن تمد لنا وللمسيحيين الاغريق يد العون والمساعدة ؛ وذلك بتقديم جميع الجنود المسيحيين ، من كبير وصغير ، فضلا عن العامة ممن يتسنى جمعهم من بلادك ...

وبناء على ذلك ، يجب أن تحاربوا بـكل ما أوتيتم من قوة وشجـاعة قبل سقوط القسطنطينيـة (١) . وستسعدون ويـكون لـكم فى السماء أجراً عظيما . ومن الأفضل أن تـكون القسطنطينية فى حوزتـكم وليست فى قبضة الأتراك ، لأن بها أثمن آثار السيد ، وهى الصليب الذى صلب عليه ، والسوط الذى ضرب به ، والرداء القرمزى الذى ألبسوه إياه وتاج الشوك ... وكذلك الملابس التى نزعت عنه أمام الصليب ، وقطعة كبيرة من خشب الصليب الذى صلب عليه ، ورأس يوحنا المعمدان وخصـــلات شعره بأكملها ولحيته ، فضلا عن بقايا أجساد كثير من القديسين ...

فاذا لم يحفزهم (٢) كل هذا للقتال ويفضلون عليه الذهب ، فسوف يجدونه

(١) الحديث هنا موجه إلى أهل الغرب .

(٢) المقصود أهل الغرب .

فى هذا المكان أكثر مما يوجد فى العالم كله . فكنائس القسطنطينية ملأى بكنوز من الفضة والذهب والحلى والأحجار الكريمة والمنسوجات الحريرية التى تستخدم فى صنع الأردية والملابس التى تكفى جميع كنائس العالم ...

سارعوا إذن بكامل رجالكم ، وحاربوا بكل ما لديكم من قوة حتى لا تقع كل هذه الكنوز والنفائس فى أيدى البجاناكية والأتراك (١). إذ ينتظر وصول ستين ألفا منهم بين وقت وآخر ...

ولهذه الأسباب مجتمعة ، إعملوا قبل فوات الأوان كيلا تفقدوا مملكة مسيحية ، وما هو أهم وأعظم قبر المسيح (٢) . وسوف يكون جزاؤكم ليس الدينونة فى هذا العالم وإنما ثواب الآخرة عند الله .

[نهاية الخطاب]

(١) أنظر مادة « الأتراك » لبارتولد Barthold فى دائرة المعارف الإسلامية، وكذلك مادة « السلاجقة » لهوتسما Houtsma فى دائرة المعارف البريطانية .

(٢) يعرف أيضا باسم كنيسة القيامة والقبر المقدس .

الملحق الثانى

رواية المؤرخ اللاتينى فوشيه ده شارتر
عن الظروف التى دعا فيها البابا الرومانى
اربان الثانى الى مؤتمر كليرمون الكنسى
فى نوفمبر ١٠٩٥ . (١)

فى سنة ١٠٩٥ ميلادية كان هنرى الذى يلقب امبراطورا يقبض على أعنة الحكم فى المانيا ، وكان فيليب آنئذ ماسكا على فرنسا . هذا ، بينما أخذ الفساد يتغلغل فى كافة أنحاء أوروبا ، الأمر الذى تسبب فى تزعزع العقيدة المسيحية . وكان يشرف على مدينة روما فى ذلك الحين البابا أربان الثانى . وكان رجلا كفء حسن السيرة والخلق . وقد أبدى هذا البابا مهارة و نشاطا فائقين فى إدارة شئون الكنيسة المقدسة ، كما بذل قصارى جهده للنهوض بها .

وكان البابا يدرك هذه الأمور . لقد لاح أن العقيدة المسيحية أخذت تسير بخطى واسعة نحو التدهور والانحلال على أيدى الجميع من رجال الدنيا والدين ، عندما طرح أمراء الاقطاع جانبا فكرة السلم ، وأصبحوا فى نضال مستمر بعد أن وقع الخلف بينهم . وكانت خيرات الأرض نهبا للطامعين . وأسر الكثيرون، وكبلوا بالأغلال والقى بهم فى غياهب السجون ، ولم يستردوا حريتهم إلا بعد أن دفعوا الثمن غاليا ، والا كانوا يعرضون لمختلف أنواع العذاب التى لا يمكن تصورها . ومات كثير من الناس بسبب ما قاسوه من شدة الجوع والعطش وما عانوه من قسوة البرد ووطأة الإرهاق (٢) .

---

(١) هذه هى الترجمة العربية للنص اللاتينى نقلا من « مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية » .
أنظر : Foucher de chartres, Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium (1095 — 1127), ed. R. H. C. — H. Occ., III, Paris, 1866 (p. 311).

(٢) أنظر ماسبق ، ص ١٧٥ — ١٧٨ من هذا الكتاب .

هذا ، وقد خربت الأماكن المقدسة ، وأحرقت القرى والأديرة ، ولم يسلم أحد من الأذى . وأصبح كل ما يتصل بأمور الدين والدنيا محلا للسخرية . وبلغ البابا أن الأتراك أخذوا من المسيحيين الاغريق بعض المناطق الداخلة فى نطاق العالم الرومانى ،(١) وأخضعوا هذه البلاد لحكمهم بعد هجوم مدمر عنيف. ونتيجة لذلك أوذى البابا فى عاطفته الدينية وحلت فيه إرادة الله . فعبر الجبال ونزل فى بلاد الغال (٢) حيث عقد مؤتمرا دينيا فى مدينة يطلق عليها اسم كليرمون (٣) . وكان قد دعا إلى هذا المؤتمر سلفا عن طريق مندوبين وسفراء من قبله كان قد بعث بهم إلى كل مكان (٤) .

---

(١) المقصود الامبراطورية الرومانية الشرقية .

(٢) المقصود غالة أى فرنسا .

(٣) أورد خطاب البابا أربعة من المؤرخين الصليبيين المعاصرين له هم فوشيه ده شارتر ، وروبرت الراهب ، وبودرى ده بورجى ، وجيبرت ده نوجان . وهناك مؤرخ خامس متأخر نسبيا هو وليم مالمسبورى ، أثبت الخطاب بعد قرابة ثلاثين سنة من تاريخه . أنظر :
William of Malmesbury, Gesta Regum (ed. W. Stubbs,), Rolls Series, 2 vols., London, 1887-9, cf. Vol. II, 393—8. ولقد دون الأربعة الأولون الخطاب كما لو كانوا قد حضروا المؤتمر وشهدوا ما دار فيه . وادعى بودرى أنه حضر المؤتمر ، وإن كان كل من بودرى وجيبرت قد ذكر أن ما أورده عن الخطاب قد لا يكون هو النص الحرفى له . والواقع أن النصوص الخمسة للخطاب تختلف عن بعضها اختلافا بينا . وقد تناول مونرو بالنقد والتحليل هذه الاختلافات فى محاولة هدفها العثور على النص الأصلى للخطاب ، وذلك بتجميع النقاط التى اتفق المؤرخون عليها . أنظر :
Munro, « The Speech of Pope Urban II at Clermont », cf. the American Historical Review, Vol.—XI, 231 ff. — ويقول ستيفن رانسيمان إنه من الواضح أن كلا من هؤلاء المؤرخين الخمسة قد دون الخطبة التى اعتقد أن البابا قد ألقاها فى كليرمون ، بعد أن أضاف اليها من عنده بعض الحيل الخطابية ، ومن هنا جاء الاختلاف بين هذه النصوص الخمسة . أنظر عن ذلك Runciman, op. cit., I, 108 n. 1.

(٤) فيما يتعلق بتحركات البابا أربان الثانى قبل مؤتمر كليرمون ، أنظر :
Chalandon, Histoire de la première Croisade, 19—22.

الملحق الثالث

مقتطفات من كتاب « الألكسياد »
لمؤلفته الأميرة آن كومنين (١).

دوافع العدوان الصليبي :

... ... ولم يكد الامبراطور [أى الكسيس كومنين] يتمتع براحة قصيرة حتى بلغه أن جيوشا فرنجية لا عد لها ولا حصر على وشك الوصول . وقد تملكه الرعب لمقدم هؤلاء القوم لما كان يعرفه عن صلابتهم فى الهجوم ، وما يتسمون به من التقلب وعدم الثبات ، فضلا عن خصالهم الغريبة الفطرية اللازمة لهم والتى كانوا يتميزون بها . وكان يعرف عنهم حبهم الدائم للمال . ويبدو أنهم كانوا على استعداد لنكث عهودهم ونقض وعودهم إذا كان هناك سبب يدعوهم إلى ذلك . وكثيرا ما سمع الامبراطور كل هذا يروى عنهم ، وقد تأكد من صدقه وصحته . ومع ذلك لم يتملكه اليأس ، ولم تزايله شجاعته ، بل أعد نفسه لمواجهة كافة الاحتمالات حتى يكون على استعداد لنزالهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك . أما الحقائق الثابتة فقد كانت ، فى واقع الأمر ، أشد هولا مما أشيع عنهم . ذلك أن أهل الغرب كله ، وكذلك قبائل المتبربرين التى تقطن فيما بين أقاصى الأدرياتيك وعمودا هرقل (٢) ـ قد نزحوا فى كتل متراصة مخترقين أوروبا صوب آسيا ، مصطحبين معهم فى رحلتهم هذه عائلاتهم وذويهم .

---

(١) أنظر : Anna Comnena, The Alexiad, English Trans. by : Elizabeth A.S. Dawes, London, 1928 (pp. 248-268).

(٢) هما جبل طارق وهاشر .

رحلة بطرس الناسك إلى القسطنطينية :

ويعزى هذا الطوفان البشرى ، فى قليل أو كثير ، إلى الأسباب التالية . ذلك أن أحد الفرنجة ويدعى بطرس ، ويلقب على سبيل السخرية « بطرس الطرطور » (١) ، كان قد ذهب للتعبد عند القبر المقدس . وبعد أن قاسى الكثير من المحن والأهوال على أيدى الأتراك والعرب الذين عاثوا فى آسيا ، قفل عائدا إلى بلدته بعد مشقة كبيرة ، وقد ضايقه إخفاقه فى تحقيق بغيته ، وأراد القيام بنفس الرحلة مرة ثانية . وأدرك أنه يجب عليه ألا يذهب بمفرده إلى القبر المقدس خشية أن يلحق به أذى أو يصيبه مكروه . لذا دبر خطة ماكرة لئيمة ، مفادها أن يبشر فى جميع المدن اللاتينية بأن « صوت الله يأمرنى بدعوة جميع نبلاء فرنسا لترك ديارهم والتوجه لأداء فروض العبادة عند القبر المقدس ، وأن يهب الجميع قلبا واحدا ويدا واحدة لتخليص أورشليم من قبضة الأتراك . » وقد نجح فى ذلك نجاحا كبيرا . وبعد أن أثار النفوس والمشاعر بهذا النداء شبه المقدس ، أعد العدة بحيث يتجمع الفرنج من كل حدب وصوب ، الواحد إثر الآخر ، ومعهم الأسلحة والخيول وكل معدات الحرب ولوازم القتال ، وقد ملأتهم الغيرة واستبدت بهم الحماسة للقتال حتى ازدحمت بهم المسالك والطرقات . وانضمت إلى هؤلاء الجنود من الفرنج جماعات أخرى بغير سلاح ، وقد فاق عددها رمال البحر ونجوم السماء (٢) . ووضع الجميع الصلبان فوق أكتافهم ،

(١) هو بطرس الناسك ، وقد تناول سيرته وأصله وحياته المبكرة فى شىء من التفصيل المؤرخ هاجينماير فى كتابه : Hagenmeyer, H., Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermite, trans. by Furcy Raynaud, Paris, 1883, 17-63. كذلك تعرض المؤرخ البرت دكس لحملة بطرس الشعبية فى شىء من الإسهاب . أنظر عن ذلك كتاب : Runciman, op. cit., I, 121 n. 1.

(٢) تناولت زوى اولدنبورج رواية آن كومنين عن بطرس الناسك بالنقد والتحليل . أنظر Z. Oldenbourg, Croisades, 82—3.

وحملوا سعف النخل. كذلك تركت النسوة والأطفال أوطانها وانضمت إلى هذا الزحف. وبدا منظرهم كأنهار عديدة وقد تدفقت مياهها بشدة من كل جانب ...

... وعندما بدأت الأفواج الأولى من هذه الجماعات فى عبور سهول لمبارديا متفرقة، استدعى الامبراطور [البيزنطى] عددا من قادة الجيش الرومانى، ثم بعث بهم إلى ضواحى دوراخيوم وڤالونا بعد أن زودهم بتعليماته التى تقضى بالترحاب بالفرنج الذين عبروا أراضيه واستقبالهم استقبالا حسنا. كما طلب إليهم أن يجمعوا كميات وافرة من المؤن من كل المدن التى يمرون بها، وأن يقوموا بعد ذلك بتعقب اولئك الفرنج ومراقبتهم طوال الوقت دون أن يجعلوهم يشعرون بهم. أما إذا عاثوا فى البلاد فسادا أثناء الطريق، فعلى هؤلاء الرجال الكشف عن حقيقتهم واستخدام القوة لزجرهم وردعهم. وقد صاحب هؤلاء عدد من الرجال الذين يجيدون اللسان اللاتينى، للعمل على تسوية أى نزاع قد ينشب بين الفريقين.

عود إلى دوافع العدوان الصليبي :

... ... ولم يحدث أن سجل التاريخ مثل هذا الطوفان من الرجال والنساء. وكانت تدفع السذج والبسطاء الرغبة الحقيقية فى التعبد عند قبر السيد وزيارة الأماكن المقدسة. أما ذوو الفطنة والحيلة والدهاء، وبخاصة شخص مثل بوهيمند ومن على شاكلته، فكان يدفعهم غرض آخر خفى ألا وهو محاولة الاستيلاء على العاصمة (١) نفسها أثناء الرحلة، كما لو كان هذا العمل أمرا مترتباً

---

(١) المقصود القسطنطينية، وقد كشفت الحملة الصليبية الرابعة عن أطماع اللاتين فيها.

على رحلتهم هذه . وقد أثار بوهيمند عقول كثير من النبلاء ، مدللا بذلك على حقده القديم على الامبراطور .

بطرس الناسك ومذبحة نيقية :

... ... وبعد أن قام بطرس الناسك بتبليغ رسالته ، عبر سهول لمباردية قبل أى شخص آخر . واشترك معه ثمانون ألف من المشاة ومائة ألف من الفرسان (١) ، ووصل العاصمة عن طريق بلاد المجر . ويرى البعض أن الجيش الفرنجى يتميز بطبعه الحاد ، فضلا عن تهوره واندفاعه الشديدين . وعندما يتعصب لقضية أو لفكرة ما سرعان ما يفقد سيطرته على نفسه .

ولما كان الامبراطور يعلم ما سبق أن قاساه بطرس على أيدى الأتراك ، فقد نصحه بالانتظار ريثما يصل باقى النبلاء . ولكن بطرس لم يستمع إليه ، معتمدا فى ذلك على تلك الجموع الغفيرة من أتباعه . لذا عبر المضيق (٢) وأقام معسكره بالقرب من مدينة صغيرة تسمى هلينوبوليس . وتبعه النورمان البالغ عددهم عشرة آلاف ، ولكنهم انفصلوا عن باقى الجيش وأعملوا التخريب فى المدن المحيطة بمدينة نيقية . وكان مسلكهم ينم عن وحشية فاقت كل وصف . إذ قطعوا أطراف بعض الأطفال ، وثبتوا البعض الآخر على ألواح خشبية وقاموا بشيهم على النار ، وأنزلوا شتى صنوف العذاب بالمتقدمين فى السن . وعندما شاهد أهالى نيقية هذه التصرفات فتحوا أبواب مدينتهم واندفعوا نحوهم حيث اشتبكوا معهم فى معركة عنيفة قفلوا بعدها عائدين إلى قلعتهم بسبب ما أبداه النورمان من شجاعة فائقة أثناء القتال . وهكذا غنم الفرنج جميع الأسلاب ، وقفلوا

(١) هذا العدد مبالغ فيه إلى حد كبير . أنظر ماسبق ، ص ١٥٥ من هذا الكتاب .
(٢) البسفور .

عائدين إلى مدينة هليئوبوليس . وكعادتهم دائما ، سرعان ما نشب النزاع بينهم وبين أولئك الذين لم يشتركوا معهم فى المعركة . فقد اشتعلت قلوب الذين تخلفوا عن الذهاب حسدا وغيرة . وتسبب هذا فى قيام صدام بين الفريقين انسحب بعده النورمان المشهورون بعنادهم . ثم زحفوا على مدينة تدعى كسريجوردوس واستولوا عليها .

وعندما علم السلطان [السلجوقى] بما حدث ، أرسل إليهم أحد رجاله ويدعى الخان Elchanes على رأس قوة كبيرة . وقد تمكن من استعادة المدينة ، وأعمل السيف فى عدد من النورمان ، كما أسر البعض الآخر . ثم وضع الخطط الكفيلة باصطياد الذين تخلفوا مع بطرس الناسك . إذ نصب الكمائن فى مواقع مختلفة بقصد الإيقاع بالقادمين من المعسكر الفرنجى فى اتجاه مدينة نيقية ، فيلقون بذلك حتفهم . ولما كان السلطان يعلم أن الفرنجة ، فضلا عما تقدم ، قوم جشعون محبون للمال ، فقد بعث فى طلب اثنين من رجاله الأذكياء ، وأمرهما بالتوجه إلى معسكر بطرس وإطلاق إشاعة مفادها أن النورمان قد استولوا على نيقية وأنهم يقومون بتقسيم ما وجدوه بها [من غنائم وأسلاب] على أنفسهم . وعندما شاع هذا النبأ بين أتباع بطرس أزعجهم أيما إزعاج ، فقد كان لكلمتى « التقسيم » و « المال » رنين غريب فى آذانهم (١) . فاتجهت جموعهم فى غير نظام إلى نيقية دون أى تقدير لمقدرتهم العسكرية ، ودون إعداد أنفسهم إعدادا سليما للمعركة ؛ وهذا أمر أساسى وبدهى بالنسبة لأولئك الذين يستعدون لخوض غمار معركة ما. فاللاتين ـ حسبما أسلفنا ـ قوم محبون للمال ، وبصفة خاصة إذا كان الأمر يتعلق

---

(١) يلاحظ أن الأميرة البيزنطية تركز بشكل واضح على جشع اللاتين الغربيين ولهفتهم على اكتناز المال . وتتكرر هذه الفكرة فى أكثر من موضع فى كتابها .

بغزو مدينة ما . عندئذ يفقدون وعيهم وسيطرتهم على أنفسهم. وهكذا رحلوا دون ترتيب صفوفهم وإعداد فرقهم ، وكانت النتيجة أن وقعوا فى الكمائن التى نصبها لهم الأتراك بالقرب من نهر دراكون ، وفنوا وهم فى حالة يرثى لها . لقد ذهبت أعداد كبيرة من الفرنج والنورمان ضحية سيوف السلاجقة ، حتى أن الأتراك عندما كوموا جثث القتلى الملقاة على جانبى النهر لم تكون تلا كبيرا أو رابية مرتفعة أو قمة عالية ، وإنما كونت جبلا شاهقا ذا غور واتساع شديدين . وكم بلغت ضخامة هذا الهرم المكون من عظام القتلى ...

وهكذا وقعوا جميعاً ضحية السيف ، ولم ينج منهم سوى بطرس ونفر قليل من أتباعه قفلوا عائدين إلى هلينوبوليس . ونصب له الأتراك كينا جديدا بغية أسره . وعندما تلقى الامبراطور معلومات أكيدة بما حدث ، وبعد أن بلغه أمر تلك المذبحة الرهيبة، خشى أن يكون بطرس قد وقع فى الأسر. فاستدعى أحد رجاله ويدعى قسطنطين كتاكالون إيرفوربينوس وزوده بقوة كبيرة أبحرت على ظهر سفن حربية عبر المضيق لإنقاذ بطرس . وما أن شاهده الأتراك حتى ولوا هاربين . وفى الحال انتشل قسطنطين بطرس وأتباعه الذين كانوا قلة ، وعاد بهم سالمين معافين إلى الامبراطور . وأخذ الامبراطور يذكره [أى بطرس] بطيشه واندفاعه وتهوره ، وأن الكوارث التى حلت به كانت بسبب عدم أخذه بنصيحته . ولكن بطرس ، ذلك اللاتينى الخبيث المتغطرس ، لم يعترف أنه السبب فيما حدث ، وألقى اللوم على الآخرين متعللا بأنهم لم يستمعوا إليه ، بل انصاعوا وراء رغباتهم وشهواتهم. واتهمهم بأنهم لصوص ومخربون وأن السيد لن يسمح لهم بالسجود عند قبره المقدس .

بوهيمند النورماندى ودوافع الحركة الصليبية :

وقد وجد بعض اللاتين أمثال بوهيمند ومن هم على شاكلته ممن كانوا

يطمعون فى الإمبراطورية الرومانية (١) ويريدون الاستيلاء عليها - أقول وجد هؤلاء ذريعة يتعللون بها فى تبشير بطرس الناسك بالحملة حسبما أسلفنا. وخدعوا بسطاء العقول، وتسببوا فى قيام هذا الطوفان البشرى الهائل، وباعوا ممتلكاتهم بحجة توجههم لتخليص القبر المقدس من قبضة الأتراك ...

هيوج ده فيرماندوا يؤدى يمين التبعية بين يدى الامبراطور البيزنطى :

... وقد استقبله الامبراطور [البيزنطى] استقبالا حافلا ، معربا له عن صداقته ، مغدقا عليه الكثير من المال . وهكذا أقنعه بأن يصبح « رجل الامبراطور » ، وأن يؤدى له اليمين المألوف لدى اللاتين ...

جودفرى ده بويون دوق اللورين السفلى والكسيس كومنين :

... وحوالى ذلك الوقت قام جودفرى (٢) وبرفقته عدد كبير من النبلاء وجيش يتألف من عشرة آلاف من الفرسان وسبعين الفا من المشاة. ولما وصل العاصمة ترك جيشه بالقرب من مضيق البسفور ... وعندما استحثه الامبراطور لكى يعبر المضيق ، ترك الأيام تمر تباعا ، وأخذ مماطل من جانبه فى إجابته إلى طلبه متعللا بسبب أو بآخر . والحقيقة أنه كان ينتظر وصول بوهيمند وباقى النبلاء . وعلى الرغم من أن بطرس [الناسك] عندما قام بهذه الرحلة الكبيرة

(١) تعنى الامبراطورية الرومانية الشرقية أى الدولة البيزنطية .

(٢) وصف البرت دكس رحلة جودفرى إلى بيزنطة وصفا تفصيليا مسهبا فى مؤلفه . أنظر :
Albert d'Aix, R.H.C.-H.Occ., IV, 299—305.
ويلاحظ أن المصادر الاغريقية لم تتعرض لهذه الرحلة . وفيما يتعلق بموقف دوق اللورين من الكسيس كومنين ، يعتبر مؤلف كل من آن كومنين والبرت دكس أوفى ما جاء بهذا الخصوص - أنظر : Albert d'Aix, 305—311. ويذكر شالندون فى كتابه « تاريخ الحملة الصليبية الأولى » أن رواية الكاتبة البيزنطية تفضل رواية البرت دكس ، كما أنها أكثر إقناعا ، ويمكن تقبلها بصرف النظر عن مبالغتها فى وصف قوة جيش جودفرى . أنظر :
F. Chalandon, Hist. de la Première Croisade, 119 sqq.

إنما كان يستهدف زيارة القبر المقدس ، إلا أن باقى النبلاء ، وعلى رأسهم بوهيمند الذى كان يحقد على الامبراطور ، كانوا يتحينون الفرصة للانتقام منه بسبب ذلك النصر الباهر الذى سبق أن أحرزه ضد بوهيمند فى القتال الذى دار بينهما عند مدينة لاريسا . وقد وافق باقى النبلاء على الخطة التى رسمها بوهيمند . ولما كانت الآمال تداعبهم فى الاستيلاء على العاصمة ، فقد استقر رأيهم على التظاهر بأن هدف رحلتهم هو البيت المقدس ، بينما كانوا يسعون فى الواقع إلى خلع الامبراطور والاستيلاء على العاصمة ...

... وفى اليوم التالى توجه هيوج إلى جودفرى ناصحا إياه بالإذعان لرغبة الامبراطور حتى لا يتعرض لتجربة ثانية يلقنه فيها الامبراطور درسا فى مدى مقدرته العسكرية . وأشار عليه بأن يؤدى بين يديه يمين الولاء . ولكن جودفرى عنفه بشدة قائلا : « أنت يا من قدمت من بلدك باعتبارك سيدا تملك ثروة هائلة وجيشا كبيرا ، أراك الآن تنزل بنفسك من هذه المكانة السامية التى تتمتع بها إلى مصاف العبيد والأقنان . والآن . . أتنصحنى أن أفعل نفس الشىء الذى فعلته أنت ، كما لو كنت قد أحرزت كسبا عظيما ؟ » فأجابه الآخر قائلا : « كان يجب علينا ، إذن ، أن نبقى فى ديارنا ، وألا نتدخل فى شئون غيرنا الخارجية . ولئن طالما بلغ بنا الأمر هذا الحد ، فقد أمسينا فى أشد الحاجة إلى حماية الامبراطور لنا . وسوف تتطور الأمور فى غير صالحنا إذا ما لم نرضخ لمطالبه » . ولكن جودفرى صرف هيوج دون أن يصل الاثنان إلى نتيجة ما ، هذا ، فى الوقت الذى بلغ فيه الامبراطور قرب وصول النبلاء [اللاتين] . فأنفذ عددا من قواده على رأس قواتهم ، وأوصاهم بمعاودة إسداء النصح لجودفرى بعبور المضيق ، مع إجباره على عبوره إذا استلزم الأمر ذلك . وما أن أبصر اللاتين أولئك القوم حتى استعدوا للحرب والقتال فى رعونة ودون أن يتريثوا

دقيقة واحدة أو يستفسروا منهم عن حقيقة مهمتهم. ونشبت معركة حامية بين الفريقين سقط فيها عدد كبير منهما... وقد تراجع اللاتين أمام الشجاعة التى أبدتها القوات الامبراطورية أثناء القتال. وكان من أثر ذلك أن بادر جودفرى بالإذعان لمطالب الامبراطور. فتوجه إليه حيث حلف اليمين الذى طلب منه، وفحواه أنه يجب عليه المبادرة بإعادة جميع المدن والبلدان والقلاع التى يستولى عليها، والتى كانت فيما مضى فى حوزة الامبراطورية الرومانية، إلى المندوب الذى سيوفده الامبراطور لهذا الغرض. وبعد أن أدى القسم أغدق عليه الامبراطور مبالغ طائلة، ثم دعاه إلى قصره وأقام له وليمة فاخرة. وبعد ذلك عبر جودفرى المضيق حيث عسكر بالقرب من مدينة بلكان (١). حينئذ أصدر الامبراطور تعليماته بإمدادهم بكميات وافرة من المؤن والأقوات ...

نبلاء الفرنج يؤدون يمين التبعية والاخلاص للامبراطور :

... وقدمت بعده جموع أخرى غفيرة تنتمى إلى أجناس مختلفة، وقد تجمعت من كافة المدن الفرنجية ومعها قادتها وملوكها (٢)، فضلا عن الدوقات

---

(١) موقع مدينة بلكان غير معروف على وجه التحديد. ويذكر ليب Leib فى طبعته لكتاب الألكسياد أنها تقع على بعد حوالى ١٦ ميلا غربى ليقوميديا. بينما يقول رامزى Ramsay فى مؤلفه المسمى « جغرافية آسيا الصغرى التاريخية » إنها تقع بالقرب من مدينة خالقيدونية. ويتضح مما أوردته آن فى كتابها أنها قريبة من معبر النهر المؤدى إلى قلعة كيفيتوت، وأنها فى موقع يجعلها على صلة بالعاصمة البيزنطية. هذا، ووفقا لرواية الكاتبة الاغريقية، استقبل الكسيس الصليبيين بعد سقوط مدينة نيقية فى مدينة بلكان. فيما يتعلق بهذه الآراء، وللمزيد من التفاصيل حول موقع بلكان، أنظر :

Runciman, Crusades, I, 152 n. 1.

أنظر أيضاً موقع المدينة على الخريطة رقم ١ ص١٦٣ من هذا الكتاب.

(٢) المعروف أن الحملة الصليبية الأولى هى الحملة الوحيدة التى لم يتزعمها ملوك بسبب ظروف الغرب الأوروبى وقتها، التى حالت بين ملوك الغرب وبين الاشتراك فيها. أنظر ص ١٧٦ — ١٧٧ من هذا الكتاب.

والكونتات والأساقفة . وأرسل الامبراطور رجالا من قبله لاستقبالهم استقبالا حسنا ، وقد طلب منهم أن يعدوهم بتقديم مساعدات مناسبة لهم . والحقيقة أن الامبراطور كان ماهرا فى إعداد نفسه لكافة الاحتمالات ، وفى سرعة التصرف فى الوقت المناسب . فأصدر تعليماته إلى عدد من الرجال الذين عينهم لهذا الغرض بإمدادهم بالمؤن والأقوات خلال رحلتهم ، حتى لا يجدوا ذريعة يتذرعون بها للاحتكاك به . وذهب الصليبيون مسرعين نحو العاصمة . ويمكن تشبيههم بنجوم السماء والرمال المكدسة عند شاطىء البحر . فقد كان عدد هؤلاء الرجال الذين أسرعوا صوب القسطنطينية - حسبما يقول هوميروس - مثل « أوراق الشجر والأزهار فى فصل الربيع » . وليس بوسعى سرد أسماء القادة وإن كنت أود ذلك ، إذ سيعجز بيانى بسبب عدم استطاعتى نطق هذه الأسماء الغريبة التى يصعب لفظها . (١) هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب كثرتهم العددية ...

وكان الامبراطور شديد الرغبة فى أن يؤدوا له نفس اليمين الذى أداه جودفرى . ولهذا دعاهم فرادى ، وأخذ يتحدث إلى كل منهم حديثا خاصا أوضح فيه رغباته ومطالبه . واستخدم ذوى التعقل منهم ليقوموا بدور الوسطاء بينه وبين العنيدين . ولكنهم رفضوا إجابته إلى طلبه ، إذ كانوا يتوقعون وصول بوهيمند . وتعللوا بأسباب عديدة للتخلص منه ، كأن يتقدموا دون انقطاع بمطالب جديدة لا أول لها ولا آخر . وأدرك الامبراطور لأول وهلة ما يرمون إليه من وراء أعذارهم الواهية ، وأجبرهم على حلف نفس اليمين الذى سبق أن أداه جودفرى مستخدما كافة الوسائل لتحقيق بغيته . ثم أرسل

---

(١) حول عدم معرفة آن كومنين أسماء الفرنجة ، أنظر :

Runciman, op. cit., I, 153 n. 1.

فى طلب جودفرى من مدينة بلكان الواقعة فيما وراء البحر حتى يكون متواجدا عند أداء اليمين . وهكذا اجتمعوا كلهم ومعهم جودفرى .

وبعد أن أقسموا جميعا اليمين المطلوب ، تقدم أحد النبلاء المغامرين وجلس على العرش . ولكن الامبراطور تظاهر بعدم رؤيته ولم ينبس بكلمة واحدة ، إذ كان يعلم أن اللاتين قوم متغطرسون متكبرون . حينئذ تقدم من هذا الشخص الكونت بلدوين وجذبه من يده ، ثم سحبه من مكانه وأخذ يوبخه بعنف قائلا : « لقد أخطأت بإقدامك على مثل هذا التصرف هنا ، وبخاصة بعد أن أديت اليمين للامبراطور . إذ ليس من عادة أباطرة الرومان السماح لرعاياهم بالجلوس إلى جانبهم على العرش . ويجب على أولئك الذين يصبحون أتباعا مخلصين لجلالته ، مراعاة تقاليد البلاد وعاداتها » . ولم يرد الكونت على بلدوين ، ولكنه أخذ يتطلع إلى الامبراطور فى حدة ، ثم تمتم بضع كلمات بلغة بلاده قائلا : « ألا فانظروا ! ها كم مخلوقا يبقى جالسا بينما كل هؤلاء القادة العظام واقفون من حوله . » ولم تغب عن الامبراطور تمتمة هذا اللاتينى ، فاستدعى أحد التراجمة ممن يجيدون هذه اللغة مستفسرا منه عن مضمون أقواله . ولما عرف فحواها لم يقل شيئا لهذا اللاتينى فترة من الوقت محتفظا فى دخيلة نفسه بما يريد قوله . وعندما استأذن النبلاء من الامبراطور فى الانصراف ، استدعى إليه هذا اللاتينى المتغطرس الجرىء وأخذ يستفسر منه عمن يكون ومن أى بلد قدم وإلى أى نسب ينتمى . فأجابه قائلا : « إنى فرنجى عريق فى النبل . وكل ما أعرفه أنه يوجد هيكل قديم عند مفارق المدينة التى قدمت منها ، يلتقى عنده كل من يرغب النزال فى معركة فردية . وهناك يلتمس الفرد منا العون من الله فى

انتظار الشخص الذى سيطلبه للنزال . وكثيرا ما أقمت فى هذا المكان أترقب الخصم الذى سوف أبارزه ، ولـكن أحدا لم يجرؤ على التقدم لمنازلتى . » حينئذ قال الامبراطور ردا عليه : « إن لم تـكن قد عثرت على من تقاتله عندما كنت تسعى حثيثا إلى ذلك ، فقد حان الوقت الذى يمكنك فيه أن تشبع رغبتك فى القتال . ولـكنى أنصحك بشـدة ألا تبقى فى مؤخرة الجيش وألا تتصدر مقـدمة الصفوف. وليكن مكانك فى قلب الجيش نظرا لخبرتى الطويلة ، ومعرفتى بوسائل الأتراك وأساليبهم فى الحرب والقتال . » ولم يكتف الامبراطور بتوجيه هذه النصيحة إليه فحسب ، بل سبق له أن حذر الآخرين بما سوف يحدث خلال الرحلة ، مشيرا عليهم بعدم تعقب الأتراك بعيدا إذا ماهيأ الله لهم النصر عليهم، حتى لا يذهبوا ضحية الـكمائن التى ينصبونها لهم .

بوهيمند النورماندى فى القسطنطينية :

وعندما بلغ بوهيمند وغيره من النبلاء ابيروس ، أوضح أنه لا ينحدر من أصل عريق ، وأنه لا يصطحب معه قوة كبيرة بسبب فقره ، وأن كل ما يعنيه هو كسب ود الامبراطور . هذا ، فى الوقت الذى أخفى فيه مشاريعه ضده . وهكذا ترك وراءه باقى النبلاء ، وتوجه مسرعا صوب العاصمة فى صحبة عشرة من الفرنج . ولما كان الامبراطور يعلم الـكثير عن دسائس بوهيمند وغدره ، فقد أبدى رغبته فى التحدث إليه قبل وصول باقى النبلاء ، والاستماع إلى ما يريد قوله ، مع إقناعه بالعبور إلى آسيا [الصغرى] قبل وصول الآخرين حتى لا ينضم إليهم ويؤثر عليهم . وعندما دخل بوهيمند على الامبراطور ، قابله الأخير مبتسما مرحبا محييا ، ثم سأله عن رحلته والمـكان الذى ترك فيه باقى

النبلاء . وكان بوهيمند صريحا واضحا فى إجابته على تلك الأسئلة . وعندئذ أخذ الامبراطور يذكره مازحا بتصرفاته السابقة فى مدينة دوراخيوم وعدائه القديم له ، فأجابه الأخير قائلا : « على الرغم من أنى كنت وقتذاك خصمك وعدوك ، فقد قدمت الآن بمحض إرادتى كصديق لجلالتك . » وتحدث إليه الامبراطور فى أمور شتى ، مستطلعا نواياه حياله . ولما أدرك أنه لن يتردد فى أداء يمين الاخلاص صرفه قائلا : « لا بد أنك متعب من رحلتك ، ويحسن بك أن تذهب لتنال قسطا من الراحة . ويمكننا التحدث غدا فى كل ما يعنينا من أمور . » ....

لقد اشتهر الامبراطور بقدرته التى تدعو إلى الاعجاب فى الحكم على أى شخص ، وفى الغوص إلى قرارة نفسه وكشف خبيئة نواياه . وقد كان على حق فى موقفه منه ، لعلمه بما كانت تنطوى عليه نفسه من حقد وخبث ودهاء ....

وفى اليوم التالى استدعى الامبراطور بوهيمند وطلب منه أداء اليمين المألوف لدى اللاتين . وسرعان ما استجاب له ، (١) وهو مدرك لظروفه . فهو لا ينحدر من أصل عريق ، ولم يكن لديه المال الوفير ، كما لم تكن تحت إمرته القوات الكافية ، بل قليل من الأتباع الفرنج . ثم أنه كان على استعداد طبيعى لحنث قسمه ونقض عهده . وبعد ذلك اختار الامبراطور إحدى الغرف فى قصره وفرش أرضيتها بكل أنواع النفائس .... وهكذا ملأ الغرفة بالأردية

---

(١) جدير بالذكر أن المؤرخ اللاتينى البرت دكس هو الوحيد الذى ذكر أن بوهيمند أدى القسم المطلوب دون رغبة منه وذلك على عكس ماجاء فى المصادر الأخرى . أنظر : Albert d'Aix, R.H.C.—H. Occ., IV, 312. ويبدو مما أكدته آن كومنين وما جاء فى باقى المصادر اللاتينية ، ومن سياق الأحداث وتتابعها ، أن ما جاء بكتاب دكس غير صحيح . انظر ص ١٩٨و٢٠٣ من هذا الكتاب .

والذهب والفضة وغير ذلك من التحف التى لا تقل عنها قيمة ، حتى أنه كان يتعذر على المرء السير فيها لكثرة ما بها . وطلب الرجال الذين كلفهم بتقديم هذه الأشياء إلى بوهيمند ، بفتح أبواب الغرفة أمامه فجأة (١). وقد اعترت بوهيمند الدهشة عند مرأى هذه النفائس ، وتعجب قائلا : « لو كنت أملك كل هذه الكنوز لأصبحت منذ زمن بعيد سيدا على كثير من البلاد ! » فأجابه التابع قائلا : « إن الامبراطور يهديك كل هذه النفائس . » وقد سر بوهيمند لذلك . وبعد أن شكر الساعى على الهدايا ذهب ليستريح فى المنزل الذى أعد له . ولكن هذا الرجل الذى سبق أن أبدى إعجابه بهذه الكنوز ، سرعان ما غير رأيه عندما أرسلت إليه ، وقال لمن أحضروا الهدايا : « لم أكن أتصور أن يلحق بى الامبراطور مثل هذا العار ! خذوا هذه الأشياء وأعيدوها إلى ذاك الذى أرسلها . » ولما كان الامبراطور يعرف أن اللاتين قوم متقلبون لا يثبتون على رأى ولا يقفون على حال ، فقد تشبه بالمثل الشعبى المعروف « دع المكروه يحيق بأهله » . ولكن لما أبصر بوهيمند الحمالين وهم يحزمون الهدايا التى كان قد رفضها مستاء منذ دقيقة مضت ، سرعان ما عدل عن رأيه وابتسم فى وجه الحمالين ، كما تغير الحرباء لونها فى لحظات . فقد كان فى طباعه خبث ولؤم ، كما كان على استعداد لتكييف نفسه وفقا لكافة الاحتمالات . إذ فاق جميع اللاتين الذين قدموا حتى الآن جرأة وخداعا ، وإن كان دونهم عدة ومالا .

... وهكذا نجد أن هذا الرجل الذى رفض الهدايا بادىء ذى بدء ، يقبلها بعد ذلك بسرور عظيم . فكان مما يحز فى نفسه أنه ترك بلاده وهو خالى الوفاض لا يملك من حطام الدنيا شيئا ، وقد تظاهر بالرغبة فى زيارة القبر المقدس وإن

---

(١) لعله كان يريد اختبار الأمير النورماندى ومعرفة حقيقة نواياه حياله .

كان فى قرارة نفسه يسعى جاهدا لتأسيس مملكة له ، والسير على منهاج أبيه ، (١) باغتصاب الامبراطورية الرومانية نفسها إن استطاع إلى ذلك سبيلا ...

لقد بذل الامبراطور قصارى جهده ليحول دون وجود ما من شأنه أن يساعد هذا الأمير على تحقيق خططه ومشاريعه الخفية، وهو يعلم جيدا أن بوهيمند رجل سيء الطباع والخصال . ولهذا السبب لم يظفر بوهيمند بأمنيته عندما طلب من الامبراطور أن يمنحه وظيفة « خادم الشرق الأكبر » . فقد خشى الامبراطور أن يأخذ بوهيمند باقى النبلاء أسرى إذا دانت له الفرصة ، ثم يجبرهم على تنفيذ ما يريد . ثم أنه كان يهمه الا تساور بوهيمند الشكوك فى أنه واقع تحت رقابة مستترة . وأخذ يراوغه ويمنيه بالآمال العذبة قائلا : « لم يحن الوقت بعد لتحقيق هذه الرغبات . ولكنك ستفوز بما تتوق إليه نفسك بفضل نشاطك ومسلكك وإخلاصك أولا وقبل كل شيء . »

وبعد أن انتهى الحديث ، أحاط الامبراطور الفرنج بمظاهر الشرف والاحترام ، وغمرهم بالهدايا والمال . وأخذ يتحدث إليهم موجها النصح لهم فيما يتعلق بالصعاب التى ستصادفهم فى الطريق . كذلك زودهم بتوجيهاته ، وأحاطهم علما بأسلوب الأتراك فى الحرب والقتال . وأوضح لهم كيف ينظمون قواتهم ويرتبون صفوفهم ، كما أشار عليهم بعدم التمادى فى تعقب الأتراك بعيدا عندما يفرون أمامهم . وبعد أن خفف من غلوائهم وهدأ من حدة طباعهم بما أغدقه عليهم من مال ومازودهم به من إرشادات ، اقترح عليهم عبور البسفور إلى آسيا [الصغرى] ...

(١) روبرت جويسكار صاحب الأطماع المعروفة فى الدولة البيزنطية . وللمزيد من المعلومات عن الحرب النورمانية بين جويسكار والكسيس كومنين ، أنظر :
Chalandon, Essai, 58—94.

ريمون ده سان جيل والكسيس كومنين :

وكان الامبراطور يود كونت سان جيل (١) بصفة خاصة لحكمته الفائقة وإخلاصه الحقيق ونقاء سريرته . وقد اعترف بأنه ماكان ليضع شيئا فوق الحق ، وأنه يبز جميع اللاتين كما تبز الشمس نجوم السماء . ولهذا السبب أبقاه إلى جانبه بعض الوقت . وقد استأذن جميع النبلاء فى الانصراف ، وعبروا مضيق البسفور حتى بلغوا مدينة دماليوم . وحينئذ تنفس الامبراطور الصعداء ، نظرا للاضطرابات التى تسببوا فى حدوثها . وكثيرا ماكان يبعث فى طلب سان جيل ليوضح له مايتوقع أن يحدث للاتين خلال الطريق . كذلك كشف له عن شكوكه وارتيابه فى نوايا الفرنج . وكثيرا ما ردد هذه الأقوال على مسامعه ، كما فتح له مغاليق نفسه . وبعد أن أوضح له كل الأمور ، طلب إليه مراقبة بوهيمند وكبح جماحه إذا ما حنث بقسمه، مع العمل على احباط مشاريعه وخططه بكل الطرق والوسائل . وأجابه سان جيل قائلا : « لقد ورث بوهيمند الغدر ونكث العهود عن آبائه وأجداده ، وستكون معجزة حقا إذا بر بقسمه . وعلى أية حال ، سأبذل قصارى جهدى لتنفيذ أوامرك » . وبعد أن استودع الامبراطور ، ذهب ليلحق بالجيش الفرنجى ...

الاستيلاء على نيقية :

... وكان الامبراطور يود الاشتراك مع الفرنج فى قتال الأتراك ، لكن أعدادهم الغفيرة كانت مصدر قلق وفزع بالنسبة له . ورأى أنه من الأفضل التوجه

(١) أشار إلى رحلة ريمون إلى القسطنطينية بتفصيل واسهاب مؤرخ حملته ريمون داجيل . وتكشف روايته عن حقد ومرارة زائدين من جانب اللاتين ضد البيزنطيين . أنظر :
Raimond d'Agiles, R.H.C.—H. Occ., III, 235—8.

إلى مدينة بلكان القريبة من مدينة نيقية ، والانتظار بها حتى يكون على علم بمجريات الأمور والأحوال أولا بأول . كما أدرك بثاقب نظره أنها ستكون ضربة قاسية إذا أخفق فى إحراز نصر عسكرى . وكان يود الاستيلاء على نيقية دون مساعدة من جانب الفرنج إذا ما واتته الفرصة لتحقيق هذا الغرض ، وذلك حتى لا يتسلمها من الفرنج بموجب تعهداتهم له . ولكنه أخفى خطته طى الكتمان ، وأرسل أحد خواصه ممن يثق فيهم ويدعى بوتومايت Butumites فى محاولة هدفها الاستيلاء على نيقية ، وهى أن يعد أهلها بالأمان وأن يعمل فى نفس الوقت على إثارة مخاوفهم ضد الفرنج مما سوف يقاسونه على أيديهم إذا وقعت المدينة فى قبضتهم ...

الملحق الرابع

مقتطفات من خطاب الكونت اتين صاحب شارتر وبلوا الذى بعث به من الشرق الى زوجته الكونتيسة اديل فى الغرب الاوروبى . (حرر من معسكر الجيش الصليبى بالقرب من مدينة نيقية فى ٢٤ يونيو سنة ١٠٩٧) [١] .

من الكونت إتين إلى حبيبته وزوجته الكونتيسة أديل ... وصلت بحمد الله وسلامته إلى مدينة القسطنطينية ، وكان فرحى زائدا وسرورى عظيما . ولقد أحسن الامبراطور [٢] استقبالى وأكرم وفادتى، وعاملنى كما لو كنت إبنا له . كما أغدق على الكثير من الهدايا النفيسة . كذلك كنت موضع ثقة الامبراطور ومحبته أكثر من أى شخص آخر فى جيش الله ، سواء أكان ذلك الشخص دوقا أم كونتا أم أحد العظماء . لقد ألح على جلالته ، ومازال يلح، ياعزيزتى ، على أن يكفل أحد أبنائنا وأن يتبناه ...

حقا لا يوجد تحت قبة السماء من هو أعظم منه . فقد غمر جميع رؤسائنا بالمنح والهدايا ، وكذلك فعل مع كل فرساننا ، كما أطعم جميع الفقراء . ويوجد على مقربة من مدينة نيقية قلعة تسمى كيفيتوت ، وبالقرب منها مضيق بحرى

---

(١) هذه هى الترجمة العربية للنص اللاتينى للخطاب الذى نشره هاجنماير . أنظر :
Epistula I Stephani comitis carnotensis ad Adelem uxorem suam (Scripta e castris prope Nicaeam a 1097 ca 24 diem junii), ed. H. Hagenmeyer, Epistolae et chartae ad historiam primi belli spectantes, Heidelberg, 1901 (pp. 138-140).

(٢) يقصد الكسيس كومنين .

تبحر فيه ليل نهار سفن الامبراطور المتجهة صوب القسطنطينية . وتقوم هذه السفن بنقل الطعام والمؤن من العاصمة إلى كيفيتوت حيث توزع على الجموع الغفيرة هناك . ولا أعتقد أنه يوجد فى زماننا هذا رئيس أو زعيم له مثل شخصية الامبراطور وصيته الذائع . إن أباك فى الحقيقة ، ياعزيزتى ، غمرنا بكثير من الهدايا الثمينة ، ولكن ذلك لا يقاس بالنسبة لما أضفاه علينا الامبراطور ...

الملحق الخامس

ثلاثة نصوص من كتاب المؤرخ المجهول
عن الحملة الصليبية الأولى (١).

النص الأول

رحيل بطرس الناسك وفناء جيشه بالقرب من نيقية (٢)

كان بطرس سالف الذكر ومن معه من الألمــــان هم أول من وصلوا إلى القسطنطينية، وكان ذلك فى الأول من أغسطس سنة ١٠٩٦ . فوجد هناك جماعات من اللمبارديين واللنجوبارديين ، فضلا عن كثيرين غيرهم . وقد أمر الامبراطور بتزويدهم بالمؤن بالقــدر الذى تسمح به أحوال العاصمة ، وقال مخاطبا إياهم : « لا تعبروا المضيق (٣) ، وانتظروا ريثما تصل الجيوش المسيحية الأخرى ، لأنكم قلة فى العدد، وليس بوسعكم منازلة الأتراك» . وقد سلك هؤلاء المسيحيون مسلكا شائنا، إذ حطموا قصور المدينة وأشعلوا فيها النيران . كما انتزعوا طبقات القصدير التى كانت تغطى واجهات الكنائس وباعوها لليونانيين (٤) . ولهــذه الأسباب غضب الامبراطور ، وأمرهم بعبور البسفور . ولكنهم لم يكفوا

---

(١) هذه هى الترجمة العربية للنصوص اللاتينية الثلاثة المأخوذة من كتاب المؤرخ المجهول نقلا عن طبعــة هاجنماير . أنظر : Hagenmeyer, H. (ed.), Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum, Vol. I, Heidelberg, 1889.

(٢) أنظر الفصل الثانى من كتاب المؤرخ المجهول ، ص ١٠٩ ومابعدها . وقارن بين رواية كل من المؤرخ المجهول وآن كومنين فى هذا الشأن . أنظر الملحق الثالث فى هذا الكتاب.

(٣) المقصود البسفور .

(٤) أى البيزنطيون .

بعد أن اجتازوا هذا المضيق عن ارتكاب الآثام والفظائع ، كما أعملوا السلب والنهب فى المنازل والكنائس . . .

وقد استبد الفرح بالامبراطور عندما علم أن الأتراك هزموا قوات بطرس الناسك . ولكنه أرسل إليهم ومكنهم من عبور البسفور ، وأمر بنزع سلاحهم حتى يأمن شرهم . . .

النص الثانى

جودفرى دوق اللورين السفلى وجيشه فى القسطنطينية (١)

وفى ٢٣ ديسمبر من سنة ١٠٩٦ وصلت إلى القسطنطينية أول جيوش الصليبيين بقيادة الدوق جودفرى الذى كان أكثر زعماء الصليبيين صيتا وشهرة . وأنزل الدوق عند وصوله خارج العاصمة إلى أن أمر الامبراطور الخبيث باستضافته فى ضواحيها . وبعد أن استقر الدوق فى هذا المكان ، أخذ يرسل حاملى دروعه كل يوم لتزويد الخيل بما يلزمها من القش دون أن يخشى عليهم شرا . وقد اعتقد جودفرى ورجاله أن بوسعهم التنقل كيفما شاءوا دون أن يتعرض لهم أحد بسوء . ولكن الامبراطور الكسيس ، بما عرف عنه من خبث ودهاء ، عمل على أن يقضوا الليل خارج المدينة . ثم أمر رجاله من التركوبول والبنشنج (٢) بمهاجمتهم والقضاء عليهم . ولما علم بلدوين أخو الدوق بذلك ، كمن لهم حتى عثر على الذين قتلوا رجاله ، فهاجمهم بشجاعة فائقة ،

(١) أنظر الفصل الثالث من كتاب المؤرخ المجهول ، ص ١٤٠ وما بعدها . (طبعة هاجيناير) .

(٢) يطلق عليهم المؤرخ المجهول لفظ Turcopolis و Pincinatis . وفيما يتعلق بهذين العنصرين أنظر ص ١٢٨ ح ١ و٢ من هذا الكتاب .

وتمكن بمعونة الله من التغلب عليهم . وقد أسر ستين شخصا منهم ، وقتل البعض وأرسل البعض الآخر إلى أخيه الدوق . وعندما علم الامبراطور بما حدث غضب غضبا شديدا . أما الدوق وجيشه فقد غادروا الضاحية التي كانوا نازلين بها ، وأقاموا خارج المدينة . ولما أقبل المساء أمر الامبراطور وجيشه بالهجوم على الدوق ورجاله . وتمكن الدوق من إحراز النصر ، ثم قام بتتبع الأعداء وقتل سبعة منهم ، ولاحق البعض الآخر حتى أحد أبواب العاصمة . وبعد ذلك رجع الدوق إلى معسكره حيث أقام فيه خمسة أيام . وأخـــيرا عقد اتفاقا مع الامبراطور الذى طلب إليه أن يعبر البسفور متعهدا بإمداده بكل ما يلزمه من المؤن والأقوات . كما وعد بتوزيع الصدقات على الفقراء والمعوزين منهم . . .

النص الثالث

زعماء الفرنج يؤدون يمين التبعية والولاء بين يدى الكسيس(١)

عندما علم الامبراطور بوصول بوهيمند النبيـل أمر باستقباله استقبالا لائقا وإضافته خارج المدينة . وبعد ذلك أرسل الامبراطور الخبيث (٢) فى طلبه سرا للتحدث إليه . وقد شهد هذا الاجتماع الدوق جودفرى وأخوه . وبعد ذلك أخذ الكونت سان جيل يقترب من العاصمة . لذا فكر الامبراطور

(١) أنظر الفصل السادس من كتاب المؤرخ المجهول ، ص ١٦٨ وما بعدها . (طبعـة هاجينماير) . قارن بين رواية كل من المجهول ومؤلفة الألكسياد حول هذا اليمين . أنظر عن ذلك الملحق الثالث فى هذا الكتاب .

(٢) يلاحظ أن المؤرخ المجهول عنـدما يتحدث عن الامبراطور البيزنطى يصفه فى معظم الأحيان بالامبراطور الخبيث malignus imperator والامبراطور الذى اشتهر بالخبث والدهاء imperator Alexius sagaciter facibat eos excubare — أنظـر ص ١٤٠ و ١٦٨ من كتاب المجهول (طبعة هاجينماير) .

ـ وقد استبد به الحنق والغيظ ـ فى وسيلة كلها خبث ودهاء تمكنه من التغلب على فرسان المسيح . ولم يجد الامبراطور أو رجاله ، بفضل العناية الالهية ، أية وسيلة لإلحاق الأذى برجالنا . وأخيرا عقد اجتماع حضره جميع كبار رجال الدولة الذين كانوا فى القسطنطينية فى ذلك الوقت . وخشية أن يفقدوا بلادهم ، فقد وضعوا الخطط البارعة والمشاريع الخبيثة لكى يحملوا قوادنا وزعماءنا وكبار رجالنا على أداء يمين التبعية للامبراطور . ولكنهم رفضوا رفضا باتا وقالوا : « إن هذه لمذلة لنا . ويلوح أنه ليس من العدالة فى شىء أن نؤدى له يمين الولاء مهما كانت الظروف . » ولكن قد يخيب زعماؤنا آمالنا فيهم (١) . ثم ماذا هم فاعلون فى نهاية الأمر ؟ سيقولون إن الضرورة الملحة اضطرتهم إلى النزول على رغبة الامبراطور الخبيث سواء قبلوا أم كرهوا (٢) . وقال الامبراطور لبوهيمند الشجاع ـ وكان يخافه أشد الخوف لأنه سبق أن ألحق به وبجيشه الهزيمة أكثر من مرة فى ساحة القتال (٣) ـ قال له إنه إذا حلف اليمين برضائه ، فإنه [أى الامبراطور] سيمنحه أرضا فى منطقة انطاكية طولها خمسة عشر يوما وعرضها ثمانية أيام . وقد أقسم الامبراطور لبوهيمند بأنه إذا حافظ على يمينه ، فإنه من ناحيته لن يخل بتعهداته له . ولكن ، لماذا أقدم فرساننا الذين لم تكن تنقصهم القوة والشجاعة على هذا العمل ؟ لاشك أن الضرورة القاسية قد اضطرتهم إلى ذلك . . .

---

(١) أى إذا رضخوا الامبراطور وأذعنوا لمطالبه .

(٢) يحاول المجهول التماس الأعذار لبنى جلدته بسبب رضوخهم لرغبة الامبراطور البيزنطى وأدائهم اليمين المطلوب .

(٣) يقصد بذلك الحروب النورمانية ضد بيزنطة فى البلقان فى عهد روبرت جويسكار وابنه بوهيمند فيما بين عامى ١٠٨١ و ١٠٨٥ . أنظر ماسبق ، ص ٧٩ و١٢٠ و١٢٥ و١٣٦ و١٤٤ من هذا الكتاب .

هذا ، وقد وعد الامبراطور جميع رجالنا أمنا وسلاما . كما أقسم بمرافقتنا على رأس جيشه برا وبحرا . وتعهد أيضا بإمدادنا بالمؤن عن طريق البر والبحر، وبتعويض كل خسائرنا بسرعة . كذلك أقسم بأنه لا يرغب ولن يسمح لأحد بأن يتعرض لحجاجنا بسوء أو يلحق بهم الأذى وهم فى طريقهم إلى القبر المقدس . أما كونت سان جيل فقد ترك جيشه وأقام فى ضاحية تقع خارج العاصمة . وطلب منه الامبراطور أداء يمين التبعية والولاء أسوة بما فعله الآخرون . وفى تلك الأثناء كان الكونت يدبر حيلة للانتقام من جيش الامبراطور . وقد قال له الدوق جودفرى وروبرت أمير الأراضى الواطئة وباقى الزعماء ، إنه لمن العار أن يقاتل المسيحيون بعضهم بعضا . كما أخبره بوهيمند الحكيم أنه فى حل من أن ينضم إلى صف الامبراطور إذا أراد الكونت به شرا أو حاول التعرض لمن يريد أداء اليمين له . وعلى ذلك قبل الكونت نصيحة قومه ، وأقسم بالمحافظة على حياة الامبراطور وشرفه ؛ وقال إنه لن يسمح لنفسه أو لغيره بالتعرض له . وحينما طلب منه أداء يمين التبعية أجاب بالرفض ولو دفع حياته ثمنا لذلك . وفى تلك الآونة اقترب جيش بوهيمند المظيم من القسطنطينية ...

الملحق السادس

مقتطفات من قصيدة الشاعر الفرنسي
وليم رتبف في التنديد بالفكرة الصليبية. (١)

فى لهجة ساخرة تهكمية لاذعة ، يوجه الشاعر حديثه إلى البابا والجهاز الكنسى وإلى أهل الغرب بعامة . يقول :

لقد أصبح بوسع أى فرد الاتصال بالله وهو آمن مطمئن فى هذه البلاد دون المخاطرة بحياته .. وأرى أن الشخص الذى يضع نفسه تحت رحمة الآخرين هو أحمق غبى ، طالما كان بوسعه الحصول على رضاء الله وهو فى وطنه ..

لم أخطىء بقولى هذا ، ولم يتذمر منى أحد .. إنى أذهب إلى فراشى مبكراً ، وأنام هنيئاً ملء جفونى ، وأركن لأصدقائى ومعارفى الحب والود .. وبودى أن أعيش بين ظهرانيهم ، فأحصل على المتعة والعزاء ..

ألا فاخبروا سيدكم السلطان (٢) أنه لا تعنينى تهديداته .. وستكون العاقبة أسوأ إذا حل بأرضنا .. ولكنى لن أتعقبه خارج ديارنا ..

فليتعظ الأمراء المتوجون ، والأساقفة ، ورؤساؤهم العظام .. وليمحو الكهنة والأساقفة العار الذى لحق بالله .. فهو الذى يهبهم أرزاقهم .. ولديهم

---

(١) القصيدة بالفرنسية القديمة وعنوانها Rutebeuf, La desputizons dou croisié et dou descroisié. وقد قام بنشرها A. Kressner, Rutebeuf Gedichte, Wolfenbüttel, 1885. وقد ترجمت القصيدة إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، وهذه الترجمة العربية نقلا عن كتاب : G. Masson, Mediaeval France from the Reign of Hugues Capet to the Beginning of the Sixteenth Century, London, 1888 (pp. 96-7).

(٢) يقصد حاكم مصر .

الشيء الوفير من الطعام والشراب .. فإذا أمكنهم الاتصال بالله عن هذا السبيل، فمن الحماقة الرجوع عنه لأنه أفضل السبل !!

وهناك من يقول : « لتوزع ياسيد ماتملك على رعاياك .. وهذا لعمرى رأى سديد .. ولكنى أعتقد ، بحق القديس بطرس الرومانى ، أنه من الأفضل لى البقاء هنا ... (١)

---

(١) يقصد الشاعر أنه يؤثر البقاء فى بلاده بدلا من المغامرة فى عدوان صليبى ضد العالم العربى .

الملحق السابع

مقتطفات من كتاب الراهب الانجليزى
متى الباريزى فى مهاجمة الفكرة الصليبية
والجهاز الكنسى البابوى فى الغرب (١).

... لقد ألمح كل من كونت بواتييه وكونت بروفانس (٢) إلى البابا (٣)، من طرف خفى، أن جشعه وحبه الشديد للمال هما السبب فى كل هذه الكوارث السالف الإشارة إليها (٤) ... لقد أغشى المال بصيرته ...

... رحماك يارب .. يامن بيدك الانتقام لنا . . متى ستشحذ سيفك البتار حتى يتوهج كوميض البرق وينغمس فى دماء أمثال هؤلاء القوم (٥) ... حقا، إن آثامنا وخطايانا هى التى جلبت علينا كل تلك المصائب والويلات ...

... وهكذا نرى البابا، وهو أبونا الروحى الذى اقتفى خطى الامبراطور قسطنطين، وكان الأجدر به أن يحذو حذو القديس بطرس، يسبب الكثير من القلاقل والاضطرابات فى العالم ...

---

(١) أنظر: M. Paris, English History from the year 1235 to 1273, translated from the Latin by J. A. Giles, Vol. II, London, 1853 (pp. 400, 403, 498).

(٢) هما شقيقا الملك الفرنسى لويس التاسع، ألفونس ده بواتييه، وشارل ده بروفانس؛ وكانا قد عادا إلى فرنسا بعد هزيمة لويس التاسع فى مصر وتوجهه إلى سورية، وذلك بقصد حث البابا إنوسنت الرابع للدعوة إلى حملة جديدة ضد العرب فى الشرق. أنظر عن ذلك كتابى لويس التاسع فى الشرق الاوسط، ص ٩٠-٩٣. وفيما يتعلق بموقف البابا من الحركة الصليبية، أنظر نفس المرجع، ص ٩٣-٩٦.

(٣) المقصود إنوسنت الرابع.

(٤) يقصد الكوارث التى حلت بالصليبيين الغربيين فى المشرق العربى.

(٥) يقصد البابا ورجال الدين.

المراجع

أولا ـ مجموعات الحروب الصليبية (1)

Les Archives de l'Orient Latin, publiées par la Société de l'Orient Latin. 2 vols. Paris, 1881 et 1884. (Textes, inventaires, et études originales).

Bongars, J., Gesta Dei per Francos, sive orientalium exped tionum et regni Francorum hierosolimitani historia (ab a. 1095 ad 1420) a variis, sed illius aevi scriptoribus, litteris. 2 t. Hanover, 1612.

Hagenmeyer, H. (Ed.), Die Kreuzzugsbriefe : Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes. Innsbrück, 1901.

Palestine Pilgrims' Text Society, 13 vols. London, 1887-1897.

Recueil des Historiens des Croisades, publié par les soins de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, in 16 huge folio vols. Paris, 1841-1906 :

I. Historiens Occidentaux, 5 tomes (1844-1895);
II. Historiens Orientaux (Arabes), 5 tomes (1872-1906);
III. Historiens Grecs, 2 tomes (1875-1881);
IV. Documents Armeniens, 2 tomes (1869-1906);
V. Lois, 2 tomes (1841-1843).

---

(١) اقتصرنا هنا على ذكر المجموعات التي رجعنا إليها فقط. وقد رمزنا إلى مجموعة أرشيف شرق اللاتيني بالحروف التالية (A.O.L.) ، كما رمزنا إلى مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) بـ (R.H.C.-H.Occ.)، والمؤرخون الشرقيون بـ (R.H.C.-H.Or.) والوثائق الأرمينية بـ (R.H.C.-Doc. Arm.) .

ثانياً ـ المصادر الأصلية

(ا) المصادر العربية [1]

ابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠ هـ / بو الحسن على بن أبى الكرم الملقب عز الدين :

« تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل » أنظر :

R.H.C. - H. Or., t. II, 2e partie. Paris, 1866 (pp. 5-375).

ابن ايبك (ت ٧٣٢ هـ / ١٢٣١ م) أبو بكر بن عبد الله :

كنز الدرر وجامع الغرر ـ ٩ جـ ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ـ رقم ٤٦٤٣ تاريخ .

ابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى :

رحلة ابن جبير ـ تحقيق الدكتور حسين نصار ـ القاهرة ١٩٥٥ .

ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى :

نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام ـ الموجود منه قطعتان : إحداهما فى مجلد مأخوذة بالتصوير الشمسى وتبتدىء من ٦٢٨ هـ وتنتهى إلى ٦٥٩ هـ ، والثانية فى مجلد مخطوط تبتدىء من ٧٧٨ هـ وتنتهى إلى ٨٠٤ هـ ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٧٤٠ تاريخ .

ابن الشحنة (ت ٧٩٠ هـ / ١٤٨٥ م) أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبى :

الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ـ بيروت ١٩٠٩ .

---

(١) أشرنا فى حواشى البحث إلى المخطوط بـ (لوحة) ، والمطبوع بـ (ص) .

ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ/١٢٦٢م) كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله :
منتخبات من تاريخ حلب ـ أنظر: R.H.C. - H.Or., III, Paris, 1884 (pp. 571—690).

ابن العماد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م) أبو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد :
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ ٨ جـ ـ القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥١ هـ .

ابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة بن أسد بن على بن محمد :
تاريخ أبى يعلى حمزة ابن القلانسى ، المعروف بذيل تاريخ دمشق ـ بيروت ١٩٠٨ .

ابن كثير القرشى (ت ٧٧٤ هـ /١٣٧٣م) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ابن عمر :
البداية والنهاية فى التاريخ ـ ١٤ جـ ـ القاهرة ١٣٥١ - ١٣٥٨ هـ .

ابن منقذ (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) مؤيد الدين أبو المظفر أسامة بن مرشد الكنانى :

كتاب الاعتبار ـ اعتنى بتصحيحه هرتويع ودتبرغ ـ ليدن ١٨٨٤ .

ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم :

١ ـــ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ـ ويعرف أيضا بتاريخ الواصلين فى أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين ـ مجلدان مأخوذان بالتصوير الشمسى بالمكتبة العامة لجامعة الاسكندرية ـ رقم ٦٤ مخطوط .

٢ ـــ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ـ نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ـ ظهر منه للآن ثلاثة أجزاء ـ القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠ م .

ابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر عمر بن محمد :

تتمة المختصر فى أخبـار البشر ـ ويعرف بتاريخ ابن الوردى ـ ٢ ج ـ القاهرة ١٨٦٨ .

أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان :
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ـ جزءان فى مجلد ـ القاهرة ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ .

أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) الملك عماد الدين أبو الفداء اسماعيل :
١ ـــ المختصر فى أخبار البشر ـ ويعرف بتاريخ أبى الفداء ـ ٤ ج ـ استانة ١٢٨٦ هـ .
٢ ـــ تقويم البلدان ـ نشره رينو وديسلان ـ باريس ١٨٤٠ .

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى :
١ ـــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ ١٢ ج ـ القـــاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٦ .
٢ ـــ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ـ ٣ ج ـ مخطوط بدار الكتب المصرية ـ رقم ٢٣٥٥ تاريخ .

أبو اليمن العليمى (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢١ م) أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد:
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ ٢ ج ـ القاهرة ١٢٨٣ هـ .

السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين :
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ـ ٢ ج ـ القاهرة ١٣٢٧ هـ .

العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) بدر الدين أبو محمد محمود بن احمد بن موسى :
١ ـــ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ـ ٢٣ جزءاً فى ٦٩ مجلداً ـ دار الكتب المصرية ـ تصوير شمسى ـ رقم ١٥٨٤ تاريخ .

٢ ــ منتخبات من عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان - أنظر :
R.H.C. - A. Or., II, Ire partie. Paris, 1887 (pp. 181-250).

القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) احمد بن على بن أحمد عبد الله :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا - ١٤ جـ - القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠ .

الكتبى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) محمد بن شاكر بن احمد بن عبد الرحمن :
فوات الوفيات - ٢ جـ فى مجلد واحد - القاهرة ١٢٩٩ هـ .

المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) تقى الدين أبو العباس احمد :
١ ــ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار - ٢ جـ - القاهرة ١٢٧٠ هـ .
٢ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك - الجزءان الأول والثانى إلى سنة ٧٥٥ هـ - نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ .
٣ ــ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٨ .

النويرى الكندى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ابن محمد :
نهاية الأرب فى فنون الأدب - ٥٥ مجلدا - تصوير شمسى - دار الكتب المصرية - رقم ٥٤٩ معارف عامة .

(ب) المصادر الافرنجية

Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana. Ed. R.H.C.-H.Occ., IV. Paris, 1879. (pp. 265-713).

Alexius Comnenus,

1 — Alexii Comneni ad Robertum I, Flandriae comitem, Epistola. Ed. R-H.C.-H. Occ., IV. Paris, 1879. (pp. 131-132).

2 — Epistola Alexii I Komneni imperatoris ad Robertum I comitem Flandrensem. Ed. Hagenmeyr, Epistolae et chartae, (pp. 129-136).

Ambroise, The Crusade of Richard Lion-Heart. Tr. from the old French by M.J. Hubert. New York, 1941.

Anna Comnena, The Alexiad. An English trans. by Elizabeth A. S. Dawes. London, 1928.

Anonymous, Historia Belli Sacri. Ed. R.H.C.-H.Occ., III, Paris, 1866. (pp. 165-168).

Baudri de Bourgueil, Historia Jorosolimitana. Ed. R.H.C. - H. Occ., IV. Paris, 1879. (pp. 1-111).

Burchard of Mount Sion, A Description of the Holy Land (A. D. 1280). Tr. from the original latin by A. Stewart. London, 1896. Cf. Palestine Pilgrims' Text Society, XII, pp. 1-136.

Caffaro de Caschifelone, De Liberatione Civitatum Orientis Liber, ed. R.H.C.-H. Occ., Vol. V, pt. I.

Downs, N. (Ed.), Basic Documents in Medieval History. New York, 1959.

Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer, ed. R.H.C.-H. Occ., t. II, Paris, 1859. (pp. 1-181).

Etienne de Blois,

1 — Stephani, Comitis Carnotensis ad Adelem, uxorem suam, Epistola. Ed. R.H.C.-H.Occ., III. (pp. 885-887).

2 — Epistola I Stephani comitis Carnotensis ed Adelem, uxorem suam. Ed. Hagenmeyer, Epistolae et chartae, (pp. 138-140).

Foucher de Chartres, Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium (ab anno 1095 usque ad annum 1127). Ed. R.H.C-H. Occ., III. (pp. 311—485).

Grégoire le Prêtre, Chronique de Grégoire le Prêtre. Ed. R.H. C.—Doc. Arm., I (pp. 151—201).

Guibert de Nogent, Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos. Ed. R.H.C.—H.Occ., IV. (pp. 113—263).

Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum. Ed. R.H.C.—H.Occ., I, 1re. partie (pp. 1—702); I, IIe partie (pp. 703—1134). Paris, 1844.

Hagenmeyer, H. (Ed.), Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum. Heidelberg, 1890.

Joinville, J. de,

1 — Histoire de Saint Louis. Texte original du XIVe Siècle, accompagné d'une traduction en Français moderne par M. Natalis de Wailly. Paris, 1874.

2 — Memoirs of Louis IX, King of France. An English Translation by Johnes of Hafod, ed. Chronicles of the Crusades, Bohn's ed., London, 1848 (pp. 341-556).

3 — Saint Louis, King of France, tr. into English by James Hutton, London, 1868.

Matthieu d'Edesse, Extraits de la chronique de Matthieu d'Edesse. Ed. R.H.C.-Doc. Arm., I, Paris,1869. (pp.1-150).

Matthew Paris, Matthew Paris' English History from the year 1235 to 1273. Tr. from the Latin by J. A. Giles. 2 vols. London. 1852-3.

Matthew of Westminster, The Flowers of History. Tr. from the original by C.D. Yonge, from A.D. 1066 to 1307. 2 vols. London, 1853.

Michel le Syrien, Extrait de la chronique de Michel le Syrien. Ed. R.H.C.-Doc. Arm., I. (pp. 309-409).

Raimond d'Agiles, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem. Ed. R.H.C.—H.Occ., III. (pp. 231—309).

Raoul de Caen, Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana. Ed. R.H.C.—H.Occ., III. (pp. 587—716).

Robert le Moine, Historia Iherosolimitana. Ed. R.H.C—H. Occ., III. (pp. 717—882).

Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin (1229—1261). Ed. R.H.C.—H.Occ., II. Paris, 1859. (pp. 489—639).

Tudebodus, P., Historia de Hierosolymitano itinere. Ed. R.H. C.—H.Occ., III. (pp. 3—117).

Tudebodus abbreviatus, Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum. Ed. R.H.C.—H.Occ., III. (pp. 119—163).

Vincent de Beauvais, Selecta e speculo Historiali Vincentii Bellovacensis. Ed. Bouquet, Recueil des Historiens des Gaules et de la France, XXI. (pp. 71—75).

ثالثاً ـ المراجع الحديثة

(ا) المراجع العربية

ابراهيم احمد العدوى (الدكتور) : الأمويون والبيزنطيون ـ البحر المتوسط بحيرة اسلامية ـ القاهرة ١٩٦٣ .

ابراهيم جمعه (الدكتور) : ايديولوجية القومية العربية ـ القاهرة ١٩٦٠ .

ابراهيم على طرخان (الدكتور) : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ـ القاهرة ١٩٥٩ .

احمد فكرى (الدكتور) :

١ ـ مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ـ القاهرة ١٩٦١ .

٢ ـ مساجد القاهرة ومدارسها ـ ج ١ (العصر الفاطمى) القاهرة ١٩٦٥ .

جمال عبد الناصر (الرئيس) :

١ ـ فلسفة الثورة (الطبعة التاسعة) ـ القاهرة .

٢ ـ خطب وتصريحات الرئيس جمال عبد الناصر (١٩٥٢ - ١٩٥٩) ـ ١١ ج (مجموعة اخترنا لك) .

٣ ـ مشروع الميثاق الوطنى (٢١ مايو ١٩٦٢) .

جمال الدين الشيال (الدكتور) :

١ ـ مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا ـ الاسكندرية ١٩٤٩ .

٢ ـ « وحدة مصر وسورية فى العصر الاسلامى » ـ المحاضرة الثانية من المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية فى العام الجامعى ٥٧/١٩٥٨ ـ الاسكندرية ١٩٥٨ .

٣ ـ مجموعة الوثائق الفاطمية ـ الجزء الأول (وثائق الخلافة والوزارة) ـ ط. ثانية ـ الاسكندرية ١٩٦٥ .

٤ — تاريخ مصر الإسلامية ـ جزءان ـ الاسكندرية ١٩٦٧ .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

١ — لويس التاسع فى الشرق الأوسط ـ قضية فلسطين فى عصر الحروب الصليبية ـ القاهرة ١٩٥٩ .

٢ — هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل ـ القاهرة ١٩٦٠ .

٣ — « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » ـ مجلة كلية الآداب باسكندرية ـ المجلد السادس عشر (١٩٦٢-١٩٦٣) ـ الأسكندرية ١٩٦٣ (ص ١٨٣ - ٢١١) .

٤ — الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبى ـ الاسكندرية ١٩٦٧ .

٥ — « الصهيونية فى فلسطين إمتداد طبيعى للاستعمار الصليبى » ـ مجلة العهد الجديد ـ العدد ١١٤٥ ـ مايو ١٩٦٧ .

٦ — « العدوان الغربى الاستعمارى على العالم العربى قديما وحديثا ـ قاسم مشترك أعظم » ـ مجلة العهد الجديد ـ العدد ١١٥٤ ـ سبتمبر ١٩٦٧ .

حسن حبشى (الدكتور) :

١ — الحرب الصليبية الأولى ـ القاهرة (الطبعة الأولى) ١٩٤٧ .

٢ — نور الدين والصليبيون ـ القاهرة ١٩٤٨ .

٣ — الشرق العربى بين شقى الرحى ـ القاهرة ١٩٤٩ .

زكى محمد حسن (الدكتور) : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٤٥ .

زكى النقاش (الدكتور) : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج ـ بيروت ١٩٥٨ .

ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ـ بيروت ١٩٥٩ .

سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) : العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور يوسف بن عبد المؤمن الموحدى ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ـ المجلدان السادس والسابع (١٩٥٢ - ١٩٥٣) ص ٨٤ - ١٠٠ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) :

١ ـ قبرس والحروب الصليبية ـ القاهرة ١٩٥٧ .

٢ ـ أوربا العصور الوسطى ـ الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٥٨ .

٣ ـ مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ـ القاهرة ١٩٥٩ .

السيد الباز العرينى (الدكتور) :

١ ـ مصر فى عهد الأيوبيين ـ القاهرة ١٩٦٠ .

٢ ـ الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١ م) ـ القاهرة ١٩٦٠ .

٣ ـ مؤرخو الحروب الصليبية ـ القاهرة ١٩٦٢ .

السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) :

١ ـ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس منذ الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ـ بيروت ١٩٦٣ .

٢ ـ المغرب الكبير ـ الجزء الثانى (العصر الاسلامى) ـ الاسكندرية ١٩٦٦ .

٣ ـ طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ـ الاسكندرية ١٩٦٧ .

سيدة اسماعيل كاشف (الدكتورة) :

١ ـ مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث فيه ـ القاهرة ١٩٦٠ .

٢ ـ مصر فى عهد الولاة من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ـ القاهرة (بدون تاريخ) .

عارف باشا العارف : تاريخ القدس ـ القاهرة ١٩٥١ .

عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ـ جمع مادته احمد ابراهيم الشريف، وراجعه الدكتور مختار العبادى ـ القاهرة ١٩٥٨ .

عبد الرحمن زكى (الدكتور العقيد) : معركة المنصورة وأثرها فى الحروب الصليبية ـ القاهرة ١٩٦٠ .

عبد المنعم ماجد (الدكتور) :

١ ـ مقدمة لدراسة التاريخ الاسلامى ـ تعريف بمصادر التاريخ الاسلامى ومنهاجه الحديث ـ ط. ثانية ـ القاهرة ١٩٦٤ .

٢ ـ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ـ بيروت ١٩٦٦ .

عبد النعيم حسنين (الدكتور) : سلاجقة إيران والعراق ـ القاهرة ١٩٥٩ . [المكتبة التاريخية ـ العدد السابع] .

عزيز سوريال عطية (الدكتور) : نقد مؤلفات جروسيه عن الحرب الصليبية وعن فلسفة التاريخ ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الأول ـ (ص ٣١٢ ـ ٣٢٢) ـ القاهرة ١٩٤٨ .

على حسنى الخربوطلى (الدكتور) :

١ ـ محمد والقومية العربية ـ القاهرة ١٩٥٩ .

٢ ـ القومية العربية من الفجر إلى الظهر ـ القاهرة (بدون تاريخ) .

على عبد الواحد وافى (الدكتور) : عبد الرحمن بن خلدون ـ القاهرة ١٩٦٢ .

عمر كمال توفيق (الدكتور) :

١ ـ مملكة بيت المقدس الصليبية ـ الاسكندرية ١٩٥٨ .

٢ — الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة (٩٦٣ - ٩٦٩) - الاسكندرية ١٩٥٩ .
٣ — مقدمات العدوان الصليبي - الامبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية - الاسكندرية ١٩٦٦ .
٤ — تاريخ الامبراطورية البيزنطية - الاسكندرية ١٩٦٧ .

لطفى عبد الوهاب يحيى (الدكتور) : الكيان العربى بين المقومات والإمكانيات - بيروت ١٩٦٥ .

محمد أبو زهرة (الشيخ) : نظرية الحرب فى الاسلام - القاهرة ١٩٦١ .

محمد جمال الدين سرور (الدكتور) : مصر فى عصر الدولة الفاطمية - القاهرة ١٩٦٠ .

محمد شديد : الجهاد فى الاسلام - القاهرة (بدون تاريخ) .

محمد عبد الله عنان :

١ — مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية - القاهرة ١٩٣١ .
٢ — تراجم اسلامية شرقية وأندلسية - القاهرة ١٩٤٧ .

محمد عبد الغنى حسن :

١ — صراع العرب خلال العصور - القاهرة (بدون تاريخ) .
٢ — علم التاريخ عند العرب - القاهرة ١٩٦١ .

محمد عبد المعز نصر (الدكتور) : الصهيونية فى المجال الدولى - القاهرة (بدون تاريخ) .

محمد على علوبة : فلسطين وجاراتها ، أسباب ونتائج - القاهرة ١٩٥٤ .

محمد فوزى (لواء أ. ح.) ومحمود حافظ : القومية العربية حقيقة وهدف - القاهرة (بدون تاريخ) .

محمد مصطفى زيادة (الدكتور) :

١ ــ المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ـ القاهرة ١٩٥٤.

٢ ــ حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ـ القاهرة ١٩٦١.

مصطفى الشكعة (الدكتور) : سيف الدولة الحمدانى ـ القاهرة ١٩٥٩ [المكتبة التاريخية ـ العدد الثامن] .

نظير حسان سعداوى (الدكتور) :

١ ــ ثلاثة من مؤرخى الحروب الصليبية ـ القاهرة ١٩٥٧ .

٢ ــ الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ـ القاهرة ١٩٦١ .

(ب) المراجع المعربة

أرنولد (توماس) : تراث الاسلام ـ أشرف على نشره سيرتوماس أرنولد ، وقام بتعريبه الدكتور حسين مؤنس وآخرون ـ جزءان ـ القاهرة ١٩٣٦ .

أومان : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر ـ القاهرة ١٩٥٣ .

باركر (إرنست) : الحروب الصليبية ـ ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ـ القاهرة ١٩٦٠ .

بروفنسال (ليفى) : الاسلام فى المغرب والأندلس ـ ترجمة الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى ، ومراجعة الدكتور لطفى عبد البديع ـ القاهرة ١٩٥٦ .

بور (ايلين) : نماذج بشرية من العصور الوسطى ـ ترجمة محمد توفيق حسين ـ بيروت ١٩٥٧ .

جولين (جاك) : مع القومية العربية ـ تعريب نجدة هاجر وسعيد الغز ـ بيروت ١٩٥٩ .

بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود يونس زايد ـ القاهرة ١٩٥٠ .

تشارلزوورث (م. ب.) : الامبراطورية الرومانية ـ ترجمة رمزى عبده جرجس، ومراجعة الدكتور محمد صقر خفاجه ـ القاهرة ١٩٦١ .

توينبي (أرنولد) :

١ ـ مختصر دراسة للتاريخ ـ جزءان ـ ترجمة الاستاذ فؤاد محمد شبل ـ القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦١ .

٢ ـ الحضارة فى الميزان ـ ترجمة أمين محمود الشريف ـ القاهرة (بدون تاريخ) .

جرونيباوم (جوستاف فون) : حضارة الاسلام ـ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـ القاهرة ١٩٥٦ .

ديفز (هـ. و. كارلس) :

١ ـ أوربا فى العصور الوسطى ـ ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ـ الاسكندرية ١٩٥٨ .

٢ ـ شارلمان ـ ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ـ القاهرة ١٩٥٩ .

ديل (شارل) : البندقية جمهورية أرستقراطية ـ ترجمة الدكتور احمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ـ القاهرة ١٩٤٨ .

رنسيمان (ستيفن) : الحضارة البيزنطية ـ ترجمة الاستاذ عبد العزيز جاويد ، ومراجعة الأستاذ زكى على ـ القاهرة ١٩٦١ .

فشر (هـ. ا. ل.) : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ـ جزءان ـ ترجمة الدكتور

محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى والدكتور ابراهيم احمد العدوى ـ القاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٤ .

كلادى (ر.) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ـ ترجمة وتقديم د. حسن حبشى ـ القاهرة ١٩٦٤ .

كوبلاند (ج. و.) وفينوجرادوف (ب.) : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا ـ ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة ١٩٤٨ .

كولتون (ج. ج.) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ـ ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف ـ ط. ثانية ـ الاسكندرية ١٩٦٧ .

كولنجوود (ر. ج.) : فكرة التاريخ ـ ترجمة الاستاذ محمد بكير خليل ـ القاهرة ١٩٥٨ .

لانجر (وليم) : موسوعة تاريخ العالم ـ ٣ جـ ـ أشرف على الترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة ١٩٥٩ و ١٩٦٢ .

هارتمان (ل. م.) وباراكلاف (ج.) : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ـ ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف ـ الاسكندرية ١٩٦٦ .

(جـ) المراجع الافرنجية

Arnold, T. & Guillaume, A. (Eds.), The Legacy of Islam. London, 1952.

Atiya, A.S.,

1 — The Crusade of Nicopolis. London, 1934.

2 — The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938.

3 — Crusade, Commerce and Culture. Bloomington, 1962.

4 — The Crusade : Historiography and Bibliography. Bloomington, 1962.

Atiyah, E., The Arabs. Edinburgh, 1958. (Penguin Books).

Bailly, A., Byzance. Paris, 1939.

Baldwin, M. W., The Mediaeval Church. New York, 1960.

Barker, E. (tr.), Social and Political Thought in Byzantium from Justinian I to the Late Palaeologus. Oxford, 1957.

Barrow, R.H., The Romans. London, 1955. (Penguin Books).

Baynes, N. & Moss, H. (Eds.), Byzantium. Oxford, 1953.

Berger, E., Saint Louis et Innocent IV — Etude sur les Rapports de la France et du Saint-Siège. Paris, 1893.

Bloy, L., Constantinople et Byzance. Paris, 1917.

Bray, A.E., The Good Saint Louis and His Times. London, 1870.

Cahen, C., La Syrie du Nord a l'époque des Croisades et la Principauté Franque d'Antioche. Paris, 1940.

Campbell, G. A., The Crusades. London, 1935.

Cantor, N.F. (ed.), The Medieval World : 300 - 1300. New York, 1963.

Chalandon, F.,

1 — Essai sur le Règne d'Alexis 1er Comnène. Paris, 1900.

2 — Histoire de la Première Croisade jusqu'à l'election de Godefroi de Bouillon. Paris, 1925.

3 — Les Comnènes. Tome II. Paris, 1908.

Coulton, G. G.,

1 — The Inquisition. London, 1929.

2 — Medieval Panorama. New York, 1955.

3 — Medieval Village, Manor, and Monastery. New York, 1960.

4 — Medieval Scene. Cambridge, 1961.

Daniel-Rops, L'Eglise de la Cathédrale et de la Croisade. Paris, 1952.

Davis, E. J., The Invasion of Egypt in A.D. 1249 (A.H. 647) by Louis IX of France (St. Louis). London, 1897.

Diehl, Ch.,

1 — Byzance — Grandeur et Décadence. Paris, 1919.

2 — Histoire de l'Empire Byzantin. Paris, 1920.

3 — Figures Byzantines (Deuxième Série). Paris, 1921.

4 — L'Europe Orientale de 1801-1453. (Moyen Age, t. IX) Paris, 1945.

Gibb, H. A. R., Mohammedanism. London, 1957.

Grousset, R.,

1 — L'Epopée des Croisades. Paris, 1947.

2 — Histoire des Croisades. 3 vols. Paris, 1948.

3 — L'Empire du Levant: Histoire de la Question d'Orient. Paris, 1949.

4 — The Sum of History. English version by A. & H. Temple Patterson. Oxford, 1951.

Halphen, L., L'Essor de l'Europe (XIe - XIIIe Siècles). Paris, 1941. Cf. Peuples et Civilisation, Vol. VI.

Haskins, C. H., The Normans in European History. New York, 1959.

Heer, F.,The Medieval World (Europe from 1100 to 1350).Trans. from the German by J. Sondheimer. London, 1692.

Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au moyen-âge. Ed. Française refondue et considérablement augmentée par l'auteur, publiée sous le patronage de la Société de l'Orient Latin par F. Raynaud. 2 vols. Leipzig, 1885-1886.

Hitti, P. K.,

1 — History of Syria. London, 1951.
2 — History of the Arabs from the Earliest Times to the Present. London, 1964.

Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages. London, 1955. (Penguin Books).

Hussey, J. M., The Byzantine World. London, 1957.

Jones, A. M. H., Constantine and the Conversion of Europe. London, 1961.

Katz,S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1960

Ker, W. P., The Dark Ages. London, 1955.

King, E. J., The Knights Hospitallers in the Holy Land. London, 1931.

Lacroix, P.,

1 — Vie militaire et religieuse au moyen âge et a l'époque de la renaissance. Paris, 1873.

2 — La chevalerie et les croisades. Féodalité, Blason, Ordres Militaires. Paris, 1887.

La Monte, J. L., The World of the Middle Ages. New York, 1949.

Lane-Poole, St.,

1 — A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1936.

2 — The Story of Cairo. London, 1924.

Lewis, B., The Arabs in History. London, 1958.

Ludlow, J. M., The Age of the Crusades. Edinburgh, 1897.

Mahmud, S. F., The Story of Islam. Karachi, 1959.

Masson, G., Mediaeval France, from the reign of Hugues Capet to the beginning of the sixteenth century. London, 1888.

McKisack, M., The Fourteenth Century (1307-1399). Oxford, 1959.

Michaud, M., Bibliographie des Croisades. 2 tomes. Paris, 1822.

Michelet, M., The History of France. Tr. by W. K. Kelly. 2 vols. London, 1844-6.

Molinier, A., Les Sources de l'Histoire de France des Origines aux Guerres d'Italie (1494)- Cf. T. II : Epoque Féodale, Les Capétiens jusqu'en 1180. Paris, 1902.

Oldenbourg, Z., Les Croisades. Mayenne (éd. Gallimard) 1965.

Oman, C.W.C.,

1 — A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols. London, 1924.

2 — The Art of War in the Middle Ages (A.D. 378-1515). New York, 1960.

Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Tr. by J. Hussey. Oxford, 1956.

Painter, S., A History of the Middle Ages : 284-1500. London, 1966.

Paris, G., Mediaeval French Literature. Tr. from the French by H. Lynch. London, 1903.

Pirenne, H.,

1 — Medieval Cities. Tr. from the French by F.D. Halsey. Princeton, 1948.

2 — Economic and Social History of Medieval Europe. Trans. from the French by I.E. Clegg. London, 1961.

Rey, E., Les Colonies franques de Syrie aux XIIme et XIIIme sièclee, Paris, 1883.

Riant, P., Inventaire critique des lettres historiques des Croisades. Cf. A.O.L., I, pp. 1-224. Paris, 1881.

Rosenthal, E. I. J., Political Thought in Medieval Islam. Cambridge, 1958.

Runciman, S.,

1 — Byzantine Civilisation. London, 1948.

2 — A History of the Crusades. 3 vols. Cambridge, 1954-55.

Schlumberger, G., Recits de Byzance et des Croisades. Paris, 1917.

Setton, K. M. (Ed.), A History of the Crusades — Vol I : The First Hundred Years. Ed. by M. W. Baldwin. Philadelphia, 1958.

Stanley, A. P., Lectures on the History of the Eastern Church. London, 1924.

Stephenson, C., Mediaeval Feudalism. New York, 1942.

Stevenson, W. B., The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire. New York, 1960.

Thomson, D., World History from 1914 to 1950. London, 1958.

Throop, P. A., Criticism of the Crusade : A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda. Amsterdam, 1940.

Trevelyan, G. M., A Shortened History of England. Aylesbury, 1960. (Penguin Books).

Turberville, A. S., Mediaeval Heresy and the Inquisition. London, 1920.

Vasiliev, A.A., Histoire de l'Empire Byzantin. Traduit du Russe par P. Brodin et A. Bourguina, préface de Ch. Diehl. 2 vols. Paris, 1932.

Waugh, W. T., A History of Europe from 1378 to 1494. London, 1932.

فهـرس عام

(ا)

(ب)

(ح)

(ذ)

(ر)

(س)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ك)

(ل)

محتويات الكتاب

بيان الخرائط واللوحات

الخـــرائط

اللوحـــات

صفحة

(٣) بيت المقدس من جبل الزيتون . ٢٦٢

والصورة مأخوذة من كتاب : Runciman, Hist. of the Crusades, II, facing p. 10.

(٤) استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . ٢٦٤

وتوجد هذه الصورة فى المخطوط المشار إليه فى اللوحة رقم ٢ وهى مأخوذة نقلا عن :

Grousset, L'Epopée des Croisades, facing p. 48.

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١	١٨	Bangars	Bongars
٥٦	٤	المؤخينر	المؤرخين
٥٧	١٣	الغربى	الغرب
١٣٣	٥	الااطورمبر	الامبراطور
١٤٩	٢٤	Graudeur	Grandeur
١٥١	١٤	أسواء	أسوأ
٢٠٢	٢	جارله	رجاله
٢٨٢	١٥	ويسقر	ويستقر
٢٩٣	٢	الأوروبين	الأوروبيين
٢٩٨	٢	المررخ	المؤرخ
٣٠٠	٢٣	Oldenburg	Oldenbourg
٣٠٢	٢٢	Oldenbonrg	Oldenbourg
٣١٩	١٧	إذا ما لم	إذا لم
٣٢٥	٢	وطلب	وطالب
٣٤٧	٧	ed	ad
٣٥٩	٨	London, 1692	London, 1962
٣٦١	١٣	sièclee	siècles

مطابع الشامي